فقه اللغة

أطراه مجمع فؤاد الأول للغة العربية

وتقرر تدريسه بجامعة فؤاد الأول

إلى الزميل الفاضل
الأستاذ الدكتور [illegible]
مع خالص التحية
وعظيم التقدير
ع عبد الواحد

تأليف

الدكتور علي عبد الواحد وافي

دكتور في الآداب من جامعة باريس

أستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الثالثة — مزيدة ومنقحة

١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م

الناشر

لجنة البيان العربي

مطبعة لجنة البيان العربي

من مؤلفات الدكتور على عبد الواحد وافى

١ — نظرية اجتماعية فى الرق

٢ — الفرق بين رق الرجل ورق المرأة

طبعا باللغة الفرنسية ، وحصل بهما المؤلف على شهادة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى من كلية الآداب بجامعة باريس

٣ — علم اللغة (الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة)

٤ — فقه اللغة (الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة)

أطراهما مجمع فؤاد الأول للغة العربية وتقرر تدريسهما بجامعة فؤاد الأول

٥ — الأسرة والمجتمع (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة)

٦ — المسئولية والجزاء (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة)

٧ — اللغة والمجتمع

صدرت هذه الكتب الثلاثة فى مؤلفات « الجمعية الفلسفية المصرية » وتقرر تدريسها بجامعة فؤاد الأول

٨ — الوراثة والبيئة (تقرر تدريسه بجامعة فؤاد الأول)

٩ — نشأة اللغة عند الإنسان والطفل (تقرر تدريسه بجامعة فؤاد الأول)

١٠ — فى التربية (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة)

تقرر تدريسه بدار العلوم العليا

١١ — البطالة ووسائل علاجها

نال جائزة المباراة الأدبية لسنة ١٩٣٥

١٢ — الاقتصاد السياسى (الطبعة الرابعة ، مزيدة ومنقحة)

١٣ — اللعب والعمل

١٤ — مواد الدراسة

١٥ — رغبات المؤتمر الدولى الخامس للتربية العائلية (ترجمة عن الفرنسية وتعليقات ، بتكليف خاص من وزارة المعارف)

إطراء مجمع فؤاد الأول للغة العربية
لكتابى « فقه اللغة » و « علم اللغة »

مجمع فؤاد الأول للغة العربية فى ١٨ / ٦ / ٤٥

حضرة الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

عرض على لجنة الأدب فى المجمع كتابكم « علم اللغة » وصنوه « فقه اللغة » . وقد حمدت لكم اللجنة ما بذلتم من جهد فى البحث والدرس والاستخلاص . فقد حوى هذان الكتابان من مختلف مسائل اللغة وعالجا من مشكلاتها ما تمس إليه حاجة الباحث المتطلع . وقد انتهجتم فى التأليف طريقة علمية حقيقة بالتقدير ، و بسطتم من المعلومات ما يدل على غزارة مادة وحسن إحاطة ، وكان لما أيدتم أو فندتم من وجهات النظر المتباينة مظهر من استقلال الرأى .

و إننا إذ نشكر لكم هذا المجهود فى التأليف ، نرجو لكم المزيد من التوفيق .

وتقبلوا أطيب تحياتى ؟

١٨ / ٦ / ٤٥

رئيس المجمع

(إمضاء) **أحمد لطفى السيد**

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان .

و بعد : فقد عرضنا فى كتابنا « علم اللغة » لدراسة النواميس العامة التى تسير عليها اللغات الإنسانية فى نشأتها ، وانتقالها من السلف إلى الخلف ، وانشعاب الأصل الواحد منها إلى شعب وفروع ، وتكون مجموعاتها وفصائلها ، وصراعها بعضها مع بعض ، وتطورها من مختلف الوجوه .

وسندرس فى هذا الكتاب — على ضوء الحقائق العامة التى كشفنا عنها فى كتابنا السابق — فصيلة خاصة من فصائل اللغات الإنسانية ، وهى فصيلة « اللغات الساميَّة » ، مفصلين بعض التفصيل فى لغة منها ، وهى اللغة العربية ، ومجملين القول فيما عداها .

فمؤلفنا هذا فى منزلة الجزء الثانى من كتابنا « علم اللغة » ؛ غير أننا آثرنا أن نطلق عليه اسماً خاصاً شاع استعماله فى المَوضوعات التى يعرض لها ، وخاصة ما يتعلق منها باللغة العربية .

والله نسأل أن يوفقنا إلى الخير والسداد ، ويهيىء لنا من أمرنا رشداً ؟

على عبد الواحد وافى

تمهيد

فى الشعوب السامية ولغاتها

١ — الشعوب السامية :

يطلق الآن لقب الساميين على الشعوب الآرامية والفينيقية والعبرية والعربية واليمنية والبابلية — الأشورية وما انحدر من هذه الشعوب .

وأول من استخدم هذا الوصف فى إطلاقه على الشعوب السابقة العالم الألمانى شلوتزر Schlözer فى أواخر القرن الثامن عشر . وقد اقتبسه مما ورد فى سفر التكوين بصدد أولاد نوح الثلاثة (سام وحام ويافث) والشعوب التى انحدرت من كل ولد منهم . فقد ذكر هذا السفر أن أولاد سام هم عيلام وآشور وأرفكشاد ولود وآرام ، وأنه قد ولد لأرفكشاد شيلاش ولشيلاش عابر أبو العبريين ... الخ .

غير أنه يلاحظ أن سفر التكوين قد اعتمد فى تقسيمه هذا على الروابط السياسية والثقافية والجغرافية أكثر من اعتماده على صلات القرابة والروابط الشعبية. ولذلك عد الليديين Lydiens والعيلاميين Elyméens من الساميين ، لشدة امتزاجهم بالأشوريين وخضوعهم لسلطانهم السياسى ، مع أنهما من الناحية الشعبية أجنبيان عن الشعوب السامية وأجنبيان أحدهما عن الآخر . فالعيلاميون يغلب على الظن أنهم من جنس إيرانى ؛ والليديون غير معروفى الأصل ، ولكن من المقطوع به أنهم غير ساميين وأنه لا يجمعهم بالعيلاميين أصل قريب . وعلى هذا الأساس أيضاً اعتبر السفر السابق الفينيقيين من الشعوب الحامية لتعدد الصلات السياسية والثقافية التى كانت تربطهم بالشعوب الحامية المصرية والبربرية، ولما كان بينهم وبين العبريين من عداء وحروب ، ولاختلافهم عنهم فى النظم الاجتماعية وشئون السياسية والدين ؛ مع أنهم من أخلص الساميين نسباً وأقربهم رحماً إلى العبريين أنفسهم .

ومع ذلك لم يجد العلماء غضاضة فى اقتباس كلمة الساميين عن هذا السفر ، ولكنهم لم يجاروه فى استخدامها بل أخرجوا من نطاقها القديم جميع الشعوب التى ظهر لهم أنها أجنبية عن الساميين ، وأضافوا إليه الشعوب السامية التى سكت عنها أو عدها من فصائل أخرى ، حتى استقر مدلولها فى عرفهم على الوجه الذى أشرنا إليه فى صدر هذه الفقرة .

٢ — اللغات السامية :

ويطلقون اسم اللغات السامية على لغات هذه الأمم وما تفرع منها وعلى بعض لغات أخرى ظهر لهم انتماؤها إلى الفصيلة نفسها التى تنتمى إليها هـذه اللغات . فمدلولها يشمل اللغات الأكادية (الأشورية — البابلية) والآرامية والكنعانية (الفينيقية والعبرية) والعربية واليمنية القديمة والحبشية (١) .

وأول من استخدم هذا الوصف فى إطلاقه على هذه اللغات العالمان الألمانيان شلوتزر Schlözer وايكهورن Eichhorn فى أواخر القرن الثامن عشر (٢) .

ولوضوح الشبه بين أفراد هذه الفصيلة فطن الباحثون منذ عصور سحيقة إلى صلات القرابة التى تربطها بعضها ببعض . فتشابه اللغتين العبرية والآرامية قد بلغ درجة لا تخفى معها قرابتهما حتى على أقل الناس إلماماً بهذه الشئون . ولذلك فطن كثير من قدامى الباحثين إلى انتمائهما إلى فصيلة واحدة . وتشابه اللغتين العبرية والعربية ، وإن لم يصل إلى الدرجة السابقة ، قد ظهر للباحثين منذ القرن العاشر الميلادى . فى هذا القرن أدرك كثير من علماء اليهود وجوه القرابة بين هاتين اللغتين . وفى القرن السابع عشر اهتدى العلماء ، على ضوء دراستهم للغة الكنيسة بالحبشة Langue liturgique des Abyssins ، إلى قرابة هـذه اللغة باللغة العربية . ولذلك يمكن القول إنه لم ينتصف القرن السابع عشر حتى تكونت لدى

---

(١) انظر صفحة ١٨٤ وتوابعها من كتابنا « علم اللغة » الطبعة الثالثة .

(٢) Renan : Histoire Générale des Langues Sémitiques p. 43 ; Brockelmann : Précis de Linguistique Sémitique (Traduction Française par Marçais et Cohen) p. 7.

المستشرقين فكرة واضحة عن صلات القرابة بين معظم أفراد الفصيلة السامية ؛ وذلك سابق كثيراً للعصر الذى اهتدى فيه بوب Bopp إلى صلات القرابة التى تربط اللغات الأوروبية بعضها ببعض والتى تربطها باللغات الهندية ـ الإيرانية[١].

وقد كملت هذه الفكرة وازدادت وضوحاً فى القرن التاسع عشر . ففى هذا القرن كشف العلماء الخط المسمارى Cunéiforme وحلّو الآثار الأشورية المدونة به ؛ كما كشفوا كثيراً من الوثائق المدونة باللغتين الفينيقية واليمنية القديمة . وعلى ضوء هذه الآثار ظهرت صلات القرابة الوثيقة بين هذه اللغات[٢] وبقية اللغات السامية . وبذلك كملت مجموعة اللغات السامية وحل كثير من المشاكل العلمية المتعلقة بنشأتها وتطورها وانشعابها بعضها من بعض ، وتكونت مادة غزيرة للبحث والموازنة . وفى هذا القرن عكف بعض العلماء على دراسة اللهجات العامية المتفرعة عن هذه اللغات ، فكان لدراستهم هذه أجل أثر فى نهضة هذه البحوث .

٣ — دراسة اللغات السامية :

وقد انقسمت دراسة اللغات السامية إلى وجهتين : إحداهما دراسة عامة فى تاريخ هذه اللغات ونشأتها وحياتها وتطورها . . . وما إلى ذلك ؛ وثانيتهما دراسة خاصة فى أصواتها وقواعدها ومفرداتها . . . وموازنتها من هذه النواحى بعضها ببعض .

وقد كتب فى كلتا الوجهتين عدد كبير من أعلام الباحثين . فمن أشهر من كتب فى الوجهة الأولى العلامة الفرنسى رينان Renan ، فقد ألف فى منتصف القرن التاسع عشر فى «التاريخ العام للغات السامية» كتاباً جليلا ، لولا ما فيه من

---

(١) انظر صفحتى ٤٩ ، ٥٠ من كتابنا « علم اللغة » ، الطبعة الثالثة .

(٢) لم تصلنا هذه اللغات الثلاث إلا عن طريق الوثائق المكتوبة ، لأنها كانت قد انقرضت من المحادثة فى الوقت الذى عكف فيه العلماء على دراسة هذا الموضوع .

تحامل على الساميين ومن آراء دلت البحوث والكشوف الحديثة على خطئها[١]؛ والعلامة الألمانى نولدكه Nöldeke الذى تدارك فى كتابه[٢] كثيراً من الأخطاء التى وقع فيها رينان. — ومن أشهر من كتب فى الوجهة الثانية الأساتذة رايت Wright[٣] وزيمرن Zimmern[٤]. ومن أشهر من كتب فى الوجهتين معاً العلامة الألمانى بروكلمان Brockelmann[٥].

٤ — انحدار الأمم الناطقة باللغات السامية من أصل واحد :

هذا وإن رجوع هذه اللغات جميعها إلى فصيلة واحدة ليحمل على الظن أن الأمم الناطقة بها ترجع كذلك إلى أصل واحد، وأنها قبل تفرقها كانت تؤلف وحدة شعبية. ولكن يحول دون قبول هذا الفرض أن اللغة لا تنتقل من السلف إلى الخلف فحسب، بل تنتقل أحياناً إلى شعب أجنبى عن شعبها إذا اشتبكت فى صراع مع لغته وكتب لها النصر، كما كان شأن اللغة اللاتينية فى الشعوب الكلتية واللغة السلافية فى شعوب البلغار[٦]. فمن المحتمل إذن أن يكون أحد هذه الشعوب أو بعضها غير سامى الأصل، وانتقل إليه اللسان السامى عن هذا الطريق. وقد دلت البحوث الحديثة على صحة هذا الاحتمال فيما يتعلق ببعض هذه الشعوب. فمن المقطوع به الآن أن معظم الجماعات الحبشية الناطقة بلهجات سامية منحدرة

---

(١) قصد العلامة رينان إلى دراسة الوجهين معاً ولذلك جعل عنوان كتابه : « التاريخ العام والقواعد المقارنة للغات السامية » Histoire générale et système comparé des Langues sémitiques ولكن لم يظهر من كتابه هذا إلا الجزء الأول الذى وقفه على التاريخ العام.

(٢) Th. Nöldeke : Die Semitischen Sprachen.

(٣) Wrigh : Lectures on the comparatative Grammar of the Semitic Languages, 1890,

(٤) Zimmern : Vergleichende Grammatik der semitischen Sprachen, 1898.

(٥) Brockelmann : Grundrissder vergleichen den Grammatik der Semitischen. Sprachen, 1903 ; Kurzgefasste vergleichende Grammatik, 1908 ; Semitisch Sprachwissenschaft 1906.

(٦) انظر الفصل الخاص بصراع اللغات فى كتاب « علم اللغة » للمؤلف، الطبعة الثالثة صفحات ٢٠٨ — ٢٢٥.

من أصول غير سامية ؛ وأن اللسان السامى قد انتقل إليها مع من نزح إلى بلادها من الساميين على أثر صراع انتصر فيه هذا اللسان على لغاتها القديمة . ومن المرجح أن كثيراً ممن كانوا يتكلمون الأكادية والعبرية والآرامية منحدرون كذلك من أصول غير سامية ، وأن اللسان السامى قد انتقل إليهم على أثر امتزاجهم بالساميين وخضوعهم لنفوذهم السياسى .

٥ — الموطن الأول للشعب السامى :

ولكن مما لا شك فيه أن الأمم السامية الأصلية التى انتشرت فى هذه المناطق ونشرت بها لغاتها ، كان لها فى الأصل موطن واحد . وقد اختلف العلماء اختلافاً كبيراً فى تعيين هذا الموطن ، وذهبوا فيه مذاهب شتى ، ولم يصلوا بعد بشأنه إلى رأى يقينى . ويرجع أهم ما قيل بهذا الصدد إلى ستة آراء :

١ — فبعضهم يذهب إلى أن الساميين قد نشئوا ببلاد الحبشة ، ومنها نزحوا إلى القسم الجنوبى ببلاد العرب عن طريق باب المندب ، ومن هذا القسم انتشروا فى مختلف أنحاء الجزيرة العربية .

وبعضهم يذهب إلى أن الموطن الأول للساميين كان شمال أفريقية ، ومنه نزحوا إلى آسيا عن طريق برزخ السويس .

وبعضهم يذهب إلى أن المهد الأول للساميين كان بلاد أرمينية بالقرب من حدود كردستان . وفريق من هؤلاء يرى أن هذا الموطن كان المهد الأول للشعبين السامى والآرى معاً .

وهذه الآراء الثلاثة هى أضعف ما قيل بهذا الصدد ، إذ لم يكد أحد من أصحابها يقدم بين يدى مذهبه دليلا يعتد به .

٤ — ويذهب الأستاذ جويدى Guidi ومن تابعه إلى أن المهد الأصلى

للأمم السامية كان جنون العراق(١) . و يستدل على رأيه ببعض كلمات مشتركة فى جميع اللغات السامية تتعلق بالعمران والحيوان والنبات . فقد ظهر له من طبيعة هذه الكلمات وأصواتها ومدلولاتها ومن شواهد أخرى كثيرة أنها نشأت بجنوب العراق . و يتخذ من اشتراكها فى جميع اللغات السامية دليلا على أن هذه المنطقة كانت المهد الأول للساميين .

٥ — و يرى بعضهم أن الموطن الأصلى للساميين كان بلاد كنعان ، و يستدل على ذلك بأن الساميين كانوا منتشرين فى البلاد السورية القديمة فى أزمنة سحيقة فى القدم وأن مدنيتهم فى هذه البلاد لا يعرف نشأتها ، ولا تعرف قبلها مدنية أخرى . على حين أن بلاد العراق مثلا التى يرى أصحاب المذهب الرابع أنها المهد الأول للساميين ، كان يسكنها من قبلهم الشعب السومرى ، وكانت له فيها مدنية زاهرة قبل مدنيتهم ، وقد نزحوا إليها فى عصر كانت فيه بلاد سوريا القديمة آهلة بأمم سامية ذات مدنية عريقة .

٦ — و يرجح بعضهم أن المهد الأول للساميين كان القسم الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية (بلاد الحجاز ونجد واليمن وما إلى ذلك) . وقد مال إلى هذا الرأى عدد كبير من قدامى المستشرقين ومحدثيهم ، وعلى رأسهم الأستاذ رينان الفرنسى و بروكلمان الألمانى . وهذا هو أصح الآراء وأقواها سنداً وأكثرها اتفاقا مع آثار هذه الأمم وحقائق التاريخ . و يرجح الأخذ به أدلة كثيرة :

فمن ذلك أن الهجرة فى هذه البلاد كانت تتجه دائماً ، فى العصور السابقة للتاريخ وفى العصور التاريخية ، من القسم الجنوبى الغربى (بلاد نجد والحجاز واليمن وما إليها) إلى الشمال والشرق (سوريا والعراق وما إليها) .

فمن هذا القسم نزح الساميون إلى جنوب العراق وغزوا بلاد السومريين

---

(١) يتفق هذا الرأى مع ما ذهبت إليه التوراة من أن أقدم ناحية عمرها أولاد نوح هى أرض بابل .

وغلبوهم على أمرهم وأنشئوا بهذه المنطقة مملكة عظيمة ومدنية زاهرة (مملكة بابل)[١].

ومن هذا القسم كذلك نزح الساميون إلى الشمال ، فتكونت من سلالاتهم الشعوب التى عرفت باسم الشعوب الكنعانية[٢]. ويظهر أنه تخلف منهم شمال الحجاز تلك القبائل التى عرفت عند العرب باسم قبائل ثمود ، والتى تركت فى هذه المنطقة نقوشاً كان لها شأن كبير فى الوقوف على ناحية من تاريخ اللغات السامية عامة واللغة العربية على وجه الخصوص .

ومن هذا القسم كذلك حدثت هجرة ثانية إلى العراق كان من آثارها أن قبض الساميون على زمام الحكم فى معظم بلاد العراق وأسسوا بها الدولة الكلدية الخامسة التى كان من ملوكها حمورابى[٣].

ومن هذا القسم كذلك نزح بعض قبائل الاسماعيليين (نسل اسماعيل عليه السلام وكان موطنهم الأصلى بلاد الحجاز) إلى الشمال[٤]. ومن أشهر هذه القبائل بنو قيدار و بنو نابت . أما بنو قيدار فقد انتقلوا من الحجاز إلى يثرب ومنها إلى مدائن صالح حيث تركوا بعض نقوش وفق العلماء حديثاً إلى كشفها وحل رموزها . ومن مدائن صالح تابعوا هجرتهم شمالا إلى خليج العقبة ، ومنه إلى وادى موسى حيث ألقوا عصا الترحال . وأما بنو نابت (المعروفون بالنبط أو النبطيين)[٥]. فقد نزحوا مع بنى قيدار من الحجاز إلى الشمال واستقروا فى منطقة خليج العقبة حيث كونوا مملكة عظيمة وتركوا آثاراً كبيرة ؛ وفيهم ظهر الخط المعروف بالخط النبطى الذى اشتق منه الخط العربى[٦].

---

(١) يظن أن هذه الهجرة كانت حوالى القرن السادس والثلاثين ق م .
(٢) يظن أن هذه الهجرة كانت حوالى القرن السادس والعشرين ق م .
(٣) يظن أن هذه الهجرة كانت حوالى القرن السادس عشر ق م .
(٤) يظن أن هذه الهجرة كانت حوالى القرن السادس ق م .
(٥) وهم غير أنباط العراق .
(٦) انظر صفحات ٢٤٦ — ٢٤٨ من كتاب « علم اللغة » للمؤلف ، الطبعة الثالثة .

ومن هذا القسم كذلك نزح فى أوائل التاريخ الميلادى بعض القبائل المعدية (التى كان موطنها الحجاز) إلى الشام ، و بعض القبائل القحطانية (التى كان موطنها اليمن) إلى الشمال والشرق ، فنزلت منها خزاعة بمكة ، والأوس والخزرج بيثرب ، وغسان بالشام ، ولخم بالعراق(١) .

فإذا أضيف إلى ما تقدم أن معظم الباحثين يقررون أن أول هجرة سامية إلى الحبشة كانت من بلاد اليمن ، تبين رجحان الرأى الذى نحن بصدده وهو أن المهد الأول لجميع الشعوب السامية كان القسم الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة (بلاد نجد والحجاز واليمن وما إليها) .

و يؤيد هذا الرأى كذلك ، ماذهب إلية الأمير كيتانى دوتيانو Caetani de Teano من أن هذا القسم كان فى العصور السابقة للتاريخ كثيف السكان ، خصب الأرض ، موفور الخيرات ، تخترقه ثلاثة أنهر كبيرة على الأقل ، وأنه على أثر بعض الظواهر البحرية وانحسار جبال الثلج الكبيرة إلى الشمال ، فقد خصبه وجفت أنهاره فنزح معظم سكانه إلى جهات أخرى . وقد اعتمد فى نظريته هذه على أدلة مستمدة من البحوث الجيولوجية التى أجريت بهذه المنطقة(٢) .

ويزيد هذا الرأى تأييداً أن العقلية السامية القديمة عقلية أساسها الحس المشاهد لا المعنوى المتخيل . فهى ضحلة التخيل ، قليلة العمق فى المعقولات المحضة ، لا تكاد تلمس ماوراء الطبيعة إلا برفق وسذاجة وفى نطاق محدود . ولا أدل على ذلك من أن معظم الكلمات السامية الدالة على الحقائق الكلية والأمور المعنوية والظواهر النفسية ترجع أصولها إلى أمور مادية تتصل بعالم الحس . فجميع الكلمات

---

(١) انظر فى هذه الهجرات جميعها كتاب « اتجاه الموجات البشرية فى جزيرة العرب » للاستاذ محب الدين الخطيب مدير المكتبة السلفية .

(٢) V. Brockelmann : Précis de Linguistique Sémtique (Trad. Fr.) p. 10. ، وقد نشر بهذا الصدد المستر توينبي Toynbee بعدد ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٥ من جريدة منشستر جارديان مقالا ضمنه رأيا قريباً من هذا الرأى .

والجمل التى يعبر بها فى العبرية عن الغضب مثلا تدل فى الأصل على أمور حسية : فأحياناً يعبر عنه بكلمة تدل فى الأصل على التنفس السريع القوى الذى يصحب الغضب عادة ؛ وأحياناً بكلمة تدل على الرعشة أو ارتفاع الحرارة أو الغليان . والخوف يعبر عنه فى هذه اللغة بكلمة تدل فى الأصل على ارتخاء الكليتين ؛ والتكبر بكلمة تدل فى الأصل على الشموخ بالرأس أو استطالة القامة واعتدالها ؛ واليأس بكلمة تدل فى الأصل على تقطع نياط القلب ؛ والصبر بكلمة تدل فى الأصل على طول التنفس ؛ والرغبة بكلمة تدل فى الأصل على الظمأ ؛ والعفو بكلمة تدل فى الأصل على المحو(١)... وهلم جرا . حقاً أنه توجد كلمات كثيرة من هذا القبيل فى اللغات الهندية — الأوروبية . غير أن معظم هذه الكلمات قد فقد فى هذه اللغات معناها الأصلى المحس ، وأصبح لا يفهم منها إلا مدلولها المعنوى . على حين أنه فى اللغات السامية لا تزال هذه الكلمات تدل على معانيها الأصلية ويشتم منها رائحة المادة (٢) . ومن الواضح أن عقلية هذا شأنها لا تنشأ إلا فى مواطن صحراوية قليلة المظاهر الطبيعية ، غير متنوعة الأجواء . لأن المناطق المتنوعة الأجواء ، الغنية بمظاهر الطبيعة ، تنمى قوة الخيال وتؤدى إلى تنوع التفكير . فى هذا دليل على أن الجماعة السامية الأولى التي ورثت هذه الأمم عقليتها وخيالها ولغتها قد نشأت فى الأصل فى مناطق صحراوية ، وتيرية المناخ ، فقيرة فى مظاهر الطبيعة . وهذه الأوصاف متوافرة فى الحجاز ونجد وما إليهما .

٦ — أقدم لغة سامية :

كما اختلف العلماء فى الموطن الأول للأمم السامية ، اختلفوا كذلك فى اللغة الأولى التى كان يتكلم بها الشعب السامى أيام أن كان أبناؤه مجتمعين فى موطن واحد .

---

(١) وكذلك اللغة العربية ، فعفا وغفر معناهما الأصلى المحو .

(٢) V. Renan, op. cit. pp. 22–25.

فكان أحبار اليهود فى العصور القديمة يعتقدون أن العبرية هى أقدم لغة إنسانية ؛ وانتشر هذا الرأى عند كثير من الباحثين ، حتى أن بعض العرب أنفسهم قد ذهب إليه .

وذهب بعضهم إلى أن الآشورية البابلية هى أقدم اللغات السامية . ولم يقدم أصحاب هذه النظرية دليلا يعتد به . هذا إلى ان ما وصلنا من الأشورية لا يعدو ألفاظاً قليلة يتعذر على ضوئها الحكم على مبلغ أقدمية هذه اللغة . وفضلا عن هذا كله ، فمن المقرر أن هذه الألفاظ القليلة ليست سامية خالصة ، بل اختلطت فيها المفردات السامية القديمة ببعض مفردات سومرية اقتبست من لغات السكان الأصليين لهذه البلاد لدرجة لا يمكن معها تمييز هذه عن تلك .

وذهبت طائفة من المحدثين ، وعلى رأسها العلامة أولسهوزن Olshausen (فى مقدمة كتابه عن العبرية) ، إلى أن اللغة العربية هى أقرب اللغات السامية إلى اللغة السامية الأولى .

وجميع هذه الآراء قائمة على أساس فاسد . وذلك أن جميع اللغات السامية قد اجتازت مراحل كثيرة فى التطور قبل أن تصل إلى الحالة التى أتيح للعلماء معرفتها ، فبعدت بذلك كل لغة منها عن النقطة الأولى التى ابتدأ منها تطورها . فمن الخطأ إذن النظر إلى واحدة منها على أنها أول لغة تكلم بها الشعب السامى . هذا إلى أنه من المستحيل أن تحتفظ لغة بوحدتها متى تعددت مناطقها وتعددت طوائف المتكلمين بها ، بل لا مناص حينئذ من انشعابها إلى لهجات ولغات ، على النحو الذى شرحناه بتفصيل فى كتاب « علم اللغة »[1] . ولا يعقل أن يكون الشعب السامى الأول قد ظل محتفظاً بوحدته الاجتماعية أو ظل حبيساً فى منطقة واحدة من الأرض أمداً طويلا . ولذلك يمكن القطع بأنه لم توجد أبداً أو لم تكد توجد

(١) انظر الفصل الخاص بتفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات من كتاب « علم اللغة » للمؤلف ، الطبعة الثالثة ، صفحات ١٥٦ — ١٧٨ .

لغة سامية واحدة ، بل وجد من مبدأ النشأة عدد كبير من اللغات السامية .

هذا ، وقد عمد بعض العلماء إلى الأمور المشتركة بين اللغات السامية فى المفردات والقواعد ، فاتخذ منها صورة للغة السامية الأولى ، واعتبر أقرب اللغات السامية إلى هذه الصورة أقدمها نشأة وأولها وجوداً . وهذا المذهب لا يقل فساداً عن المذاهب السابقة ؛ لأن هذه الأمور المشتركة لا تمثل أكثر من وجوه الشبه بين اللغات السامية فى أقدم حالة أتيح للعلماء معرفتها . وقد تقدم أن هذه اللغات قد اجتازت مراحل كثيرة فى التطور قبل أن تصل إلى هذه الحالة ، فبعدت بذلك كل لغة منها عن الأصل القديم . فهذه الأمور المشتركة لا تمثل إذن تمثيلا صادقاً أقدم لسان تكلم به الساميون .

غير أنه من المسلم به الآن لدى معظم المحدثين من علماء الاستشراق أن اللغة العربية قد احتفظت بكثير من الأصول السامية القديمة فى مفرداتها وقواعدها ، وأنه لا تكاد تعدلها فى ذلك أية لغة سامية أخرى . ويرجع السبب فى هذا إلى نشأتها فى أقدم موطن للساميين ، و بقائها فى منطقة مستقلة منعزلة ، فقلت بذلك فرص احتكاكها باللغات الأخرى ، ولم تذلل لها سبل كثيرة للبعد عن أصلها القديم .

٧ — خصائص اللغات السامية وصفاتها المشتركة :

من أهم خصائص اللغات السامية ما يلى :

١ — يتألف الأصل السامى فى الغالب من ثلاثة أصوات ساكنة (غير لينة مختلفة (ق ت ل ، ض ر ب ، ر ج ع .. الخ[١]) . غير أن لكل وجه من هذه الوجوه شواذ كثيرة :

---

(١) يذهب بعضهم إلى أن الأصول السامية ثنائية لا ثلاثية وأن الثلاثى متفرع عن الثنائى (انظر كتاب : « هل العربية منطقية ، أبحاث ثنائية ألسنية » للأب مرمرجى الدومنكى وخاصة صفحات ١٤٥ — ١٥٠ ، وانظر كذلك كتابنا « علم اللغة » الطبعة الثالثة آخر صفحة ٢٠٦ وتعليقها الثانى وأول صفحة ٢٠٧) .

(ا) فبعض الأصول السامية يتألف من صوتين فقط . و يصدق هذا على بعض الحروف (عن ، قد ، بل ...) والضمائر (هو ، هم ...) وأسماء الشرط والموصول والإشارة (من ، ذا ...) و بعض أسماء الذوات (يد ، دم ...) . وثمة أفعال لا يبقى منها إلا حرفان فى معظم وجوه تصرفها (قلت ، نلت ، عمت ، رمت ...) ؛ وهذا يدل على أن المعنى العام يتوقف فى هذه الأفعال على صوتين فقط . على أن الأفعال الأخرى نفسها ليست جميع أصواتها بدرجة واحدة من الأهمية فى تأدية المعنى ، بل تزيد فيها غالباً أهمية صوتين على أهمية الصوت الثالث . فالمعنى العام يتعلق فيها بصوتين فقط ، أما الصوت الثالث فيحدد هذا المعنى العام و يوجهه وجهات خاصة . فالمعنى العام للتفرقة مثلا يؤدى فى العربية بصوتى ف ر ، و يضاف إلى هذين الصوتين صوت ثالث يشار به إلى نوع التفرقة والمادة التى حدثت فيها (فرى ، فرم ، فرض[١] ، فرص[٢] ، فرث[٣] ، فرج ، فرق ، فرز ... الخ) . والمعنى العام للقطع يؤدى بصوتى ق ط (أو صوت شبيه بالطاء كالدال) ، و يضاف إلى هذين الصوتين صوت ثالث يشار به إلى نوع القطع والمادة التى حدث فيها (قطع ، قطف ، قطم[٤] ، قط[٥] ، قدّ ... الخ) . والصوتان اللذان تزيد أهميتهما فى الفعل على أهمية الصوت الثالث يمثلان فى الغالب صوت الفعل أى ما يحدثه الفعل نفسه من صوت عند وقوعه ، فهما يمثلان الأصل الأول الذى أخذت منه الكلمة . وفى هذه الناحية يظهر وجه الشبه بين الفصيلتين السامية والهندية الأوروبية[٦] .

---

(١) فرضت الخشبة فرضاً من باب ضرب حززتها أه المصباح .

(٢) الفرص القطع والمفراص الذى يقطع به الفضة اه مختار الصحاح .

(٣) أفرث الكرش شقها وألقى ما فيها اه مختار الصحاح .

(٤) قطمه قطما من باب ضرب عضه وذاقه أو قطعه ا ه المصباح .

(٥) قططت القلم قطاً من باب قتل قطعت رأسه عرضاً فى بريه اه المصباح .

(٦) V. Renan, op. sit. 96, 97.

(ب) و بعض الأصول السامية يتألف من صوتين ساكنين وصوت لين أو نصف لين (قال ، وعد ....) .

(ح) و بعضها يتألف من صوتين ساكنين مضعف ثانيهما (تمّ ، ردّ ....) .

أما الكلمات التى تبدو رباعية الأصول فى العربية والعبرية فهى متفرعة فى الحقيقة عن أصول ثلاثية (دحرج مثلا متفرعة عن « درج » أو عن « دحر » الدال على الدفع والإبعاد) على الرغم من أن علماء الصرف يعتبرون جميع أصواتها أصيلة.

وأصول الكلمات لا توجد مستقلة فى اللغات السامية . فالأصل الدال على معنى القتل فى اللغة العربية مثلا وهو قْ تْ لْ لا يوجد مستقلا فى هذه اللغة ، بل لا يمكن النطق به .

والأصوات التى يتألف منها أصل ما توجد مرتبة ، حسب ترتيبها فى الأصل ، فى جميع الكلمات المشتملة على معناه العام . فالأصوات الثلاثه ق ت ل التى يتألف منها الأصل الدال على معنى القتل ، توجد مرتبة بالشكل السابق فى جميع الكلمات المشتملة على هذا المعنى : قتل ، قاتل ، قتال ، قتيل ... الخ .

واشتمال الكلمة على أصوات أصل ما لا يدل على أكثر من تضمنها للمعنى العام لهذا الأصل .

أما ما عدا هذا المعنى العام فيشار إليه بأصوات مد طويلة (ألف ، ياء ، واو ... الخ) أو قصيرة (فتحة ، كسرة ، ضمة) تلحق جميع أصوات الأصل أو بعضها . فنوع الكلمة (كونها اسماً أو فعلا أو حرفا ، اسم فاعل أو اسم مفعول ، متعدية أو لازمة ، مفردة أو مثنى أو جمعاً .. الخ) وزمنها (حدث معناها فى الماضى أو يحدث فى الحال أو فى الاستقبال) ووظيفتها فى الجملة (كونها فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه أو حالا أو تمييزاً ... الخ) كل ذلك وما إليه تدل عليه فى اللغات السامية أصوات مد طويلة أو قصيرة تلحق جميع أصوات الأصل أو بعضها .

وأصوات المد الطويلة هى التى يرمز إليها فى الكتابة العربية بحروف اللين الثلاثة

(الألف والياء والواو) ، والقصيرة هى التى يرمز إليها بالفتحة والكسرة والضمة . فبضم القاف وكسر التاء وفتح اللام فى « قُتِلَ المجرم » مثلا ، تدل الكلمة على فعل قتل حدث فى زمن مضى ومسند للمفعول . وبمد القاف بالألف وكسر التاء وإبقاء اللام ساكنة فى « قاتِلْ الذى يقاتلك » ، تدل الكلمة على أمر المخاطب بإجراء القتل فى صورة متبادلة مع غيره . وبفتح القاف ومد التاء بالياء وكسر اللام « هذا دم القتيل » ، تدل الكلمة على شخص وقع عليه القتل ومنسوب إليه (مضاف إليه) شىء آخر . وبفتح القاف وإبقاء التاء ساكنة ومد اللام بالألف فى « هؤلاء قتلى الحرب » تدل الكلمة على عدة أفراد وقع عليهم القتل ... وهلم جرا .

وقد يصحب هذا أحياناً أصوات جديدة تسبق أصوات الأصل الثلاثة أو تتخللها أو تلحقها للدلالة على معان خاصة فى الكلمة . فبزيادة ميم محركة بالفتح قبل أصوات الأصل ونون ساكنة فى نهاية الكلمة ، مع إبقاء القاف ساكنة وفتح التاء واللام فى « أصاب مقتلا (مَقْتَلْ) » تدل الكلمة على عضو نكرة تؤدى إصابته إلى القتل وقد وقع عليه الفعل المعبر عنه فى الجملة . وبزيادة ياء مفتوحة قبل أصوات الأصل وتاء مفتوحة بعد القاف ونون مفتوحة فى آخر الكلمة ، مع إبقاء القاف ساكنة وكسر التاء ومد اللام بالواو فى « القوم يقتتلون » تدل الكلمة على فعل يحدث فى الحال أو فى الاستقبال فى صورة متبادلة بين طائفتين من الذكور الآدميين (١) .

٢ — لا تكاد توجد فى اللغات السامية كلمات تشتمل على أكثر من أصل واحد ؛ على حين أن هذا النوع يكثر فى اللغات الهندية — الأوروبية وخاصة

---

(١) انظر الفرق بين اللغات السامية واللغات الهندية — الأوروبية بصدد هذه الخاصة فى كتابنا علم اللغة ، الطبعة الثالثة صفحات ١٩٧ — ٢٠٢ .

الحديث منها . وكل كلمة من هذا القبيل تدل على معنى مركب من معانى الأصول التى تشتمل عليها[١] .

٣ — للأصوات الساكنة (ونعنى بها ماعدا الأصوات اللينة) فى اللغات السامية أهمية تزيد كثيراً على أهمية أصوات اللين ؛ ويبدو هذا فى ثلاثة وجوه : فى الدلالة ؛ والنطق ؛ والرسم .

(ا) فالمعنى الأساسى للكلمة — كما تقدم الكلام على ذلك فى الخاصة الأولى — يشار إليه غالباً بالأصوات الساكنة . أما الأصوات اللينة فلا تعدو وظيفتها فى الغالب تحديد هذا المعنى العام وتوجيهه وجهات خاصة (قْ تْ لْ يدل على المعنى العام للقتل ؛ قَتَلَ يدل على وقوع القتل فى زمن مضى من واحد غائب ، قُتِل يدل على قتل حدث فى زمن مضى ومسند للمفعول ... وهلم جرا) .

(ب) والأصوات الساكنة تنال أكبر قسط من عناية المتكلم ، وهى لذلك أوضح فى الجرس من الأصوات اللينة ، وأظهر منها فى السمع .

(ج) وقد سرت أهمية الأصوات الساكنة فى الدلالة والنطق إلى الرسم نفسه . فأهم مايعنى الرسم السامى بإظهاره هو الأصوات الساكنة ؛ أما الأصوات اللينة فيغفل بعضها إغفالا تاماً ، ويشير إلى بعضها بالشكل ، ويرسم بعضها رسماً مضطرباً غير دقيق . وهذا فى الرسم الحديث ؛ أما الأشكال القديمة للرسم السامى فكانت تغفل جميع أصوات اللين[٢] .

٤ — ليس للفعل فى معظم اللغات السامية إلا زمنان : فعل انتهى زمنه

---

(١) توجد هذه الظاهرة فى اللغات السامية فى بعض كلمات قليلة حديثة النشأة . وأظهر ما يكون ذلك فى الكلمات المنحوتة (انظر الفقرة ٢٢ من الفصل السادس من هذا الكتاب) .

(٢) V. Brockelmann, op. cit. p. 19· وسيأتى تفصيل ذلك عند الكلام على الرسم السامى فى الفقرة الثانية من الفصل الثانى من هذا الكتاب (انظر الفرق بين اللغات السامية واللغات الهندية — الأوروبية بصدد هذه الخاصة فى صفحة ١٩٩ ، ٢٠٠ من كتابنا « علم اللغة » ، الطبعة الثالثة) .

(ماض) وفعل لم ينته زمنه (مضارع للحال أو الاستقبال وأمر)[١] .

٥ — يحدث فى الغالب تأنيث الاسم والصفة فى اللغات الساميّة والحاميّة بإضافة تاء إلى المذكر[٢] .

٦ — تتشابه اللغات السامية كذلك فى كثير من المفردات ، وخاصة المفردات الدالة على أعضاء الجسم ، والضمائر ، وصلة ، القرابة ، والعدد ، و بعض الأفعال ومرافق الحياة الشائعة فى الأمم السامية[٣] .

٨ — وجوه الخلاف بين اللغات السامية :

ومع قوة القرابة بين أفراد هذه الفصيلة ، فإن بينها كثيراً من وجوه الخلاف فى القواعد والأصوات والمفردات .

فمن وجوه الاختلاف فى القواعد أداة التعريف . فهى فى العربية «أل» فى أول الكلمة ؛ وفى العبرية وفى بعض اللهجات العربية البائدة حرف ه فى أول الكلمة ؛ وكانت فى السبئية حرف نون فى آخر الكلمة ؛ وفى السريانية حرف « آ » فى نهاية الكلمة . أما الآشورية — البابلية والحبشية فلا أداة للتعريف فيهما مطلقاً .

ومن ذلك أيضاً علامة الجمع : فهى فى العبرية حرفا « يم » للمذكر والواو والتاء المؤنث ؛ وفى الآرامية حرفا « ين » ؛ فى حين أنه فى العربية يستخدم للدلالة على جمع المذكر الواو والنون فى الرفع والياء والنون فى النصب والجر فى آخر الكلمة وللدلالة على جمع المؤنث الألف والتاء فى آخر الكلمة ، وللدلالة عليهما معاً صيغ جمع التكسير .

---

(١) يستثنى من ذلك اللغات الأكادية فان للفعل فيها ثلاثة أزمنة كما سيأتى بيان ذلك فى الفصل الأول (انظر الفرق بين اللغات السامية واللغات الهندية — الأوروبية بصدد هذه الخاصة فى آخر صفحة ٢٠٢ وأول ٢٠٣ من كتابنا « علم اللغة » ، الطبعة الثالثة) .

(٢) انظر الفرق بين اللغات السامية واللغات الهندية الأوروبية بصدد هذه الخاصة فى صفحة ٢٠٣ من كتابنا « علم اللغة » ، الطبعة الثالثة) .

(٣) ذيل الدكتور إسرائيل ولفنسن كتابه « تاريخ اللغات السامية » بمعجم لبعض الكلمات المشتركة فى اللغات السامية ، ذكر فيه أكثر من مائة كلمة .

ومن وجوه الاختلاف بين الأصوات أن الأصوات العربية : ذ غ ظ ض لاوجود لها فى العبرية ، والصوتين العبريين « پ » P و « ڤ » V لا وجود لهما فى العربية ، ولا وجود للعين والقاف والسين فى البابليـة ، وأغلب مايأتى فى العبرية بالسين يأتى فى العربية والحبشية بالشين والعكس بالعكس .

أما الاختلاف فى المفردات فيبدو حتى فى بعض الأسماء التى كانت مدلولاتها شائعة عند جميع الشعوب السامية (صبى ، شيخ ، جبل ، خيمة ...) .

٩ — صلة اللغات السامية باللغات الحامية :

تنتظم اللغات الحاميـة ثلاث طوائف : اللغات المصرية (المصرية القديمة والقبطية) ؛ واللغات البربرية (اللغات القديمة لسكان شمالى أفريقيا : طرابلس وتونس والجزائر ومراكش والصحراء والجزر المتاخمة لها) ؛ واللغات الكوشية (لغات السكان الأصليين للقسم الشرقى من أفريقيا المحصور بين درجة العرض الرابعة جنوب خط الاستواء وحدود مصر ، ماعدا المناطق الحبشية الناطقة بلغات سامية وما عدا المناطق السودانية الناطقة بلهجات سامية أو سودانية ، فيدخل تحت اسم الكوشية اللغات الصومالية ولغات الجالا والبدجة ودنقلة والأجاو والأفار أو الساهو والسيداما ... الخ) . ولا يوجد بين هذه الطوائف الثلاث من وجوه الشبه أكثر مما يوجد بين كل طائفة منها ومجموعة اللغات السامية . فاعتبارها مجموعة متميزة هو مجرد اصطلاح لا يتفق فى شىء مع حقائق الأمور .

أما وجوه الشبه بينها و بين اللغات الساميـة فيظهر فى نواح كثيرة من أهمها ما يلى :

١ — تشبه اللغة المصرية القديمة اللغات السامية فى الضمائر (التاء للمخاطب المفرد والنون لجمع المتكلمين ... الخ) . وأسماء العـدد وكثير من أسماء الذوات وخاصة الأسماء المؤلفـة من صوتين (يم ، فم ، ماء ...) وفى كثير من قواعد

الصرف والتنظيم (ومن ذلك تأنيث الإسم والصفة بالتاء ، وتكوين المضارع بوضع الضمير فى أول الفعل) ؛ وتشترك معها كذلك فى أن أهميــة الأصوات الساكنة تزيد كثيراً على أهمية أصوات اللين فى دلالة مفرداتها ونطقها .

ولذلك ذهب كثير من العلماء إلى اعتبار اللغة المصرية واللغات السامية مجموعتين من فصيلة واحدة .

وذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فاعتبر المصرية القديمة لغة سامية . ومن هؤلاء العلامة Erman الذى يعد حجة فى الدراسات المصرية القديمة . فقد رأى أن اللغة المصرية القديمة التى وصلت إلينا هى لغة الغزاة من الساميين الذين أخضعوا السكان الأصليين وتغلبت لغتهم على لغاتهم . غير أن تأثر لغتهم بهذه اللغات فى أثناء صراعها معها ، والازدهار السريع للحضارة المصرية ، وما أحاط بالمصريين من ظروف خاصة تختلف عن ظروف بقية الساميين فى النواحى المادية والجغرافية والاجتماعية ... كل ذلك وما إليه قد عمل على توسيع مسافة الخلف بين المصرية القديمة من جهة و بقية اللغات السامية من جهة أخرى . ومثل هذه العوامل قد أحاطت باللغــة الإنجليزية (الاحتلال الرومانى واحتلال النورمانديين لبلاد الإنجليز) فأبعدتها كثيراً عن أخواتها الجرمانية ؛ ولـكن هذا لم يحل دون عدها من شعبة اللغات الجرمانية . بل إن مثل هذه العوامل قد أحاط ببعض اللغات التى أجمع العلماء على ساميتها ، كاللغة الأمهرية بالحبشة ، فأبعدها كثيراً عن فصيلتها .

٢ — وقد ظهر للباحثين وجوه شبه كثيرة بين اللغات السامية من جهة وكل من مجموعتى اللغات البربرية والـكوشية من جهة أخرى ، وخاصة فى النواحى المتعلقة بالصرف والاشتقاق . غير أن وجوه شبههما باللغات السامية أقل كثيراً من وجوه الشبه بين الساميــة والمصرية القديمة . — وقد اختلف العلمـاء فى تعليـل ذلك :

فبعضهم يرى أن اللغات السامية والمصرية والبربرية والـكوشية هى أربع مجموعات لفصيلة واحدة ، غير أن انفصال البربرية والـكوشية عن السامية قد

حدث قبل انفصال المصرية عن السامية بزمن طويل ، ولذلك كانت مسافة بعدهما عن السامية أكبر من مسافة بعد المصرية عنها . وقد سرنا على هذا الرأى فى الطبعة الأولى من كتابنا « علم اللغة » .

ويذهب بعضهم إلى أن الكوشية والبربرية لاتربطهما صلة قرابة بالسامية وأن اتفاق هذه اللغات فى بعض المفردات والقواعد يرجع إلى تأثرها بعضها ببعض واقتباس بعضها من بعض .

ويرى الأستاذ بروكلمان أنه لا يمكن القطع بقرابة أو عدم قرابة بين السامية من جهة والكوشية والبربرية من جهة أخرى ؛ وذلك لأن اللغتين الأخيرتين لم تصلا إلينا إلا فى أشكالها الحديثة المستخدمة الآن بين بعض العشائر فى المغرب والسودان والحبشة والصومال ... وما إلى ذلك ، ولم يعثر على آثار مدونة بهما تدلنا على حالتهما القديمة ، ويظهر أنه لم تتكون منهما مطلقاً لغة أدب أو كتابة ؛ هذا إلى أن العلماء لم يصلوا بعد بصدد دراسة قواعدهما وتاريخهما إلى نتائج يقينية يطمأن إليها . فالأدنى إلى القصد أن يرجأ موضوع الموازنة بينهما و بين اللغات السامية إلى أن تتم دراستهما وتتكون فكرة واضحة عن كلتيهما .

***

وخلاصة ذلك أنه يغلب على الظن قرابة اللغة المصرية من اللغات السامية ؛ أما صلة الكوشية والبربرية إحداهما بالأخرى وصلة كل منهما بالمصرية وباللغات السامية فلا يمكن الآن القطع فى هذا كله برأى [1] .

***

هذا ، وسنلقى فيما يلى نظرة على كل لغة من اللغات السامية ، مفصلين بعض التفصيل فى اللغة العربية ، ومجملين القول فيما عداها .

---

(١) أنظر كذلك فى هذا الموضوع كتابنا « علم اللغة » ، الطبعة الثالثة صفحات ١٨٤ — ١٨٨ .

الفصل الأول

اللغات الأكادية أو البابلية — الآشورية

١ — نشأتها وانتشارها :

أخذ الساميون يتدفقون إلى العراق فى هجرات متوالية منذ عصور سحيقة فى القدم . وأقدم هجرة سامية فى هذه المناطق حدثت حوالى القرن السادس والثلاثين ق.م. وقد اتجهت شطر القسم الجنوبى من بلاد العراق ، حيث منطقة ميزو پوتاميا التى تنحدر من الحوض الأوسط لدجلة والفرات حتى خليج فارس .

وكان يسكن هذه المنطقة ، قبل أن يهاجر إليها الساميون ، شعب يسمى الشعب السومرى ، وهو شعب مجهول الأصل ، ولكن من المقطوع به أنه غير سامى ولا آرى . وقد كان له بهذه البلاد حضارة زاهرة ، ولغة راقية ذات آداب [١] ، وأسلوب خاص فى الرسم اشتهر عند العرب باسم الخط المسمارى ، وعند الفرنجة باسم الرسم ذى الزوايا Ecriture cunéiforme (du latin « cuneus », coin , et de « forme ») وعند العبريين باسم رسم الأوتاد [٢] .

وقد تغلب المهاجرون من الساميين على هذا الشعب ، وأخضعوه لسلطانهم ، وأقاموا على أنقاض مملكته مملكة ساميَّة كان لها شأن كبير فى التاريخ . وكانت قواعد مملكتهم هذه فى مبدأ نشأتها فى القسم الأعلى (الشمالى) من هذه المنطقة ، حيث بلاد « أكاد » akkad كما كان يسميها السومريون ، أو إقليم

---

(١) أنظر كلمة عن هذه اللغة فى صفحه ١٩١ من كتابنا « علم اللغة » ، الطبعة الثالثة .

(٢) سمى بهذا الإسم لأن أجزاءه تشبه المسامير والأوتاد .

« كلدة » كما يسميه الساميون . ثم انتقلت إلى القسم الأدنى (الجنوبى) حيث المنطقة التى كان يسميها السومريون بمنطقة سومر Sumer . ثم عادت ثانية إلى القسم (الشمالى) حيث « بابيلونيا » التى اتخذت منذ ذلك العهد عاصمة لهذه المملكة السامية ، وكان لها شأن كبير فى التاريخ القديم . ولأهمية مدينة بابيلونيا نسب إليها هؤلاء الساميون ، فاشتهروا باسم البابليين ، ونسبت إليها مملكتهم ، فاشتهرت باسم مملكة بابل .

وتلت هذه الهجرة هجرات سامية أخرى من أهمها هجرة حدثت حوالى القرن الخامس والعشرين ق . م . واتجهت إلى القسم الشمالى من بلاد العراق ، حيث الحوض الأعلى لنهر دجلة . وكان يسكن هذه المنطقة كذلك قبل هجرة الساميين إليها شعوب غير سامية ، أخضعها الساميون لسلطانهم ، وأنشئوا على أنقاض دولتهم وحضارتهم دولة وحضارة ساميتين كان لهما شأن كبير فى التاريخ القديم . وقد اتخذ هؤلاء الساميون فى المبدأ مدينة آشور assur قاعدة لمملكتهم هذه ، ثم استبدلوا بها فيما بعد مدينة نينوى ، واشتهر هؤلاء الساميون فى التاريخ باسم الآشوريين واشتهرت مملكتهم باسم مملكة آشور .

وقد اشتبكت لغات الساميين فى الجنوب والشمال مع لغات السكان الأصليين فى صراع عنيف انتهى بانتصار اللغات السامية ، وفقاً لقوانين الصراع اللغوى التى تكلمنا عنها بتفصيل فى كتاب « علم اللغة » [١] فأصبح جميع السكان يتكلمون ألسنة سامية ، سواء فى ذلك السكان الأصليون والغزاة الساميون .

وعلى هذه الألسنة يطلق المحدثون من علماء اللغة اسم « اللغات الأكادية » نسبة إلى منطقة أكاد السابق ذكرها [٢] ، أو « اللغات البابلية — الآشورية »

---

(١) أنظر الفصل الخاص بصراع اللغات فى كتابنا « علم اللغة » ، الطبعة الثالثة صفحات ٢٠٨ — ٢٢٥ وخاصة ٢٠٩ — ٢١٨ .

(٢) أول من استخدم هذه التسمية هو العلامة أوبير Oppert .

نسبة إلى منطقتى بابل وآشور . ويفضل كثير منهم التسمية الأخيرة ، مع أنها مركبة من كلمتين ، لاستيعابها جميع المناطق التى انتشرت فيها هذه اللهجات ، ولأن التسمية الأولى ، مع سهولتها وعدم تركيبها ، توقع فى شىء من اللبس . ومنشأ ذلك أن كلمة «الأكادية» كان يطلقها بعض القدامى على لغة «السومريين» وهم السكان الأصليون للقسم الجنوبى . ويجانب بعض العلماء اللبس الذى توحى به كلمة «الأكادية» والصعوبة التى تؤدى إليها كلمتا « البابلية — الآشورية » ويلجأ فى تسميته إلى طريقة الاختصار وتغليب بعض المناطق على بعض ؛ فيطلق على هذه المجموعة اسم «البابلية» فقط لأن بابل كانت أقدم منطقة لهذه الألسنة أو اسم « الآشورية » فقط لأن أول ما كشف من الآثار المدونة بهذه اللهجات كان فى منطقة آشور . ولكن معظم المحدثين من علماء اللغة لا يطلقون كلمة « البابلية » وحدها إلا على الشعبة الجنوبية من هذه اللهجات ، أو على المجموعة كلها فى العصر الذى كانت السيادة فيه لمناطق الجنوب ، ولا يطلقون كلمة « الآشورية » وحدها إلا على الشعبة الشمالية من هذه اللهجات ، أو على المجموعة كلها فى العصر الذى كانت السيادة فيه لمناطق الشمال .

هذا ولم يقتصر استخدام هذه اللغات على مملكتى بابل وآشور ، بل امتد نفوذها فى العصور الذهبية لهاتين المملكتين إلى كثير من الممالك المجاورة لهما . فقد عثر فى تل العمارنة (عاصمة مصر فى عهد أخناتون) على رسائل مدونة باللغة الأكادية يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر ق . م . (١٤١١ — ١٣٥٨ ق . م) . وتشتمل هذه الرسائل على مخابرات دارت بين ملوك مصر فى ذلك العهد (امنوفيس الثالث وامنوفيس الرابع وأخناتون) وبعض الأمراء الشرقيين وبخاصة الأمراء الكنعانيون [١] . وعثر

---

(١) عدد هذه الوثائق أربعمائة وثيقة يوجد من أصولها المنقوشة بالخط المسمارى على لوحات من الصلصال ١٩٤ وثيقة فى متحف برلين و٨٢ فى المتحف البريطانى و٥٠ فى متحف =

كذلك فى آسيا الصغرى على آثار مدونة باللغة الأكادية ، وهذا يدل على أنها كانت مستخدمة فى صورة ما فى هذه المناطق .

٢ . خصائصها ومدى تأثرها بلغات السكان الأصليين :

قضت هذه الألسنة السامية فى صراعها مع لغات السكان الأصليين أمداً طويلا ؛ وقد تم تغلبها عليها فى صورة تدريجية بطيئة . وغنى عن البيان أن انتصاراً لا يتم إلا بعد أمد طويل وجهاد عنيف لا يخرج المنتصر من معاركه على الحالة نفسها التى كان عليها من قبل . فاللغة التى يتم لها الغلب لا تخرج سليمة من هذا الصراع ؛ بل إن طول احتكاكها باللغات المغلوبة يترك بها آثاراً كثيرة من هذه اللغات[1] . وهذا هو ماحدث لهذه الألسنة السامية . فقد تأثرت تأثراً كبيراً بلغات السكان

= القاهرة ، وبقية الوثائق مبعثرة فى متاحف خاصة وعامة فى حواضر مختلفة ، ومن بينها وثيقتان فى نيويورك .

وأول العهد بكشف هذه الوثائق كان سنة ١٨٨٧ ، إذ كانت فلاحة مصرية من سكان قرية قرب هذا التل تجمع سماداً فعثرت على قطع منها .

ولهذه الوثائق فضلا عن أهميتها اللغوية أهمية تاريخية ذات بال . وذلك أنها تلقى بعض الضوء على أخبار بنى إسرائيل ورحلتهم لأرض كنعان ، وتحدد التواريخ لبعض الأخبار التى تضمنها العهد القديم ، وتقفنا على طرف من المنازعات التى كانت بين بابل وآشور ، ومبلغ نفوذ هاتين المملكتين ، وتدخل مصر أحياناً فيما كان ينشب بينهما من نزاع ، وما كان لمصر فى ذلك العهد من نفوذ وسيادة فى كثير من الممالك وخاصة فى آسيا الغربية .

ولهذه الوثائق كذلك أهمية اجتماعية . فهى تتضمن أوصافاً دقيقة لبعض المراسيم الدينية وتقاليد الزواج وعادات الملوك فى تبادل الهدايا ... وهلم جرا .

وبعض هذه الرسائل متبادل بين ملوك مصر وأمراء بابل وآشور ؛ وكثير منها متبادل بينهم وبين أمراء الكنعانيين بسوريا وفلسطين . وأكثر هذه الرسائل مبعوث به إلى ملوك مصر ، وأقلها مبعوث به من مصر .

انظر ترجمة الدكتور مرسيه لهذه الوثائق تحت عنوان « بريد الفراعنة » (فى مجلدين) وانظر كذلك ما كتبه عنها مستر ألبرت فيلد جليمور فى عدد ٤٠/١١/٢١ من جريدة الاجبشان جازيت ، وانظر تلخيصاً لهذا المقال فى كلمة للأستاذ عبد اللطيف النشار فى عدد ١٩٤٠/١٢/٢٣ من مجلة الرسالة .

(١) انظر تفصيل هذا القانون وآثاره وأمثلته فى صفحات ٢٠٩ — ٢١٥ من كتابنا « علم اللغة » الطبعة الثالثة .

الأصليين ، وعلى الأخص باللغة السومرية . وظهر هذا التأثر بصورة واضحة فى المفردات . فقد اقتبس الساميون عن السومريين طائفة كبيرة من مفردات لغتهم وخاصة الألفاظ الدالة على أمور تمتاز بها الحضارة السومرية وكان يجهلها الساميون فى بيئاتهم الأولى . هذا إلى أن الألفاظ الأصلية للسان السامى قد نالها كثير من التحريف فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها ، وهم السكان الأصليون لهذه البلاد ، فانحرفت أصواتها عن مواضعها وتشكلت بالصورة التى تتفق مع التكوين الطبيعى لأعضاء صوتهم وعاداتهم اللفظية وأساليبهم فى النطق . ومن أجل ذلك استبدلت ببعض الأصوات السامية القديمة أصوات أخرى ، وتغيرت مخارج بعضها وانحرف النطق بها ، وسقط بعضها فى مواطن خاصة أو فى جميع المواطن . فمن ذلك مثلا الياء والواو الواقعتان فى أول الكلمة ، فقد سقطتا فى اللغات الأكادية فى جميع المفردات (١)

وقد كان لانعزال اللغات الأكادية عن أخواتها السامية وتطرفها فى الشرق ، وما أحاط بها من شئون اجتماعية خاصة ، وطبيعة المنطقة التى انتشرت فيها ، وما أتيح لها من احتكاك بلغات السكان الأصليين ، وما ورثته عنهم من حضارة وثقافة ، كان لهذا كله وما إليه أثر كبير فى تميزها عن بقية اللغات السامية بكثير من المميزات . وتبدو هذه المميزات فى جميع مظاهرها حتى فى مظهر القواعد نفسها . فمن ذلك مثلا أن للفعل فيها ثلاثة أزمنة أصيلة : زمنان يشار إليهما بأصوات تلحق أول الفعل وهما الزمن الماضى التام (« يغزودو » iksudu مثلا بمعنى انتهوا من الغزو) ، والزمن المضارع للاستقبال (« يغازادو » ikasadu مثلا بمعنى يغزون أو سيغزون) ؛ وزمن ثالث يشار إليه بملحق فى آخر الفعل وهو الزمن المعبر عن الاستمرار (« غازادو » Kasadu مثلا بمعنى كانوا يغزون أو هم

---

(١) V. Brockelmann, op. cit. p. 16 .

فى حالة الغزو أو سيأخذون فى الغزو فى صورة ممتدة) [١] . على حين أن اللغات السامية الأخرى ليس للفعل فيها إلا زمنان أصيلان : فعل انتهى زمنه وفعل لم ينته بعد [٢] .

٣ - رسم اللغات الأكادية :

أخذ الساميون عن السومريين الخط المسمارى واستخدموه فى تدوين لغاتهم الأكادية . وكان هذا الرسم فى أقدم مراحله رسماً معنوياً بحتاً Idéographique [٣] أى تشير رموزه إلى معان لا إلى أصوات . فكان يرمز فيه مثلا بصورة النجم إلى الكلمة الدالة على السماء (وهى « أنا » ana فى السومرية) أو الكلمة الدالة على الإله (وهى « دينجير » Dinjir فى السومرية) . ثم دخلت فيه طريقة الرسم الصوتى المقطعى Syllabique ؛ فأصبحت بعض علاماته ترمز أحياناً لمقاطع صوتية مجردة من الدلالة يتألف كل مقطع منها من صوتين أو أكثر . فصورة النجم مثلا كانت ترمز أحياناً فى هذه المرحلة إلى مقطع « أن » an .

وقد استخدم الساميون رموزه المعنوية نفسها ، وأطلقوها على المعانى نفسها التى كانت ترمز اليها فى السومرية ؛ ولكنهم كانوا يقرءونها بمفردات لغتهم . فصورة النجم مثلا كانت ترمز عندهم الى المعنيين نفسيهما اللذين كانت ترمز اليهمافى السومرية ، وهما السماءوالإله ؛ ولكنهم كانوا يقرءونها « سمو » Samu (ومعناها سماء فى لغتهم) أو « إلو » ilu (ومعناها إله فى لغتهم) .

واستخدم الساميون كذلك الرموز المقطعية لهذا الرسم ؛ ولكنهم لم يبقوها جميعاً على ما كانت عليه ؛ بل أدخلوا على دلالة بعضها تعديلات مستمدة من مفردات

---

(١) V. Langues du Monde p. 62

(٢) يوجد فى بعضها زمن ثالث غير أصيل ، لأنه يتألف بإضافة فعل مساعد الى الفعل الذى يراد التعبير عنه كما هو الحال فى الفينيقية والعربية (كان يضرب . . .) .

(٣) انظر تفصيل الكلام فى الرسم وأنواعه وتاريخه فى صفحات ٢٤٤ — ٢٥٤ من كتابنا « علم اللغة » الطبعة الثالثة .

لغتهم . فصورة النجم مثلا كانت ترمز أحياناً إلى المقطع نفسه الذى كانت ترمز إليه فى السومرية وهو مقطع « أن » ، على حين أن صورة اليد مثلا ، التى كانت ترمز فى السومرية إلى مقطع « سو » وهو أول مقطع من الكلمة التى تدل على يد فى السومرية ، استخدمها الساميون للرمز إلى مقطع « كت » qat وهو أول مقطع من كلمة « كتو » qatu التى تدل على معنى يد بالأكادية[١] .

والخط المسمارى الأكادى كان متفرق الحروف ، وكان يقرأ غالباً مستعرضاً من الشمال إلى اليمين ، وقديماً كان يقرأ عمودياً من أعلى إلى أسفل[٢] .

٤ — اللهجات الأكادية :

هذا ، والآثار التى وصلت إلينا مدونة بهذا الرسم لا تظهر فيها وجوه خلاف ذات بال بين اللهجات الأكادية . فالآثار البابلية مثلا (المنطقة الجنوبية) لا تكاد لغتها تختلف فى شىء عن الآثار الآشورية (المنطقة الشمالية) . غير أن الذى وصلنا عن طريق هذه الآثار هو اللغة الأدبية أو لغة الكتابة . وليس غريباً أن تتحد لغة الكتابة فى مناطق تضمها مملكة واحدة ، وترجع لهجاتها إلى أصل واحد قريب ؛ وإنما الغريب أن تختلف فيها . بل قد تتحد لغة الكتابة فى ممالك متعددة إذا كانت لهجاتها منشعبة عن لغة واحدة ؛ كما هو شأن لغة الكتابة بمصر والمغرب والعراق والشام واليمن والحجاز .

أما لهجات المحادثة فى هذه المناطق فلم تصل إلينا عنها إلا آثار ضئيلة وردت فى ثنايا بعض النقوش . وهذه الآثار لا تدلنا بصدد اختلاف اللهجات فى هذه البلاد على شىء يعتد به . ولكن تدلنا القوانين التى تخضع لها اللغات فى حياتها وتطورها أنه متى انتشرت اللغة فى مناطق واسعة وتكلم بها جماعات متعددة

---

(١) وأحياناً يستخدمونها رمزاً معنوياً فكانت تقرأ كتو qatu أى يد .

(٢) انظر فى موضوع الرسم المسمارى ، — الأكادى ، ما كتبه عنه الأستاذ مرسل كوهين فى كتاب Langues du Monde p. p 95 , 96

وطوائف مختلفة من الناس ، فإنه يستحيل عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلا ؛ بل لاتلبث — تحت تأثير مايوجد بين مناطقها من خلاف فى الخواص الطبيعية والجغرافية ، وما يوجد بين الجماعات الناطقة بها من خلاف فى شئونهم السياسية والاجتماعية ، وفى خواصهم الجسمية والنفسية وفى درجة ثقافتهم وما يحيط بهم من ظروف — لا تلبث تحت تأثير هذا كله وما إليه أن تنشعب إلى لهجات مختلفة تسلك كل منها فى سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها (١).

ولما كانت اللغة الأكادية قد انتشرت فى مساحة واسعة من الأرض وتكلم بها طوائف متعددة من الناس وعاشت أمداً طويلا ، فلا بد إذن أن تكون قد خضعت لهذا القانون ، وأن يكون قد أصابها ما أصاب غيرها فى مثل هذه الظروف ، أى لا بد أن تكون قد انشعبت إلى لهجات محادثة يختلف بعضها عن بعض ويختلف فى مجموعها عن لغة الكتابة التى وصلت إلينا . ولما كان وجوه الخلاف الجغرافية والاجتماعية السابق ذكرها أوضح ما يكون بين المناطق الشمالية (آشور) والمناطق الجنوبية (بابل) وبين سكان هذه وسكان تلك ، فلا بد إذن أن لهجات الشمال كانت تختلف فى مجموعها اختلافاً غير يسير عن لهجات الجنوب .

٥ — مراحل اللغات الأكادية :

ولا بد كذلك ، وفقاً للقانون السابق ذكره أن تكون اللغة الأكادية ، قد اختلفت باختلاف العصور متأثرة فى اختلافها هذا بعوامل كثيرة من أهمها الشئون السياسية وتنازع السلطان بين بابل وآشور . ويمكن تقسيمها من هذه الناحية إلى المراحل الآتية :

١ — العصر السابق للقرن العشرين ق . م . وفى هذا العصر كانت السيطرة

---

(١) انظر تفصيل هذا القانون وآثاره وأمثلته فى صفحات : ١٥٦ — ١٦٥ من كتابنا علم اللغة ، الطبعة الثالثة .

السياسية لمملكة بابل . وقد وصلت إلينا اللغة فى هذا الدور عن طريق نقوش على التماثيل و بعض كتب ورسائل محفورة على الخزف .

٢ — العصر الممتد من القرن العشرين إلى أواخر السابع أو أوائل السادس ق . م . وفى هذا العصر انتاب بابل عوامل الضعف والهرم ، فطمع فيها كثير من الأمم ، وسقطت أكثر من مرة فى أيدى المغيرين من الأجانب ، ثم انتهى بها الأمر إلى الخضوع لمملكة آشور التى كانت قد بلغت فى هـذا الدور أقصى ما أتيح لها أن تبلغه من قوة ومنعة . وعاشت هذه الأمبراطورية الآشورية حتى سنة ٦٠٦ ق . م ، ثم دالت دولتها ، وكان هذا نهاية العهد بها فى التاريخ القديم . وقد وصلت إلينا اللغة فى هـذا الدور عن طريق آثار كثيرة عثر عليها فى المناطق الآشورية .

٣ — العصر الممتد من أواخر القرن السابع إلى أواخر القرن السادس ق . م . وفى هذا الدور بعثت الأمبراطورية البابلية مرة أخرى ، وكان ذلك سنة ٦٢٦ ق . م ، ولكنها لم تعمر طويلا فى هـذه المرة ، فقد سقطت فى قبضة الفرس سنة ٥٣٩ ق م . وتسمى هذه الدولة بالدولة البابلية الجديدة . وقد وصلت إلينا اللغة فى هذه المرحلة عن طريق آثار كثيرة تبدو فيها دلائل التطور اللغوى . ولذلك جرت عادة الباحثين بتسمية اللغة فى هذا الدور البابلية الحديثة Néo-babylonien .

٤ — العصر الممتد من أواخر السادس حتى أوائل الرابع ق . م أو أواخره . وفى هذه المرحلة أخذت غارات القبائل الآرامية على العراق تشتد وطأتها وتستفحل آثارها وأخذت اللغة الآرامية تقتحم على الأكادية معاقلها وتنتزعها منها معقلا معقلا ، فلم ينتصف القرن الرابع ق . م حتى كانت الآرامية قد طغت على جميع الألسنة فى هذه المناطق ، وكانت الأكادية من عداد اللغات الميتة فى المحادثة . ولكنها بقيت بعد ذلك عدة قرون مستخدمة فى بعض الأوساط لغة كتابة وأدب ودين . وتدلنا بعض الآثار على أنها قد ظلت مستخدمة فى هـذه الشئون حتى قبيل الميلاد المسيحى .

الفصل الثانى

اللغات الكنعانية

١ – الشعوب الكنعانية

نزحت الشعوب الكنعانية على الراجح من القسم الجنوبى الغربى من بلاد العرب ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك[١] . وقد استقرت ببلاد فلسطين وسوريا وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط ، وأنشأت بهذه المناطق ، قبل أن ينزح إليها الآراميون بأكثر من ألف سنة ، حضارات زاهرة وممالك قوية كان لها شأن كبير فى التاريخ القديم . وامتد نفوذ هذه الممالك فى عصورها الذهبية إلى كثير من الأمم المجاورة ، وامتد استعمارها إلى سواحل أوروبا الجنوبية وشمال أفريقيا . وكان لها بشمال أفريقيا مستعمرة قوية نازعت روما سلطانها حيناً من الدهر ، ونشبت بينهما حروب استغرقت نحو مائة وعشرين عاماً (٢٦٤ — ١٤٦ ق م) : تلك هى مدينة قرطاجنة .

وأشهر الشعوب الكنعانية شعبان : الشعب الفينيقى ؛ والشعب العبرى .

٢ – اختراع الكنعانيين الرسم السامى

الراجح عند الباحثين أن الرسم السامى قد ظهر لأول مرة فى بلاد الكنعانيين . ويمتاز هذا الرسم عن جميع أنواع الرسم المتداولة قبل ذلك بأنه رسم هجائى بحت Alphabétique أى يرمز كل حرف فيه إلى صوت مفرد .

حقاً أن الهيروغليفى عند قدماء المصريين والمسمارى عند الأكاديين كانا

---

(١) انظر صفحة ١٢ .

يرمزان أحياناً إلى الأصوات ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك[١] ، وكما تكلمنا عنه بتفصيل فى كتاب « علم اللغة »[٢] . ولكن هذا الأسلوب كان ممزوجاً فى هذين الخطين بأسلوب الرسم المعنوى Idéographique ؛ فكان كثير من رموزهما ، بل معظم رموزهما ، يشير إلى معان لا إلى أصوات . على أن رموزهما الصوتية نفسها لم تكن رموزاً هجائية ترمز إلى أصوات مفردة كما هو شأن الرسم السامى ، بل كانت رموزاً مقطعية يرمز كل منها إلى صوتين فأكثر . ولا يستثنى من ذلك إلا بعض علامات فى الهيروغليفى كانت ترمز إلى أصوات مفردة (صورة الشفتين مثلا فقد كانت ترمز أحياناً فى هذا الخط إلى صوت الراء المجردة ، كما يرمز لذلك حرف الراء فى العربية[٣]) .

ومن الراجح أن الفينيقيين هم أول من اخترع الرسم السامى واستخدمه . وقد اضطرهم إلى ذلك نشاطهم التجارى وكثرة تنقلهم وتعدد علاقاتهم بمختلف الشعوب ؛ فقد كانت هذه الشئون تقتضيهم فى جميع أعمالهم السرعة فى الحركة والاقتصاد فى المجهود وتحرى وجوه الدقة . والأسلوب الهجائى هو أسرع الأساليب وأدناها إلى الكمال . وليس من شك فى أنهم قد حاكوا فى أسلوبهم هذا بعض ما كان يشتمل عليه الخط الهيروغليفى من صور هجائية . بل أنه قد ثبت أنهم أخذوا أخذاً عن هذا الخط ثلاثة عشر حرفاً من حروفهم البالغة اثنين وعشرين حرفاً .

وقد انتشرت حروف الهجاء الفينيقية فى معظم أنحاء العالم القديم ، واستخدمها كثير من شعوبه . ومنها تفرعت بشكل مباشر أو غير مباشر جميع حروف الهجاء التى استخدمت فيما بعد فى مختلف اللغات الإنسانية .

---

(١) انظر صفحة ٣٠ .

(٢) انظر صفحات ٢٤٥ — ٢٤٨ من كتابنا « علم اللغة » ، الطبعة الثالثة .

(٣) يشتمل الرسم الهيروغليفى على ٢٤ رمزاً من هذا النوع ، ترمز إلى جميع ما تشتمل عليه لغتهم من أصوات ساكنة (غير لينة) . فقد كان فى استطاعتهم إذن أن يتركوا أسلوب الرسم المعنوى وينشئوا رسماً هجائياً بحتاً يعتمد على هذه الرموز الاربع والعشرين ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك .

فمن الحروف الفينيقية اشتقت الحروف العبرية القديمة ، ومن هذه الحروف اشتق الرسم العبرى الحديث الذى اشتهرت تسميته بالعبرى المربع hébreu carré وهو الذى استخدم بعد رجوع بنى إسرائيل من نفى بابل ، وظل مستخدما إلى الآن بدون أن يناله تغيير ذو بال .

ومن الفينيقية اشتق كذلك نوعان من الرسم قريبا الشبه بالرسم العبرى الحديث (العبرى المربع) : أحدهما الرسم التدمرى [١] أو البالميرينى Palmyrenien [٢] ، والآخر الخط النبطى Nabatéen . ومن التدمرى اشتقت الحروف السريانية التى أخذت منها الخطوط المغولية والمنشورية . ومن الخطين النبطى والسريانى اشتقت حروف الهجاء العربية .

ومن الرسم الفينيقى اشتق كذلك الرسم الآرامى . بل إن الآرامى فى أقدم أشكاله لايكاد يختلف عن الرسم الفينيقى . وعن الآرامى أخذت الحروف الهندية — الباكترياينة Indo-bacteriens [٣] التى كانت مستخدمة فى شمال الهند ، ومن هذه الحروف اشتقت جميع الحروف المستخدمة الآن فى مختلف لغات الهند وسيام وكامبدجو وماليزيا .

ومن الرسم الفينيقى اشتق كذلك الرسم السبئى أو اليمنى أو خط المسند ، ومن هذا الخط اشتقت جميع الخطوط الحبشية السامية .

ومن الحروف الفينيقيـة اشتق كذلك الرسم الإغريقى [٤] ، ومن الرسم

---

(١) نسبة إلى تدمر وهى مملكة قديمة كانت تشمل جزءاً كبيراً من سوريا الحالية. ومعنى تدمر فى العبريه بلاد النخيل .

(٢) نسبة إلى پالميرين Palmyrène وهو إسم أفرنجى لبلاد تدمر ومعناه هو معنى تدمر فى العبرية أى بلاد النخيل .

(٣) نسبة إلى باكتريان Bactriane وهى منطقة قديمة يسكنها الإيرانيون وتشمل بعض مناطق تركستان وفارس .

(٤) أدخل الإغريق على الرسم السامى القديم إصلاحات كثيرة ، من أهمها زيادة حروف ترمز إلى جميع أصوات المد (لأن الرسم السامى القديم كان مجرداً من هذه الحروف . كما سيأتى بيان ذلك) .

الإغريقى أخذت الحروف اللاتينية ، ومن الرسمين الإغريقى واللاتينى تفرعت جميع أنواع الرسم المستخدمة فى مختلف اللغات الأوروبية فى العصر الحاضر [١] .

هذا ولا نعلم على وجه اليقين متى نشأ الخط السامى . وقد ظل العلماء حتى نهاية القرن التاسع عشر يعتقدون أن هذا الخط لم ينتشر قبل القرن العاشر ق . م . رذلك لأن أقدم ما عثر عليه حتى نهاية القرن التاسع عشر من النقوش المدونة بالخط السامى هو نقش الملك ميشع Mêsa ملك المؤابيين [٢] الذى سجل فيه حروبه وانتصاراته على ملك إسرائيل . وتاريخ هذا النقش لا يكاد يتجاوز سنة ٩٠٠ ق . م [٣] . وزادهم تمسكا بهذا الرأى أن رسائل العمارنة السابق ذكرها [٤] والتى يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر ق . م مدونة بالرسم المسمارى الأكادى لا بالرسم السامى مع أن بعضها كان صادراً من بلاد كنعان التى هى مهد الخط السامى : فكان هذا فى نظرهم أقطع دليل على أن الرسم السامى لم يكن قد ظهر فى هذا العهد ، أو على الأقل لم يكن قد انتشر استعماله بعد .

ولكن فى بداءة القرن العشرين عثر المنقبون فى شبه جزيرة سينا على آثار مدونة برسم هجائى بحت قريب من الرسم الفينيقى يرجع تاريخها إلى المرحلة المحصورة بين أوائل القرن العشرين وأواخر القرن الخامس عشر ق . م [٥] . وفى سنة ١٩٢٣ كشف العالم الأثرى بيير مونتيه P. Montet عن لوحة منقوشة برسم هجائى سامى بحت يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر ق. م. وتتعلق بقبر أحيرام Ahiram ملك جُبَيل (من أشهر مدن الفينيقيين وهى ما يسميها الفرنجة

---

(١) انظر تفصيل الكلام على الرسم وتاريخه وما يتصل به فى صفحات ٢٤٤ — ٢٥٤ من كتابنا « علم اللغة » ، الطبعة الثالثة .

(٢) تقع بلاد مؤاب فى الجنوب الشرقى من البحر الميت .

(٣) عثر على هذا النقش سنة ١٨٦٨ وهو الآن بمتحف اللوفر بباريس .

(٤) انظر صفحة ٢٧ ، وتعليقها .

(٥) V. Langues du Monde 96, 97.

ببيلوس)[١] . ومنذ هذه الكشوف عدل العلماء عن رأيهم القديم بهذا الصدد ، وأصبح من المقرر أن الرسم السامى كان منتشر الاستعمال قبل القرن العاشر ق . م . ببضعة قرون .

ولا يرمز الرسم السامى القديم إلا للأصوات الساكنة (المقابلة لأصوات المد) . وهذا هو أظهر وجه من وجوه نقصه . ولكنه ليس نقصاً ذا بال فى كثير من اللغات السامية . وذلك أن أهمية الأصوات الساكنة فى الدلالة تزيد كثيراً فى هذه اللغات على أهميــة أصوات المد ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك[٢] . فرسم الأصوات الساكنة فى الكلمة يكفى إذن مع مساعدة السياق لإرشاد القارئ إلى النطق الصحيح .

ومع ذلك فقد شعر الساميون أنفسهم بهذا النقص ، وسبب لهم بعض الاضطراب ، وخاصة فى قراءة بعضهم للغات بعض أو فى قراءة نصوص للغة سامية ميتة ، أو لأساليب قديمة من لغة حية . ومن أجل ذلك لجأ بعضهم إلى استخدام بعض الحروف الساكنة للإشارة إلى أصوات المد الطويلة (التى يرمز إليها فى العربية بالألف والياء والواو) واخترع بعضهم علامات جديدة للدلالة على ذلك . ثم استخدم فى بعض الخطوط الساميــة أسلوب الشكل للرمز إلى أصوات المد القصيرة (التي يرمز إليها فى العربية بالفتحة والكسرة والضمة) . وسار الرسم الحبشي بعيداً فى هذا السبيل فحرص على الرمز إلى جميــع أصوات المد بتغييرات تلحق صورة مايسبقها من الحروف الساكنة ، كما سيأتى بيان ذلك فى الفصل الخامس .

والاتجاه الغالب للرسم السامى هو الاتجاه الأفقى من اليمين إلى الشمال .

---

(١) لم يستخدم فى هذا النقش إلا عشرون حرفا من مجموعة الحروف الفينيقية البالغ عددها ٢٢ حرفا V. Larousse du 20ème siècle, mots : alphabet, écriture.

(٢) انظر صفحة ٢٠ .

٣ — اللغة الكنعانية الأولى وما تفرع منها

لم نقف على الكنعانية فى عهودها القديمة ، أى قبل أن تنشعب إلى الفينيقية والعبرية وما إليهما ، إلا عن طريق أثرين : أحدهما ناقص كل النقص ؛ وثانيهما مشكوك فى مبلغ تمثيله لهذا الدور . أما أولهما فمجموعة كلمات وعبارات كنعانية وردت مدونة بالخط المسمارى فى ثنايا رسائل تل العمارنة التي سبقت الإشارة إليها (القرن الرابع عشر ق . م[١]) . ولقلة هذه الكلمات والعبارات وتشتتها فى ثنايا الرسائل السابقة لم نقف منها على شيء يعتد به بصدد اللغة الكنعانية الأولى . ومع هذا فقد كشف العلماء عن وجوه شبه كثيرة بينها و بين اللغة العبرية . وأما ثانيهما فنقش ميشع Mésa ملك مؤاب الذى سبقت الإشارة إليه كذلك[٢]. وقد ألفت عبارات هذا النقش بلسان كنعانى خالص ودون برسم سامى بحت . وكشف العلماء كذلك عن وجوه شبه كبيرة بين اللهجة التى دون بها واللغتين الفينيقية والعبرية . ولا يظهر هذا الشبه فى أصول المفردات فحسب ، بل يظهر كذلك فى الأساليب وقواعد الاشتقاق والتنظيم . غير أن هذا النقش مشكوك فى مبلغ تمثيله للغة الكنعانية الأولى . وذلك أن تاريخه يرجع إلى القرن التاسع ق . م . أى إلى عهد حديث كان فيه اللغتان الفينيقية والعبرية تامتى التكوين . ولذلك يرى كثير من العلماء أنه لا يمثل الأصل الأول الذى انشعبت عنه هاتان اللغتان ، بل يمثل أختا لهما أى لهجة متفرعة من الأصل نفسه الذى تفرعتا عنه ، وهى اللهجة المؤابية أو لهجة المؤابيين أو أهل مؤاب[٣] .

ومهما يكن من شيء فى أمر اللغة الكنعانية الأولى ، فإن من المقطوع به أن

---

(١) انظر صفحة ٢٧ وتعليقها .

(٢) انظر صفحة ٣٧ وتعليقيها الثانى والثالث .

(٣) ورد فى العهد القديم أن المؤابيين من نسل لوط ابن أخى إبراهيم الخليل ، فهم يرجعون إذن إلى الأصل نفسه الذى يرجع إليه بنو إسرائيل .

اللهجات التى انشعبت عنها ومن أهمها الفينيقية والعبرية اللتين سنقف على دراستهما القسم الباقى من هذا الفصل ، تربطها صلة قرابة وثيقة ببقية اللغات السامية . غير أنها إلى اللغات الأكادية والآرامية أقرب رحما منها إلى المجموعة الجنوبية (العربية واليمنية والحبشية) . ومن أجل ذلك يقسم كثير من المحدثين اللغات السامية إلى شعبتين يجمع بين أفراد كل شعبة منهما من أواصر القرابة اللغوية ووجوه الشبه أكثر مما يجمع بينها و بين أفراد الشعبة الأخرى : إحداهما يسميها الشعبة الشمالية وتشمل الأكادية والكنعانية والآرامية ؛ والأخرى تسمى الشعبة الجنوبية وتشمل العربية واليمنية القديمة والحبشية .

٤ — اللغة الفينيقية واللهجة البونية

١ — اللغة الفينيقية الأصلية :

وصلت إلينا اللغة الفينيقية الأصلية عن طريق نقوش قديمة عثر على بعضها فى المواطن الأولى للفينيقيين (صور ، صيدا ، جُبَيل Byblos ... الخ) ، وعلى بعضها فى مستعمراتهم ومواطن نفوذهم وخاصة فى جزر البحر الأبيض المتوسط (قبرص Chypre وغيرها) . وأقدم هذه النقوش يرجع تاريخه إلى القرنين التاسع والعاشر ق م ؛ ولكن معظمها يرجع تاريخه إلى القرن الخامس ق م والقرون التالية له .

ووجوه الشبه بين اللغة التى دونت بها هذه النقوش واللغة العبرية قوية جداً فيما يتعلق بأصول الكلمات ، أى الأصوات الساكنة التى تتألف منها أصول المفردات ؛ وهذه الأصوات وحدها هى التى وقفنا عليها عن طريق هذه النقوش ؛ لأن الرسم الفينيقى ما كان يرمز فى عهوده الأولى إلا للأصوات الساكنة كما تقدمت الإشارة إلى ذلك[1] .

أما أصواتها اللينة (أصوات المد) فلم نقف عليها إلا عن طريق الرسم اليونانى

---

(١) انظر صفحة ٣٨ .

لبعض الأعلام والكلمات الفينيقية . ومع ضآلة المعلومات التى يقدمها إلينا الرسم اليونانى بهذا الصدد ، فقد استنبط العلماء على ضوئه أن مسافة الخلف بين الفينيقية والعبرية فى أصوات المد كانت أوسع كثيراً من مسافة الخلف بينهما فى الأصوات الساكنة .

وكذلك الشأن فيما يتعلق بالقواعد ، وخاصة قواعد التنظيم (السنتكس Syntaxe أى قواعد تركيب الجمل ووظائف المفردات . . . وما إلى ذلك[١]) . فمع الإيجاز المستخدم فى عبارات النقوش التى وصلت إلينا عن هذه اللغة ، فانه يظهر منها أن الفينيقية تختلف عن العبرية فى هذه الناحية اختلافا غير يسير . فمن ذلك مثلا أنها تستخدم فعلا مساعداً قبل الفعل المتحدث عنه لتحديد زمنه و بيان استمراره ، كما هو الشأن فى اللغة العربية (كان يضرب ، كنا نضرب ... الخ) ، وهذا الأسلوب لا نظير له فى اللغة العبرية .

٢ ـ اللهجة البونية :

و بفضل مستعمرات الفينيقيين انتشرت لغتهم فى كثير من البلاد الواقعة على سواحل البحر الأبيض وفى كثير من جزره . غير أنه لم تتوطد لها أسباب القوة والبقاء إلا فى مستعمرتهم الإفريقية الشهيرة ، ونعنى بها مدينة قرطاجنة والبلاد المتاخمة لها . ولتمييز اللهجة القرطاجنية عن اللغة الفينيقية الأصلية اصطلح العلماء على تسميتها « باللهجة البونية » Punique[٢] .

وقد وصلت إلينا اللهجة البونيـة عن طريق نقوش عثر عليها فى منطقة قرطاجنة يرجع تاريخ أقدمها إلى القرن الرابع ق . م . ومع كثرة عددها فإن معظمها موجز كل الإيجاز ، وكثير منها مضطرب الحقائق مبهم الدلالة . وطريقة

---

(١) انظر فى شرح السنتكس الفقرة الأولى من مقدمة كتابنا « علم اللغة » .

(٢) هذه الكلمة مأخوذة من كلمة لاتينية معناها « فينيق » . وهكذا كان يسمى الرومان أهل قرطاجنة وجميع ما ينسب إليهم .

رسمها تختلف بعض الاختلاف عن طريقة الرسم الفينيقى الأصلى . ولكنها تتفق معها فى الشكل العام للحروف وفى أنها تقتصر على الرمز إلى الأصوات الساكنة . ولذلك لم نقف عن طريقها إلا على أصول المفردات .

أما أصواتها اللينة (أصوات المد) فلم نقف عليها إلا عن طريق قطعة تمثيلية هزلية ألفها الشاعر الروماني بلوت Plaute فى أواخر القرن الثالث ق . م ، تحت عنوان « القرطاجنيين » Poemulus . فقد ورد فى هذه القطعة على لسان أحد أبطالها بعض أبيات باللغة القرطاجنية . ولتدوين هذه الأبيات فى القصة بحروف لاتينية ، روعى فيها طريقة الرسم اللاتيني التى لا تقتصر على الرمز إلى الأصوات الساكنة فى الكلمة بل ترمز كذلك إلى أصواتها اللينة (أصوات المد الطويلة والقصيرة) . وغنى عن البيان أن أبياتاً هذا شأنها وشأن مؤلفها والقطعة التى وردت فيها ومناسبة تأليفها .. لا تمثل النطق القرطاجنى إلا فى صورة محرفة ناقصة . ولكن يستخلص منها على كل حال أن اللهجة البونية كانت تختلف فى بعض مظاهر الصوت عن اللغة الفينيقية الأصلية .

٣ — نهاية اللغة الفينيقية واللهجة البونية :

ويظهر أن الفينيقية بآسيا كانت أطول عمراً من أختها العبرية . ولكن من المقطوع به أنها أخذت تتأثر بالآرامية منذ عهد بعيد قبل الميلاد المسيحى ، كما تدل على ذلك آثارها المتأخرة ، وأنه لم يأت القرن الأول قبل الميلاد حتى كانت الآرامية قد قضت عليها كما قضت على أختها العبرية من قبل (أواخر القرن الرابع ق . م [١]) وكما قضت من قبلهما على الأكادية (أوائل القرن الرابع ق . م [٢]) .

أما اللهجة البونية ، فقد عمرت أمداً طويلا على الرغم من انعزالها عن مناطق

---

(١) انظر الفقرة التالية صفحات ٤٨ وتوابعها .
(٢) انظر ص ٣٣ .

اللغات السامية وشدة الكفاح بينها و بين اللغات السائدة إذ ذاك فى شمال أفريقيا ، وهى اللهجات البربرية (لهجات السكان الأصليين) واللغة اللاتينية (التى كان لأهلها نفوذ استعمارى واسع وجاليات كبيرة فى هذه الجهات) . ولعل اختلاف فصيلتها عن الفصائل التى تنتمى إليها هذه اللغات[١] هو الذى أتاح لها طول البقاء وجعل سبل التغلب عليها وعرة عسيرة كما تنص على ذلك قوانين الصراع اللغوى[٢] .

و يظهر أنها ظلت حية بهذه المناطق أمداً طويلا بعد سقوط قرطاجنة فى أيدى الرومان (١٤٦ ق . م) . فلدينا من الأدلة ما يحمل على الظن أنها بقيت لغة حديث بين السكان حتى القرن الخامس الميلادى أى بعد الاحتلال الرومانى بأكثر من ستة قرون ؛ بل لدينا من الأدلة مايحمل على الظن أنها بقيت فى بعض هذه المناطق حتى الفتح العربى لشمال أفريقيا (القرن السابع الميلادى) ثم صرعتها اللغة العربية مع ماصرعته من اللهجات فى هذه البلاد . غير أن ماوصل إلينا من آثارها فى مرحلتها الأخيرة التى تبدأ من سقوط قرطاجنة بأيدى الرومان فى منصف القرن الثانى قبل الميلاد ، يدلنا على أنها قد اجتازت فى أصواتها ومفرداتها ودلالاتها مراحل كثيرة فى سبيل التطور ، فبعدت بذلك عن أصلها القديم . ولذلك جرت العادة بتسميتها فى هذه المرحلة بالبونية الحديثة Néo-punique .

٥ — اللغة العبرية

١ — أهميتها والمتكلمون بها وصلتها باللغات الكنعانية الأخرى :

تعد اللغة العبرية أهم اللهجات الكنعانية على الإطلاق ، وأوسعها انتشاراً ، وأكثرها إنتاجاً فى مختلف فنون القول : فى الدين والآداب والتاريخ والفلسفة والعلوم ... وهلم جرا . بل أنها لتعد من أغنى لغات العالم قاطبة فى هذه الشئون .

---

(١) البربرية من الفصيلة الحامية ، واللاتينية من الفصيلة الهندية — الأوروبية .

(٢) انظر الفصل الخاص بصراع اللغات فى كتاب « علم اللغة » للمؤلف .

وحسبها ثروة وشرفاً أنه قد دون بها جميع أسفار العهد القديم (١) وكتب المشناه . وقد اكتسبت بفضل ذلك أهمية دينية كبيرة فى البلاد المسيحية ، فأصبحت مكانتها فى هذه البلاد تشبه من بعض الوجوه مكانة لغة القرآن فى البلاد الإسلامية الناطقة بغير اللسان العربى .

وعلى الرغم من تسميتها اللغة العبرية ، فهى ليست لغة جميع العبريين ، بل لغة فرع واحد من فروعهم وهو فرع بنى إسرائيل (٢) . وقد نزح بنو إسرائيل من شبه جزيرة سينا (٣) وأغاروا على بلاد كنعان ، ففتحوا قسما كبيراً منها ودانت لسلطانهم واستقروا بفلسطين حوالى القرن الثالث عشر ق . م . ومع أنهم دخلاء على هذه البلاد ، فإن لغتهم تتفق مع لغاتها فى معظم مظاهر الصوت والقواعد وأصول المفردات ، وتؤلف معها شعبة واحدة . وقد اختلف العلماء فى تعليل هذه الظاهرة :

فبعضهم يرى أن سبب هذه المشابهة يرجع إلى أن لغتهم قد انتقل إليها من لغات السكان الأصليين كثير من المفردات ومظاهر الصوت والدلالة وقواعد الصرف والاشتقاق ... وما إلى ذلك . وهذا هو أضعف الآراء بهذا الصدد ؛ لأن المشابهة بين العبرية و بقية اللغات الكنعانية ليست من النوع السطحى الذى يمكن أن يرجع سببه إلى الاقتباس . على أن الاقتباس لا يكاد يجرى إلا فى المفردات ، أما القواعد فليست من الأمور التى تنتقل من لغة إلى أخرى (٤) .

---

(١) ما عدا بعض أجزاء من سفرى عزرا ودانيال وآية من سفر أرمياء دونت باللغة الآرامية مباشرة كما سيأتى بيان ذلك .

(٢) تتألف الأمم العبرية من بنى إسرائيل وجملة شعوب أخرى كآل أدوم وأهل مؤاب وعمون ... الخ ولكن لا يطلق اسم اللغة العبرية إلا على لغة بنى إسرائيل وحدهم .

(٣) تذكر الكتب المقدسة أنهم قد نزحوا إلى شبه جزيرة سينا من مصر .

(٤) إذا انتقلت القواعد من لغة إلى أخرى كان انتقالها إيذاناً بزوال اللغة التى انتقلت إليها واندماجها فى اللغة التى انتقلت منها . انظر شرح هذا الموضوع فى صفحات ٢٠٣ — ٢٠٥ ، ٢١٤ ، ٢١٥ . من كتابنا « علم اللغة » ، الطبعة الثالثة .

و بعضهم يرى أن سبب اتفاق لغتهم مع بقية اللغات الكنعانية يرجع إلى أن بنى إسرائيل كانوا فى الأصل من هذه البلاد ، ثم هاجروا منها ، ثم عادوا إليها ثانية عن طريق سينا ، وظلوا فى أثناء المدة الطويلة التى قضوها فى مهجرهم محتفظين بلسانهم القديم ، ولم يتأثروا إلا قليلا بألسنة الأمم التى أقاموا بين أهلها . ويجد هذا الرأى بعض التأييد فيما ورد فى الكتب المقدسة بصدد تاريخ بنى إسرائيل .

و بعضهم يرى أن السبب فى هذا يرجع إلى أن اللغة الأصلية لبنى إسرائيل قد اشتبكت مع اللسان الكنعانى فى صراع انتهى بتغلبه عليها وفقاً لنواميس الصراع اللغوى[1] ، فانقرضت لغتهم الأولى شيئاً فشيئاً وانتقلت إليهم لغة السكان الأصليين . غير أنه قد نال هذه اللغة فى ألسنتهم كثير من التحريف فى أصواتها ومفرداتها و بعض مظاهر قواعدها ، فنشأ من جراء ذلك لهجة متميزة عن اللهجات الكنعانية الأخرى .

ولا تسمح لنا معلوماتنا التاريخية فى الوقت الحاضر أن نقطع برأى من هذين الرأيين الأخيرين أو أن نرجح صحته ؛ و إن كان المتداول المشهور بين معظم المحدثين من الباحثين اعتبار بنى إسرائيل من الشعوب الكنعانية كما تقدم بيان ذلك[2] .

٢ — المراجع التى وصلت إلينا اللغة العبرية عن طريقها :

وصلت إلينا اللغة العبرية عن طريق ثلاثة مراجع : أحدها الكتب التى دونت بها ، وهى أسفار العهد القديم والمشناة وملحقاتهما وعدد كبير من المؤلفات القانونية والفلسفية والعلمية والأدبية التى دونها بهذه اللغة علماء اليهود فى مختلف العصور . وثانيها بعض نقوش أثرية على لوحات من الصخر والمعدن . وثالثها

---

(١) تقرر هذه النواميس أنه فى مثل الحالة التى نحن بصدد الكلام عنها تتغلب لغة الشعب الذى يزيد عدد أفراده عن عدد أفراد الشعب الآخر زيادة كبيرة . ولا شك أن عدد الكنعانيين كان يزيد كثيراً عن عدد الغزاة من بنى إسرائيل . انظر تفصيل ذلك وأمثلته فى صفحتى ٢٠٩ ، ٢١٠ من كتابنا « علم اللغة » ، الطبعة الثالثة .

(٢) انظر ص ٣٤ .

استخدام اليهود لها فى تلاوة بعض الأوراد الدينية وآيات التوراة .. وما إلى ذلك .

ومن الواضح أنه لم يصل إلينا عن هذه الطرق إلا لغة الكتابة كما هو شأن الأكادية والفينيقية . أما اللهجات التى كانت مستخدمة فى التخاطب طوال المدة التى كانت العبرية فى أثنائها لسان محادثة بين بنى إسرائيل فلم يصل إلينا عنها شىء يعتد به . ولكن يفهم مما ورد فى الإصحاح الثانى عشر من سفر القضاة أن النطق ببعض الكلمات كان يختلف باختلاف المناطق ، وأن بعض المناطق كان يصعب على أهلها النطق بكلمات منتشرة فى مناطق أخرى [١] .

ويضاف إلى هذا النقص فى معلوماتنا عن اللغة العبرية نقص آخر ، وهو أننا لم نقف بشكل يقينى على كيفية النطق بأصواتها ومفرداتها . وذلك أنه ليس من بين المراجع الثلاثة السابقة التى وصلت إلينا هذه اللغة عن طريقها ما يقفنا بشكل يقينى على كيفية النطق .

أما المراجع المدونة فى الكتب أو المنقوشة على اللوحات الصخرية أو النقود فلا تمثل النطق العبرى إلا فى صورة ناقصة مبتورة . وذلك لأن الرسم العبرى — كسائر أنواع الرسم السامى — كان يقتصر فى مراحله الأولى على الرمز إلى الأصوات الساكنة فى الكلمة . هذا إلى أن الأصوات الساكنة نفسها ليست ممثلة فيه تمثيلا كاملا . فهو لا يضع لكل صوت عام أكثر من حرف هجائى واحد ، مع أن الصوت العام كثيراً ما يندرج تحته أصوات مختلفة فى مخرجها ونبرتها وقوتها ومدة النطق بها وما إلى ذلك [٢] .

وأما المرجع الثالث الذى وصلت إلينا هذه اللغة عن طريقه وهو تلاوة اليهود

---

(١) انظر الإصحاح الثانى عشر من سفر القضاة ، وخاصة الآية السادسة منه ، فقد ورد فيها أن بعض الفارين من الجيش فى حرب أهلية قبض عليه خصومه فأنكر أنه من الفريق الآخر ، فطلب إليه أن ينطق بكلمة عبرية فلم يستطع النطق بها صحيحة لأن لهجته لم تواته ، فافتضح بذلك أمره .

(٢) ليس هــذا مقصوراً على الرسم العبرى ، بل هو نقص يشترك فيه جميع أنواع الرسم الحديث ؛ انظر « علم اللغة » للمؤلف صفحتى ٢٤٩ ، ٢٥٠ الطبعة الثالثة .

لبعض الأوراد وآيات التوراة . . فلا يقفنا كذلك بشكل يقينى على النطق العبرى الصحيح . وذلك أن العلماء لم يعنوا بملاحظة هذه التلاوة إلا منذ القرن السابع الميلادى ، أى بعد أن انقرضت اللغة العبرية بأكثر من عشرة قرون(١) .
وغنى عن البيان أن عبارات يتناقلها الخلف عن السلف فى أثناء مدة طويلة كهذه لا بد أن ينال أصواتها الأولى كثير من التحريف تحت تأثير التطور الطبيعى لأعضاء النطق(٢) ، وتفاعل أصوات الكلمة بعضها مع بعض ، وتأثرها بالأصوات الحديثة ، والأخطاء السمعية التى تحدث فى أثناء تناقلها ... وما إلى ذلك من عوامل التطور الصوتى التى تكلمنا عنها بتفصيل فى كتاب « علم اللغة »(٣) . ويؤيد ذلك أنه قد ورد فى أقدم ترجمة للعهد القديم (الترجمة السبعينية Version de Septante) وهى التى تمت فى أوائل القرن الثالث ق . م (سنة ٢٨٢ أو ٢٨٣ ق . م) فى عهد بطليموس فيلادلفيا على يد اثنين وسبعين حبراً من يهود مصر ، بعض كلمات وجمل عبرية مدونة برسم يونانى ، وأنه بالموازنة بين نطق هذه الكلمات والجمل حسب رسمها اليونانى والنطق الذى وصل إلينا عن طريق تلاوة اليهود للأوراد الدينية وآيات التوراة يظهر فرق كبير بين النطقين .

٣ — مراحل اللغة العبرية :

هذا وقد اجتازت اللغة العبرية مراحل كثيرة تأثرت فى كل مرحلة منها بعدة

---

(١) انقرضت اللغة العبرية من التخاطب فى أواخر القرن الرابع ق . م كما سيأتى بيان ذلك .

(٢) من المقرر أن أعضاء النطق فى الإنسان فى تطور طبيعى مطرد فى بنيتها واستعدادها ومنهج أدائها لوظائفها . فحناجرنا وحبالنا الصوتية وألسنتنا وحلوقنا وسائر أعضاء نطقنا تختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأولين ، بل إنها لتختلف فى ذلك عما هى عليه عند آبائنا الأقربين . وغنى عن البيان أن كل تطور يحدث فى أعضاء النطق أو فى استعدادها يتبعه تطور فى أصوات الكلمة ، فتنحرف هذه الأصوات عن الصورة التى كانت عليها إلى صورة أخرى أكثر منها ملاءمة مع الحالة التى انتهت إليها أعضاء النطق (أنظر صفحات ٢٦٤ — ٢٦٧ من كتاب « علم اللغة » للمؤلف ، الطبعة الثالثة) .

(٣) انظر صفحات ٢٦٤ — ٢٨٥ من كتاب « علم اللغة » الطبعة الثالثة .

مؤثرات من أهمها الشئون السياسية وما طرأ على وحدة بنى إسرائيل واستقلالهم وعلاقتهم بالشعوب الأخرى . وترجع هذه المراحل إلى عصرين رئيسين : العصر الأول من نشأة هذه اللغة (حوالى القرن الثالث عشر ق . م) إلى أواخر القرن الرابع ق.م ، أى طوال المدة التى كانت العبرية فى أثنائها لغة حية يتكلم بها بنو إسرائيل ، ويسميها علماء اللغة فى هذا العصر بالعبرية القديمة hébreu ancien أو « عبرية العهد القديم » ، وذلك لأن أهم ما وصل إلينا من آثارها فى هذا العصر هى أسفار العهد القديم ؛ والعصر الثانى يبدأ من العهد الذى انقرضت فيه العبرية من التخاطب واقتصر استخدامها على الكتابة وتلاوة بعض الأوراد والآيات ، أى من أواخر القرن الرابع ق.م إلى العصر الحاضر . ويسمونها فى هذا العصر بالعبرية اللاحقة للعهد القديم ، أو عبرية ما بعد « العهد القديم » hébreu post-biblique. وسنتكلم على كل عصر من هذين العصرين على حدة :

(العصر الأول) يبدأ هذا العصر كما قلنا من نشأة اللغة العبرية (حوالى القرن الثالث عشر ق . م) إلى أواخر القرن الرابع ق . م ، فيستغرق المدة التى كانت العبرية فى أثنائها لغة حية فى التخاطب . وينقسم هذا العصر نفسه إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى تنتهى بنفى بابل سنة ٥٨٧ ق . م[١] ؛ فتستغرق المدة التى تمتع فى أثنائها بنو إسرائيل باستقلالهم السياسى الكامل ، وتسمى هذه المرحلة بالمرحلة الذهبية للغة العبرية âge d'or ، وذلك أنه فى هذه المرحلة بلغت اللغة العبرية عنفوان مجدها ووصلت إلى أقصى ما أتيح لها أن تصل إليه من الرقى والتهذيب واتساع النفوذ وقوة السلطان ؛ وكانت فى أثنائها فصيحة خالصة من الشوائب . والقرون الثلاثة الأخيرة من هذه المرحلة (من النصف الأخير من القرن التاسع

---

(١) فى سنة ٥٨٧ ق . م أغار بختنصر ملك بابل على فلسطين فأزال ملك بنى إسرائيل وأسر منهم عدداً كبيراً أجلاهم إلى بابل (ولذلك اشتهر ذلك فى التاريخ باسم نفى بابل) حيث ظلوا فى الأسر حتى تغلب كورش ملك الفرس على البابليين عام ٥٣٩ ق . م فأطلق سراح اليهود ، ورجع كثير منهم إلى فلسطين .

حتى أوائل القرن السادس ق . م) هى التى دون فيها أسفار العهد القديم (أسفار التكوين والخروج والتثنية و يوشع والقضاة وصموئيل والملوك والأمثال ونشيد الأناشيد وقسم كبير من الأنبياء .. الخ) . وأقدم ما وصل إلينا من آثار هذه المرحلة قصيدة حماسية دينية وردت فى الإصحاح الخامس من سفر القضاة منسوبة إلى حكيمة من حكيمات بنى إسرائيل تدعى « دبوراه » chant de Debora يظن أنها عاشت حوالى القرن الثانى عشر ق . م . فتاريخ هذه القصيدة يرجع إذن إلى مبدأ العهد الذى استقر فيه بنو إسرائيل ببلاد فلسطين . وقد وصل إلينا كذلك من آثار هذه المرحلة غير الكتب المدونة ، نقش تاريخى هام ، وهو اللوحة التذكارية لنبع عين السلوان Siloé التى عثر عليها سنة ١٨٨٠ فى النفق نفسه الذى انبجست منه هذه العين فى قرية السلوان بالقرب من مدينة بيت المقدس . و يرجع تاريخ هذا النقش إلى السنين الأخيرة من القرن الثامن ق . م .

وأما المرحلة الثانية من هذا العصر فتبدأ من نفى بابل سنة ٥٨٧ ق . م ، وتنتهى بانقراض اللغة العبرية من التخاطب فى أواخر القرن الرابع ق . م وحلول الآرامية محلها ، وتسمى هذه المرحلة بالمرحلة الفضية للغة العبرية âge d'argent . وقد أخذت عوامل الفناء ، منذ بداءة هذه المرحلة ، تدب شيئاً فشيئاً إلى اللغة العبرية ، وأخذت الآرامية تقتحم عليها معاقلها وتنتقص من مناطقها قليلا قليلا حتى قضت عليها كما قضت على الأكادية من قبل. حقاً أن اليهود الذين أجلاهم بختنصر إلى بابل قد حرصوا على لغتهم كل الحرص طوال مدة نفيهم و بعد عودتهم إلى بلادهم ، وأن اليهود الذين لم يشملهم هذا النفى فبقوا بفلسطين لم يقلوا عن إخوانهم رغبة فى الإبقاء على لسانهم ، وأن أحبار اليهود ورؤساءهم لم يألوا جهداً فى محاربة الآرامية و بث كرهها فى نفوس بنى إسرائيل . ولكن هذا كله لم يستطع سبيلا إلى وقف تيار الآرامية ، ولم يقو على تعويق قوانين الصراع اللغوى . فلم يكد ينتهى القرن الرابع ق . م حتى كانت العبرية فى عداد اللغات الميتة فى التخاطب . وقد ذلل للآرامية سبل التغلب

على العبرية انتماؤهما إلى شعبة لغوية واحدة ، وقوة أواصر القرابة التى تربط كلتيهما بالأخرى [(١)] وتفكك بنى إسرائيل فى هذا العصر وانحلال سلطانهم السياسى .

وأهم ما وصل إلينا من آثار هذه المرحلة بعض أسفار العهد القديم (يونس ، زكريا ، قسم من دانيال ... الخ) و بعض آثار أدبية تعد من أرقى ما وصل إلينا من هذه اللغة . ويبدو فى مخلفات هذه المرحلة بوادر التأثر باللغة الآرامية .

(العصر الثانى) يبدأ من العهد الذى انقرضت فيه اللغة العبرية من التخاطب واقتصر استخدامها على الكتابة و بعض الشئون الدينية ، أى من أواخر القرن الرابع ق . م إلى العصر الحاضر ، وتسمى اللغة العبرية فى هذ العصر بعبرية ما بعد العهد القديم hébreu post - biblique .

وينقسم هذا العصر كذلك إلى مرحلتين تمتاز كل منهما بمميزات لغوية خاصة :

المرحلة الأولى تنتهى بفاتحة العصور الوسطى . وتسمى اللغة العبرية فى هذه المرحلة بالعبرية الربّانية أو التلمودية ، وذلك لأن أهم ما وصل إلينا من آثارها فى هذه المرحلة هو بحوث الربانين فى التلمود . فقد تألف من بحوثهم فى شئون الدين والقانون والتاريخ المقدس ... وما إلى ذلك ثلاثة وستون كتاباً باللغة العبرية أطلق عليها اسم المشناة ، ثم شرحت هذه المشناة فيما بعد باللغة الآرامية وأطلق على هذا الشرح اسم الجمارا ؛ وتألف من المشناة والجمارا ما أطلق عليه اسم التلمود . — ووصل إلينا كذلك من آثار هذه المرحلة غير كتب المشناة ، مؤلفات كثيرة فى مختلف فروع الآداب والعلوم والفلسفة والدين .

وتختلف آثار هذه المرحلة فى فصاحة لغتها وصحتها تبعاً لاختلاف المؤلفين فى مبلغ تمكنهم من هذه اللغة و إلمامهم بآدابها القديمة . ولكنها تمتاز على العموم

---

(١) من المقرر أنه كلما قربت اللغتان المتصارعتان إحداهما من الأخرى سهل على أقواهما التغلب ، انظر الفصل الخاص بصراع اللغات من كتاب « علم اللغة » للمؤلف .

بشدة تأثرها باللغة الآرامية . و يظهر فيها كذلك شيء غير يسير من مظاهر التأثر ببعض اللغات الهندية — الأوربية التى احتك اليهود بأهلها احتكاكا سياسياً أو ثقافياً ، وخاصة اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية . و إليك مثلا المشناة نفسها: فمع أنها قد دونت باللغة العبرية ، فإن كثيراً من المفردات التى استخدمت فيها مقتبس من اللغة الآرامية ؛ وتشتمل كذلك على عدد غير يسير من الكلمات الإغريقية واللاتينية والفارسية . ولكن هذا لا ينقص شيئاً من قيمتها اللغوية والتاريخية ؛ وذلك أن ما بها من كلمات أجنبية لا يعد شيئاً مذكوراً بجانب ما استخدمته من المفردات العبرية والكنعانية التى لا يوجد بعضها فى « العهد القديم » نفسه .

وأما المرحلة الثانية من هذا العصر ، فتبدأ من فاتحة العصور الوسطى حتى العصر الحاضر . وتسمى اللغة العبرية فى هذه المرحلة بالعبرية الحديثة Néo-hébreu. وقد كتب بها فى هذه المرحلة عدد كبير من علماء اليهود المنتمين إلى مختلف الشعوب والناطقين بشتى اللغات : فمنهم الألمان ومنهم الانجليز ومنهم الفرنسيون ومنهم العرب ... وهلم جرا . وتمتاز العبرية فى هذه المرحلة بشدة تأثرها باللغة العربية و باللغات الأوروبية الحديثة . و يرجع الفضل فى تأثرها باللغة العربية إلى شدة احتكاكهما من الناحية الثقافية فى هذه المرحلة و إلى المؤلفات العربية التى نقلها علماء اليهود إلى العبرية فزادوا بذلك ثروة لغتهم فى الطب والعلوم والفلسفة والآداب . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تجاوزه إلى ميدان الشعر نفسه ؛ فقد اقتبس اليهود فى هذه المرحلة بحور الشعر العربى وأساليبه ونظموا على غرارها باللغة العبرية كثيراً من القصائد والمقطوعات .

وتختلف آثار هذه المرحلة فى فصاحة لغتها وصحتها تبعاً لاختلاف المؤلفين فى مبلغ تمكنهم من العبرية و إلمامهم بآدابها القديمة : فشأن كل منهم كشأن أحدنا إذ يؤلف مثلا باللغة الفرنسية أو الإنجليزية .

وفى أواخر القرن التاسع عشر قوى اتجاه اليهود فى مختلف أنحاء العالم إلى إحياء اللغة العبرية ، فوسعوا نطاق استعمالها فى الشئون الدينية والأدبية وفى ميادين الترجمة والتأليف . وقد قوى هذا الاتجاه بوجه خاص فى أوربا الشرقية وفلسطين ؛ فقد حرص اليهود المهاجرون إلى هذه البلاد التى يعدونها « وطنهم القومى » على إحياء قوميتهم ولغتهم ، فبعثت العبرية بفضل هذه العناية خلقاً جديداً فى ميادين الكتابة والآداب ، بل أخذ بعضهم يستخدمها فى التخاطب العادى . غير أن استخدامها فى هذا الميدان لا يزال ضعيفاً محدوداً .

٤ — رسم اللغة العبرية :

اشتق الرسم العبرى ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، من الفينيقى . وتتألف حروف هجائه من اثنين وعشرين حرفاً ترمز إلى اثنين وعشرين صوتاً ساكناً ؛ ويكتب من اليمين إلى الشمال متفرق الحروف ما عدا الألف واللام فترسمان متصلتين . وقد اجتاز فى سبيل تطوره أربع مراحل :

١ — ففى المرحلة الأولى كانت أشكال حروفه لا تختلف كثيراً عن الحروف الفينيقية القديمة . ويعرف فى هذه المرحلة باسم العبرى القديم .

٢ — وفى المرحلة الثانية ظهر تأثره بالرسم الآرامى ، تبعاً لتأثر اللغة العبرية باللغة الآرامية . ومن ثم نشأ نوع جديد من الرسم اشتهرت تسميته بالرسم العبرى الحديث أو العبرى المربع hébreu carré . وقد اقتصر فى المبدأ استخدام هذا الرسم الجديد على الشئون الدينية ، أما فيما عداها فقد ظل اليهود يستخدمون الرسم القديم أمداً طويلا .

٣ — وحوالى القرن السادس الميلادى أدخل على هذا الرسم إصلاح جديد ؛ إذ استخدمت الألف والهاء والواو والياء للرمز إلى أصوات المد الطويلة ، فساعد ذلك على ضبط النطق وحفظ الكلمات من التحريف .

٤ — وفى العبرية الحديثة أدخل إصلاح آخر إذ اخترع نظام الحركات للإشارة إلى أصوات المد القصيرة. وقد اتخذت ثلاث طرق لرسم هذه الحركات:

إحداها تعرف بالطريقة الطبرية système tiberien نسبة إلى مدرسة من العلماء تسمى مدرسة طبرية لنشأتها بمدينة طبرية بفلسطين. وهذه الطريقة ترمز إلى أصوات المد القصيرة بعلامات تحت الحروف. وهى أشهر الطرق الثلاث، ولا يكاد يستخدم غيرها فى العصر الحاضر. وقد اشتهر فى النطق بالكلمات المدونة بهذه الطريقة أسلوبان يختلف كل منهما عن الآخر اختلافاً يسيراً: أحدهما يسمى أسلوب اليهود الغربيين أو الأسلوب الألماني rite allemand؛ والآخر يسمى أسلوب اليهود الشرقيين أو الأسلوب البرتغالى rite portugais.

وثانيتها تعرف بالطريقة العراقية أو البابلية système babylonien، لأن الفضل فى اختراعها يرجع إلى مدارس أحبار اليهود بالعراق. وهذه الطريقة ترمز إلى أصوات المد القصيرة بعلامات توضع فوق الحروف. وقد انقرضت هذه الطريقة بانقراض المدارس البابلية التى أنشأتها (حوالى القرن التاسع الميلادى).

والطريقة الثالثة تعرف بالطريقة الفلسطينية، وهى تشير إلى هذه الأصوات بعلامات فوق الحروف كما تفعل الطريقة العراقية، ولكنها تختلف عنها فى صورة هذه العلامات ودلالتها.

هذا، وقد استخدم أحياناً فى تدوين العبرية بعض رسوم أجنبية وبخاصة الرسمان العربى واليونانى.

الفصل الثالث

اللغات الآرامية

١ — نشأة الآرامية وانتشارها :

يؤخذ من بعض الآثار الآشورية — البابلية أن القبائل الآرامية كانت تتنقل ، منذ القرن الخامس عشر ق . م ، فى الصحراء المتاخمة لمنطقة ميزو بوتاميا ، وأنها كانت مصدر قلق وإزعاج لسكان هذه المنطقة وما إليها من البابليين والآشوريين ، فكانت لا تفتأ تشن عليهم الغارات ، وتقطع الطرق ، وتنشر الرعب على حدود هذه البلاد .

وقد نزحت بعض قبائلهم من هذه الصحراء إلى بلاد سوريا وفلسطين وما إليها حوالى القرن الخامس عشر ق . م ، واستقروا فى منطقة مجاورة لمناطق الكنعانيين الذين سبقوهم فى الهجرة إلى هذا القسم بنحو عشرة قرون[1] . وكان يسكن المنطقة التى استقر بها الآراميون ، شعوب غير سامية كانت فى درجة راقية من الحضارة .

وبذلك انقسمت مواطن الآراميين قسمين : قسم فى الشمال الغربى على تخوم البلاد الكنعانية ؛ وقسم فى الشرق فى صحراء ميزوبوتاميا على حدود بابل وآشور .

أما في الشمال الغربى فقد أخضعوا لسلطانهم السكان الأصليين للمنطقة التى استقروا فيها ، وأنشئوا بها بضع دويلات آرامية مستقل بعضها عن بعض . واشتبكت لغتهم فى صراع مع لغات السكان الأصليين وكتب لها النصر عليها

---

(١) كانت هجرة الكنعانيين إلى هذه البلاد فى نحو القرن الخامس والعشرين أو السادس والعشرين ق . م كما تقدم ذلك بصفحة ١٢ تعليق رقم ٢ .

وفقاً لقوانين الصراع اللغوى[١] . ولكنهم مع ذلك انتفعوا أيما انتفاع بحضارة هؤلاء السكان وثقافتهم وآدابهم وصناعاتهم وما كان لهم من نشاط فى مختلف مظاهر الحياة . وانتفعوا كذلك انتفاعاً كبيراً بحضارة جيرانهم الكنعانيين ، وعنهم أخذوا حروف الهجاء الآرامية وكثيراً من أساليب الرسم .

وأما فى الشرق فلم يستقر سلطانهم فى بلاد العراق إلا بعد استقراره فى الشمال الغربي بأمد طويل . ومع ذلك ، فقد أخذ نفوذهم يتغلغل فى هذه البلاد منذ عصر سحيق فى القدم ، وأخذت لغتهم تقتحم على الأكادية معاقلها وتنتزعها معقلا معقلا ؛ فلم ينتصف القرن الرابع ق . م حتى كانت الآرامية قد طغت على جميع الألسنة فى هذه المناطق ، وكانت الأكادية من عداد اللغات الميتة فى المحادثة كما سبقت الإشارة إلى ذلك[٢] .

ثم اشتبكت الآرامية فى صراع مع لغات الكنعانيين جيران الآراميين فى الشمال الغربى ، وكتب لها النصر كذلك فى هذا الصراع ، فقضت على العبرية فى أواخر القرن الرابع ق . م ، وعلى الفينيقية فى القرن الأول ق . م ، كما سبق القول فى الفصل الثانى من هذا الكتاب[٣] .

وبذلك ورثت الآرامية أخواتها الشرقية والشمالية جميعا ، وأصبحت اللغة السائدة فى التخاطب فى جميع بلاد العراق من جهة وفى سوريا وفلسطين وما إليهما من جهة أخرى . وقد بلغت عنفوان مجدها ووصلت منطقتها إلى أقصى درجات اتساعها فى المرحلة المحصورة بين سنتى ٣٠٠ ق.م و ٦٥٠ بعد الميلاد . فقد بلغت فى هذه المرحلة مساحة البلاد الناطقة بالآرامية نحو ٦٠٠ ألف كيلو متر مربع .

وكان لها فوق ذلك منزلة اللغة الدولية فى كثير من المناطق المجاورة لبلادها ،

---

(١) انظر تفصيل هذه القوانين بالفصل الخاص بصراع اللغات فى كتابنا « علم اللغة » .

(٢) انظر آخر ص ٣٣ .

(٣) انظر القسم الأخير من ص ٤٢ وصفحتى ٤٣ و ٤٩ وأول ص ٥٠ .

وخاصة فى عهد الحكم الفارسى لهذه المناطق . وامتد نفوذها إلى آسيا الصغرى نفسها ، على الرغم من أنه لم يهاجر إليها إلا عدد قليل من الآراميين . فقد عثر بآسيا الصغرى على نقود صدرت فى عهد بعض ولاة الفرس تحمل رموزا وكلمات آرامية . وهذا يدل على أن الآرامية كانت اللغة الرسمية لهذه البلاد . بل يظهر أنها كانت تستخدم فيها أحياناً لتدوين بعض المنتجات العلمية والأدبية ، كما يدل على ذلك نقش عثر عليه حديثاً فى كاپادوس cappadoce (من أعمال آسيا الصغرى)[(١)] .

وامتد نفوذ الآرامية إلى بلاد تدمر والنبط وشبه جزيرة سينا كما يظهر ذلك من الآثار التى عثر عليها فى هذه المناطق والتى سنتكلم عنها فى الفقرة الثالثة من هذا الفصل . وكان للآرامية فى مصر نفسها فى العهد الفارسى منزلة لا تقل عن منزلتها فى البلاد السابق ذكرها ، بل امتد نفوذها فى مصر إلى ما بعد العهد الفارسى بزمن طويل ، كما تدل على ذلك الوثائق التى عثر عليها بجزيرة فيلة (أنس الوجود) والتى سنتكلم عنها فى الفقرة الثالثة من هذا الفصل[(٢)] . ولم يقف نفوذها عند هذا الحد ، بل جاوزه إلى مناطق اللغة العربية نفسها . فكانت الآرامية تستخدم لغة كتابة فى بعض المناطق العربية اللغة ، وخاصة فى بلاط النبط كما سيأتى الكلام على ذلك فى الفقرة الثالثة من هذا الفصل ، وتركت ، فضلا عن هذا ، آثاراً ظاهرة فى اللهجات العربية البائدة ، وهى لهجات عربية كانت مستخدمة فى بعض مناطق واقعة شمال الحجاز فى داخل الحدود الآرامية وعلى تخومها ، وخاصة فى واحات تيماء والحجر (مدائن صالح) والعلا ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى الفصل السادس .

---

(١) هذا النقش مؤلف باللغة الآرامية ومدون بالرسم الآرامى .

(٢) يرجع تاريخ هذه الوثائق إلى القرنين السادس والخامس ق . م أى إلى عصر لاحق للعصر الفارسى .

٢ ــ اللهجات الآرامية :

نجم عن اتساع مناطق اللغة الآرامية وتعدد طوائف الناطقين بها إلى الحد الذى وصفناه أن انشعبت إلى عدة لهجات . وترجع لهجاتها هــذه إلى مجموعتين رئيسيتين يفصلهما الفرات وصحراء الشام : إحداهما مجموعة اللهجات الآرامية الشرقية وتشمل اللهجات الآرامية ببلاد العراق فى منطقتيها الجنوبية والشمالية ؛ وثانيتهما مجموعة اللهجات الآرامية الغربية وتشمل اللهجات الآرامية بسوريا وفلسطين وشبه جزيرة سينا . . وما إلى ذلك[١]. وتختلف هاتان المجموعتان إحداهما عن الأخرى فى كثير من مظاهر الصوت والدلالة ، بل وصل الخلاف بينهما إلى نطاق القواعد نفسها . فمن ذلك مثلا أن اللهجات الغربية تستخدم الياء فى أول المضارع علامة على إسناده للمفرد الغائب ، كما هو الشأن فى معظم اللغات السامية ، على حين أن اللهجات الشرقية تستبدل النون بهذه الياء . ومن ذلك أيضاً أن علامة التعريف الآرامية الملحقة بآخر الاسم (آ) ، قد فقــدت فى اللهجات الشرقية وظيفتها وأصبحت جزءاً من الــكلمة لا تدل على التعريف .

١ ـــ وتنقسم المجموعة الشرقية إلى لهجات كثيرة أهمها أربع لهجات :

إحداها اللهجــة الجنوبية التى شرح بها يهود مدرسة بابل كتاب المشناه (ويسمى هذا الشرح الجمارا ، ويتألف منه مع المشناة ما يعرف بتلمود بابل) .

وثانيتها اللهجة المندائية أو المندعية Mendéen التى كان يتكلم بها طائفة المندائيين أو المندعيين ، وهى طائفة تقطن كذلك جنوب العراق .

وثالثتها اللهجة الحرانية التى تنسب إلى مدينة حران فى شمال العراق . وقد كانت هذه المدينة مركزاً هاماً من مراكز الثقافة الآرامية ؛ وقد زاد من شأنها شدة

---

(٢) كان القدامى من علماء اللغة يقسمونها إلى الــكلدانية والسريانية ، ويسمون الأولى الآرامية الشرقية والثانية الآرامية الغربية . وهذا فى الحقيقة تقسيم لآرامية العراق وحدها التى نسميها نحن الآن بالآرامية الشرقية .

احتكاكها بالفلسفة اليونانية . وقد انتفع العرب أيما انتفاع بالثقافة الحرانية ، واستخدم الخلفاء العباسيون كثيراً من النابهين من علماء حران لترجمة بعض الكتب الفلسفية من الآرامية واليونانية إلى اللغة العربية .

ورابعتها اللهجة السريانية ، وهى لهجة مدينة إدسا ، Edessa كما كان يسميها اليونان ، أو أرهى Orhai كما كان يسميها السريان أنفسهم ، أو الرها كما كان يسميها العرب[1] (وهى واقعة فى شمال حران) . والسريانية هى أهم اللهجات الآرامية على الإطلاق وأغناها فى الإنتاج الأدبى والعلمى والفلسفى . فقد كانت الرها ، منذ اعتنق أهلها المسيحية فى القرن الثانى الميلادى ، أهم مركز للثقافة فى الشرق المسيحى ، وكانت لغتها أهم لغة للآداب المسيحية بوجه خاص . بل يغلب على الظن أن لهجتها كانت مستخدمة لغة أدب وكتابة فى منطقة كبيرة من شمال العراق من قبل العصر المسيحى . وقد أتيحت لها فرص كثيرة للاحتكاك باليونانية ، فاقتبست كثيراً من مفرداتها ، وتأثرت بأساليبها ، وانتفعت بمناهج التفكير اليونانى ، فغزرت بذلك مادتها ، واتسع نطاقها ، وقويت على التعبير عن مختلف حقائق الدين والفلسفة والعلوم . وظلت هذه اللهجة محتفظة بوحدتها طوال المدة التى كانت الكنيسة السريانية محتفظة بوحدتها فى أثنائها ، أى من نشأة هذه الكنيسة إلى القرن الخامس الميلادى . ثم حدث الخلاف المشهور بين علماء السريان بصدد ازدواج طبيعة المسيح ووحدتها ، فانقسمت الكنيسة السريانية إلى فريقين : السريان الغربيون الخاضعون للامبراطورية اليونانية الذين اعتنقوا مذهب يعقوب بارادوس Jacob Barados القائل بوحدة طبيعة المسيح ، وقد اشتهروا باليعاقبة ؛ والسريان الشرقيون الخاضعون للامبراطورية الفارسية الذين اعتنقوا مذهب نستوريوس Nostorius القائل بازدواج طبيعة المسيح أى بأنه جامع بين الطبيعتين الإلهية والإنسانية ، واشتهروا باسم النساطرة . وأدى هذا

---

(١) حرف اسمها فى القرن الخامس عشر إلى أورفا وبه تعرف الآن .

الانقسام الديني إلى انقسام أدبي ولغوى . فقد اتجهت اللغة وآدابها عند كل فريق من هذين الفريقين وجهة تختلف عن وجهتها عند الفريق الآخر .

ولذلك انقسمت اللغة السريانية إلى لهجتين : اللهجة اليعقوبية ؛ واللهجة النسطورية . وأخذت مسافة الخلف تتسع بينهما شيئاً فشيئاً حتى تميزت كل منهما عن الأخرى فى كثير من ظواهر الصوت والدلالة والقواعد ونطق الكلمات ورسمها ... وهلم جرا . وقد طبع هذا الخلاف بطابع رسمى ثابت بعد الفتح العربى لهذه البلاد . فقد خشى السريان على لغتهم أن تمتد إليها يد التحريف فتحرف معها عبارات الكتاب المقدس المترجمة إليها ، فعمل كلا الفريقين على ضبط قواعدها ، وتحديد أصواتها ، والطريقة التى تقرأ بها آيات العهدين القديم والجديد . فنجم عن ذلك طريقتان فى قراءة الكتاب المقدس : إحداهما الطريقة الشرقية أو النسطورية ؛ والأخرى الطريقة الغربية أو اليعقوبية . والطريقة الأولى هى أقربهما إلى اللغة القديمة .

هذا ، وقد كان للغة السريانية ومنتجاتها أثر كبير فى الآداب والعلوم العربية وخاصة فى العصر العباسى كما سيأتى بيان ذلك فى الفصل السادس من هذا الكتاب .

٢ — وتنقسم الآرامية الغربية بحسب عصورها إلى لهجات كثيرة أشهرها ثلاث لهجات تمثل كل لهجة منها مرحلة خاصة من مراحل التطور :

(إحداها) الآرامية الغربية فى أقدم عهودها (حوالى القرن الثامن ق . م) ولم يصل إلينا عن هذه اللهجة إلا بعض نقوش سنتكلم عنها فى الفقرة التالية .

(وثانيتها) اللهجة التى دون بها بطريق مباشر بعض أجزاء من سفرى عزرا Esdras ودانيال وآية من سفر أرمياء .

(وثالثتها) الآرامية الفلسطينية الحديثة ، وهى التى استخدمها اليهود فى الغرب فى ترجمة العهد القديم عن العبرية وفى شرح كتاب المشناة (يسمى هذا

الشرح «الجمارا» و يتألف منه مع المشناة مايعرف بتلمود بيت المقدس) ، واستخدمها المسيحيون بسوريا وفلسطين فى ترجمة العهدين القديم والجديد عن اليونانية ، بعد أن تحرروا من النفوذ السريانى فى ناحيتى الثقافة والدين . وذلك أن المسيحيين فى هذه البلاد ظلوا تابعين للنفوذ السريانى فى ناحيتى الثقافة والدين منذ القرن الثالث الميلادى ، ولذلك كان اعتمادهم على الترجمة السريانية للكتاب المقدس . ولكن انقسام الكنيسة السريانية إلى فرق متحاربة قد أضعف من نفوذها فى الغرب وأتاح لنصارى سوريا وفلسطين فرصة للاستقلال عن السريان فى آدابهم ومذاهبهم الدينية . فانفصلوا عن يعاقبة الشرق ونساطرته وأنشئوا لأنفسهم مذهباً دينياً خاصاً بهم ، وترجموا إلى لهجتهم أسفار العهد القديم والجديد ، وانفصلوا عنهم كذلك فى ثقافتهم وآدابهم . وقد بدأت نهضتهم هذه منذ القرن الخامس الميلادى .

٣ — الآثار التى وصلت إلينا عن الآرامية :

تقدم أن اللهجات الآرامية ترجع إلى مجموعتين رئيسيتين يفصلهما الفرات وصحراء الشام : إحداهما مجموعة اللغات الآرامية الشرقية ؛ والأخرى مجموعة اللغات الآرامية الغربية . وقد وصل إلينا عن كل مجموعة من هاتين المجموعتين آثار كثيرة .

(أولا) فأما آثار المجموعة الغربية فيرجع أهمها إلى الطوائف الست الآتية :

١ — النقوش الممثلة للآرامية الغربية فى أقدم عهودها . وأهم هذه النقوش نقش منسوب لملك حماه (بين دمشق وحلب) يرجع تاريخه إلى حوالى القرن الثامن ق . م ونقوش تنسب لملوك شمأل Sam'al يرجع تاريخها إلى عصر متأخر قليلا عن العصر السابق (١) ، ومن أهم هذه النقوش الأخيرة نقش الملك « بركب » الذى عثر عليه فى تل زنجيرلى Singerlei سنة ١٨٩١ فى قرية بين انطاكية ومرعش فى شمال حلب .

---

(١) بعض هذه النقوش غير آرامى .

وقد كتبت هذه النقوش برسم قريب كل القرب من الرسم الكنعانى القديم، ولكنه متميز عنه ببعض الخواص. وهذا يؤيد ما قلناه من أن الرسم الآرامى مشتق مباشرة من الرسم الفينيقى (١).

٢ — بعض أجزاء من العهد القديم دونت مباشرة باللغة الآرامية، وهى قسم من سفر عزرا Esdras يرجع تاريخ تدوينه إلى حوالى سنة ٣٠٠ ق. م وقسم من سفر دانيال يرجع تاريخ تدوينه إلى سنة ١٦٧ أو ١٦٦ ق. م، وآية من سفر أرمياء Jérémie (٢).

٣ — الآثار المصرية، وتطلق على بعض وثائق تشتمل على رسائل وعقود مدونة بالآرامية على البردى والخزف، وعثر عليها فى جزيرة فيلة (أنس الوجود) بمصر. ويرجع تاريخها إلى القرنين السادس والخامس ق. م. وقد اختلف الباحثون فى تعليل تدوينها باللغة الآرامية. فذهب بعضهم إلى أن كتبة العقود بمصر فى ذلك العهد كان معظمهم من اليهود؛ وكانت لغة اليهود حينئذ هى الآرامية. ويرجح كثير من المحدثين، ومن بينهم الأستاذ مرسل كوهين، أن جزيرة أنس الوجود كان يقطنها فى ذلك العصر جالية يهودية تتكلم الآرامية (٣). ولغة هذه الآثار لا تختلف فى شىء عن اللغة التي دون بها بعض أجزاء من سفرى عزرا ودانيال. والحروف التى رسمت بها تشبه الحروف العبرية المربعة. وتعد هذه هذه الوثائق أقدم ما وصل إلينا من الآثار السامية المدونة بالمداد.

٤ — الآثار التدمرية: عثر فى مدينة تدمر (٤) على آثار كثيرة مدونة بالآرامية وأهمها النقش الخاص بالضريبة المفروضة على البضائع التى تدخل المدينة.

---

(١) انظر ص ٣٦.

(٢) يضاف إلى ذلك كلمتان فى سفر التكوين وردتا بالآرامية عن قصد.

(٣) Laugnes du Monde 107.

(٤) تقع على مسافة ١٦٠ كيلومتراً فى الجنوب الشرقى من دمشق، وهى قاعدة مملكة تدمر الشهيرة التى كانت الزباء ملكة عليها فى بعض عصورها.

وقد ألحق بكثير من هذه الوثائق ترجمته باليونانية . و بعض هـذه الوثائق يرجع تاريخه إلى القرون الثلاثة الأولى ق . م ، ولـكن معظمها يرجع تاريخه إلى القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد (١٢٨ — ٢٧١) . ولغة الآثار القديمة منها ، وهى التى يرجع تاريخها إلى القرون الثلاثة الأولى قبـل الميلاد ، تشبه اللغة التى دون بها بعض أجزاء من سفرى عزرا ودانيال ؛ على حين أن لغة الطائفة الحديثة منها ، وهى التى يرجع تاريخها إلى القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد تشبه الفلسطينية الحديثة التي تقدم الـكلام عنها[١] . والرسم الذى دونت به هذه الوثائق قريب من رسم الوثائق المصرية السابق ذكرها .

أما أهل تدمر الذين تنسب إليهم هذه الوثائق فالراجح أنهم آراميون ، وإن كانوا خاضعين فى السلطان السياسى لبعض أسرات عربية .

٥ — الآثار النبطية : عثر فى كثير من بلاد النبط وخاصة فى بترا Petra أو الصخرة[٢] (والعرب يسمونها « سَلْع »)[٣] بطورسينا و بصرى Bostra بالشام ومنطقة العلا بالحجاز فى واحتى تيماء والحجر Tayma, el Higr على آثار كثيرة مدونة باللغة الآرامية يتمثل معظمها فى نقوش على القبور . و يتردد تاريخ هذه الوثائق بين أوائل القرن الأول ق . م وأوائل الرابع بعد الميلاد . واللغة التي دونت بها لا تختلف كثيراً عن الفلسطينية الحديثة . وقد دونت برسم نبطى تتصل

---

(١) انظر آخر صفحة ٥٩ وأول ٦٠ .

(٢) الأول اسمها اليوناني والثاني معنى اسمها بالعبرية .

(٣) بهذا الاسم ذكرها ياقوت فى معجم البلدان والفيروزابادى فى القاموس ، ومعنى سلع فى العربية الشق فى القدم والشق فى الجبل . ويظهر أن اليهود قد حرفوا كلمة سلع إلى أقرب لفظ اليها فى لغتهم وهو « سالع » ومعناه الصخر فجاء اليونان من بعدهم وترجموا الكلمة العبرية إلى لغتهم. أنظر فى هذا الموضوع كلمة نفيسة للدكتور رمسيس جرجس فى عدد يولية سنة ١٩٤٥ من مجلة « الشرق الجديد » تحت عنوان « الاسم العربي لبطرا اليونانية » ، وقد انتهى فى هذا البحث إلى أن الاسم العربى لهذه البلدة هو « الرقيم » المشار إليه فى القرآن والحديث .

هذا ، وقد ذكر البكرى فى « معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع » أن « سلعا » بفتح فسكون جبل متصل بالمدينة ومكان بالمعافر من اليمن . ولم يذكر من مدلولاته البلد الذى نحن بصدده .

بعض حروفه بما قبلها . وهى أقدم ماوصل إلينا من الآثار السامية المنقوشة على الحجر برسم متصل الحروف .

وقد اختلف الباحثون فى الأصل الذى انحدر منه النبطيون . فبعضهم يذهب إلى أن معظمهم ينحدر من أصول آرامية ؛ فلا غرابة فى نظر أصحاب هذا المذهب فى أن النبط كانوا يستخدمون الآرامية . و بعضهم يذهب إلى أنهم ينتمون إلى أصول عربية ، ولكنهم كانوا يستخدمون الآرامية لغة كتابة . و إلى هذا الرأى الأخير يميل كثير من الباحثين[(١)] .

٦ — الآثار الممثلة للآرامية الفلسطينية فى أدوارها الحديثة (من ميلاد المسيح) . وتنقسم هذه المجموعة من الآثار أقساماً كثيرة أهمها قسمان : الآثار اليهودية ؛ والآثار المسيحية .

(ا) أما الآثار اليهودية فهى أهم ما وصل إلينا من الآثار الآرامية الغربية على الإطلاق وأغزرها مادة . وهى تمثل الجهود الجبارة التى قام بها الربانيون والأحبار لنشر تعاليم الدين اليهودى بين أفراد شعبهم عن طريق نقل الكتب المقدسة والمؤلفات الدينية والتشريعية من العبرية التى كانت قد انقرضت من التخاطب في ذلك العصر إلى الآرامية التى كان يتكلم بها حينئذ سكان فلسطين . وكانوا فى أول الأمر يعتمدون على الشرح الشفوى . فكانوا فى العبادات والطقوس الدينية والدروس والعظات . . . وما إلى ذلك ، يتبعون الآية أو العبارة العبرية بترجمتها الآرامية . ثم آثروا تدوين هذه التراجم . فتألف من ذلك كتب كثيرة أهمها ترجمة أسفار العهد القديم وشرح أسفار المشناة . أما فيما يتعلق بالعهد القديم فقد كانوا يدونون الآية بنصها العبرى ثم يتبعونها بترجمتها بالآرامية . وتسمى كتبهم هذه «الترجوم» . ومن أشهرها ترجوم أنقلوس Onkelos وهى ترجمة لأسفار التوراة وحدها ، وترجوم يوناثان وهو ترجمة بقية أسفار العهد القديم . وأما فيما يتعلق

---

(١) من هؤلاء العلامة بروكلمان V. Brockelmann, op. cit. 28, 29. V. aussi Langues du monde 109.

بالمشناة ، فكانوا يدونون الأصل العبرى و يشرحونه شرحاً بالآرامية . و يطلق على هذه الشروح اسم الجمارا Guemara . ومن نصوص المشناة وشروح الجمارا التى قامت بها هذه المدارس الغربية يتألف ما يسمى بتلمود بيت المقدس . وقد ألفت هذه التراجم والشروح فى عدة عصور . فأقدمها يرجع تاريخه إلى القرن الثانى بعد الميلاد ؛ ولكن معظمها يرجع إلى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد .

(ب) وأما الآثار المسيحية فلم يصل إلينا شيء يعتد به مما دون منها فى القرون المسيحية الأولى . فمع أن الآرامية كانت لغة المحادثة فى العصر الذى ظهر فيه المسيح ، ومع أنها هى التى كان يتكلم بها المسيح نفسه والتى قيلت بها عبارات الأناجيل ، فإنه لم يصل إلينا الأصل الآرامى لهذه الأسفار ، أو لعلها لم تدون مطلقاً بالآرامية . وأقدم ما وصل إلينا عنها هى ترجمتها اليونانية . ولا تظهر فى هذه الترجمة إلا آثار ضئيلة للهجة الآرامية التى كان يتكلم بها أهل فلسطين فى ذلك العهد . وتتمثل هذه الآثار فى نحو ست عشرة كلمة آرامية مدونة بحروف يونانية.

وأهم ما وصل إلينا من هذه الآثار هو ما دونه مسيحيو فلسطين بالآرامية بعد أن استقلوا فى ثقافتهم وشئونهم الدينية عن السريان . وقد تم لهم هذا الاستقلال فى أواخر القرن الخامس الميلادى كما تقدمت الإشارة إلى ذلك . ومن أهم ما دونوه بعد ذلك العصر ترجمة العهدين القديم والجديد من اليونانية إلى الآرامية . أما ترجمة العهد الجديد فقد استغرق تدوينها وتحريرها مدة طويلة ، من القرن الثامن إلى الحادى عشر بعد الميلاد . ومع ذلك فقد جاءت ترجمة حرفية كالترجمة السريانية ، بل تزيد فى حرفيتها عن هذه الترجمة الأخيرة ، وتقل عنها فى مبلغ تمثيلها لروح اللغة الآرامية وأساليبها ، وذلك على الرغم من أنها تمت فى الموطن الأول الذى نبعت منه الأناجيل . وأما العهد القديم فلم يترجموه عن أصله العبرى كما فعل اليهود فى « ترجوماتهم » السابق ذكرها [١] ، بل ترجموه عن

(١) أنظر ص ٦٣ .

الترجمة اليونانية الشهيرة باسم الترجمة السبعينية Version de Septante.

وقد وصل إلينا كذلك من الآثار المسيحية ترجمة عدد كبير من المؤلفات الإغريقية فى الآداب والديانات والأساطير والعلوم.

(ثانيا) وأما الآثار التي وصلت إلينا عن الآرامية الشرقية فيرجع أهمها إلى الطوائف الأربع الآتية:

١ — النقوش الممثلة للآرامية الشرقية فى أقدم عهودها. ولم يصل إلينا من هذه الطائفة إلا آثار ضئيلة عثر على أهمها فى مدينة آشور، ويرجع تاريخ أقدمها إلى القرن التاسع ق. م، ولكن معظمها يرجع تاريخه إلى القرون السابع والسادس والخامس ق. م، وهى مدونة بالرسم الآرامى القديم ذى الحروف المتفرقة.

٢ — الآثار السريانية. لم يصل إلينا من الآثار السريانية الممثلة للعهد الوثنى إلا أثر واحد، وهو خطاب مارا بن سرابيون Mara bar Sarapion. ومع قدم العهد الذى كتب فيه هذا الخطاب، فإن لغته لا تكاد تختلف عن اللهجة السريانية فى عصورها الحديثة.

أما فى عهدها المسيحى، فقد وصل إلينا منها آثار كثيرة أهمها ترجمة العهد القديم والجديد من اليونانية (من القرن الثانى إلى الرابع بعد الميلاد) ومؤلفات دينية أخرى يشتمل بعضها على تراجم وتفاسير لطائفة من القسس، وبعضها على مناقشات دينية وقانونية لطائفة النساطرة واليعاقبة، وبعضها على شرائع وقوانين مستمدة من التوراة والإنجيل، وبعضها على قصائد دينية ترتل فى الكنائس، وبعضها على تاريخ الكنيسة السريانية وتاريخ رؤسائها... وهلم جرا. هذا إلى طائفة كبيرة من المؤلفات العلمية والفنية فى الفلسفة والطب والطبيعة والرياضة والفلك وتقويم البلدان... وما إلى ذلك. وكثير من هذه المؤلفات مترجم عن اليونانية[1]؛ وبعضها مترجم عن اللاتينية والفارسية.

(١) ترجم بعض هذه المؤلفات من السريانية إلى العربية فى صدر العصر العباسى.

ويمتاز الخط السرياني القديم المسمى السطرنجيلى (الاسترانجيلى) عن بقية الخطوط الآرامية بكثير من الخواص . ولكن يتفق معها فى الشكل العام للحروف وفى السير الأفقى من اليمين إلى الشمال . غير أنه يستفاد من بعض النقوش أنه كان يكتب فى بعض العصور من أعلى إلى أسفل .

وبعد أن انقسم السريان إلى نساطرة ويعاقبة أخذ الرسم عند كل فريق منهما يتجه وجهة تختلف عن وجهته عند الفريق الآخر . فاشتق من السطرنجيلى القديم خطان : أطلق على أحدهما اسم الخط النسطورى (ويعرف فى الهند باسم الكلدانى) ؛ وعلى ثانيهما اسم السرتو (ويعرف كذلك باسم المارونى أو اليعقوبى) . ويختلف هذان الرسمان فى أمور كثيرة من أظهرها منهج كل منهما فى العلامات المشيرة إلى أصوات المد . فالرسم النسطورى يشير إلى هذه الأصوات بنقط فوق الحرف أو تحته (ويسمى هذا الأسلوب بالطريقة الشرقية) ، والرسم اليعقوبى يشير إليها بحروف يونانية (ويسمى هذا الأسلوب بالطريقة الغربية) .

٣ — تلمود بابل Talmude de Babylone . سلكت مدارس اليهود فى بابيلونيا حيال المشناة الطريق نفسه الذى سلكته المدارس الغربية بفلسطين (١) ؛ فشرحته بلهجتها الآرامية فى أسفار اشتهرت تسميتها بتلمود بابل (٢) . وقد شرعوا فى شروحهم هذه من القرن الرابع بعد الميلاد ولم يفرغوا منها إلا فى القرن السادس . ويظهر فى اللغة التى دونت بها هذه الشروح كثير من وجوه التأثر باللغة العبرية .

٤ — آثار الطائفة المندئية Mendéen, Mandaïte . ولا تختلف اللهجة التى دونت بها هذه الآثار اختلافاً كبيراً عن اللهجة التى دون بها تلمود بابل . غير

---

(١) أنظر آخر ص ٦٣ وأول ٦٤ .

(٢) يسمى الشرح وحده « الجمارا » والمتن « المشناه » ويتألف من المتن والشرح ما يسمى « التلمود » .

أنها أقل منها تأثراً باللغة العبرية . ويرجع تاريخ أقدمها إلى المرحلة المحصورة بين القرنين السابع والتاسع بعد الميلاد ، ويمتاز رسمها عن سائر أنواع الرسم الآرامى ، بل عن سائر أنواع الرسم السامى ، بشدة عنايته بأصوات المد ، حتى أنه لا يكاد يغادر صوتاً منها بدون أن يرمز إليه .

هذا وقد وصلت إلينا الآرامية كذلك عن طريق السماع ، فهى لا تزال مستخدمة لغة تخاطب حتى العصر الحاضر فى بعض المناطق كما سيأتى بيان ذلك .

٤ — نهاية الآرامية :

أخذت اللغة العربية تقتحم على الآرامية معاقلها وتنتزعها منها معقلا معقلا حتى قضت عليها فى الميدانين الغربى والشرقى .

أما فى الغرب فقد انقرضت الآرامية بعد الفتح العربى من لغة التخاطب فى معظم مناطق سوريا وفلسطين ، وإن كانت قد بقيت بعد ذلك أمداً غير قصير لغة كتابة وأدب ودين . وقد لقيت العربية مقاومة عنيفة فى المناطق الجبلية من هذا القسم ببلاد لبنان وما إليها ، حيث استغرق الصراع بينها وبين الآرامية عدة قرون . فقد ظلت الآرامية لغة حديث فى كثير من قرى لبنان حتى أواخر القرن السابع عشر بعد الميلاد . ولعنف الصراع بين هاتين اللغتين وطول أمده فى هذه المناطق أصاب اللغة العربية فى ألسنة أهلها كثير من التحريف ، وبقى فى لهجاتهم العربية إلى العصر الحاضر ، كثير من آثار لهجاتهم الآرامية القديمة .

بل إن اللغة الآرامية لا تزال إلى العصر الحاضر لغة حديث فى ثلاث قرى من هذا القسم يبلغ عدد سكانها نحو ألفى نسمة : منها قرية مسيحية تسمى « معلولة » (على بعد خمس وثلاثين كيلوا متراً تقريباً من شمال دمشق) ؛

وقريتان إسلاميتان مجاورتان لها هما جبعدين و بخفا[١] . و يطلق العلماء على لهجات هذه القرى الثلاث اسم الآرامية الحديثة الغربية Néo Aramien Occidental ، و بعضهم يسميها بالسريانية الغربية Syriaque Occidental . وغنى عن البيان أن هذه اللهجات قد بعدت بعداً كبيراً عن أصولها الأولى ، تحت تأثير ما انتابها من عوامل التطور الطبيعى ، وكثرة المراحل التى اجتازتها فى هذا السبيل ، وطول عمرها ، وتأثرها باللغات التى احتكت بها وخاصة اللغة العربية .

وأما فى الشرق فقد لقيت العربية مقاومة من مختلف اللهجات الآرامية ، وخاصة السريانيه ، ولكن انتهى الأمر بتغلب العربية عليها كما تغلبت على أخواتها فى الغرب ، فلم ينصرم القرن السابع حتى انقرضت الآرامية الشرقية من لغات التخاطب فى هذه المناطق ، و إن كانت السريانية قد بقيت مستخدمة لغة كتابة وأدب ودين فى كثير من الأوساط حتي أواخر القرن الرابع عشر الميلادى .

وقد أفلت من هذا المصير بعض مناطق جبلية لا تزال إلى العصر الحاضر محتفظة بلهجاتها الآرامية . وتشتمل هذه المناطق على بعض قرى فى طور عابدين Tur Abdin بميزو بوتاميا و بعض بلاد فى شرق الموصل وشماله وجبال الكرد والشاطئ الشرقى لبحيرة أورميا Ourmia . و يبلغ مجموع السكان فى هذه المناطق نحو ربع مليون نسمة[٢] . و يطلق المستشرقون على هذه اللهجات اسم الآرامية الشرقية الحديثة Néo Aramien Oriental ؛ و بعضهم يسميها بالسريانية الحديثة Néo Syriaque . ولا يختلف حال هذه اللهجات عن حال أخواتها فى الغرب .

---

(١) استعنت فى تحرير هذه النقطة بصديقى الأستاذ محب الدين الخطيب مدير المطبعة السلفية. غير أنه يرى أنه لا يبعد أن يكون المستشرقون الذين أخذنا عنهم (بروكلمان ، كوهين ، مهسية ...الخ) قد بالغوا كثيراً لغرض ما فى اعتبار هذه اللهجات آرامية . وهو يرجح أنها لهجات عربية كثرت فيها مظاهر التأثر بالآرامية .

(٢) Rrockelmann 36; Langues du monde 114 . وقد أتيح لى قضاء بضعة أشهر فى العراق وملاحظة هذه اللهجات عن كثب ، فتبين لى صدق ما ذهب إليه المستشرقون بصدد انشعابها عن الآرامية .

فقد بعدت بعداً كبيراً عن أصولها الأولى ، تحت تأثير ما انتابها من عوامل التطور الطبيعى ، وكثرة المراحل التي اجتازتها فى هذا السبيل ، وطول عمرها ، وتأثرها باللغات التى احتكت بها وخاصة العربية والفارسية والكردية . وفى غضون القرن التاسع عشر بذلت بعثة أمريكية دينية جهوداً كبيرة للنهوض بلهجة بحيرة أوزميا ، فاتخذت منها لغة كتابة وأدب ، ودونت بها كثيراً من البحوث الدينية التي تعمل على نشرها فى هذه المنطقة وكثيراً من الآثار الأدبية وغيرها التى أنتجتها قرائح الناطقين بها .

الفصل الرابع

اللغات اليمنية القديمة

١ — نشأتها ومنزلتها من الفصيلة السامية وصلتها باللغة العربية :

تعد بلاد اليمن من أقدم مواطن الساميين ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى مقدمة هذا الكتاب (١) . وقد أنشئوا فيها حضارة من أرقى الحضارات القديمة ، وممالك قوية كان لها شأن كبير فى التاريخ ، كما يشهد بذلك ما خلفته من آثار ، وما تحدثنا به الكتب المقدسة ويرويه قدامى المؤرخين عن سلطانها العظيم ، ومجدها المؤثل ، وما كان لها ولملوكها من نفوذ ومكانة عند كثير من الأمم المعاصرة (٢) .

وقد وصلت إلينا اللغات القديمة لهذه الشعوب السامية عن طريق نقوش كثيرة مدونة على الصخور والأعمدة والقبور والتماثيل والنقود وجدران الهياكل والمذابح ... وما إلى ذلك . ومعظم هذه النقوش عثر عليه فى بلاد اليمن نفسها وفى الواحات الواقعة شمال بلاد الحجاز فى منطقة العلا ، وبعضها عثر عليه فى المناطق الشمالية المتاخمة لبلاد كنعان .

ويطلق العلماء على هذه اللغات إسم « اليمنية القديمة » أو « العربية الجنوبية القديمة » Sud arabiques anciennes أو « القحطانية » ؛ وأحياناً يسمونها

(١) انظر صفحة ١١ وتوابعها .

(٢) عرض القرآن الكريم لكثير من أخبار اليمن وما كان لملكة سبأ مع سليمان ابن داود ملك فلسطين فى سورة سبأ والنمل والأنبياء وص والفجر والفيل . وعرض لها كذلك كثير من أسفار العهد القديم (التكوين ، أشعياء ، حزقيال ، الملوك ... الخ) ، وعرض التلمود لكثير من أخبار سليمان مع ملكة سبأ . وتكلم عنها كثير من قدامى المؤرخين اليونان والرومان كهيرودوت وسترابون ، وتكلم عنها جميع مؤرخى العرب .

باسم بعض لهجاتها الشهيرة فيطلقون عليها إسم « الحميرية » أو « السبئية » .

وتختلف هذه اللغات عن اللغة العربية اختلافاً جوهرياً فى كثير من مظاهر الصوت والدلالة والقواعد والأساليب ، ويشتد هذا الخلاف فى المفردات نفسها . ويكفى للاقتناع بذلك إلقاء نظرة على النقش السبئى التالى ، وهو أحد النقوش التى وصلت إلينا عن هذه اللغات ، والموازنة بين عبارته وترجمتها إلى اللغة العربية :

(عبارة النقش مدونة بحروف عربية[1])

(١) ب ... وهق ... حنا وصوابت ومحفدت وهجرهمو .

(٢) مبرام حسسم وا ... م ... م ووسفو وريموكل جنا هو وصوبت .

(٣) ... جناهو وصووبتهو ومحفدتهو بن مريمهو عدى ثرتهو وهدبو هو وهعقبن .

(٤) خدعو وهعقبو لخلفهو مصرعتم مبرا ومقيح كل صدقم بن موثرم عدى ت .

(٥) ... ن بمقم مراهيمو عشتر شرقا أشمسهو والال تهمو وباخيل ومقيمت خميس .

(٦) حن يو رخن ذقيصن ذبخرف ذلشثت وتسعى وثلث ماتم بن خرف مبحض بن أبحض .

(ترجمته إلى اللغة العربية)

(١) ... (واعلوا مرة أخرى) السور و ... أبراج مدينتهم .

(٢) بأدوات البناء ووسعوا كل سورها و ...

(٣) وسورها و ... وأبراجها من أعلى إلى أسفل مكان وزينوها ب ... وأبراجها للحراسة .

---

(١) الأصل مدون بخط المسند كما لا يخفى .

(٤) وعمروا الحلف (؟) على هيئة باب حصن بأحسن أدوات البناء وفن التعمير من أسفل إلى أعلى ...

(٥) بمجد سيدهم عثتر المشرق وآلهتهم الشموس وسائر الآلهة وبحول وقوة الخميس (الجيش).

(٦) فى شهر ذى قيض من سنة ثلثمائة وست وتسعين بعد سنة مبحوض ابن أبحض [1].

فاللغات اليمنية القديمة مستقلة تمام الاستقلال عن اللغة العربية، ولكنها تؤلف معها ومع اللغات الحبشية السامية شعبة لغوية واحدة يطلق عليها اسم « الشعبة الساميّة الجنوبية » [2]. وذلك أن صلات القرابة التى تربطها بهذين الفرعين أقوى كثيراً من صلات القرابة التى تربطها بشعبة اللغات السامية الشمالية كما يبدو ذلك من الموازنة بينها فى أصول الكلمات والأصوات والقواعد [3]. وتختلف هذه الفروع الثلاثة نفسها فى مبلغ قربها بعضها من بعض. فصلة القرابة بين اللغات اليمنية القديمة واللغات الحبشية السامية أقوى كثيراً من صلة القرابة بين كل منهما واللغة العربية. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن اللغات الحبشية السامية قد انشعبت عن اللغات اليمنية، وأن الفضل فى نشر اللسان السامى ببلاد الحبشة

---

(١) اعتمدنا فى هذا النقش على كتاب الدكتور اسرائيل ولفنسن « تاريخ اللغات السامية » صفحات ٢٤٨ — ٢٥٠، واصلاحات المستشرق الألمانى أنوليتمان بصفحة ٢٨٠ من هذا الكتاب. والنقط تشير إلى قطع مطموسة أو مكسورة من النقش. ويظهر أن المراد « بعثرت المشرق » الإلهة عشتروت الشهيرة التى كان يظن قبلا أن عبادتها مقصورة على الفينيقين، ثم أثبتت الآثار اليمنية أنها كانت معبودة فى اليمن أيضاً. فكان ينبغى إذن أن يقال فى ترجمة النقش: « بمجد سيدتهم عشتروت المشرقة ».

(٢) وهى مقابل الشعبة الشمالية التى تتألف — كما سبقت الإشارة إلى ذلك — من الأكادية والكنعانية (الفينيقية والعبريه) والآرامية.

(٣) من أهم ما تمتاز به هذه الشعبة الجنوبية (العربية واليمنة والحبشية) عن الشعبة الشمالية فيما يتعلق بالقواعد اشتمالها على طريقة جمع التكسير، على حين أنه لا يوجد فى الشعبة الشمالية إلا طريقة الجمع السالم Renan op. clt. 315.

يرجع إلى المهاجرين الأولين من بلاد اليمن كما سيأتى بيان ذلك فى الفصل الخامس.
وتختلف هذه الفروع الثلاثة كذلك فى مبلغ بعدها عن الشعبة الشمالية . فمسافة الخلف بين الشعبة الشمالية من جهة واللغات اليمنية والحبشية من جهة أخرى أضيق من مسافة الخلف بين هذه الشعبة واللغة العربية(١) .

ولا نعلم على وجه اليقين متى نشأت اللغة اليمنية القديمة . ولكن يؤخذ من شواهد كثيرة أنها نشأت فى عصور سحيقة فى القدم قبل الميلاد المسيحى ، وأنها عاشت قروناً عديدة كانت فى أثنائها لغات حديث وكتابة وآداب . غير أنه لم يصل إلينا منها إلا النقوش التى سبقت الإشارة إليها . ومع كثرة هذه النقوش ووفرة مادتها اللغوية فإن كثيراً من عباراتها لا يزال غير واضح الدلالة ، وذلك لما تشتمل عليه من عبارات دينية مبهمة ، واصطلاحات غامضة تتعلق بفن المعمار ، وكلمات غريبة لا نظير لها فى اللغات السامية الأخرى . ولذلك كثيراً ما يقنع الباحثون فى مثل هذه العبارات باستخلاص معناها العام فى صورة تقريبية ظنية على ضوء سياق الحديث .

٢ — أدوارها وأقسامها :

تنقسم اللغات اليمنية القديمة أقساماً كثيرة من أهمها اللهجات الآتية :

١ — اللهجات المعينية (Ma'in) Minéen . وهى تنسب إلى المعينيين الذين أنشئوا بجنوب اليمن أقدم مملكة فى بلاد العرب . وكانت عاصمة مملكتهم هذه مدينة قرنا أو قرناتا . ولا نعلم على وجه اليقين متى نشأت هذه المملكة . ولكن يظهر من شواهد كثيرة أنها تكونت حوالى القرن الثامن ق . م .

وكان بيد المعينيين زمام التجارة بين الهند من جهة و بلاد العرب وما إليها من جهة أخرى . فكانت قوافلهم التجارية تتجه من سواحل المحيط الهندى إلى

(١) V. Renan op. cit. 315 .

القسم الشمالى فى البلاد الكنعانية مارة بسواحل البحر الأحمر. ومن ذلك امتد نفوذهم إلى المناطق الشمالية ، وكان لهم بها بعض مستعمرات متاخمة للبلاد الكنعانية — الآرامية تسكنها جاليات منهم.

وقد وصلت إلينا اللهجة المعينية عن طريق نقوش عثر على بعضها فى هذه المستعمرات الشمالية وعلى بعضها فى بلاد اليمن نفسها.

٢ — اللهجة السبئية Sabéen . وهى تنسب إلى السبئيين الذين قوضوا ملك المعينيين ، وأقاموا على أنقاضه مملكة كان لها شأن كبير فى التاريخ القديم ، وهى مملكة سبأ التى كانت عاصمتها مدينة مأرب الشهيرة.

وقد وصلت إلينا اللهجة السبئية عن طريق نقوش كثيرة عثر عليها حديثاً فى مختلف بلاد اليمن ، وخاصة فى منطقة مأرب . ويظهر أن السبئيين لم تكن لهم جاليات فى الشمال كما كان للمعينيين . ولذلك لا نجد بين النقوش اليمنية التى عثر عليها فى الشمال ما هو مدون باللهجة السبئية .

وقد اشتبك السبئيون مع كثير من الدويلات اليمنية الأخرى فى صراع وحروب كتب لهم فيها النصر ، فاتسعت بذلك رقعة مملكتهم اتساعاً كبيراً ؛ وظلوا قابضين على زمام الحكم حتى انتزعه منهم الأحباش الذين غزوا اليمن لأول مرة فى أواخر القرن الرابع الميلادى (سنة ٣٧٥) .

واشتبكت لغتهم كذلك مع كثير من اللهجات اليمنية الأخرى فى صراع كتب لها فيه النصر ، فظلت لها السيادة فى بلاد اليمن فى أثناء المدة الطويلة التى استغرقها ملكهم ، بل بقيت سيادتها فى أثناء الحكم الحبشى الأول لهذه البلاد (٣٧٥ — ٤٠٠ بعد الميلاد) .

٣ — اللهجة الحميرية القديمة[١] . وهى تنسب إلى جماعات حمير التى ظلت

---

(١) وصفناها بالقديمة تمييزاً لها عن لهجة حمير بعد أن تغلبت العربية على ألسنتهم . وهذه اللهجة الأخيرة هى التى يعنيها معظم مؤرخى العرب حينما يتكلمون عن لهجة حمير . ويستثنى من هؤلاء أبو عمرو بن العلاء فإنه كان يعنى الحميرية القديمة إذ يقول « ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا » .

تنازع السبئيين السلطان مدة طويلة بدون أن تقوى على انتزاعه من أيديهم . وقد اشتبكت لهجتهم فى صراع مع اللهجة السبئية ، ولكنها لم تقو كذلك على التغلب عليها أو انتقاص شيء من مناطقها ، وظل الحال كذلك حتى طرد الأحباش لأول مرة من بلاد اليمن سنة ٤٠٠ وتولى الحكم فيها أسرة حميرية[1] . ومن ذلك الحين أخذ نجم اللغة الحميرية فى البزوغ ، فاستأثرت بكثير من مظاهر السيادة والنفوذ الأدبى فى بلاد اليمن ، كما تدل على ذلك النقوش التى وصلت إلينا عن هذا العصر .

٤ — اللهجة القتبانية : وهى تنسب إلى قبائل قتبان Quataban التى أنشأت مملكة كبيرة فى المناطق المسماة بهذا الاسم ، وهى المنطقة الساحلية الواقعة شمال عدن ، وقد نشبت بين مملكتهم ومملكة سبأ حروب كثيرة كان من نتائجها انقراض مملكتهم ، واندماج قبائلهم فى السبئية . وتم هذا فى أواخر القرن الثانى ق . م .

وقد وصلت إلينا اللهجة القتبانية عن طريق بعض نقوش عثر عليها فى بلاد اليمن .

٥ — اللهجة الحضرمية : وهى تنسب إلى قبائل حضرموت التى أنشأت فى المنطقة الجنوبية المسماة بهذا الاسم حضارة زاهرة ومملكة قوية . وظلت مملكتهم هذه تنازع سبأ السلطان مدة غير قصيرة . ولكن كتب النصر فى النهاية لسبأ ، فأزالت مملكة حضرموت كما أزالت مملكة قتبان .

وقد وصلت إلينا اللهجة الحضرمية عن طريق نقوش عثر عليها فى مواطنها القديمة .

* * *

---

(١) امتد حكم هذه الأسرة حتى سنة ٥٢٥ ، وكان ملوكها يلقبون بالتبابعة جمع تبع بضم التاء وتشديد الباء المفتوحة ، وكان آخر ملوكها ذا نواس . ثم تغلب الأحباش مرة ثانية على بلاد اليمن وأسقطوا ملكها ذا نواس . وظلوا قابضين على زمام الحكم حتى سنة ٥٧٠ ، ثم انتزعه منهم الفرس الذين حكموا هذه البلاد إلى عهد الفتح الإسلامى .

وغنى عن البيان أن الذى وصل إلينا عن هذه اللهجات لا يمثل إلا لغة الكتابة أو لغة الآداب . ولذلك لا يظهر من النقوش المتعلقة بأية لهجة منها أى أثر لتطور جوهرى : فلا يكاد يوجد فرق يعتد به بين اللغة المدون بها أقدم نقوشها واللغة المدون بها أحدثها ، مع أن الفاصل بين هذين النوعين قد يصل أحياناً إلى تسعة قرون[١] . ولا غرابة فى ذلك ؛ فلغات الكتابة تميل دائماً إلى المحافظة والجمود . أما لغات المحادثة فى هذه البلاد ، فلا بد أن يكون قد نالها كثير من التطور ، لأن هذا النوع من اللغات لا يستقر على حال ولا يمكن لأية قوة أن تجمد به أو تعوق تطوره ، كما يمكن ذلك أحياناً حيال لغات الكتابة . غير أنه لم يصل إلينا لسوء الحظ شىء ما عن لغات التخاطب فى هذه البلاد .

٣ — الرسم اليمنى :

يعرف الخط اليمنى عند العرب بالخط المسند[٢] . وهو مشتق من الرسم الكنعانى[٣] ويشبهه من عدة وجوه . ولكنه يمتاز عنه بجمال التنسيق والأشكال الهندسية المنظمة التى يتكون منها كثير من حروفه . ويكتب فى الغالب مستعرضاً من اليمين إلى الشمال . وأحياناً يكتب بالطريقة الثعبانية : فيرسم السطر الأول من اليمين إلى الشمال والثانى من الشمال إلى اليمين والثالث من اليمين إلى الشمال وهكذا . وعدد حروفه تسعة وعشرون صوتاً ساكناً . أما أصوات المد طويلها وقصيرها فلا يرمز هذا الرسم إلى شىء منها . وهكذا شأن جميع الأنواع القديمة للرسم السامى ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك[٤] . ولذلك لم نقف على كيفية النطق

---

(١) يرجع أقدم نقش فى بعض هذه اللهجات إلى القرن الثالث ق . م . على حين أن أحدثها يرجع تاريخه إلى القرن السادس بعد الميلاد .

(٢) سمى بذلك لأن معظم حروفه تستند إلى أعمدة ، وتمثل بذلك طرازهم المعمارى الذى كان يرتكز على الأعمدة فى تشييد القصور والمعابد والسدود وأبواب المدن والأسوار .. وهلم جرا .

(٣) يذهب بعض العلماء إلى عكس ذلك ، فيدعى أن الكنعانى هو الذى اشتق من خط المسند ، ولم يقم على صحة هذا الرأى دليل يعتد به ، بل قام على بطلانه أدلة كثيرة .

(٤) انظر صفحة ٣٨ .

بكلمات اللغات اليمنية القديمة على وجه يقيني . فهى لم تصل إلينا إلا عن طريق النقوش المدونة بهذا الرسم ؛ وتجرد هذا الرسم من حروف المد يجعل قراءة كل كلمة محتملة لعدة وجوه .

٤ — نهاية اللغات اليمنية :

أتاحت مجاورة اللغة العربية للغات اليمنية القديمة فرصاً كثيرة للاحتكاك اللغوى ، فاشتبكت معها فى صراع استغرق أمداً طويلا ، وانتهى فى المراحل الأخيرة من العصر الجاهلى بانتصار العربية على هذه اللغات فى كثير من المناطق ، وفقاً لقانون الصراع بالمجاورة الذى تكلمنا عنه طويلا فى كتابنا « علم اللغة »[١] . فقد كانت اللغة العربية فى هذا العصر أرقى كثيراً من اللغة اليمنية القديمة ثقافة وآداباً ، وأغزر مفردات ، وأدق قواعد ، وأقدر منها فى مجال التعبير عن مختلف فنون القول . وكان النفوذ العربى فى نواحى التجارة والسياسة والثقافة والأدب والدين قد أخذ حينئذ يتغلغل فى بلاد اليمن ، التى كانت فى ذلك العصر فى دور انحلال كبير تمزقها الفتن والمنازعات الداخلية ، ويتناوب حكمها الأحباش تارة والفرس تارة أخرى . فجميع الظروف التى تقتضيها قوانين التغلب اللغوى والتى فصلناها فى كتاب « علم اللغة » كانت مهيأة لتغلب اللغة العربية على اللغات اليمنية القديمة . فحالة اللغة العربية فى صراعها مع هذه اللغات كانت شبيهة بحالة اللغة الألمانية فى صراعها مع لهجات المناطق السويسرية المجاورة لألمانيا ، وحالة اللغة الفرنسية فى صراعها مع لهجات المناطق البلجيكية والسويسرية المجاورة لفرنسا . فقد كتب النصر فى هذين المثالين للألمانية والفرنسية لتوافر الظروف نفسها التى توافرت للغة العربية فى الحالة التى نحن بصددها . بل أن قوة القرابة بين العربية واللغات اليمنية قد زودت العربية فى صراعها هذا بسلاح لم يتوافر مثله للألمانية

---

(١) انظر صفحات ٢١٨ — ٢٢٤ من كتاب « علم اللغة » للمؤلف ، الطبعة الثالثة .

والفرنسية فى الحالات السابقة . فمن المقرر أن قوة القرابة بين اللسانين المتصارعين تذلل لأرقاهما سبل الانتصار[١] .

غير أن اللغة العربية قد نالها فى ألسنة أهل اليمن بعض التحريف فى أصواتها ومفرداتها وقواعدها وفقاً لقوانين التغلب المشار إليها[٢] . وقد أصابها هذا التحريف فى ألسنتهم تحت تأثير لهجاتهم القديمة ، ومفرداتها ، وخواصها الصوتية ، والتكوين الطبيعى لأعضاء نطقهم ، وما درجوا عليه من عادات فى اللفظ ، وما كان يكتنفهم من ظروف طبيعية وجغرافية واجتماعية تختلف فى جوهرها عما كان يكتنف عرب نجد والحجاز ، وما كانوا يمتازون به فى ثقافتهم وتفكيرهم واتجاهاتهم الوجدانية ... وهلم جرا . فنشأ من جراء هذا كله فى بلاد اليمن لهجة عربية أو لهجات عربية تختلف بعض الاختلاف عن لهجات الشمال فى بعض مظاهر الصوت والدلالة والقواعد والمفردات[٣] .

ولكن هذا الخلاف لم يكن ليزيد على الخلاف بين لهجات اللغة الواحدة . ففى المرحلة الأخيرة للعصر الجاهلى كان أهل الحجاز ونجد يتفاهمون مع أهل اليمن كما يتفاهم فى العصر الحاضر سكان الصعيد مع سكان الوجه البحرى ، أو كما يتفاهم أهل باريس مع أهل بروكسل . وقد وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفود من مختلف قبائل اليمن فتفاهم معهم فى مختلف شئون الدين بدون حاجة إلى مترجم ؛ وذهب على بن أبى طالب ومعاذ إلى اليمن موفدين من قبل الرسول عليه السلام فلم يحتاجا إلى ترجمان .

---

(١) انظر الفصل الخاص بصراع اللغات من كتاب « علم اللغة » للمؤلف .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) فمن مظاهر الاختلاف فى المفردات أن اليمانيين كانوا يسمون الذئب « القلوب » بكسر القاف وسكون اللام ، والأصابع « الشناتر » ، والصديق « الخلم » . (انظر الصاحبى ١٢٦) . ومن مظاهر الاختلاف فى القواعد أداة التعريف ، فقد كانت « أم » عند أهل اليمن ، وبلغتهم جاء الحديث : « ليس من أمبر امصيام فى امسفر » .

ويدل على ذلك أيضاً أن بعض الأسواق التى كان يعقدها العرب فى الجاهلية للشعر والأدب كانت تقام فى اليمن ، كسوق الشحر التى كانت تقام فى النصف من شعبان ، وسوق صنعاء التى كانوا ينفضون منها فى آخر رمضان . فهذا من أقوى الأدلة على أن بلاد اليمن كانت قبل الإسلام بعهد طويل عربية اللسان ، إذ لا يعقل أن تقام سوق للآداب العربية فى بلد يتكلم أهله بلسان غير عربى .

وكما تغلبت العربية على اللغات اليمنية القديمة فى ميادين التخاطب ، تغلبت عليها فى ميادين الآداب والكتابة ؛ فاستأثرت بالشعر والنثر الأدبى والخطابة والرسائل والتدوين . . . وهلم جرا . غير أنه لم ينل اللغة العربية بهذه البلاد فى ميادين الآداب والكتابة ما نالها من تحريف فى ميادين المحادثة ؛ بل ظلت خالصة فصيحة لا تكاد تختلف فى شىء عن عربية أهل الشمال . وهذا شأن اللغات المنتصرة فى مختلف الأمم والعصور . فهى ، وإن نالها بعض التحريف فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها ، تنتقل إليهم سليمة فى ميادين الأدب والكتابة. هذا إلى أن من طبيعة لغات الكتابة أنها متئدة الحركة بطيئة التغير ، تميل إلى الجمود ، ولا تساير لهجات المحادثة فى تطورها المطرد السريع . وإليك مثالا اللغة اللاتينية ، فقد ظلت فى البلاد التى تغلبت على ألسنتها (فرنسا ، إيطاليا ، أسبانيا ، البرتغال ...) لغة آداب وكتابة حتى فاتحة العصور الحديثة ، ولم ينلها فى أثناء هذه المدة الطويلة تغيير يستحق الذكر فى هذا الميدان ، بل ظلت جامدة على حالتها القديمة أو ما يقرب منها ؛ على حين أنها تطورت تطوراً كبيراً فى ميادين المحادثة ، حتى نشأت منها لهجات مختلفة اختلافاً كبيراً عن أصلها (الفرنسية ، الإيطالية ، الإسبانية ، البرتغالية ، لغة رومانيا . . . الخ) . وإليك مثالا آخر اللغة العربية فى عصرنا الحاضر ، فقد نالها كثير من التطور فى لهجات المحادثة حتى بعدت بعداً كبيراً عن أصلها القديم فى أصواتها ومفرداتها وقواعدها ؛ على حين أنها فى ميادين الأدب والكتابة ظلت جامدة على حالتها القديمة أو ما يقرب منها . فلغة كتابتنا فى العصر الحاضر لا تزال تمثل العربية فى العصر الذى نزل فيه القرآن .

فلا غرابة إذن أن جاءتنا الآثار الأدبية لشعراء اليمن وأدبائهم فى المراحل الأخيرة للعصر الجاهلى مؤلفة باللسان العربى المبين . فما كان يمكن لهؤلاء الشعراء والأدباء أن يؤلفوا بلغات آبائهم الأقدمين ؛ لأن هذه اللغات كانت قد انقرضت فى عصرهم وأصبحت غريبة عن ألسنتهم وأقلامهم بمقدار غرابة اللغة القبطية عن ألسنتنا وأقلامنا فى العصر الحاضر . وما كان يمكنهم أن يؤلفوا بلهجات محادثاتهم التى كانت تختلف بعض الاختلاف عن العربية الفصحى التى ألفوا بها هذه الآثار ؛ لأن لهجات المحادثة لا تصطنع فى ميادين الآداب ، ولأن لغة الأدب فى جميع العصور والأمم تميل إلى الجمود ولا تساير لغات التخاطب فى تطورها المطرد السريع.

ومن هذا يظهر أن بعض المحدثين من الباحثين لم يصب شاكلة الصواب إذ اعتمد فى إنكاره للأدب الجاهلى على أن قسما من شعره ونثره ينسب لليمانيين مع أنه مؤلف بلغة عربية ، واتخذ من ذلك دليلا على أن هذا القسم على الأقل لا يمكن التسليم بصحته[1] . فقد فاتهم أن أقدم ما وصل إلينا عن العصر الجاهلى لا يتجاوز تاريخه أواخر القرن الخامس أو أوائل السادس بعد الميلاد ، وأنه فى ذلك العصر ، بل من قبله بأمد غير قصير ، كان قد تم للغة العربية التغلب على اللغات اليمنية القديمة ، فاستأثرت العربية فى بلاد اليمن بالمحادثة والأدب والكتابة وأصبحت اللغات القديمة لهذه البلاد فى عداد اللغات الميتة .

وقد حاول بعض الباحثين الذين نحن بصددهم أن يجعل هذه الحقيقة موضع شك ، فتساءل : « كيف استطاعت اللغة العدنانية أن تكون لغة أدبية للقحطانيين (قبل الإسلام) ونحن نعلم أن السيادة السياسية والاقتصادية التى من شأنها أن تفرض اللغة على الشعوب قد كانت (فى ذلك العصر) للقحطانيين دون العدنانيين[2] » . وقد فات هؤلاء بهذا الصدد أمران هامان :

---

(١) من هؤلاء العلامة الفاضل الأستاذ الدكتور طه حسين بك (انظر كتاب الأدب الجاهلى صفحات ٨٢ — ٩٥) .

(٢) الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين بك صفحة ٩٣ .

١ — أحدهما أن سيادة اليمن التى يتحدثون عنها قد زالت زوالا تاماً منذ أواخر القرن الرابع الميلادى ، أى قبل ظهور الإسلام بأمد طويل . فقد كانت بلاد اليمن منذ ذلك العصر فى دور انحلال كبير تمزقها الفتن والمنازعات الداخلية والحروب الأهلية . بل كانت قد فقدت استقلالها ، وأصبح حكمها بيد الأجانب ، يتناوبه الأحباش تارة والفرس تارة أخرى ، كما سبق بيان ذلك . على حين أن نجم البلاد العربية الشمالية كان فى ذلك العصر قد أخذ فى البزوغ . فقد أخذ نفوذ البلاد العربية الشمالية فى نواحى الاقتصاد والسياسة والثقافة والدين يتغلغل قبل الإسلام بأمد طويل فى كثير من البلاد المجاورة لها وخاصة فى بلاد اليمن . هذا إلى أن اللغة العربية كانت حينئذ أرقى كثيراً من اللغات اليمنية القديمة ثقافة وآداباً ، وأغزر مفردات ، وأدق قواعد ، وأقدر منها فى مجال التعبير عن مختلف فنون القول . فجميع الظروف التى تقتضيها قوانين التغلب اللغوى الناشىء عن صراع لغتين متجاورتين ، والتى فصلناها فى كتاب « علم اللغة »[١] ، كانت مهيأة لتغلب اللغة العربية على اللغات اليمنية القديمة ، وما كان يمكن معها أن تفلت اللغات اليمنية من هذا المصير .

٢ — على أن أسباب تغلب لغة على لغة ليست مقصورة — كما تبادر إلى أذهان الباحثين الذين نحن بصددهم — على السيادة السياسية والاقتصادية ؛ بل ترجع كذلك إلى عوامل أخرى كثيرة ذكرناها بتفصيل فى كتاب « علم اللغة »[٢] ، بعضها يتعلق بعدد الناطقين بكلتا اللغتين ، وبعضها يتعلق بمبلغ كثافتهم وضغطهم على الحدود المجاورة لهم ، وبعضها يتعلق بمبلغ رقى اللغة وثروتها فى الآداب والعلوم ، وغزارة مفرداتها ، ودقة قواعدها ، واتساعها للتعبير عن مختلف فنون القول . بل إن السيادة السياسية لا تكفى وحدها لتغلب لغة على لغة . فاللغة

(١) انظر صفحات ٢١٨ — ٢٢٤ من كتاب « علم اللغة » للمؤلف ، الطبعة الثالثة.

(٢) انظر الفصل الخاص بصراع اللغات فى كتاب « علم اللغة » للمؤلف .

اللاتينية مثلا لم تقو على التغلب على اللغة اليونانية ، مع أن اليونان كانوا خاضعين للرومان ؛ واللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغة الفارسية ، على الرغم من فتح العرب لبلاد فارس و بقائها تحت سلطانهم أمداً طويلا ؛ واللغة التركية لم تقو على التغلب على أية لغة من لغات الأمم التى كانت خاضعة للامبراطورية العثمانية بأوروبا وآسيا وأفريقيا . بل كثيراً ما حدث فى التاريخ أن تغلبت لغة الأمة المقهورة سياسياً على لغة أسيادها القاهرين ، إذا توافرت لها شروط التغلب اللغوى ؛ كما حدث للغة الغزاة من النورمانديين مع لغة الشعب الانجليزى الذى قهروه . فقد قضت قوانين الصراع اللغوى أن تتغلب لغة هذا الشعب على لغتهم ، فأخذت لغتهم تنقرض شيئاً فشيئاً حتى زالت ، وأصبحت سلالات النورمانديين بإنجلترا يتكلمون الإنجليزية .

* * *

هذا وقد زادت اللغة العربية رسوخاً فى بلاد اليمن بعد ظهور الإسلام . فقد كان لاعتناق اليمنين الدين الإسلامى المرتبطة أصوله باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً ، وخضوعهم للنفوذ العربى السياسى ، أثر كبير فى تثبيت قدم اللغة العربية فى هذه البلاد . فساعد ذلك على سعة انتشارها ، وزادها قوة على قوة فى صراعها مع اللغات اليمنية القديمة ، فقضت على البقية الباقية منها ، وعربت بعض ألسنة كانت لاتزال إلى ذلك العصر باقية على يمنيتها .

غير أنه قد أفلت من هـذا المصير فى اليمن بعض مناطق متطرفة نائية ، ساعد انعزالها وانزواؤها على حمايتها من اللغة العربية ، فظلت محتفظة بلهجاتها القديمة حتى العصر الحاضر . وأشهر هذه اللهجات اليمنية الباقية ثلاث لهجات : إحداها اللهجة المهرية Mahri, mehri التى يتكلم بها الآن فى منطقة مهرة Mahra ، الواقعـة شرق حضرموت ؛ وثانيتها لهجة الشحر ، أو اللهجة

الأخكيلية[1] Shawri, hakili, ehkili, quarawi, grawi وهى منتشرة فى منطقة جبلية واقعة فى الشرق من منطقة اللهجة المهرية ؛ وثالثتها اللهجة السقطرية وهى لهجة جزيرة سقطرة والجزر المجاورة لها . وقد بعدت هذه اللهجات بعداً كبيراً عن أصولها الأولى ، بل بعدت عن اللغات السامية جميعها ، تحت تأثير ما انتابها من عوامل التطور الطبيعى ، وكثرة المراحل التى اجتازتها فى هذا السبيل ، وطول عمرها ، وتأثرها باللغات التى احتكت بها وخاصة اللغة العربية[2] .

* * *

وقد كان المشهور المتداول عند الباحثين من العرب أن اللغة اليمنية واللغة العربية تمثلان لهجتين للغة واحدة ، وأن الخلاف بينهما لا يعدو أموراً يسيرة يبدو بعضها فى الأصوات والمفردات و بعضها فى القواعد[3] . ولذلك كانوا يقسمون العربية قسمين : العربية العدنانية أو المعدية أو المضرية وهى لغة الشمال (الحجاز ونجد وما إليهما) ؛ والحميرية أو القحطانية وهى لغة أهل اليمن .

---

(١) أطلق عليها هذا الاسم الأستاذ فورجنس فرانل Furgence Frasnel وهو أول من كشفها إذ كان قنصلا لفرنسا بجدة . وقد سماها باسم القبائل التى تتكلم بها V. Renan op. cit. 309, 310. والمشهور تسميتها بلغة حكلى (بحاء مهملة مكسورة فكاف ساكنة فلام مكسورة) وتتكلم بها قبيلة القرى الضاربة فى بلد مرباط من ناحية ظفار الحبوظى . أنظر كلمة عنها وعن لغة مهرة وبعض أمثلة من مفرداتها فى المجلد الرابع ص ٤١٩ من مجلة الزهراء . وقد ألف بعض المستشرقين كتباً فى هذه اللغات من أشهرها كتاب « اللغة المهرية فى جنوب جزيرة العرب Die Mehri Sprache in Südarabien تأليف A. Jahn طبع فى فينا سنة ١٩٠٢ ؛ وكتاب « اللغة المهرية والسقطرية Die Mehri und Soqotri Sprache طبع فى فينا سنة ١٩٠٢ — ١٩٠٧ فى ثلاثة مجلدات ؛ ورسائل متعددة من تأليف N Rhodokanakis; M Bittner وهى مطبوعة فى منشورات المعهد العلمى بفينا سنة ١٩٠٩ وبعدها . — (أنظر ما كتبه الأستاذ نللينو بهذا الصدد فى ص ٤٩٣ بالمجلد الرابع من مجلة الزهراء لمنشئها الأستاذ محب الدين الخطيب) .

(٢) يقرر الباحثون أن اللغات الآرامية الباقية فى العصر الحاضر والتى تكلمنا عنها بصفحات ٦٧ — ٦٩ لم تبعد عن اللغات السامية بمقدار ما بعدت عنها هذه اللهجات اليمنية الثلاث.

(٣) انظر التعليق الثالث بصفحة ٧٨.

وهذا الرأى صحيح فيما يتعلق بلهجات أهل اليمن بعد أن تغلبت العربية على ألسنتهم كما تقدم بيان ذلك[١] . ولكنه غير صحيح فيما يتعلق باللغات اليمنية القديمة التى هى موضوع هذا الفصل . فقد تبين مما سبق أنها ليست من اللغة العربية فى شىء ، وإن كانت تؤلف معها شعبة لغوية واحدة . وقد فطن إلى ذلك بعض باحثى العرب أنفسهم ، كأبى عمرو بن العلاء ، فقد روى أنه كان يقول : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »[٢] .

(١) انظر صفحة ٧٨ وتوابعها .

(٢) روى ذلك عنه أبو عبد الله محمد بن سلام فى كتاب « طبقات الشعراء » ٦ .

الفصل الخامس

اللغات الحبشية السامية

١ — نشأتها وخواصها :

يرجح الباحثون أن الفضل فى نشر اللسان السامى فى بلاد الحبشة يرجع إلى عشائر سامية هاجرت إليها من جنوب بلاد العرب (اليمن) ، وامتزجت بسكان الحبشة الأصليين الذين كان معظمهم يتألف من أجناس حامية . ولا نعلم على وجه اليقين تاريخ هذه الهجرة ، ولكن من المقطوع به أنها حدثت قبل الميلاد المسيحى بعدة قرون . ويؤخذ من شواهد كثيرة أنها لم تحدث مرة واحدة ، بل حدثت على دفعات متتالية .

وقد اشتبك لسان هؤلاء الساميين مع لغات السكان الأصليين فى صراع انتهى بانتصاره عليها فى بعض مناطق قليلة فى مبدأ الأمر ؛ ثم أخذ نطاقه يتسع شيئاً فشيئاً حتى بلغت الآن مساحة المناطق السامية اللسان نحو ربع مساحة الحبشة وإريتريا (١) . ولكن هذه المناطق ، على ضيق مساحتها ، من أكثر المناطق الحبشية كثافة وازدحاماً بالسكان ؛ إذ يبلغ عدد سكانها نحو نصف مجموع السكان فى هاتين المملكتين (٢) . أما بقية سكانهما فلا يزال معظمهم يتكلم لهجات حامية كوشية (٣) . وقليل منهم يتكلم لهجات سودانية (٤) .

---

(١) تبلغ مساحة الحبشة نحو مليون كيلو متر مربع وتبلغ مساحة إريتريا نحو ٧٥ ألف كيلو متر مربع .

(٢) يبلغ عدد الناطقين باللسان السامى فى بلاد الحبشة نحو سبعة ملايين نسمة .

(٣) انظر صفحة ٢٢ .

(٤) انظر تفصيل اللهجات السودانية فى آخر صفحة ١٩٤ وأول صفحة ١٦٥ من الطبعة الثالثة من كتابنا « علم اللغة » .

وتعد اللهجات الحبشية السامية من الشعبة السامية الجنوبية ، أى أنها تؤلف مع اللغات اليمنية والعربية شعبة على حدة . فوجوه الشبه بينها و بين هذين الفرعين فى أصول المفردات والقواعد والأصوات أقوى كثيراً من وجوه الشبه بينها و بين بقية اللغات السامية ؛ وهى إلى اليمنية القديمة أدنى منها إلى اللغة العربية . غير أن طول احتكاكها باللهجات الحامية التى كان يتكلم بها معظم السكان الأصليين والتى لا يزال يتكلم بها قسم كبير منهم ، قد ترك فيها آثاراً كثيرة من هذه اللهجات ، فنقل إليها مجموعة كبيرة من مفرداتها ، وصبغها بصبغتها فى كثير من مظاهر الأصوات والقواعد ، فاكتسبت بذلك صفات خاصة أبعدتها عن بقية اللغات السامية . ويظهر هذا التأثر بشكل واضح فى اللهجة الأمهرية وما تفرع منها كما سيأتى بيان ذلك .

٢ — الرسم الحبشى :

يظهر أن الساميين النازحين إلى الحبشة قد استخدموا فى المبدأ فى كتابة لغتهم الرسم السبئى السابق ذكره فى الفصل الرابع[١] ؛ وهو الذى كانوا يستخدمونه فى مسقط رؤوسهم باليمن . ثم اشتق من هذا الرسم رسم خاص أطلق عليه اسم الرسم الحبشى ، أو الجعزى (نسبة إلى اللهجة الجعزية ، وهى أقدم اللهجات السامية بالحبشة كما سيأتى بيان ذلك) . ومن الراجح أن هذا الرسم قد ظهر فى القرن الثالث الميلادى . ولكنه لم يمح الرسم السبئى القديم محواً تاماً ، بل ظلا يستخدمان معاً مدة طويلة ؛ كما يدل على ذلك نقش الملك « عزانا Aeyzana, Ezana » الذي سنتكلم عنه فى الفقرة التالية . فمع أن تاريخ هذا النقش يرجع إلى القرن الرابع الميلادى ، فإن الرسم السبئى القديم قد استخدم فيه مع الرسم الحبشى .

---

(١) انظر ص ٧٦ .

ويتفق الرسم الحبشى القديم مع الرسم السبئى الذى اشتق منه ومع الرسوم السامية القديمة فى تجرده من الرمز إلى أصوات المد . فكان يشتمل على ستة وعشرين حرفاً ترمز جميعها إلى أصوات ساكنة [1] .

ثم ظهرت بعد ذلك علامات ترمز إلى أصوات المد ؛ وأخذ عدد هذه العلامات يزيد شيئاً فشيئاً حتى بلغت ست علامات تشير إلى ستة أصوات من هذا النوع . ويضاف إلى هذه الأصوات صوت سابع ينطق به أحياناً بعد الحرف الساكن إذا رسم مجرداً من إحدى هذه العلامات الست . وقد أخذت أهمية هذه العلامات تزيد شيئاً فشيئاً حتى أصبحت عناصر أساسية فى رسم الكلمات ، كما هو الشأن فى الرسم الأوروبى . غير أنها ليست ممثلة فى حروف مستقلة كما هو الشأن فى هذا الرسم الأخير ، ولا فى حركات توضع فوق الحروف وتحتها كما هو الشأن فى الرسم العربى ؛ بل تتمثل فى تغيير يلحق صورة الحروف الساكنة نفسها . فشكل الحرف الساكن نفسه يتغير تبعاً لصوت المد الذى يلحقه . وبذلك أصبح لكل حرف ساكن سبعة أشكال متميزة يرمز كل منها إلى نوع خاص من أنواع الحركة التى تليه .

ويظهر أن هذا التطور لم يستغرق أمداً طويلا ، بل كان نتيجة اصلاحات قام بها بعض الأفراد فى فترة قصيرة . يدل على ذلك أن الفاصل ليس كبيراً بين تاريخ النقوش المدونة بالطريقة القديمة المجردة من الرمز إلى أصوات المد ، وتاريخ النقوش المدونة بالطريقة الحديثة السابق ذكرها .

والرسم الحبشى القديم كان يكتب من اليمين إلى الشمال ، كما كان يكتب الرسم السبئى الذى اشتق منه ، ثم انحرف بعد ذلك عن طريقته هذه ، فأصبح يكتب من الشمال إلى اليمين ، وظل على هذه الحال إلى الوقت الحاضر .

---

(٢) زيد فى الرسم الأمهرى سبعة أحرف على حروف الهجاء الحبشية القديمة وهى حروف الرسم الجعزى ، ليرمز بها إلى أصوات تمتاز بها اللغة الأمهرية ولا يوجد لها نظير فى الجعزية V. Renan, op. cit 317

٣ — أقسام اللغات الحبشية السامية وخصائص كل قسم وأهم آثاره :

تنقسم اللهجات الحبشية السامية أقساماً كثيرة من أهمها ما يلى :

١ — اللهجة الجعزية (guèze وهى مسماة باسم الشعب الجعزى الذى يعد من أقدم الشعوب السامية التى نزحت إلى الحبشة) . ويطلق عليها أحياناً اسم اللغة الحبشية القديمة ethiopien ancien ou classique ، وأحياناً إسم « اللغة الحبشية » مجرداً من كل وصف ethiopien . وهى من أقدم اللهجات الحبشية السامية إن لم تكن أقدمها على الإطلاق . ولم يصل إلينا شىء عنها فى أدوارها الأولى ؛ وأقدم ما وصل إلينا من آثارها يرجع تاريخه إلى سنة ٣٥٠ بعد الميلاد . وأهم هذه الآثار نقوش عثر عليها بمدينة أكسوم (عاصمة البلاد فى هذه العصور) ينسب بعضها للملك عزانا ezana و بعضها للملك آل عميدا Ela Amida و بعضها للملك تازانا Tazana . و بجانب هذه النقوش وصل إلينا عن هذه اللغة ترجمة للكتاب المقدس و بعض مؤلفات دينية ترجم معظمها عن اليونانية .

أما نقش الملك عزانا فيرجع تاريخه إلى سنة ٣٥٠ بعد الميلاد ؛ وهو أقدم ما كشف من الآثار الجعزية . وهو مدون من صورتين : إحداهما بالرسم السبئي ؛ وثانيتهما بالرسم الحبشى القديم الذى لا يرمز إلا إلى الأصوات الساكنة .

وأما آثار الملك آل عميدا ، فترجع إلى نقشين : أحدهما مقطوع بصحة نسبته إلى هذا الملك وهو مدون بالرسم السبئى ؛ وثانيهما يرجحون نسبته إليه وهو مدون بالرسم الحبشى الحديث الذى يرمز إلى أصوات المد . ويظهر من هذا ومن شواهد أخرى كثيرة أن إصلاح الرسم الحبشى الذى أشرنا إليه فى الفقرة السابقة قد تم فى عهد هذا الملك . ويظهر كذلك من هذا النقش أن أصوات اللغة الجعزية قد أخذت فى ذلك العصر تنحرف بعض الشىء عن أوضاعها الأولى متأثرة فى ذلك باللغات الحامية للسكان الأصليين .

وأما آثار الملك تازانا ابن الملك آل عميدا السابق ذكره ، فهى عبارة عن نقشين كتب أولهما قبل أن يعتنق هذا الملك الدين المسيحى ، وثانيهما بعد اعتناقه له (القرن الخامس الميلادى ، وهذا هو مبدأ دخول المسيحية فى منطقة أكسوم)(1) . وهذان النقشان من أغنى النقوش الجعزية مادة ، إذ يشتمل أحدهما على ثلاثين سطراً والآخر على خمسين .

وأما ترجمة الكتاب المقدس إلى الجعزية فقد تمت على ما يظهر فى القرن الخامس الميلادى . ولغة هذه الترجمة لا تكاد تختلف فى شىء عن اللغة التى كتب بها نقشا الملك تازانا السابق ذكرهما .

وأما المؤلفات الأخرى فيرجع تاريخها إلى مبدأ العهد المسيحى فى الحبشة (أواخر الرابع وأوائل الخامس بعد الميلاد) ، ومعظمها مترجم عن اليونانية ، وتتصل موضوعاتها بالكتاب المقدس وشرحه . وتمتاز اللغة الجعزية التى دونت بها هذه المؤلفات عن الجعزية فى العصور السابقة بتحررها من كثير من القواعد القديمة و بتأثرها باللغة اليونانية .

هذا ، ولم تعمر الجعزية طويلا فى ميادين التخاطب . فمنذ انهيار مملكة أكسوم وقيام مملكة كوا Choa على أنقاضها تحت حكم الأسرة الأمهرية التى سيأتى ذكرها ، أخذ نجم الجعزية فى الأفول ، وأخذت الأمهرية تطاردها وتقتحم عليها معاقلها حتى انتزعتها منها جميعها أو معظمها ، فانقرضت من لهجات الحديث كل الانقراض ، أو لم يبق لها فيها إلا فلول ضئيلة(2) . غير أن الجعزية ، بعد انقراضها من ميادين التخاطب ، قد آوت إلى ركن شديد فى ميادين الكتابة والأدب والدين ، فاستأثرت بهذه الشئون فى معظم المناطق الحبشية ؛ وظلت

---

(1) أول عهد الحبشة بالنصرانية كان فى القرن الرابع . ويرجع الفضل فى إدخالها فى هذه البلاد إلى فرومنتيوس اليونانى .

(2) بقيت الجعزية لغة تخاطب فى مناطق ضيقة . وقد بعدت فى هذه المناطق بعداً كبيراً عن أصلها وانتهت إلى ما يسمونه الآن اللغة التيجرينية التى سيأتى الكلام عنها .

مستأثرة بها حتى العصر الحاضر ؛ وإن كانت الأمهرية قد أخذت تنازعها هذا السلطان نفسه منذ أواخر القرن التاسع عشر كما سيأتى بيان ذلك .

واللغة الجعزية قريبة كل القرب من أختيها العربية واليمنية . ولكنها تمتاز عنهما بمميزات جوهرية كثيرة فى مظاهر الصوت والدلالة والمفردات والقواعد . فمن ذلك عدم التمييز فى الجعزية بين المذكر والمؤنث فى الأسماء ، وتجردها من أداة التعريف ، واشتمالها على بعض مفردات أجنبية انتقلت إليها من اللهجات الحامية ومن اللغة اليونانية ، وعلى مفردات سامية تتفق فيها مع اللغة العبرية ، ولكن لا يوجد لها نظير فى أختيها اليمنية والعربية .

٢ — اللغة الأمهرية . وهى اللغة المستخدمة الآن في التخاطب فى معظم المناطق الحبشية السامية اللسان . وكانت فى الأصل لهجة القبائل الأمهرية (نسبة إلى منطقة أمهرا Amhara) . ولكن منذ أن تقوضت مملكة أكسوم ، وقبض على زمام الحكم سنة ١٢٧٠ أسرة أمهرية من منطقة كوا Choa (الجنوب الغربى من بلاد الحبشة)[١] ، أخذ نطاق هذه اللغة يتسع شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى الحد الذى وصفناه . ولم يقتصر نفوذها على ميادين التخاطب بل امتد كذلك إلى شئون الكتابة والآداب . فمنذ عهد بعيد تستخدم الأمهرية فى أمور الدواوين والمكاتبات الرسمية فى جميع الممالك الحبشية ، وظلت مستأثرة بهذه الشئون حتى العصر الحاضر . ومنذ القرن التاسع عشر أخذت تنازع الجعزية سلطان الآداب والعلوم والدين ، فألف بها بعض كتب أدبية ، وترجم بها بعض آثار اللغة الجعزية ، ونفذت فى العصر الحاضر إلى ميدان الصحافة والمصنفات العلمية والدينية ، فقلت بذلك أهمية اللغة الجعزية ، وأصبحت مجهولة لدى كثير من العلماء ورجال الدين أنفسهم .

وأقدم ما وصل إلينا عن الأمهرية بعض قصائد حربية يرجع تاريخها إلى القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر بعد الميلاد .

---

(١) تنتسب هذه الأسرة إلى الملك سليمان وملكة سبأ .

وفضلا عن صراعها السابق ذكره مع أختها الجعزية ، فقد اشتبكت مع اللهجات الحامية الكوشية ، وخاصة فى المناطق الجنوبية ، فى صراع آخر انتهى بانتصارها فى كثير من المواطن . فاتسع بذلك نطاق اللسان السامى فى الحبشة ووصل إلى الحد الذى تكلمنا عنه فى صدر هذا الفصل . وحتى فيما وراء هذا الحد ، أى فى المناطق التى لا تزال محتفظة بلسانها الكوشى ، تتمتع الأمهرية بسلطان كبير وتعتبر لغة ثانية للسكان .

هذا ، وإن كثرة احتكاكها باللهجات الحامية ، وطول صراعها معها ، وانتقالها إلى ألسنة كثير من أهلها ، كل ذلك قد ترك بها آثاراً كثيرة من هذه اللهجات . وتبدو هذه الآثار فى مختلف مظاهر اللغة : فتبدو فى الأصوات ؛ كما تبدو فى القواعد وأساليب التركيب . فقد حذف منها بعض أصواتها السامية القديمة ؛ واستبدل ببعضها أصوات أخرى ؛ ودخل فيها أصوات حامية جديدة[1] . وانقلبت فيها جميع القواعد السامية القديمة رأساً على عقب ؛ وتغيرت فيها أشكال الضمائر ؛ وانقرضت منها معظم قواعد الجمع والتأنيث . أما مفرداتها فنصفها على الأقل قد انتقل إليها من اللهجات الحامية ، والنصف الآخر السامى قد اجتاز مراحل كثيرة فى التطور الصوتى حتى بعد بعداً كبيراً عن أصله . ولهذا كله اتسعت مسافة الخلف التى تفصل الأمهرية عن بقية أخواتها السامية .

ولا تزال الأمهرية محتفظة بوحدتها على الرغم من سعه انتشارها . فهى لم تنشعب بعد إلى لهجات متميزة بعضها عن بعض . والفروق التى توجد بين المناطق الأمهرية اللسان بهذا الصدد ، هى فى جملتها فروق يسيرة لم تصل بعد إلى الحد الذى يجعل لسان كل منطقة لهجة متميزة . ومع ذلك يفرق كثير من المحافظين بين هذه الألسنة فى مبلغ فصاحتها ؛ وأفصحها جميعها فى نظرهم هو لسان مدينة

---

(١) ولذلك زيد فى الرسم الأمهرى سبعة أحرف على حروف هجاء الرسم الجعزى ، ليرمز بها إلى أصوات تمتاز بها هذه اللغة ولا يوجد لها نظير فى الجعزية V, Renan 317.

جوندار Gondar الواقعة في شمال منطقة أمهرا والتى كانت عاصمة للبلاد من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر.

٣ — لهجة تيجرينيا ، أو اللهجة التيجرينية Tigréen, Tigrigna . وهى متفرعة من اللغة الجعزية [١] ، ويتكلم بها فى منطقة تيجرينيا التى تتوسطها مدينة أكسوم . ويندر استخدام هذه اللغة فى الكتابة ولذلك لم تتح دراستها إلا عن طريق المشافهة . ولم يعن العلماء بدراستها إلا في المراحل الأخيرة من القرن التاسع عشر . وقد اشتبكت الأمهرية فى صراع مع هذه اللهجة ، ولكنها لم تستطع التغلب عليها ، وإن كانت قد تركت فيها كثيراً من الآثار .

٤ — اللهجة التيجرية [٢] . وتستخدم هذه اللهجة فى المناطق الواقعة فى الشمال من منطقة اللهجة السابقة (التيجرينية) . وهى قوية الشبه بالجعزية ، ولكن معظم الباحثين يرى أنها غير متفرعة منها ، بل من لهجة أخرى قديمة لم يصل إلينا شىء من آثارها [٣] . وعلى الرغم من عدم استخدامها فى الكتابة ، فهى من اللهجات القوية المنتشرة الاستعمال فى لغات التخاطب بهذه المناطق . فقد تغلبت على ألسنة كثير من أهل البلاد المجاورة لمنطقتها . وتستخدم ، فضلا عن هذا ، لغة ثانية لدى بعض العشائر الحامية والسودانية الباقية على ألسنتها القديمة . ويبلغ عدد المتكلمين بها نحو مائة ألف نسمة يتألف معظمهم من القبائل الإسلامية التى تقطن المنطقة الساحلية من مصوع إلى سواكن وجزر دهلك Dahlak . ولعل اعتناق المتكلمين بها للإسلام كان من أهم العوامل التى ساعدتها على مقاومة الأمهرية المسيحية ، فلم تستطع هذه إلى التغلب عليها سبيلا . ولا ينحدر الناطقون بها من أصول سامية ، بل من أصول حامية كانت تتكلم قديماً لهجات كوشية وتغلب

(١) انظر التعليق الثاني من ص ٨٩ .

(٢) حدث التباس فى بعض المؤلفات بين هذه اللهجة وللهجة السابقة لتقارب اسميهما ، فجعلتا لهجة واحدة ، مع أن كلتيهما متميزة عن الأخرى .

(٣) Brockelmann op. cit. 47

اللسان السامى على ألسنتها . فلهذا السبب ، ولاحتكاكها باللهجات الكوشية التى لا تزال سائدة فى المناطق المجاورة لها ، يظهر فيها كثير من وجوه التأثر باللسان الحامى . هذا إلى أن اعتناق أهلها للدين الإسلامى قد ترك فيها كذلك كثيراً من وجوه التأثر باللغة العربية .

٥ — اللهجات الجوراجية . وهى مجموعة لهجات يتكلم بها فى منطقة جوراجيا Curague الواقعة فى جنوب منطقة « كوا » الأمهرية جماعات مختلفة الأديان : فمنهم المسلمون ومنهم المسيحيون والوثنيون . وتبلغ مساحة منطقتها نحو عشرة آلاف كيلو متر مربع . وأهم هذه اللهجات اللهجة التشاهية التى يتكلم بها فى منطقة تشاها Tchaha وفى بعض المناطق المجاورة لها . واللهجات الجوراجية جميعها متفرعة من الأمهرية ؛ ولكنها أحيطت بظروف خاصة أبعدتها عن أصلها وجعلت منها لهجات متميزة[١] .

٦ — لهجة مدينة هرر . وهى متفرعة كذلك من اللغة الأمهرية[٢] ؛ ولكنها بعدت عن أصلها بعداً كبيراً حتى أصبحت الآن لهجة متميزة غير مفهومة للأمهريين . ويرجع هذا إلى عاملين : أحدهما أنها تأثرت بلهجات حامية غير اللهجات الحامية التى احتكت بها الأمهرية ؛ وثانيهما أن اعتناق أهلها للدين الإسلامى قد ترك فيها آثاراً من اللغة العربية فى صورة لا يوجد لها نظير فى الأمهرية المسيحية .

(١) Brockelmann op. cit 49

(٢) Brokelmann op. cit. 49.

الفصل السادس

اللغة العربية

(١) شعبتها ومنزلتها من اللغات السامية

تؤلف اللغة العربية مع اللغات اليمنية القديمة واللغات الحبشية السامية شعبة لغوية واحدة يطلق عليها اسم الشعبة السامية الجنوبية . وذلك أن صلات القرابة التى تربطها بهذين الفرعين أقوى كثيراً من صلات القرابة التى تربطها بشعبة اللغات السامية الشمالية ، كما يبدو ذلك من الموازنة بينها فى أصول الكلمات والأصوات والقواعد . وتختلف هذه الفروع الثلاثة نفسها فى مبلغ قربها بعضها من بعض . فصلة القرابة بين اللغات اليمنية القديمة واللغات الحبشية السامية أقوى كثيراً من صلة القرابة بين كل منهما واللغة العربية . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن اللغات الحبشية السامية قد انشعبت بشكل مباشر عن اللغات اليمنية القديمة ، وأن الفضل فى نشر اللسان السامى ببلاد الحبشة يرجع إلى المهاجرين الأولين من بلاد اليمن كما تقدم بيان ذلك . وتختلف هذه الفروع الثلاثة كذلك فى مبلغ بعدها عن الشعبة الشمالية (الآرامية الكنعانية) . فمسافة الخلف بين الشعبة الشمالية من جهة واللغات اليمنية والحبشية من جهة أخرى أضيق كثيراً من مسافة الخلف بين هذه الشعبة واللغة العربية [١] .

(٢) نشأتها وأقسامها

على الرغم من أن اللغة العربيـة قد نشأت فى أقدم مواطن الساميين (بلاد الحجاز ونجد وما إليها) فإن ما وصل إلينا من آثارها يعـد من أحدث الآثار

---

(١) تقدمت الاشارة إلى هذه الحقائق بصفحة ٧٢ وأول صفحة ٧٣ .

السامية . فبينما يرجع أقدم ما وصل إلينا من آثار الأكادية إلى ما قبل القرن العشرين ق . م[(١)] ، ومن آثار العبرية إلى القرن الثانى عشر ق . م[(٢)] ، ومن آثار الفينيقية إلى القرن العاشر ق . م[(٣)] ، ومن آثار الآرامية إلى القرن التاسع ق.م[(٤)]؛ إذ أقدم ما وصل إلينا من آثار العربية البائدة لا يكاد يتجاوز القرن الأول ق . م ، وأقدم ما وصل إلينا من آثار العربية الباقية لا يكاد يتجاوز القرن الخامس بعد الميلاد . ولذلك لا نعلم شيئاً عن طفولة اللغة العربية وما اجتازته من مراحل فى عصورها الأولى .

وعلى ضوء ما وصل إلينا من آثارها يمكن تقسيمها قسمين : العربية البائدة ؛ والعربية الباقية .

١ — أما « العربية البائدة » أو « عربية النقوش » فتطلق على لهجات كان يتكلم بها عشائر عربية تسكن شمال الحجاز على مقربة من حدود الآراميين وفى داخل هذه الحدود . ولتطرف هذه اللهجات فى الشمال ، وشدة احتكاكها باللغات الآرامية ، و بعدها عن المراكز العربية الأصلية بنجد والحجاز ، فقدت كثيراً من مقوماتها ، وصبغت بالصبغة الآرامية . وقد بادت هذه اللهجات قبل الإسلام ، ولم يصل إلينا منها إلا بعض نقوش عثر عليها أخيراً فى المناطق السابق ذكرها . ومن أجل ذلك تسمى أحياناً « عربية النقوش » .

٢ — وأما العربية الباقية فهى التى تنصرف إليها كلمة العربية عند إطلاقها ، والتى لا تزال تستخدم عندنا وعند الأمم العربية الأخرى لغة أدب وكتابة وتأليف . وقد نشأت هذه اللغة ببلاد نجد والحجاز ، ثم انتشرت فى كثير من المناطق التى كانت تشغلها من قبل أخواتها السامية والحامية ، وانشعبت منها اللهجات التى

---

(١) انظر آخر صفحة ٣٢ وأول ٣٣ .

(٢) انظر ص ٤٩ .

(٣) انظر آخر ص ٤٠ .

(٤) انظر صفحتى ٦٠ ، ٦٥ .

يتكلم بها فى العصر الحاضر فى بلاد الحجاز ونجد واليمن وفلسطين والشام ولبنان والعراق ومصر و بلاد المغرب . وقد وصلت إلينا العربية الباقية عن طريق آثار العصر الجاهلى والقرآن والحديث وآثار العصور الإسلامية المختلفة .

وسنلقى فى الفقرة التالية نظرة عجلى على « العربية البائدة » ثم نقف بقية فقرات هذا الفصل على « العربية الباقية » .

(٣) « العربية البائدة » أو « عربية النقوش »

يطلق الآن هـذا الاسم على بعض لهجات عربية كانت تستخدم قديما فى بعض مناطق واقعة فى الشمال على مقربة من الحدود الآرامية وفى داخل هذه الحدود ، وخاصة فى واحات تيماء والحجر (أو مدائن صالح) ومنطقة العلا فى شمال الحجاز .

ولم تصل إلينا هذه اللهجات إلا عن طريق نقوش عثر عليها أخيراً فى مساحة واسعة تمتد من دمشق إلى منطقة العلا . وكثير من هـذه النقوش عثر عليه فى واحتى الحجر وتيماء .

ويظهر من هذه النقوش أن المتكلمين بتلك اللهجات كانوا فى عزلة تامة عن عرب نجد والحجاز ، وأنهم فقدوا كثيرا من مقوماتهم العربية ، وصبغوا بالحضارة الآرامية والنبطية ، حتى أنهم ليؤرخون نقوشهم بحرب النبط وتاريخ بصرى وحروب الفرس والروم .

وتتفق اللغة التى دونت بها هذه النقوش مع « العربية الباقية » فى كثير من مقوماتها وخصائصها فى الأصوات والقواعد والمفردات . فهى تشتمل على معظم الأصوات التى تمتاز بها العربية الباقية عن سائر أخواتها السامية أو يكثر ورودها فيها دون غيرها كأصوات الذال والثاء والغين المعجمة والضاد . وتشتمل كذلك على أهم خاصة لقواعد اللغة العربية ، وهى خاصة الإعراب بالحركات ، أى إلحاق

أصوات مد قصيرة بآخر الكلمة لبيان وظيفتها وعلاقتها ببقية عناصر الجملة[١]، وتسير على الطريقة العربية فى صوغ أفعل التفضيل وحذف علامة الإعراب أوشىء منها فى حالة إضافة الاسم إلى ما عداه. وتبدو وجوه الشبه بينهما أظهر ما يكون فى أصول المفردات وأسماء الأعلام[٢].

غير أن العربية البائدة تمتاز عن العربية الباقية بشدة تأثرها باللغة الآرامية، وتختلف عنها اختلافاً غير يسير فى كثير من مظاهر الصوت والمفردات والدلالة والقواعد. ومن مظاهر اختلافهما فى القواعد أداة التعريف؛ فهى فى هذه اللهجات حرف الهاء، أو «هان» كما هو الشأن فى العبرية؛ على حين أنها «أل» فى العربية الباقية.

* * *

هذا، وتنقسم النقوش التى وصلت إلينا العربية البائدة عن طريقها إلى قسمين: قسم شديد التأثر بالآرامية؛ وقسم أقل تأثراً بها وأدنى إلى العربية الباقية. وقد دون القسم الأول بخط مشتق من الخط المسند[٣]؛ بينما دون القسم الثانى بالخط النبطى أو بخط مشتق منه.

١ — أما نقوش القسم الأول فضحلة المادة لا تشتمل إلا على بعض أسماء الأعلام و بعض عبارات قصيرة. وتنقسم باعتبار المناطق التى كشفت فيها والعشائر التى يظن أنها استخدمتها إلى ثلاث مجموعات: النقوش اللحيانية؛ والنقوش الثمودية؛ والنقوش الصفوية.

فالنقوش اللحيانية تنسب إلى قبائل لحيان. وقد اختلف العلماء فى أصل

---

(١) أشير فى بعض هذه النقوش لحركات الإعراب بحروف مزيدة فى آخر الكلمة «صنعه كعبو الخ. ».

(٢) Renan 344 fin 345; Brockelmann 38 — 40; Cohen 115.

(٣) انظر ص ٧٦.

هذه القبائل اختلافاً كبيراً ، ولم يصلوا بعد بصددها إلى رأى يقينى[١] . ولم يثبت بعد بصورة قاطعة تاريخ هذه النقوش ؛ ولكن يظهر أن أقدمها لا يتجاوز القرن الثانى أو الأول ق . م ؛ وأحدثها لا يتجاوز السادس بعد الميلاد[٢] . وكثير من هذه النقوش يعرض لتعداد ملوك لحيان وألقابهم ... وما إلى ذلك . والخط الذى كتبت به مشتق من الخط المسند ، ويسير مستعرضاً من اليمين إلى الشمال .

وتنسب النقوش الثمودية إلى قبائل ثمود التى ورد فى القرآن ذكرها وذكر مساكنها أكثر من مرة . وقد عثر على هذه النقوش فى المواطن نفسها التى يعتقد العرب أنها كانت مساكن ثمود[٣] . ويرجع تاريخ معظمها إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد . ولا يختلف كثيراً الرسم الذى كتبت به عن الرسم الذى دونت به النقوش اللحيانية السابقة الذكر . فهو مثله مشتق من الخط المسند ، غير أنه أقل من الرسم اللحيانى نظاماً ورونقاً . أما اتجاهاته فغير ثابتة على حال واحدة ، ولكنه فى الغالب يتجه من أعلى إلى أسفل .

وتنسب النقوش الصفوية إلى المنطقة التى كشفت على مقربة منها وهى منطقة الصفا ؛ فقد عثر عليها فى حرة واقعة بين تلول الصفا وجبل الدروز . ويرجع تاريخها إلى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد . والخط الذى دونت به يشبه كثيراً الخط اللحيانى غير أنه مختلف الاتجاهات : فتارة يقرأ من اليمين إلى الشمال ؛ وأخرى من الشمال إلى اليمين . ويرجع قسط كبير من الفضل فى حل النقوش الصفوية إلى المستشرق الألمانى الأستاذ ليتمان . فقد جمع من هذه المنطقة نحو ألف وأربعمائة نقش ، ثم عكف على دراستها زمناً طويلا ، فكشف حروفها الأبجدية وحلّ معظم رموزها .

---

(١) يرجع بعضهم أن اللحيانيين من قبائل ثمود أو أنها اندمجت فى هذه القبائل وتكون منهما شعب واحد .

(٢) Cohen, Langues du Monde 115.

(٣) عثر على بعضها فى المناطق نفسها التى عثر فيها على النقوش اللحيانية السابقة الذكر ، وعلى بعضها الآخر فى مناطق أخرى واقعة فى شمالها .

وفيما يلى ستة نماذج من هذه النقوش : الثلاثة الأولى منها نقوش ثمودية ؛ والثلاثة الأخيرة نقوش صفوية ، وقد دوناها جميعها بحروف عربية وألحقنا بكل منها ترجمته إلى لغتنا العربية (١).

(١)

ذن   ل ق ض   ب ن ت   ع ب د   م ن ت

وإذا ألحقنا بهذه الأصوات الساكنة أصوات المد التى تتبع بعضها والتى لا يرمز إليها هذا النقش ، تصبح كلماته على الصورة الآتية :

ذين لقيض بنت عبد مناة .

وترجمته إلى العربية : « هذا قبر لقيض بنت عبد مناة »

(٢)

ل ت م   ى غ ث   ب ن   ج ش م   ه و ع ل

وبوضع أصوات المد التى أغفل هذا النقش الرمز إليها ، ووصل حروفه بعضها ببعض ، يصبح على الصورة الآتية :

لتيم يغوث بن جشم هوعل .

وترجمته إلى العربية : « الوعل لتيم يغوث بن جشم » . والهاء فى « هوعل » هى علامة التعريف فى العربية البائدة كما سبقت الإشارة إلى ذلك . ويظهر أن صورة وعل كانت منقوشة بجانب هذه الكتابة ، وقصد تدوين اسم الفنان الذى قام بنقشها .

(٣)

ل ح ز م   و ت ش و ق   ا ل   ع م ت

---

(١) نقلت هذه النقوش وترجمتها من كتاب الدكتور اسرائيل ولفنسن « تاريخ اللغات السامية » صفحات ١٧٨ إلى ١٨٨ مع ملاحظة تحقيقات الأستاذ ليتمان المثبتة بصفحتى ٢٧٧ ، ٢٧٨ . وقد اعتمدنا فى تعليقنا على هذه النقوش على مراجع كثيرة أهمها :
Brocklemann, op. cit. 38, 39 et Cohen, Langues du Monde 115.

وترجمته إلى العربية . « لحزم وتشوق إلى عمة » . ويفهم منه أن حزماً كان متشوقاً إلى عمة له ، ولعله شطر بيت من الشعر .

(٤)

لبرد بن اصلح بن ابجر وشتى هدر وذبح فهلت سلم .

وترجمته إلى العربية : لبرد بن أصلح بن أبجر وشتى (أى أقام فى الشتاء) فى هذا المكان أو فى هذه الدار (الهاء فى « هدر » علامة التعريف ، و « در » ينطق بها « دار » لأن هذا الرسم لا يرمز إلى أصوات المد) وذبح (ذبيحة) فيا الله سلام (أقدمه لك) .

(٥)

لانعم بن قحش وغنم سنت حرب نبط

وترجمته إلى العربية . لأنعم بن قحش وغنم سنة حرب النبط

(٦)

لنصرل بن حمر هخطط وحضر هدر فه اثع سلم وخرص قعصن وفر .

وترجمته إلى العربية : لنصرال بن جمر الخط (هخطط = هخطّ = الخطّ ، لأن الهاء كانت علامة التعريف فى العربية البائدة ؛ ويقصد من الخط النقش ؛ فمعنى الجملة : هذا النقش لنصرال بن جمر) وحضر فى هـذه الدار (هدر = هدار = الدار) فيا أثع (اسم صنم من أصنام أهل الصفا) سلام (عليك) وقتل (خرص معناها قتل) قعصن (اسم علم) وفر[1] .

٢ — وأما القسم الثانى من هـذه النقوش فأغزر مادة من القسم الأول .

(١) هذه العبارة فى النقش مدونة حول صورة لشخص على جواد وبيده حربة طويلة يطعن بها شخصاً آخر .

وأقل تأثراً باللغة الآرامية ، وأدنى منه كثيراً إلى « العربية الباقية » فى مفرداته وأسلوبه وقواعده ، مع أن المنطقة التى كشفت بها نقوشه لا تبعد كثيراً عن المنطقة التى كشفت بها نقوش القسم الأول .

وينتظم هذا القسم ثلاثة نقوش . نقش النِّمارة Nemar ونقش زَبَد Zabad ونقس حوران [1] .

(نقش النمارة)

أما نقش النمارة فيشتمل على خمسة أسطر ونصه بالحروف العربية كما يلى

(١) تي نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج .

(٢) وملك الأسدين ونزرا وملوكهم وهرب مزحجو عكدى وجا .

(٣) بزجى فى حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه .

(٤) الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

(٥) عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده .

وترجمته إلى العربية كما يلى :

(١) هذا قبر (نفس أى قبر فى العربية البائدة) أمرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذى (ذو بمعنى الذى فى لهجاتهم) حاز (أسر بمعنى حاز أو استولى أو لبس) التاج .

(٢) وملك الأسدين ونزاراً وملوكهم وهزم (هرّب بمعنى هزم واضطرهم إلى الفرار) مزحج [2] بقوته (عكدى تدل على القوة) وجاء .

---

(١) نقلت هذه النقوش وترجمتها من كتاب الدكتور إسرائيل ولفنس : « تاريخ اللغات السامية » صفحات ١٩٠ — ١٩٤ مع ملاحظة تحقيقات الأستاذ ليتمان فى آخر هذا الكتاب . واعتمدنا فى التعليق عليها على ما ورد فى كتب كثيرة أهمها كتب بروكلمان وكوهين Brockelmann, et Cohen

(٢) يرى الأستاذ ليتمان أن « حرف الواو فى أسماء الأعلام فى هذا النقش مثل مزحجو ، شمرو ... الخ وضع لينوب عن التنوين فى حالة الرفع ، ولعل كاتب هذا النقش أراد بإثبات حرف الواو أن يدل القارىء على النطق الصحيح للكلمة » (هذه عبارة ليتمان أثبتناها بنصها كما وردت فى كتاب ولفنسن ص ٢٧٨) .

(٣) إلى نزجى (أو بزجى) فى حبج نجران مدينة شمر، وملّك معداً وأنزل (بمعنى قسم بين) بنيه .

(٤) الشعوب ووكله الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

(٥) فى القوة ، هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ كسلول (كانون الأول) ليسعد الذين ولدهم (أي ليسعد نسله وذريته) .

وقد عثر على هذا النقش فى منطقة النمارة ، وهى قصر صغير للروم على مقربة من دمشق جنوب منطقة الصفا السابق ذكرها . ويرجع تاريخه إلى سنة ٣٢٨ بعد الميلاد . وهو يشير إلى قبر امرىء القيس بن عمرو الذى كان من ملوك الحيرة وامتد نفوذه إلى الشام . وقد دون بالرسم النبطى المتصل الحروف ، والرسم النبطى هو أحد أنواع الرسم الآرامى ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك[١] ؛ ومن هذا النوع اشتق الرسم العربى كما سنذكر ذلك بتفصيل فى الفقرة الثامنة من هذا الفصل . ولذلك يشتد وجه الشبه بين الرسم الذى دون به هذا النقش والرسم العربي فى أول مراحله .

ومع ظهور آثار الآرامية فى لغة هذا النقش ، فإنه يشتمل على مفردات وجمل كثيرة تتفق كل الاتفاق مع العربية الباقية . فمن ذلك قولة : « فلم يبلغ ملك مبلغه » و « نزل بنيه الشعوب » و « ملك العرب كلها » و « هلك سنة » .

(نقش زبد)

وأما نقش زبد فيشتمل على سطرين ونصه بالحروف العربية كما يلى[٢] :

(١) (بس[٣]) م الإله سرجو برأمت منفو وهنيء بر مر القيس .

---

(١) انظر آخر صفحة ٦٢ وأول ٦٣ .

(٢) الموضوع بين قوسين يمثل أجزاء مكسورة أو مطموسة من النقش .

(٣) قطعة مكسورة من النقش يظن أنها (بسـ) فيكون الحرف الباقى ميما وتكون الجملة باسم الإله ... ويقرؤها ليتمان بنصر الإله على اعتبار أن المكسور (بنص) وأن الحرف الباقى راء .

(٢) وسرجو برسعدو وسترو و (شر) يحو بتميمى .

وقد عثر على هذا النقش فى الأطلال المسماة بزبد ، وهى واقعة فى الجنوب الشرقى من مدينة حلب بين قنسرين والفرات ويرجع تاريخه إلى سنة ٥١٢ أو ٥١٣ بعد الميلاد . وهو مدون بثلاث لغات : العربية البائدة والسريانية واليونانية . ولم يبق من قسمه العربى إلا القطعة التى نقلناها . وهى تشتمل على كلمة عربية وهى « الإله » وعلى أسماء أعلام عربية كثيرة كذلك يظن أنها أسماء الذين اشتركوا فى بناء الكنيسة التى وضع فيها هذا النقش [١] .

أما نوع الرسم الذى دونت به هذه القطعة فهو مشتق من الرسم النبطى المتصل الحروف ، ويمثل الرسم العربى فى أقدم مراحله [٢] .

(نقش حوران)

وأما نقش حوران hauran, harran [٣] فيقع فى أربعة أسطر ، ونصه بالحروف العربية كما يلى :

(١) أنا شرحيل بن ظلمو بنيت ذا المرطول

(٢) سنت ٤٦٣ بعد مفسد

(٣) خيبر

(٤) بعم

وترجمته إلى العربية :

أنا شراحيل بن ظالم بنيت هذه الكنيسة سنة ٤٦٣ بعد مفسد (انهيار)

---

(١) الواو المختتمة بها بعض الأعلام فى هذا النقش هى عوض عن التنوين كما يرى ذلك الأستاذ ليتمان (انظر التعليق رقم ٢ فى صفحة ١٠١) . وكلمة « بر » المتوسطة بين علمين معناها « ابن » .

(٢) يستثنى من ذلك الكلمة الأخيرة فى هذه القطعة (بتميمى) فإنها مدونة بالسريانية .

(٣) رسمه بروكلمان Hauran وكوهين Harran ، ورسم بروكلمان هو الأدنى إلى الاسم العربى « حوران » .

خيبر بعام . — و « مفسد خيبر » المؤرخ به هذا النقش يشير إلى ما حدث لهذا البلد على أثر غارة شنها عليه أحد أمراء بنى غسان ، وانتهت بانهياره وسبى كثير من أهله .

وقد عثر على هذا النقش بحوران اللجا الواقعة جنوب دمشق فى الجزء الشمالى من جبل الدروز . وهو منقوش على حجر فوق باب الكنيسة التى تشير عبارته إلى مؤسسها وتاريخ إنشائها . ويرجع تاريخه إلى سنة ٥٦٨ بعد الميلاد . وهو مدون بلغتين : العربية البائدة واليونانية . وقد وصل إلينا قسمه العربى سليما كامل الكلمات . ولا تختلف اللهجة التى دون بها هذا القسم عن « اللغة العربية الباقية » إلا فى أمور يسيرة . فلغته أقرب كثيراً إلى العربية الباقية من لغة النقشين السابقين . أما الرسم الذى دون به فهو من نوع الرسم المدون به نقش زبد . فكلاهما مدون بخط مشتق من الرسم النبطى المتصل الحروف ، وكلاهما يمثل فى رسمه الخط العربى فى أقدم مراحله . غير أن رسم هذا النقش أدنى كثيراً إلى الرسم العربى من رسم النقش السابق . ولذلك لا يجد من يعرف الرسم العربى كبير عناء فى حل رموزه .

(٤) العربية الباقية

وهى التى تنصرف إليها كلمة العربية عند إطلاقها ، والتى لا تزال تستخدم عندنا وعند الأمم العربية الأخرى لغة أدب وكتابة وتأليف . وقد نشأت هذه اللغة ببلاد نجد والحجاز ، ثم انتشرت فى كثير من المناطق التى كانت تشغلها من قبل أخواتها السامية والحامية ، وانشعبت منها اللهجات التي يتكلم بها فى العصر الحاضر فى بلاد الحجاز ونجد واليمن وفلسطين وسوريا ولبنان والعراق ومصر وبلاد المغرب .

ولا نعلم شيئاً عن طفولة هذه اللغة ؛ إذ لم يعثر العلماء فى مواطنها الأولى

بنجد والحجاز على آثار منقوشة أو مكتوبة تلقى ضوءاً على حالتها الأولى [١] .

وأقدم ما وصل إلينا من آثارها هو ما يعرف بالأدب الجاهلى ، وهو آثار أدبية تنسب لطائفة من شعراء العصر الجاهلى وحكمائه وخطبائه ، ولكنها لم تجمع وتدون إلا فى القرون الأولى للعصر الإسلامى . ويرجع تاريخ أقدمها إلى القرن الخامس بعد الميلاد على أبعد تقدير . وهى تمثل هذه اللغة فى عنفوان اكتمالها وعظمتها بعد أن اجتازت مراحل كثيرة فى سبيل التطور والارتقاء ، وبعد أن تغلبت لهجة من لهجاتها وهى لهجة قريش على أخواتها ، واستأثرت بميادين الأدب شعرها وخطابتها ونثرها فى مختلف القبائل العربية . ولذلك سنبدأ الحديث عن هذه اللغة بكلمة فى صراع لهجاتها بعضها مع بعض وتغلب لهجة قريش .

(٥) صراع لهجاتها بعضها مع بعض وتغلب لهجة قريش

انقسم المتكلمون بهذه اللغة ، منذ أقدم عصورهم ، إلى قبائل شتى ، وطوائف قدداً ، تختلف كل طائفة منها عما عداها فى بيئتها الجغرافية ، وما يكتنفها من ظروف طبيعية واجتماعية ، وما تمتاز به فى نواحى الوجدان والتفكير ، وما أتيح لها من وسائل الثقافة .. وهلم جراً . ومن المقرر فى قوانين اللغات أنه متى انتشرت اللغة فى مساحة واسعة من الأرض وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلا ، فلا تلبث أن تتشعب إلى عدة

---

(١) يذهب بعضهم إلى أن العرب لم يتركوا فى هذا العصر آثاراً لأن الأمية كانت حينئذ عامة فيهم . ولا يتفق هذا الرأى مع ما يحدثنا به التاريخ من أن أناساً كثيرين من العرب فى العصر الجاهلى كانوا يجيدون القراءة والكتابة . قال ابن فارس فى تعليقه على قصة أبى حية النميرى الذى لم يعرف معنى حرف « الكاف » عندما طلب إليه أن ينشد قصيدة على الكاف : « وكان قبله (يعنى أباحية النميرى) بالزمن الأطول من يعرف الكتابة ويخط ويقرأ . وكان فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتبون (تعلموا ذلك فى عصورهم الجاهلية) منهم أمير المؤمنين على صلوات الله عليه وعثمان وزيد وغيرهم » (الصاحبى ص ٩) — ويذهب بعضهم إلى أن ما تركوه من الآثار لم يكشف بعد ، ويأمل أن يكشف عنه يوما ما (ولفنسن ص ١٩٤) . ويرى الأستاذ ليتمان أن ما تركوه من الآثار قد عفا واندثر ، فلا أمل فى كشف شىء منه (انظر تعليق ليتمان فى كتاب ولفنسن تاريخ اللغات السامية ص ٢٧٨) .

لهجات[1] . ولم تفلت اللغة العربية — وما كان يمكن أن تفلت — من هذا القانون العام . فقد انقسمت ، منذ أقدم عصورها ، إلى لهجات كثيرة يختلف بعضها عن بعض فى كثير من مظاهر الصوت والدلالة والقواعد والمفردات ، واختصت كل قبيلة وكل جماعة متحدة فى ظروفها الطبيعية والاجتماعية بلهجة من هذه اللهجات .

غير أنه قد أتيح لهذه اللجات المتعددة فرص كثيرة للاحتكاك بفضل التجارة وتبادل المنافع ومجاورة القبائل العربية بعضها لبعض وتنقلها فى طلب الكلأ وتجمعها فى الحج والأسواق والحروب الأهلية ... وهلم جرا . فاشتبكت من جراء ذلك اللهجات العربية بعضها مع بعض فى صراع لغوى كتب النصر فيه للهجة قريش ، فطغت على جميع اللهجات الأخرى فى المحادثة ، واستأثرت بميادين الأدب شعرها وخطابتها ونثرها فى مختلف القبائل العربية . فأصبح العربى ، أيّا كانت قبيلته ، يؤلف شعره وخطابته ونثره الأدبى بلهجة قريش . وقد ساعد على تغلب هذه اللهجة عوامل كثيرة من أهمها ما يلى :

١ — عامل دينى ، فقد كانت قريش جيرة البيت الأدنين ، يقيمون حوله ، ويقومون بسدانته . وكان البيت حرماً مقدساً فى نظر معظم القبائل العربية فى الجاهلية ، يحجون إليه ليؤدوا مناسكهم ، ويزوروا أصنامهم ويقدموا لها القرابين ، ويشهدوا منافع لهم . فكان لقريش بذلك السلطان الدينى على بقية القبائل العربية ، كما كان لقبيلة لاوى السلطان الدينى على بقية قبائل بنى إسرائيل .

٢ — وبجانب هذا السلطان الدينى ، كان لقريش سلطان اقتصادى خطير . فقد كان مقدار كبير من التجارة فى يد القرشيين الذين كانوا ينتقلون بتجارتهم فى مختلف بقاع الجزيرة العربية من الشام شمالا إلى أقاصى اليمن جنوبا ، ويقومون فى مختلف الفصول برحلات تجارية منظمة من أشهرها رحلة الشتاء إلى اليمن

---

(١) انظر صفحات ١٥٦ — ١٦٥ من كتاب « علم اللغة » ؛ الطبعة الثالثة .

ورحلة الصيف إلى الشام كما يحدثنا بذلك القرآن الكريم إذ يقول : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . و بفضل هذا النشاط التجارى أصبح زمام الثروة فى هذه البلاد بيد قريش .

٣ — وقد تحقق لقريش ، بفضل نفوذها الدينى والاقتصادى ، و بفضل موقع بلادها ، وما كانت تمتاز به من حضارة ونعيم ، تحقق لها بفضل هذا كله نفوذ سياسى قوى فى سائر بلاد العرب فى العصر الجاهلى . وفى ذلك يقول أبو بكر فى رده على الأنصار الذين طمحوا إلى الخلافة بعد وفاة الرسول عليه السلام : « لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ، فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله » .

٤ — هذا إلى أن لهجة قريش كانت أوسع اللهجات العربية ثروة ، وأغزرها مادة وأرقها أسلوباً ، وأدناها إلى الكمال ، وأقدرها على التعبير فى مختلف فنون القول . وقد تم لها ذلك بفضل ما أتيح لأهلها من وسائل الثقافة والنهوض ، وما أتيح لها من فرص كثيرة للاحتكاك بمختلف اللهجات العربية ، وما انتقل إليها من هذه اللهجات من عناصر زادتها ثروة وسدت ما كان يعوزها فى بعض مناحى التعبير .

فجميع الظروف التي تقتضيها قوانين التغلب اللغوى ، والتي فصلناها فى كتاب « علم اللغة » بصدد صراع اللهجات المحلية بعضها مع بعض [1] كانت مهيأة لتغلب لهجة قريش على اللهجات العربية الأخرى . فمن المقرر أن الصراع بين لهجتين محليتين ينتهى بتغلب إحداهما على الأخرى فى حالتين :

(أولاهما) أن يكون لأهل واحدة منهما نفوذ على أهل اللهجة الأخرى . ففى هذه الحالة يكتب النصر للهجة المنطقة ذات النفوذ ، على شريطة أن لا تقل

(١) انظر صفحات ١٦٥ — ١٧٠ من كتابنا « علم اللغة » ، الطبعة الثالثة .

عن المنطقة الأخرى حضارة وثقافة وآدابا . ولذلك تغلبت لهجة باريس حيث مقر الحكومة والسلطان على كثير من اللهجات الفرنسية التى خضعت لنفوذ باريس ؛ وكذلك كان شأن لهجة لندن مع عدد كبير من لهجات المحادثة التى كانت مستخدمة فى الجزر البريطانية ؛ ولهجة مدريد مع كثير من اللهجات الأسبانية الأخرى ؛ ولهجة روما فى العصور القديمة مع أخواتها الإيطالية ... وهلم جرا .

(وثانيتهما) أن تفوق إحدى المنطقتين المنطقة الأخرى فى ثقافتها وحضارتها ومقومات لغتها وآدابها ، ففى هذه الحالة يكتب النصر للهجتها وإن لم يكن لها سلطان على المنطقة الأخرى . وبفضل هذا العامل أخذت اللهجة السكسونية بألمانيا تطارد اللهجات الألمانية الأخرى منذ القرن السادس عشر الميلادى ، أى قبل أن تتكون الدولة الألمانية الحديثة وقبل أن تظهر غلبة برلين(١) ؛ وأخذت التوسكانية بإيطاليا تقهر اللهجات الإيطالية الأخرى منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، أى قبل أن تتكون الدولة الإيطالية الحديثة وقبل أن يظهر سلطان روما(٢) ؛ وذلك بفضل ما كان لكل من السكسونية والتوسكانية من إنتاج أدبى ومقومات لغوية لا يذكر بجانبها إنتاج أخواتها التى اشتبكت معها فى هذا الصراع .

وإذا كانت إحدى هاتين الحالتين تؤدى لا محالة إلى تغلب اللهجة المتوافرة فيها شروطها ؛ فكيف إذا توافر كلتاهما فى لهجة محلية كما كان شأن لهجة قريش : فقد كان لأهل هذه اللهجة السلطان الدينى والاقتصادى والسياسى ؛ وكانت هى أكثر أخواتها ثروة وأغزرها مادة وأوسعها ثقافة وأقدرها على التعبير عن مختلف فنون القول . فليست ظاهرة تغلبها إذن فذة فى التاريخ ، أو يرجع سببها إلى إرهاص أو إعجاز ؛ بل هى ظاهرة عامة فى لغات بنى الإنسان قديمها وحديثها .

ومن المقرر كذلك فى قوانين علم اللغة أن اللهجة المحلية التي يتاح لها التغلب

---

(١) على أن برلين نفسها لم تكن مهد السكسونية بل انتقلت إليها كما انتقلت إلى غيرها.

(٢) على أن روما لم تكن مهد الإيطالية الحديثة ، بل انتقلت إليها كما انتقلت إلى غيرها.

تصبح ، عاجلا أو آجلا ، « لغة الآداب » ؛ فتصطنع وحدها فى الكتابة والتأليف والأدب شعره ونثره . فقد ترتب على تغلب لهجة باريس على معظم أخواتها أن أصبحت هى وحدها لغة الكتابة والآداب بفرنسا ، وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغة الفرنسية . وهذا هو ما حدث عقب تغلب لهجة لندن بانجلترا ؛ ولهجة مدريد بإسبانيا ؛ واللهجة السكسونية بألمانيا ؛ والتوسكانية بإيطاليا . فقد أصبحت هذه اللهجات هى اللغات الأدبية فى الممالك السابق ذكرها ، وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغات الإنجليزية والإسبانية والألمانية والإيطالية .

وهذا هو ما حدث للغة قريش . فقد ترتب على تغلبها على بقية اللهجات العربية أن أصبحت لغة الآداب عند جميع قبائل العرب . فبها كان ينظم الشعر ، وتلقى الخطب ، وترسل الحكم والأمثال ، وتدون الرسائل ، وتتفاوض الوفود ، ويتخاصم الأدباء ، وتجرى المناقشة فى النوادى والمؤتمرات ... فى مختلف بلاد العرب ومختلف قبائلهم . وقد تم لها ذلك قبل بعثة الرسول عليه السلام بزمن غير قصير .

(٦) القرآن والأدب الجاهلى ومجيئهما بلغة قريش

فلا غرابة إذن فى أن القرآن ، وقد جاء بلغة قريش ، كان مفهوماً لدى جميع القبائل ، وكان يؤثر فى العرب جميعاً ببيانه وبلاغته ، فقد نزل بعد أن تم للهجة قريش التغلب على اللهجات العربية الأخرى ، وبعد أن أصبحت لغة الآداب لسائر قبائل العرب .

ولا غرابة كذلك أن جاءت آثار العصر الجاهلى ، معلقاتها وشعرها وخطبها وحكمها وأمثالها ، مؤلفة بلغة قريش . بل كان يكون غريباً كل الغرابة ، ومتعارضاً مع نواميس اللغات الإنسانية ، لو جاء شىء منها مؤلفاً بغير هذه اللغة . لأن أقدم هذه الآثار لا يتجاوز القرن الخامس أو السادس بعد الميلاد ، أى أنها جميعها قد ألفت بعد أن تم للغة قريش التغلب على ما عداها وبعد أن أصبحت اللغة الفذة التى يصطنعها العرب فى ميادين الآداب .

ولا نريد بذلك الدخول فى موضوع الأدب الجاهلى ، والتعرض لصحة نسبته إلى الجاهليين أو عدم صحتها . فهذا موضوع يتجاوز النطاق الذى رسمناه لهذه العجالة ، بل يتجاوز موضوع المادة نفسها ، فهو من كثير من نواحيه أدنى إلى بحوث آداب اللغة والنقد الأدبى منه إلى بحوث فقه اللغة . فحسبنا إذن ما ذكرناه بصدده فى الفصل الرابع[1] وفى هـذا الفصل ؛ فهو يشتمل على أهم ما يتصل من هذا الموضوع بمادة فقه اللغة ، ويبين فساد ما يعتمد عليه منكرو الأدب الجاهلى من أدلة تتصل باللغة وتاريخها .

على أننا لا نقصد بذلك أن نقرر أن جميع ما وصل إلينا من الأدب الجاهلى صحيح لم يعتوره نقص ولا زيادة ولا تحريف . فالأدب الجاهلى لم يدون إلا بعد الإسلام بأكثر من مائة عام . وقد ظل فى أثناء هذه المدة الطويلة يتناقله الناس مشافهة ، ولا تعيه إلا حوافظهم . وغنى عن البيان أن آثاراً أدبية يتناقلها الخلف عن السلف فى أثناء مدة طويلة كهذه ولا تعيها إلا ذاكراتهم ، لابد أن ينالها ، عن قصد وعن غير قصد ، كثير من التحريف ، ويسقط منها كثير مما كانت تشتمل عليه ، ويندس فيها ما ليس منها ؛ ولا بد أن تتأثر بألسنة رواتها وأساليب لغتهم ، وبالحالة التي انتهى إليها التطور اللغوى فى عصرهم ؛ هذا إلى تأثرها بأمور أخرى غير لغوية كالشئون الدينية والسياسية والاجتماعية ... وهلم جرا . وإليك مثلا أن المعلقات ومعظم آثار الأدب الجاهلى تكاد تخلو من الأمور التى تشير إلى العقائد والعبادات الوثنية ، مع أنه قد كان لهذه الشئون سلطان كبير على نفوس العرب قبل الإسلام ؛ كما يحدثنا بذلك القرآن وتدل عليه حقائق التاريخ . فلا شك إذن أن الرواة قد تعمدوا حذف كثير من النصوص المشتملة على هذه الأمور أو تغييرها ، كما غيروا فى صدر الإسلام أسماء الأعلام المتضمنة لأمور وثنية : فتيم اللات مثلا سماه الرسول عليه السلام تيم الله ، إتقاء لذكر الصنم فى اسم جد الأنصار .

---

(١) انظر صفحة ٨٠ وتوابعها .

وقد فطن كثير من باحثى العرب أنفسهم لما انتاب الأدب الجاهلى من تحريف ، وما سقط منه من عناصر ، واندس فيه من دخيل ؛ وعرضوا لأسباب هذه الأمور فذكروا منها العوامل السابقة وعوامل أخرى كثيرة . فقد ذكروا أن كثيراً من العشائر استقلت ما قاله شعراؤها فى الجاهلية وما نسب لآبائهم الأولين من أعمال ، فخلقوا قصائد نسبوها إلى شعرائهم فى الجاهلية ونسبوا فيها إلى آبائهم كثيراً من أعمال النبل والكرم والإقدام . وذكروا كذلك أن كثيراً من الأعراب أنفسهم كانوا يخلقون القصائد وينسبونها لشعراء من الجاهلية ، إرضاء لرغبة الرواة الذين كانوا يلحون عليهم ويطلبون منهم المزيد . وذكروا كذلك أن حماداً الرواية كان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد فى الأشعار ، وأنه أقر بحضرة أمير المؤمنين المهدى بما زاده من عنده فى شعر زهير بن أبى سلمى ؛ وأن خلفاً الأحمر وغيره اخترعوا من الشعر ما لم يكن له وجود وكذبوا على الشعراء(١) .

غير أن أهمية القسم المصنوع نفسه لا تقل كثيراً فى نظر الباحث اللغوى عن أهمية القسم الصحيح . لأن مخترعيه كانوا قريبى عهد بالعصر الجاهلى (فمعظمهم ممن نشأ فى القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة) ، وكانوا على إلمام كبير باللغة وآدابها ؛ فلم يدخروا وسعا فى محاكاة الجاهليين والسير على غرارهم فيما نسبوه إليهم ؛ فجاء ما اخترعوه ممثلا أصدق تمثيل فى روحه وعباراته ومفرداته وأساليبه للغة الأدب الجاهلى .

(٧) نهضة لغة قريش وعوامل هذه النهضة

تضافرت عوامل كثيرة على النهوض بلغة قريش ، وتوطيد قدمها ، وتمكينها من ألسنة العرب ، وتوسيع نطاق إنتاجها . ومن أهم هذه العوامل ما يلى :

---

(١) انظر طبقات الشعراء لابن سلام ، وهو من رجال القرنين الثانى والثالث بعد الهجرة (توفى سنة ٢٣٢ هـ) . وهذا يدل على أن الباحثين من العرب قد فطنوا لذلك منذ عهد بعيد . وانظر كذلك كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، تجد فيه كثيراً من الأمثلة بهذا الصدد.

١ — ما أفادته لغة قريش من احتكاكها باللهجات العربية الأخرى . تقرر قوانين اللغات ، أن اللغة المنتصرة لا تخرج سليمة من صراعها ؛ بل أن طول احتكاكها باللغات الأخرى وشدة كفاحها معها ، وما تبديه بعض اللغات المقهورة من مقاومة ... كل ذلك وما إليه يترك فى اللغة الغالبة آثاراً كثيرة من اللغات المغلوبة فى نواحى الأصوات والقواعد والأساليب وينقل إليها كثيراً من مفرداتها . ويبدو هذا التأثر بأوضح صورة فى النواحى التى تعوز اللغة الغالبة : فاللغة الغالبة تعمد فى العادة إلى خصمها المقهور فتمتص منه ما تحتاج إليه وتستلبه ما يعوزها قبل أن تجهز عليه (١) .

ولم تفلت لغة قريش ، وما كان يمكن أن تفلت ، من هذه القوانين . فقد ترك فيها طول احتكاكها باللهجات العربية الأخرى آثاراً كثيرة من هذه اللهجات ، ونقل إليها طائفة كبيرة من مفرداتها وأساليبها ، وخاصة فى النواحى التى كانت تعوزها ، فقويت بذلك مقوماتها ، واتسع نطاقها ، وكمل ما كان فيها من نقص ، وزادت مرونة وقدرة على التعبير عن مختلف فنون القول (٢) .

غير أنها لم تقف فى اقتباسها عند الأمور التى كانت تعوزها ؛ بل انتقل إليها كذلك من هذه اللهجات كثير من المفردات والصيغ التى لم تكن فى حاجة إليها لوجود نظائرها فى متنها الأصلى . وإلى هذا ترجع بعض العوامل فى غزارة مفردات هذه اللغة ، وكثرة مترادفاتها ، وورود جمع الكلمة الواحدة فيها على صيغ متعددة ، وقبولها أوزاناً كثيرة للفعل الواحد (٣) . فما أشبه الحالة التى انتهت

---

(١) انظر صفحات ٢١٢ — ٢١٤ من كتابنا « علم اللغة » ، الطبعة الثالثة .

(٢) وهذا هو ما يشير إليه ابن فارس فى كتابه الصاحبى إذ يقول : « فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحجيج وبتحاكمون إلى قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها ، فإذ أتتهم الوفود من العرب يتخيرون من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التى طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب » . غير أن هذه العبارة تشعر أن الانتقال الذى نحن بصدده كان يحدث دائماً عن قصد ؛ والحق أنه يحدث فى الغالب فى صورة تلقائية عن غير قصد المتكلمين .

(٣) سنعرض لهذا الموضوع بشىء من التفصيل فى الفقرة ١٣ من هذا الفصل .

إليها لغة قريش ببحيرة امتزج بمياهها الأصلية مياه أخرى مختلفة الطعم واللون انحدرت إليها من جداول كثيرة .

ولا يمكننا على ضوء معلوماتنا الحاضرة أن نميز بين ما كان قرشى الأصل وما انتقل إلى لغة قريش من أخواتها ؛ لأننا نجهل ما كانت عليه لهجة قريش واللهجات العربية الأخرى فى أدوارها الأولى جهلا يكاد يكون تاماً . فلهجة قريش لم تصل إلينا إلا وهى متأثرة بما عداها من اللهجات العربية التى قهرتها ؛ وهذه اللهجات لم يصل إلينا منها شىء قبل تغلب لهجة قريش عليها ، ولم يبق منها فى المحادثة بعد تغلب هذه اللهجة عليها إلا النزر اليسير .

٢ — المجتمعات الخاصة التي اعتاد العرب فى هذا العصر أن يعقدوها للمذاكرة والمشاورة فى مختلف شئونهم الاجتماعية ، أو للحكومة والفصل فى الدعاوى والمنازعات ، أو للتحالف والتعاقد ، أو لمحض الأنس وترويح النفس بذكر الأخبار والوقائع ، وقص ما مضى من السير والأخبار ، أو للاتعاظ والاعتبار وتبادل الحكم [1] . وكانت اللغة المستخدمة فى هذه المجتمعات هى لغة قريش ؛ لأن جميع ما كان يلقى فيها كان من فنون الآداب ؛ وقد تبين فيما سبق أن لغة قريش قد استأثرت بهذه الميادين . ولا يخفى ما لذلك من أثر فى نهضة هذه اللغة وتجويدها وتهذيب نواحيها ووفرة إنتاجها .

٣ — الأسواق . كان للعرب أسواق عامة للتجارة والأدب وغيرها لا يكاد يخلو منها شهر من شهور السنة . فكانوا يجتمعون فى دومه الجندل فى أول ربيع الأول ، ثم ينتقلون منها إلى سوق هجر بالبحرين فى شهر ربيع الآخر ؛ ثم إلى سوق عمان حيث يظلون حتى أواخر جمادى الأولى ؛ ومن سوق عمان ينزلون إلى

---

(١) من هذا النوع ما كان من اجتماع قريش حول كعب بن لؤى كل يوم عروبة يعظهم ويذكرهم ، ويقال إنه سمى يوم الجمعة لذلك .

المشقر فتقوم سوقهم به أول يوم من جمادى الآخرة ؛ ثم يفدون على صحار فيقيمون بها بضعة أيام من رجب ؛ وتقوم سوقهم بالشحر فى النصف من شعبان ؛ و ينفضون من سوق صنعاء فى آخر رمضان ؛ فتأخذ جميع القبائل خلال شوال فى الاستعداد لأكبر سوق عربية وهى عكاظ ، فيعمرونها فى العشرين من ذى القعدة ؛ ثم يغادرونها إلى ذى المجنة قرب مكة فيقضون به بقية ذى القعدة ؛ ومنه يذهبون أول الحجة إلى ذى المجاز بجانب عرفة . ولما كانت الأسواق الثلاثة الأخيرة (عكاظ والمجنة وذو المجاز) تقام قبل موسم الحج و بالقرب من مكة حيث تؤدى مناسك هذه الشعيرة ، كانت أهم الأسواق جميعاً وأكثرها عدداً وأجمعها لقبائل العرب.

ففى هذه الأسواق كان يشهد العرب منافع لهم ، و يتبارون فى إجادة القول خطابة وشعراً ونثراً ، وفيها كانت تفادى الأسرى ، و يتحاكم فى الخصومات ، و يتفاخر بالأنساب والأحساب ، و يتباهى بالفضائل ، و يتغنى بالحب الجمال . وكان الاتجار بالكلام فيها أعظم خطراً وأجل شأناً من الاتجار بالبضائع . وكان جميع ما يقال فيها مؤلفاً باللغة التى كان يصطنعها حينئذ جميع العرب فى الآداب ، وهى لغة قريش . ولا يخفى ما كان لذلك من أثر بليغ فى نهضة هذه اللغة ، وصقلها ، وتوطيد دعائمها ، وتقوية سلطانها على الألسنة ، ووفرة إنتاجها .

٤ — أيام العرب . وهى الحروب التى كانت تشنها قبائل العرب بعضها على بعض أو تشنها على الأجانب . وكان يدفعهم إلى كثير منها نوع حياتهم ، و إيلافهم النجعة لارتياد مواقع الغيث والكلأ ، وانتزاع ما يحتاجون إليه لأنعامهم من غيرهم انتزاعاً بأسنة الرماح وظبات السيوف ، وما كان بين القبائل من حزازات وترات ؛ ويدفعهم إلى بعضها الذود عن الوطن ضد الأجنبى ، أو الوفاء بالعهود وحماية الجار ... وما إلى ذلك . ومن أشهر هذه الأيام « حرب البسوس » بين بكر وتغلب ؛ وحرب « داحس والغبراء » بين عبس وذبيان ؛ و« حرب الفجار » بين قريش وحلفائها من كنانة ضد هوازن ؛ و يوم « بعاث » بين الأوس

والخزرج ؛ و « يوم خزارى » بين نزار واليمن ؛ و « يوم حليمة » بين الغساسنة واللخميين ؛ و « يوم ذى قار » بين العرب والفرس .

وكان دعامتهم فى هذه الحروب الكلام البليغ يلجأ إليه قوادهم ورؤساؤهم وساداتهم وجنودهم للتفاخر وتعداد المآثر واستفزاز الهمم والحث على الشجاعة والإقدام ... وهلم جرا . وكان جميع ما يقال فى هذه الحروب مؤلفاً باللغة التى كان يصطنعها حينئذ جميع العرب فى ميادين الآداب ، وهى لغة قريش . وغنى عن البيان ما كان لذلك من أثر فى نهضة هذه اللغة وتجويدها واتساع نطاق آدابها .

٥ — القرآن والحديث والإسلام . ولأهمية هذه الطائفة من العوامل سنفردها بالكلام فى الفقرة التالية .

(٨) أثر القرآن والحديث والإسلام فى اللغة العربية

كان لهذه الطائفة من العوامل فى اللغة العربية آثار جليلة من أهمها ما يلى :

١ — تقوية سلطان اللغة القرشية . فقد كان لنزول القرآن ومجىء الحديث بلغة قريش ، وهما دعامة الدين الإسلامى الذى اعتنقه معظم قبائل العرب ، أعظم أثر فى توطيد هذه اللغة ، وتثبيت دعائمها ، وتقوية سلطانها على الألسنة .

٢ — تهذيب اللغة العربية وتنقيحها والنهوض بها إلى أرقى مستوى للغات الآداب . ويبدو هذا الأثر فى مختلف النواحى اللغوية : فى الأغراض والمعانى والأخيلة والأساليب والألفاظ .

أما الأغراض فقد اتسعت ايما اتساع بفضل القرآن والحديث ، وانتشار الإسلام فى أمم ذات ثقافات عريقة ، وما أفاده العرب ولغتهم من الاحتكاك بهذه الثقافات .

فقد فتح القرآن الكريم وأحاديث الرسول للغة العربية أبواباً كثيرة من فنون القول ، فعولجت فيهما أمور لم تكن العربية لتعنى بعلاجها من قبل ،

وذلك كمسائل القوانين والتشريع ، والقصص والتاريخ ، والعقائد الدينية ، والجدل فيما وراء الطبيعة ، والإصلاح الاجتماعى والنظم السياسية وشئون الأسرة ، وأصول القضاء والمعاملات ، ودراسة مظاهر الفلك والطبيعة والحيوان والنبات ... وهلم جرا.

وأضيفت إلى هذه الأغراض فيما بعد أغراض أخرى كثيرة يرجع الفضل فيها إلى انتشار الإسلام ، واتساع المملكة العربية ، وارتقاء مظاهر المدنية ، وما ورثه العرب عن الأمم التى دانت لسلطانهم من حضارة وعلوم وفنون ، وما اقتبسوه من لغاتهم وترجموه من مؤلفاتهم فى مختلف الشئون . فتناولت اللغة العربية بجانب ما تناولته من قبل ، شئون التأليف الدقيق فى الرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء والمنطق والفلسفة والفقه وفنون اللغة والنقد الأدبى وتاريخ الأدب والرسائل السياسية ، وضبط أمور الدولة ، وتنظيم شئون الدواوين ، والرد على المذاهب الزائفة ، ومقاومة الزندقة والإلحاد ، وصنع القصة والرواية ... وهلم جرا .

وقد نجم عن اتساعها وارتقائها فى ناحية الأغراض اتساع وارتقاء فى ناحية المعانى والأخيلة والأساليب . فقد قويت على تجلية المعانى الدقيقة التى جلبتها العلوم والفنون السابق ذكرها ، واستخدمت فيها الحجج العقلية والبراهين الفلسفية ، ودخلت فيها عناصر جديدة للخيال والتشبيه ، وتهذبت أساليبها ، وتشكلت فى صورة الأساليب العلمية .

وأما المفردات ودلالاتها فكان الأثر فيها واضحاً كل الوضوح . فقد تجرد كثير من الألفاظ العربية من معانيها العامة القديمة ، وأصبحت تدل على معان خاصة تتصل بالعبادات والشعائر أو شئون السياسة والإدارة والحرب ، أو مصطلحات العلوم والفنون . ومن ذلك ألفاظ : الصلاة والصوم والزكاة والحج والخليفة والإمام وأمير المؤمنين والوالى والقاضى والكاتب والمشير والشرطة والوظيفة[1]

---

(١) هى رزق العامل أى مرتبه .

والقطائع[١] والجريدة[٢] والصائفة والشاتية[٣] والمرتزقة والمتطوعة والشحنة[٤] والثغور[٥] والعمارة[٦] ودار الصنعة[٧] وديوان الجند وديوان الرسائل وديوان الخاتم والسرير والسكة[٨] والطراز[٩] والمقصورة ، والتعجب والنعت والتوكيد ... ، والحد والتعزير والشبهة والقياس ... ، والتعريف والقضية والسالبة والموجبة والمقدمة والنتيجة ... ، والصرع والاستسقاء والذبحة والربو والأمزجة ... ، والمثلث والمربع والدائرة ... ، والسكون والحدوث والقدم والوجود والعرض والجوهر ... ، وما إلى ذلك من آلاف المفردات التي تستخدم في مختلف الفنون .

وبجانب هذه الألفاظ العربية الأصل ، اقتبس العرب للأغراض نفسها ألفاظاً أعجمية من لغات كثيرة ، وخاصة من الفارسية والسريانية واليونانية ، بعد أن عربوها وصقلوها بمناهج اللسان العربي . ومن ذلك ألفاظ : الديوان والعسكر والبند (العلَم الكبير) والصهريج والقيروان (القافلة) والطنبور ... ، والبابونج والزرنيخ والملنخوليا ... ، والاصطرلاب (آلة يعرف بها الوقت) والبنكام (آلة رملية تعرف بها الساعة النجومية) والطلسم والمغنطيس والقانون والأسطول والفلسفة والهيولى ... وهلم جرا .

وقد جرت عاداتهم في الغالب أن يبحثوا للمعنى الجديد عن لفظ عربي عن طريق الاشتقاق والنحت والمجاز ، فإذا أعيتهم الحيلة عمدوا إلى تعريب اسمه

---

(١) هي ما يمنحه السلطان من الأرض لاستغلاله والانتفاع به .
(٢) هي الجيش المجرد من الرجالة .
(٣) الصائفة هي الكتيبة التي تغزو صيفاً والشاتية الكتيبة التي تغزو شتاء .
(٤) اسم لمن يقيم في الثغور من الجند .
(٥) الأماكن التي يخاف دخول العدو منها .
(٦) السفن الحربية .
(٧) الموضع الذي تصنع فيه السفن على مقربة من شاطئ البحر .
(٨) هي في الأصل الطابع الذي ترسم به الدراهم والدنانير ، ثم صارت تطلق على نفس الدراهم والدنانير .
(٩) هو سمة خاصة توسم بها الثياب التي تحاك للخليفة ليلبسها أو ينعم بها على سواه .

الأجنبي . وكثيراً ما كانوا يلجئون إلى هذه الوسيلة الأخيرة من بادىء الأمر إذا كان اللفظ يدل على معنى اصطلاحي دقيق يخشى ضياعه فى ثنايا اللفظ العربى .

ومن آثار الإسلام فى هذه الناحية كذلك قضاؤه على كثير من الألفاظ العربية الجاهلية التى تدل على نظم حرمها الإسلام كأسماء الأنصبة التى كانت لرئيس الحرب فى الجاهلية (المرباع والصفايا والنشيط والفضول)(١) ؛ وكألفاظ الإتاوة والمكس والحلوان والصرورة(٢) والنوافج(٣) . وقد قضى الإسلام كذلك على أسماء الأيام والأشهر فى الجاهلية لاتصال بعضها فى أذهان العرب بشئون وثنية أو نظم جاهلية واستبدل بها أسماءها الحالية(٤) .

---

(١) المرباع ربع الغنيمة ، والصفايا ما يصطفيه الرئيس ويختاره لنفسه قبل قسمتها كالسيف والجارية ، والنشيط ما يغنمه الغزاة فى الطريق قبل أن يصلوا إلى الجبهة ، والفضول ما يبقى من الغنيمة بعد قسمتها مما لا يصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس .

(٢) هو الذى يترك الزواج تبتلا .

(٣) هى الإبل تساق فى الصداق .

(٤) كانت أسماء الأيام فى الجاهلية : شيار « السبت » ، أول ، أوهن أو أوهد ، جبار ، دبار ، مؤنس ، عروبة .

أما أسماء الشهور فالمستعمل منها الآن ليس فى الحقيقة من وضع الإسلام ، وإنما وضعت فى عهد كلاب بن مرة أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك قبل الإسلام بقرنين تقريباً . وأما أسماؤها القديمة فليست معروفة على وجه اليقين .

قال الخطيب خير الدين المدنى فى تذكرته : « إن المحرم كان يقال له عند الجاهلية المؤتمر لأنه أول السنة ، فكل شىء من أقضيتها يؤتمر فيه . وصفر الناجر من النجر أى شدة الحر . والربيع الأول الخوان من الخيانة . والثاني الصوان من الصيانة . وجمادى الأولى الزباء وهى الداهية الكبيرة . والأخرى البائد لكثرة القتال والقتل فيه . ورجب الأصم لأنهم كانوا يكفون فيه عن القتال فلا تسمع فيه أصوات السلاح . وشعبان الواغل وهوا الداخل على قوم ولم يدعوه لهجومه على رمضان . ورمضان الباطل وهو كوز يكال به الخمر . وشوال العاذل لأنه من أشهر الحج فكان يثنيهم عن غير مهماته . وذو القعدة رنة لأن الأنعام كانت ترن فيه لقرب النحر . وذو الحجة ترك لأنهم كانوا يتركون الإبل فيه » .

وأورد محمود الفلكي باشا فى الرسالة التى ألفها بالفرنسية فى تحقيق مولد النبي عليه الصلاة والسلام ووفاته أسماء أخرى للشهور فى الجاهلية وهى على التوالى ابتداء من المحرم : ناتق ، ثقيل ، طليق ، ناجر ، أسلخ أو أسلخ أوسماح أوسماخ ، أمنح ، أحلك ، كسع ، زاهر ، برط أو مرط ، حرف أو نعيس ، نعس أو مريس .

وقد اختلف فى تعليل تسميتها بالأسماء القديمة والأسماء الحديثة . فقال محمود باشا الفلكى : =

(٩) اللهجات العربية بعد تغلب لغة قريش

تغلبت لغة قريش على ما عداها من اللهجات العربية كما تقدم بيان ذلك ، فاستأثرت بميادين الأدب شعرها وخطابتها ونثرها ، وطغت على ألسنة جميع القبائل فى المحادثة نفسها وقضت على لهجاتها الأولى .

غير أنه قد بقى لأفراد كل قبيلة فى ميدان المحادثة من لهجتهم القديمة بعض آثار ضئيلة ، ونال القرشية فى ألسنتهم بعض التحريف تحت تأثير لهجتهم الأولى وعاداتهم المتأصلة فى النطق ... وهلم جرا . ومن أجل ذلك اختلفت لهجات المحادثة العربية بعضها عن بعض باختلاف القبائل . وقد وصل إلينا بعض مظاهر هذا الاختلاف عن طريقين :

= « إن العرب أطلقت على الأشهر أسماء تناسب الحوادث الجوية أو غيرها التى وقعت فى سنة التسمية فقط ، ولم يرسلوا أنظارهم إلى ما وراء ذلك لجهلهم بأنه بعد مضى سبع عشرة سنة تنتقل شهور الصيف فى الشتاء وبالعكس . وكذلك لما غيروا الأسماء القديمة واستبدلوها بالأسماء المستعملة الآن لم يراعوا إلا الأحوال التى كانت جارية فى وقت التسمية . فأول شهورهم المحرم سمى بذلك لأن من شهورهم أربعة حرما : واحد فرد ؛ وثلاثة سرد . فالثلاثة السرد ذوالقعدة وذو الحجة والمحرم ، والفرد رجب . وكانوا يحرمون القتال فى هذه الشهور ولا يتعرضون لأحد فيها بالقتل والدم وإن كان عنده دم . ثم صفر سمى به لما كان يعتريهم من مرض يصفر ألوانهم . ثم شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر سميا بالربيع لأنهما كانا يأتيان فى الخريف ، وكانت العرب تسمى الخريف ربيعاً . ثم جمادى الأولى وجمادى الثانية سميا بذلك لمجيئهما فى أيام الشتاء عند جمود الماء ووقع الجليد . ثم رجب لأنه يقال فيه ارجبوا أى كفوا عن القتال . ثم شعبان سمى به لانشعاب القبائل فيه إلى طلب الماء والغارات . ثم رمضان سمى به لأنه كان يأتى إذا بدأ الحر وأرمضت الأرض . ثم شوال لقولهم شولوا أى ارتحلوا ، وقيل بل سمى به لأن الإبل كانت تشول فيه بأذنابها لشهوة الضراب ، ولذلك لا تجيز العرب التزويج فيه . ثم ذو القعدة لقعودهم فيه عن القتال . وذ الحجة لاقامتهم الحج فيه » .

أنظر كذلك فى هذا الموضوع « كتاب تاريخ دول العرب والاسلام » لمحمد طلعت حرب صفحة ٧٩ وتوابعها .

(أحدهما) قراءات القرآن[1] . وذلك أن كثيراً من مظاهر الاختلاف فى هـذه القراءات يرجع إلى اختلاف اللهجات العربية فى الأصوات أو فى وزن الـكلمات أو فى مآخذ الاشـتقاق أو فى المفردات[2] . فالقرآن و إن نزل بلغة قريش ، ورد فيه كثير مما بقى من لهجات القبائل الأخرى ، وقرئت بعض ألفاظه على وجوه تتفق مع هذه اللهجات[3] .

(وثانيهما) ما ورد فى ثنايا كتب الأدب والتاريخ خاصاً بهذه اللهجات .

وعلى ضوء هذين المرجعين يتبين أن وجوه الخلاف بين هذه اللهجات لم تكن كبيرة ، ولـكنها كانت تبدو فى مختلف المظاهر اللغوية : فمنها ما كان يتعلق بالأصوات ؛ ومنها ما كان يتعلق بالقواعد و بنية الـكلمات وأوزانها وما إلى ذلك ؛ ومنها ما كان يتعلق بالمفردات .

---

(١) لم يكد ينصرم القرن الثانى للهجرة حتى تجاوز الحصر عدد القراء والقراءات . ولـكن الناس كانوا على قراءة سبعة مشهورين هم : أبو عمرو بن العلاء ، وأبو محمد يعقوب بن اسحق الحضرى بالبصرة ، وحمزة بن حبيب الزيات ، وعاصم بن أبى النجود الأسدى بالـكوفة ، وعبد الله بن عامر اليحصبى بالشام ، وعبد الله بن كثير بمكة ، ونافع بن أبى نعيم بالمدينة . وقبيل الثلثمائة حذف منهم يعقوب وأثبت مكانه على بن حمزة الـكسائى ، وانخرط يعقوب مع أبى جعفر يزيد بن القعقاع وأبى محمد خلف بن هشام وعرفوا بالقراء الثلاثة بعد السبعة المذكورين ، فـكانت القراءات عشرا . ثم عرفت القراءات الأربع لمحمد بن محيصن المكى والأعمش الـكوفى والحسن البصرى ويحيى اليزيدى ؛ فـكانت القراءات أربع عشرة . والمشهور أن السبع متواترة والثلاث آحاد والأربع شاذة .

(٢) يتمثل بعض مظاهر الاختلاف فى قراءات القرآن فى اختلاف فى المعنى وفى توجيه التأويل ، كالخلاف فى قراءة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » بضم الفاء أو فتحها ؛ و « غلبت الروم فى أدنى الأرض » بضم الغين أو فتحها ؛ و « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال ... بفتح الباء فى يسبح أو بكسرها ؛ و « وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة » بضم الهمزة فى أمة بمعنى طائفة من السنين أو بكسرها بمعنى نعمة ويسر أو بفتح الهمزة والميم المخففة واختتام الـكلمة بهاء لابتاء بمعنى نسيان . . » . — وهذا النوع من مظاهر الاختلاف فى القراءات ليس من موضوعنا فى شىء لعدم تعلقه باختلاف اللهجات .

(٣) وهذا فى نظرنا هو أصح تفسير للحديث : « نزل القرآن على سبعة أحرف » . فالأحرف معناها فى الحديث اللغات ، أى اشتمل على بعض مظاهر من ست لغات أخرى غير لغة قريش ، وهى لغات كنانة وأسد وهذيل وضبة وبنو سعد وثقيف — انظر الصاحبى لابن فارس ص ٢٨ وتوابعها : « حدثنا ... قال نزل القرآن على سبعة أحرف أو سبع لغات خمس بلغة العجز من هوازن وهم الذين يقال لهم عليا هوازن ... الخ » .

فمن مظاهر الاختلاف فى الأصوات ما يلى .

إبدال همزة أن عينا فى لغة تميم (ويسمى ذلك عنعنة تميم : « أعن توسمت » بدلا من « أأن توسمت ») . — وإبدال الهمزة هاء أحيانا فى لغة طيء (« لهنك » بدلا من « لأنك ») . — وبدال الميم باء والباء ميما فى لغة مازن (« با اسمك » بدلا من « ما اسمك » و « مكر » بدلا من « بكر ») . — وحذف نون من الجارة عند خثعم وزبيد إذا وليها ساكن (« ملبيت » مكان « من البيت » . وهى مطابقة لعامية مصر فى العصر الحاضر) . — وقطع اللفظ قبل تمامه فى لغة طيء (ويسمى ذلك قُطعة طيء : « يا أبا الحك » فى « يا أبا الحكم » . ولم يكن هذا مقصوراً عندهم على المنادى . — وهذا الأسلوب منتشر فى كثير من اللهجات العامية فى مصر) . — وإبدال الكاف شيناً ولا سيما فى الوقف فى لغة أسد (ويسمى كشكشة أسد : « عليش » مكان « عليك ») . — وإبدال الكاف شيناً مطلقاً فى لغة اليمن (ويسمى شنشنة اليمن : « لبيش اللهم لبيش ») . — وإلحاق سين بكاف المخاطب المذكر أو استبدالها بها فى حالة الوقف فى لهجة ربيعة للتفرقة بين المذكر والمؤنث (كسكسة ربيعة : « عليكس » مكان « عليك ») . — وإبدال العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء عند هذيل وقيس والأنصار وسعد بن بكر (استنطاء هذيل ، فيقولون : « إنا أنطيناك الكوثر » فى « إنا أعطيناك الكوثر » . وهذا الأسلوب منتشر فى اللهجات العامية بالعراق فى العصر الحاضر) . — ووجود صوت بين القاف والكاف والجيم فى كثير من لهجات اليمن . — ووجود صوت بين الشين والجيم والياء فى بعض اللهجات (ويوجد هذا الصوت فى عامية العراق فى العصر الحاضر) . — وإلحاق صوت القاف باللهاة حتى يغلظ فيقرب من صوت الكاف عند بنى تميم (١) (وهو صوت الجاف أو الجيم

(١) وبهذه اللهجة ورد قول شاعرهم : « ولا أكول لكدر الكوم مكفول » أو « ولا أجول لجدر الجوم مجفول » (جيم غير معطشة) ، بدلا من : « ولا أقول لقدر القوم مقفول » .

غير المعطشة الذى يستبدل بصوت القاف العربى فى كثير من اللهجات المصرية وغيرها : « جال » بدلا من « قال ») . — واستبدال الجيم بياء النسب و بياء المتكلم فى الإضافة عند بنى تميم (فيقولون « غلامج ، علج ، عشج » ، بدلا من « غلامى ، على ، عشى ») . — وفتح باء الجر وكسر لامه فى حالة جرهما لضمير المفرد الغائب فى لغة قضاعة (فيقولون « مررت بَه ، والمال لِه ») . — و إبدال السين تاء فى بعض الكلمات فى لغة اليمن (و يسمى الوتم : « النات » مكان « الناس ») . — وهمز ياء النبى فى بعض اللهجات (« النبىء » وبها جاءت قراءة نافع) . — وتسكين ذال أذن فى بعض اللهجات (وبها جاءت كذلك قراءة نافع) . — و إبدال الهمزة التالية لهمزة الاستفهام هاء مع مد همزة الاستفهام أو عدم مدها (و بذلك جاءت قراءة نافع فى مثل « أأنذرتهم » : « آهنذرتهم » رواية قالون ، « أهنذرتهم » رواية ورش) . — و إمالة ألف المقصور اليائى (و بذلك جاءت قراءة نافع) . — وهمز الياء فى مثل ضياء (ضئاء ، و بذلك جاءت قراءة ابن كثير) وتفخيم اللام بعد الصاد والضاد والطاء والظاء (و بذلك جاءت رواية ورش فى قراءة نافع) . — و إدغام الصوتين المتحدين فى المخرج أو المتقاربين فيه إذا تجاورا (« سلكُّم » ، « اتخّتم » فى سلككم واتخذتم ، و بذلك جاءت قراءة أبى عمرو) . — والنطق بالصاد فى بعض الكلمات فى صورة بين الصاد والزاى (و بذلك جاءت قراءة حمزة : « الصراط » و « أصدق ») .

ومن مظاهر الاختلاف فى القواعد (بنية الكلمات ووجوه الاشتقاق ... الخ) الأمور الآتية :

ضم هاء « أيها » إذا لم يتلها اسم إشارة فى لغة بنى أسد (أيهُ الناس) . — وكسر أوائل الأفعال المضارعة فى لهجة بهراء (تلتلة بهراء : « يِضْرب » مكان « يَضْرب » . وهذا الأسلوب منتشر فى كثير من اللهجات العامية بمصر) . — و إبدال ياء الذين واواً فى حالة الرفع فى لغة هذيل . — و إبقاء ألف هذان وهاتان فى حالتى النصب والجر فى لغة بنى الحارث بن كعب (وبها قرىء : « إن هذان

لساحران ») . — وتعريف الاسم والصفة بأم بدلا من أل فى لهجة حمير (طمطمانية حمير ، وبها جاء الأثر : « ليس من امبر امصيام فى امسفر ») . — وقلب ألف المقصور ياء عند الإضافة فى لغة هذيل « سبقوا هوِىَّ » بدلا من « سبقوا هواى ») . — والوقوف على المنون بالسكون فى حالة النصب فى لهجة ربيعة (فيقال : « رأيت محمد » فى حالة الوقف) . — وعدم إعمال « ما » فى لغة تميم (ما محمد قائم) . — والاختلاف فى صيغة الجمع (فجمع الأسير مثلا أسرى عند بعضهم وأسارى عند آخرين) . — والوقف على هاء التأنيث بالتاء عند حمير (فيقال « هذه أمت » بدلا من « هذه أمة ») . — وإشباع الضمة فى عين المضارع المضموم حتى يتولد عنها واو فى بعض اللهجات (فيقال « أنظور » مكان « أنظر ») . — وتسكين الهاء فى له فى الوصل فى لغة أزد السراة . — ووصل واو بميم الجمع (« عليهمو » ، وبها جاءت قراءة نافع) .

ومن المفردات التى بقيت عند بعض القبائل من لهجاتها الأولى : « المدية » وهى السكين عند دوس من الأزد[1] ؛ و « الغبيط » وهو مركب للنساء فى لغة طيء ؛ و « ذو » بمعنى الذى فى لغة طيء ؛ و « متى » بمعنى من الجارة فى لغة هذيل ؛ و « وثب » بمعنى جلس فى لغة حمير ، والوثاب عندهم الفراش ، ويقولون للملك إذا كان لا يغزو « موثبان » يريدون أنه يطيل الجلوس ولا يغزو ، ويقولون « وثبه وسادة » أى فرشه إياها وأجلسه عليها ؛ و « الخندع » و « القرة » بمعنى الضفدع فى بعض اللهجات ؛ و « الخنعبة » وهى المتدلية فى وسط الشفة ؛ و « البعقوط » و « البلقوط » وهو القصير ؛ و « العرتنة » وهى طرف الأنف ؛ و « الزلقوم »

(١) روى أن أبا هريرة لما قدم من دوس عام خيبر لقى النبى صلى الله عليه وسلم وقد وقعت من يده السكين ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « ناولنى السكين » فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ولم يفهم المراد بهذا اللفظ ، فكرر الرسول له قوله وهو يفعل فعلته الأولى ، ثم قال : « المدية تريد ؟ » وأشار إليها ، فقال له نعم ، فقال : « أو تسمى عندكم سكيناً ، فو الله لم أكن سمعتها إلا يومئذ » . ولفظ سكين لبست عربية الأصل على الأرجح ، بل انتقلت إلى العربية من الآرامية كما سنذكر ذلك فى آخر الصفحة التالية .

وهو الحلقوم ؛ و « البصاصة » وهى العين ؛ و « تمنى » بمعنى تمطى فى بعض اللهجات؛ و « الصفصف » بمعنى العصفور؛ و « صحب » المذبوح بمعنى سلخه[(١)] ... وهلم جرا .

(١٠) احتكاك العربية بأخواتها السامية وغيرها

وصراعها معها وآثار ذلك

أتيح للغة العربية من قبل الإسلام ومن بعده فرص كثيرة للاحتكاك بلغات أخرى من فصيلتها ومن غير فصيلتها .

فقد توثقت العلاقات المادية والثقافية منذ أقدم العصور بين العرب وجيرانهم الآراميين فى الشمال عن طريق التجارة والهجرة والرحلات وامتزاج بعض قبائل آرامية بالعالم العربى فى الحجاز نفسه أو على تخومه . فكان لزاماً إذن أن تتأثر اللغتان إحداهما بالأخرى وفقاً لنواميس علم اللغة[(٢)] . وقد ظهر لكثير من المحققين أن معظم الكلمات العربية الدالة على مظاهر الحياة الحضرية وما إليها من الأمور التى لم تكن مألوفة فى البيئة العربية الأولى ، ومعظم الكلمات المتعلقة بمنتجات الصناعة وشئون التفكير الفلسفى والمتصلة بما وراء الطبيعة ... ؛ ظهر لهم أن معظم هذه الكلمات وما إليها قد انتقلت إلى العربية من الآرامية (شيطان ، سكين ، سارية ... الخ[(٣)]) . ويبدو هذا التأثر فى أوضح صورة فى اللهجات « العربية البائدة » كما تقدمت الإشارة إلى ذلك[(٤)] .

---

(١) انظر فى هذا الموضوع : الصاحبى لابن فارس ص ١٥ وتوابعها ، والخصائص لابن جنى ٣٩٥ ، ٤١١ ، والمزهر للسيوطى الجزء الأول صفحات ١٠٦ — ١١١ .

(٢) انظر تفصيل ذلك فى الفصل الخاص بصراع اللغات من كتابنا « علم اللغة » .

(٣) يذهب بروكلمان إلى أن جل هذه الكلمات إن لم يكن كلها من أصل آرامى (انظر بروكلمان فقرة ٢٣ صفحة ٣٨ وفقرة ٥٥ ص ٧٢) .

(٤) انظر آخر ص ٩٦ وتوابعها .

ولم يكن ما أتيح للعرب من فرص للاحتكاك بجيرانهم الآراميين فى الشمال شيئاً مذكوراً بجانب ما أتيح لهم من فرص للاحتكاك بجيرانهم اليمنيين فى الجنوب. فقد كانت العلاقات الثقافية والاقتصادية والدينية على أقوى ما يكون بين الشعبين. وفضلا عن ذلك ، فقد هاجر إلى بلاد العرب منذ عصور سحيقة فى القدم كثير من القبائل اليمنية(١) ، وخاصة قبائل معين وخزاعة والأوس والخزرج ، وتألفت منهم هناك جاليات قوية امتزجت بالعرب كل الامتزاج . وكانت الرحلات العربية إلى بلاد اليمن للتجارة وغيرها لا يكاد يخلو منها فصل من فصول السنة . وقد أتاح هذا كله فرصاً كثيرة للاحتكاك بين لغتى هذين الشعبين ؛ فاشتبكا فى صراع عنيف انتهى بانتصار العربية على اللغات اليمنية القديمة فى المرحلة الأخيرة من العصر الجاهلى كما تقدمت الإشارة إلى ذلك(٢) . ومن المقرر أن اللغة المقهورة تترك فى اللغة الغالبة آثاراً كثيرة فى مختلف المظاهر وخاصة فى المفردات . فلا بد إذن أن يكون قد انتقل إلى العربية كثير من آثار اللغات اليمنية التى قهرتها . غير أنه من المتعذر ، على ضوء معلوماتنا الضئيلة عن هذين الفرعين فى عهودهما الأولى ، أن نميز ما انتقل إلى العربية من اللغات اليمنية القديمة .

ثم أدت الفتوح العربية بعد الإسلام إلى امتزاج العرب واحتكاكهم بكثير من الشعوب ؛ فاشتبكت لغتهم من جراء ذلك فى صراع مع اللغات الآرامية فى سوريا ولبنان والعراق ، ومع القبطية بمصر ، ومع البربرية فى شمال أفريقيا ، ومع الفارسية بإيران ، ومع التركية ببلاد المغول ، ومع القوطية بإسبانيا ؛ وقضت قوانين الصراع اللغوى أن تصرع اللغات الثلاث الأولى منها(٣) . حتى أصبحت المساحة التى تستخدم فيها العربية لغة حديث وكتابة نحو ١٤ مليون كيلو

---

(١) يظن أن هجرة المعينيين إلى بلاد العرب قد حدثت فى الألف الثانى ق م .

(٢) انظر ص ٧٧ وتوابعها .

(٣) تنص قوانين اللغات أنه فى مثل الحالة التى كانت عليها اللغة العربية مع هذه اللغات لا يتم النصر للغة الشعب الغالب إلا بخمسة شروط : (أحدها) أن يكون أرقى من الشعب =

متر مربع ، و بلغ عدد المتكلمين بها أكثر من ٤٠ مليون نسمة [(١)]. ولكنها خرجت من صراعها هذا وهى متأثرة باللغات التى صرعتها تأثراً يختلف قوة وضعفاً باختلاف اللغات . فتأثرها بالسريانية مثلا كان أظهر كثيراً من تأثرها بالقبطية والبربرية ؛ بل إنها لم تكد تتأثر بهاتين اللغتين الأخيرتين إلا فى اللهجات العامية التى انشعبت منها فى مناطقهما الأولى (مصر وشمال أفريقية). وقد انتقل إليها عن طريق السريانية بعض كلمات يونانية كانت السريانية قد اقتبستها من اليونانية من قبل (انجيل ، اسطوانة ، أسقف ، ناموس ، أسفنج ... الخ).

وصراع العربية مع الفارسية قد ترك فى كلتيهما آثاراً ظاهرة من الأخرى على الرغم من أنه لم ينته بتغلب واحدة منهما . فقد انتقل إلى كلتيهما من الأخرى كثير من المفردات والأساليب والأخيلة والتراكيب . ولكن أثر العربية فى الفارسية كان أوسع نطاقاً من أثر الفارسية فى العربية . و يظهر هذا الأثر بشكل واضح فى ناحية المفردات ؛ حتى أن معظم مفردات الفارسية الحديثة عربى الأصل [(٢)].

أما صراع العربية مع التركية والقوطية فقد ترك فى هاتين اللغتين آثاراً واضحة من العربية ، ولكن لم يكد يترك فى العربية شيئاً منهما . فقد اقتبست

= المغلوب فى حضارته وثقافته وآداب لغته وأقوى منه سلطاناً وأوسع نفوذاً ؛ (وثانيها) أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية ؛ (وثالثها) أن تقيم بصفة دائمة جالية يعتد بها من أفراده فى بلاد الشعب المغلوب ؛ (ورابعها) أن تمتزج بأفراد هذا الشعب ؛ (وخامسها) أن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين . وقد توافرت جميع هذه الشروط فى حالة العربية مع الآرامية والقبطية والبربرية . ولم تقو العربية على التغلب على الفارسية لاختلال جميع الشروط السابقة تقريبا (ما عدا الشرط الثانى) . ولم تقو على القوطية لاختلال الشرطين الرابع والخامس . ولم تقو على التغلب على التركية لأن العرب لم يكادوا يفتحون بلادا تركية اللسان ولاختلال الشروط الثلاثة الأخيرة (انظر تفصيل ذلك فى آخر صفحة ٢١٠ وأول ٢١١ من كتابنا « علم اللغة » الطبعة الثالثة) .

وقد أفلت من هذا المصير بعض قرى فى الحجاز وسوريا ولبنان لا تزال تتكلم لهجات آرامية إلى العصر الحاضر (انظر صفحتى ٦٧ ، ٦٨) ؛ وأفلت منه كذلك بعض عشائر فى شمال أفريقيا لا تزال محتفظة بلهجاتها البربرية إلى العصر الحاضر . (انظر التعليق الثانى من صفحة ١٨٧ من الطبعة الثالثة من كتابنا « علم اللغة ») .

(١) انظر صفحتى ١٨٧ ، ١٨٨ من الطبعة الثالثة من كتابنا « علم اللغة » .

(٢) V. Renan, op cit, 392.

كلتاهما من العربية طائفة كبيرة من المفردات ؛ وكان حظ التركية من ذلك أوسع كثيراً من حظ القوطية[١] ؛ على حين أن أثرهما فيها لم يكد يظهر إلا فى بعض اللهجات العامية المنشعبة عن اللغة العربية .

ولم يقف أمر نفوذ العربية عند هذا الحد ، بل تجاوزه إلى جميع الأمم الإسلامية الآخرى (الهند ، أفغانستان ، تركستان ، الكرد ، بخارى ... الخ) . فأنزلت العربية عند هذه الأمم منزلة مقدسة سامية ، لأنها لغة القرآن والحديث اللذين يقوم عليهما الدين الإسلامى ؛ وهى التى ألف بها جميع كتب التفسير والسنة والفقه والأصول والتوحيد ... وما إلى ذلك ، وهى فضلا عن هذا وذاك اللغة التى يجب أن تؤدى بها كثير من العبادات الإسلامية . وكان من أثر ذلك أن تركت العربية فى لغات هذه الأمم آثاراً ذات بال ، وانتقل منها إلى هذه اللغات كثير من المفردات . وقد بلغ هذا الأثر مبلغاً كبيراً فى بعض اللغات المستخدمة فى المناطق الهندية الإسلامية . فنحو ٧٥ فى المائة من مفردات اللغة الأردية مثلا يتألف من كلمات عربية الأصل أو فارسيته[٢]. فاتسعت بذلك مناطق نفوذ اللغة العربية اتساعاً كبيراً ، حتى بلغ عدد الناطقين بها والمتأثرين بسلطانها زهاء ٤٠٠ مليون[٣] .

وقد أتيح للغة العربية فى أثناء الحروب الصليبية فرص للاحتكاك باللغات الأوروبية الحديثة ، فاقتبست منها هذه اللغات كثيراً من المفردات ، وتركت فيها بعض الآثار .

---

(١) لم يكد يبق للغة التركية من فصيلتها التترية إلا القواعد . أما مفرداتها فمعظمها عربى الأصل أو فارسيه . فقد تجمع فى التركية إذن ثلاث فضائل : فهى سامية آرية تترية فى متن لغتها وتترية فقط فى قواعدها . V Renan, op.cit.393 . وقد حاول الأتراك فى نهضتهم الحديثة أن يخلصوا متن لغتهم من بعض المفردات العربية والفارسية ويستبدلوا بها كلمات تركية أو لاتينية .

أما تأثر القوطية بالعربية فكان ضيق النطاق ، ولكن لا تزال مظاهره باقية إلى الآن فى لغات أسبانيا والبرتغال (انظر صفحة ٢١٧ وتعليقها الأول فى الطبعة الثالثة من كتابنا علم اللغة) .

(٢) V.Renan, op.cit.393

(٣) انظر صفحة ١٨٨ وتعليقها الثاني فى الطبعة الثالثة من كتابنا « علم اللغة » .

وفى العصور الحديثة كثرت فرص الاحتكاك بينها وبين هذه اللغات وتنوعت أسبابه بفضل انتشار الثقافة الأوروبية بمصر والشام والعراق وشمال أفريقية ، وبفضل البعثات العلمية التى أوفدتها هذه البلاد إلى الغرب ، وترجمة منتجات الفرنجة إلى اللغة العربية . فتأثرت بذلك اللغة العربية أيما تأثر فى أساليبها وأخيلتها ومعانيها ومنهج علاجها للمسائل ، ونشأت بها فنون جديدة كفن القصص التمثيلى وما إليه ، وانتقل إليها كثير من المفردات الأوروبية فى مصطلحات العلوم والفنون ... وما إلى ذلك ، فازدادت بذلك ثروة وقدرة على التعبير .

(١١) خصائص اللغة العربية

توافر للغة العربية عاملان لم يتوافرا لغيرها من اللغات السامية : أحدهما أنها نشأت فى أقدم موطن للساميين ؛ وثانيهما أن الموقع الجغرافى لهذا الموطن قد ساعد على بقائها حيناً من الدهر متمتعة باستقلالها وعزلتها .

وكان من أثر هذين العاملين أن احتفظت بأكبر قدر من مقومات اللسان السامى الأول ، وبقى فيها من تراث هذا اللسان ما تجردت منه أخواتها السامية ، فتميزت عنها بفضل ذلك بخواص كثيرة من أهمها الأمور الثلاثة الآتية :

١ — أنها أكثر أخواتها احتفاظاً بالأصوات السامية . فقد اشتملت على جميع الأصوات التى اشتملت عليها أخواتها السامية[١] ، وزادت عنها بأصوات كثيرة لاوجود لها فى واحدة منها : الثاء ، الذال ، الظاء ، الغين ، الضاد . . .

٢ — أنها أوسع أخواتها جميعاً وأدقها فى قواعد النحو والصرف . فجميع القواعد التى تشتمل عليها اللغات السامية الأخرى يوجد لها نظير فى العربية ، بينما تشتمل العربية بجانب ذلك على قواعد كثيرة لا نظير لها فى واحدة منها أو توجد فى بعضها فى صورة بدائية ناقصة[٢] .

---

(١) ماعدا صوتا أو صوتين تقدمت الإشارة إليهما فى أول صفحة ٢٢ ، ولعلهما غير ساميين.

(٢) V. Renan, op. cit. 384, 385

٣ — أنها أوسع أخواتها ثروة فى أصول الـكلمات والمفردات . فهى تشتمل على جميع الأصول التى تشتمل عليها أخواتها السامية أو على معظمها ، وتزيد عنها بأصول كثيرة احتفظت بها من اللسان السامى الأول ولا يوجد لها نظير فى أية أخت من أخواتها . هـذا إلى أنه قد تجمع فيها من المفردات فى مختلف أنواع الـكلمة اسمها وفعلها وحرفها ما لم يتجمع مثله للغة سامية أخرى (١) .

ولأهمية الخاصتين الأخيرتين واختلاف الآراء بصددهما سنفرد لـكل منهما فقرة على حدتها .

(١٢) قواعد اللغة العربية: الإعراب واختلاف الآراء بصدده

تمتاز اللغة العربيـة بأنها أوسع أخواتها السامية جميعاً وأدقها فى قواعد الصرف والنحو .

فمن ميزاتها الصرفية أن الأصل الواحد يتوارد عليه مئات من المعانى ، بدون أن يقتضى ذلك أكثر من تغييرات فى حركات أصواته الأصلية نفسها مع زيادة بعض أصوات عليها أو بدون زيادة ، وأن كل ذلك يجرى وفق قواعد مضبوطة دقيقة نادرة الشذوذ (عَلم ، علِمنا . . . أعلم يَعلم ، نعـلم . . اعلْمْ ، اعلمى . . عَلّم ، نُعلّم . . . تَعلّم . . . تعالَم . . . عُلم ، يُعلم . . . عِلمٌ ، عَلَمٌ ، علامة ، عـلوم ، أعلام ، علامات ، عالم ، عليم ، علاّمة ، علماء ، عالِمون . . . متعلِّم ، متعلَّم ، مُعْلَم ، معلَّم ، معلِّم ، معلوم ، عالَم ، عالمون . . . الخ) . ولم تصل أية لغة سامية أخرى فى هذه الناحية إلى هذا الشأو . — ومن ذلك أيضاً نظام جمع التكسير (الذى

---

(١) للغة العربية خواص أخرى كثيرة ولـكنها ليست جوهرية بدرجة الخواص التى ذكرناها . هذا إلى أن كثيراً منها لا يصح اعتباره « خواص » بالمعنى الدقيق لهذه الـكلمة . ومن هذه الأمور طريقتها فى تصغير الأسماء . وقد ظهر للباحثين أن هذه الطريقة توجد فيها منذ أقدم عهودها وليست مستحدثة بدليل وجودها فى أسماء بعض الأمكنة والأشخاص : حنين ، كليب ... الخ . ومن هذه الأمور كذلك طريقة التعريف بأل (انظر ص ٢١) .

لا تشاركها فيه إلا أختاها الجنوبيتان اليمنية القديمة والحبشية) ؛ فقد توسعت هى فى استخدامه توسعاً كبيراً ، حتى أصبح للمفرد الواحد فيها عدة جموع من هذا النوع [١] .

ومن مميزاتها النحوية تلك القواعد الدقيقة التى اشتهرت باسم قواعد الإعراب والتى يتمثل معظمها فى أصوات مد قصيرة تلحق أواخر الكلمات لتدل على وظيفة الكلمة فى العبارة وعلاقتها بما عداها من عناصر الجملة . وهذا النظام لا يوجد له نظير فى أى أخت من أخواتها السامية ، اللهم إلا بعض آثار ضئيلة بدائية فى العبرية والآرامية والحبشية [٢] .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هذه القواعد المتشعبة الدقيقة ، وخاصة قواعد الإعراب ، لم تكن مراعاة إلا فى لغة الآداب شعرها وخطابتها ونثرها ؛ أما لهجات الحديث فكانت من أقدم عصورها غير معربة ، أو على الأقل لم يكن لقواعد الإعراب فيها ما كان لها فى لغة الآداب من شأن . واستدل على رأيه هذا بأدلة كثيرة أهمها دليلان :

أحدهما دليل لغوى وهو أن جميع اللهجات العامية المتشعبة من العربية والتى تستخدم الآن فى الحجاز ومصر والعراق والشام وبلاد المغرب مجردة من الإعراب ؛ فلو كانت لهجات المحادثة العربية القديمة معربة لانتقل شىء من نظامها هذا إلى جميع اللهجات الحاضرة أو إلى بعضها .

---

(١) يرى بروكلمان ورينان وغيرهما أن هذه الخاصة مجردة من الفائدة ومسببة للاضطراب. وفى الحق أنه ليس لها ما للخاصة الأولى (تغير المعانى بتغير البنية) من الفوائد ؛ ولكنها لا تخلو من فائدة فى الدلالة . فصيغ التكسير التى تتوارد على اللفظ الواحد ليست جميعها سواء فى المعنى ؛ لأن بعضها يفيد كثرة العدد (جموع الكثرة) وبعضها يفيد قلته (جموع القلة) ؛ وبعضها جمع مباشر ، وبعضها جمع للجمع ... وهلم جرا . هذا إلى أنها توسع من نطاق اللغة وتسعف المتكلم والكاتب . أما سبب هذه الظاهرة فيرجع قسط كبير منه إلى تعدد اللغات ، وذلك أنه قد انتقل إلى لغة قريش صيغ جموع كانت مستخدمة فى اللهجات العربية الأخرى .

(٢) V.Renan,Langues Sémitiques,384

وثانيهما دليـل منطقى عقلى وهو أن قواعد هـذا شأنها فى التشعب والدقة وصعوبة التطبيق وما تتطلبه من الانتباه وملاحظة عناصر الجملة وعلاقتها بعضها ببعض ، لا يعقـل أنها كانت مراعاة فى لهجات الحديث ؛ لأن لهجات الحديث تتوخى فى العادة السهولة واليسر وتلجأ إلى أقرب الطرق للتعبير [1] .

بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك ؛ فزعم أن هذه القواعد لم تكن مراعاة فى لهجات الحديث ولا فى لغة الكتابة ، وإنما خلقها النحاة خلقاً قاصدين بذلك تزويد اللغة العربية بنظم شبيهة بنظم الإغريقية ، حتى يكمل نقصها فى نظرهم وتسمو إلى مصاف اللغات الراقية . ويعتمد هؤلاء فى تأييد هذا المذهب على الدليلين نفسيهما اللذين اعتمد عليهما الفريق الأول مع توجيههما وجهـة تتفق مع ما يذهبون إليه ، وعلى دليل ثالث خلاصته أن قواعد هذا شأنها تشعباً ودقة لا يعقل أن تكون قد نشأت من تلقاء نفسها ، ولا يمكن لعقليات ساذجة كعقليات العرب فى عصورهم الأولى أن تقوى على خلقها ؛ فهى تحمل آثار الصنعة الدقيقة المحكمة ، ويبدو عليها طابع من عقلية المدارس النحوية التى ظهرت فى العهود الإسلامية بالبصرة والكوفة وما إليهما .

وقد تبين فساد هذين المذهبين لجميع المحققين من الباحثين : حتى لأكثرهم تحاملا على الساميين ، وأشدهم ولوعاً بالانتقاص من حضارتهم ولغاتهم كالأستاذ رينان الفرنسى [2] . وإليك طرفا من الأدلة التى لا تدع مجالا للشك فى فسادهما :

١ — إن عدم وجود هـذه القواعد فى اللهجات العامية الحاضرة ، لا ينهض دليلا على أنها لم تكن موجودة فى العربية الأولى ، فقد انتاب أصوات اللغة العربية وقواعدها فى هذه اللهجات كثير من صنوف التغير والانحراف ، وخضعت لقوانين التطور فى مفرداتها وأوزانها ودلالاتها ، فبعدت بعـداً كبيراً عن أصلها ،

---

(١) يميل إلى هذا المذهب الأستاذ كوهين فى كتاب :
Langues du Monde, chap. "Arabe"

(٢) V. Renan op. cit. 398–403

كما سيأتى بيان ذلك فى الفقرة الرابعة عشر من هذا الفصل .

٢ — وليس بغريب أن تتفق اللهجات العامية جميعاً فى التجرد من علامات الإعراب . فقد خضعت لقانون من قوانين التطور الصوتى ، وهو « ضعف الأصوات الأخيرة فى الكلمة وانقراضها » ؛ وهو قانون عام قد خضعت له جميع اللغات الإنسانية فى تطورها ؛ فما كان يمكن أن تفلت منه لهجة من اللهجات العامية المنشعبة عن العربية ، كما سيأتى بيان ذلك فى الفقرة الرابعة عشر من هذا الفصل(١) .

٣ — على أنه قد بقى فى اللهجات العامية الحاضرة كثير من آثار الإعراب وخاصة الإعراب بالحروف (فيقال مثلا فى عامية المصريين وغيرهم « أبوك ، وأخوك » ، لا « أبك » و « أخك ») ؛ وينطق بجمع المذكر السالم مع الياء والنون (الطيبين ، المؤمنين ... الخ) ؛ وفى معظم لهجات العراق فى العصر الحاضر ينطق بالأفعال الخمسة مثبتة فيها نون الإعراب (يمشون ، تمشين ، تمشون ...) ؛ وروى بعض الباحثين أن آثار الإعراب بالحركات لا تزال باقية فى لهجات بعض القبائل الحجازية فى العصر الحاضر .

٤ — يستفاد من كثير من كتب التاريخ ، وخاصة كتب أبى الفداء أن بعض علامات الإعراب ظلت باقية فى بعض لهجات المحادثة المنشعبة عن العربية حتى أواخر العصور الوسطى .

٥ — إن دقة القواعد وتشعبها لا يدلان مطلقاً على أنهما مخترعة اختراعاً . فاليونانية واللاتينية مثلا فى العصور القديمة والألمانية فى العصر الحاضر ، تشتمل كل واحدة منها على قواعد لا تقل فى دقتها وتشعبها عن قواعد اللغة العربية ، ولم يؤثر هذا فى انتقالها من جيل إلى جيل عن طريق التقليد ، ولا فى مراعاتها فى الحديث ، ولم يقل أحد إنها من خلق علماء القواعد .

---

(١) انظر كذلك تفصيل هذا القانون فى صفحات ٢٧١ ، ٢٧٥ — ٢٧٧ من كتابنا « علم اللغة » ، الطبعة الثالثة .

٦ — إن خلق القواعد خلقا محاولة لا يتصورها العقل ، ولم يحدث لها نظير فى التاريخ ، ولا يمكن أن يفكر فيها عاقل أو يتصور نجاحها ؛ فمن الواضح أن قواعد اللغة ليست من الأمور التي تخترع أو تفرض على الناس ، بل تنشأ من تلقاء نفسها وتتكون بالتدريج .

٧ — إن علماء القواعد العربية لم يكونوا على علم باللغة اليونانية وقواعدها ، ولم تكن لهم صلة ما بعلماء القواعد من الإغريق . هذ إلى أن قواعد اللغة العربية تختلف فى طبيعتها ومناهجها اختلافاً جوهرياً عن قواعد اللغة اليونانية . فلو كانت قواعد العربية قد اخترعت على غرار القواعد اليونانية كما يزعمون لجاءت متفقة معها ، أو على الأقل مشبهة لها فى أصولها ومناهجها .

٨ — يدلنا التاريخ أن علماء البصرة والكوفة كانوا يلاحظون المحادثة العربية فى أصح مظاهرها ويستنبطون قواعدهم من هذه الملاحظة ؛ وأنهم كانوا لا يدخرون وسعاً فى دقة الملاحظة واتخاذ وسائل الحيطة ؛ حتى أنهم ما كانوا يثقون بأهل الحضر لفساد لغتهم ، ولا بالقبائل التى احتكت ألسنتها بلغات أجنبية كلخم وجذام وقضاعة وغسان وإياد وبكر وأزد عمان وأهل اليمن ؛ وأنهم كانوا يبذلون فى سبيل ذلك من وقتهم وجهودهم شيئاً كثيراً ، فكانوا يرحلون إلى الأعراب فى باديتهم ويقضون عندهم الشهور بل السنين ؛ وعلماء هذا شأنهم دقة واحتياطاً وإخلاصاً للعلم لا يعقل أن يتواطئوا جميعاً على مثل هذا الإفك المبين .

٩ — وإذا أمكن أن نتصور أن علماء القواعد تواطئوا جميعاً على ذلك ، فإنه لا يمكن أن نتصور أنه تواطأ معهم عليه جميع العلماء من معاصريهم ، فأجمعوا كلمتهم ألا يذكر أحد منهم شيئاً ما عن هذا الاختراع الغريب . ولا يعقل أن يقبل معاصروهم هذه القواعد على أنها ممثلة لقواعد لغتهم ويحتذوها فى كتاباتهم ؛ اللهم إلا إذا كان علماء البصرة والكوفة قد سحروا عقول الناس واسترهبوهم وأنسوهم معارفهم عن لغتهم وتاريخها ، فجعلوهم يعتقدون أن ما جاءوا به من الإفك ممثل لفصيح هذه اللغة .

١٠ — إن النقوش التى كشفت حديثاً فى شمال الحجاز والتى أشرنا إليها فى الفقرة الثالثة من هذا الفصل لتدلنا أقطع دلالة على أن الإعراب كان مستخدماً فى « العربية البائدة » نفسها : فبعض العلامات الإعرابية قد رمز إليه فى هذه النقوش بحروف ملحقة بآخر الكلمة كما تقدم بيان ذلك[1] .

١١ — لم تنفرد اللغة العربية من بين أخواتها السامية انفراداً كاملا بنظام الإعراب ؛ فلهذا النظام آثار فى اللغات الحبشية السامية ، وخاصة فى الجعزية والأمهرية[2] . صحيح أن هذه الآثار محدودة ضئيلة ، وأنها تختلف اختلافاً غير يسير عن نظام الإعراب فى اللغة العربية ؛ ولكن وجود أثر لهذا النظام فى لغة سامية لا تزال لغة حديث إلى الوقت الحاضر ، كاللغة الأمهرية — مهما كان هذا الأثر ضئيلا ، وعلى أية صورة كانت أوضاعه — لدليل قاطع على أنه منحدر من الأصل السامى الأول وليس من خلق النحاة .

١٢ — تقوم أوزان الشعر العربى وقواعده الموسيقية على ملاحظة نظام الإعراب فى المفردات . فبدون إعراب الكلمات تختل أوزان هذا الشعر وتضطرب موسيقاه . ومما لاشك فيه أن هذه الأوزان سابقة لعلماء البصرة والكوفة ، وأن شعراً عربياً كثيراً قد قيل على غرارها من قبل الإسلام ومن بعده قبل أن يخلق هؤلاء العلماء . فإنكار هذا الشعر لا سبيل إليه . ولا يمكن أن يكون قد ألف غير معرب الكلمات ؛ لأن عدم إعرابها يترتب عليه اضطراب أوزانه واختلال موسيقاه .

١٣ — وأقوى من هذا كله فى الدلالة على فساد هذا المذهب تواتر القرآن الكريم ووصوله إلينا معرب الكلمات .

---

(١) انظر آخر صفحة ٩٦ وأول ٩٧ وتعليقها الأول ، والتعليق الأول بصفحة ١٠٣ .

(٢) بل إن له آثاراً فى العبرية والآرامية .

١٤ — وإن فى رسم المصحف العثمانى نفسه ، مع تجرده من الإعجام والشكل ، لدليلا على فساد هذا المذهب — وذلك أن المصحف العثمانى يرمز إلى كثير من علامات الإعراب بالحروف (المؤمنون ، المؤمنين ...) ، وعلامة إعراب المنصوب المنون (رسولا ، شهيداً ، حسيباً ، بصيراً ...) وهلم جرا . ولا شك أن المصحف العثمانى قد دُوّن فى عصر سابق بأمد غير قصير لعهد علماء البصرة والكوفة الذين تنسب إليهم هذه المذاهب الفاسدة اختراع قواعد الإعراب .

***

فنظام الإعراب عنصر أساسى من عناصر اللغة العربية ، وقد اشتملت عليه منذ أقدم عهودها . وكل ما عمله علماء القواعد حياله هو أنهم استخلصوا مناهجه استخلاصاً من القرآن والحديث وكلام الفصحاء من العرب ، ورتبوها ، وصاغوها فى صورة قواعد وقوانين .

غير أنه لا يسعنا أن ننكر أن قواعد الإعراب لم يكن لها قديماً فى لهجات الحديث ما كان لها فى لغة الأدب من شأن . وذلك أن طائفة كبيرة من هذه القواعد لا تظهر وظائفها وتمس الحاجة إليها إلا فى مسائل التفكير المنظم المسلسل ، والمعانى المرتبة الدقيقة التى يندر أن تعالج فى لغات التخاطب العادى . وهكذا الشأن فى جميع لغات العالم : فكثير من قواعد الفرنسية مثلا يندر أن يحتاج إليها فى المحادثة العادية . وفضلا عن ذلك فقد نقل إلينا المؤرخون الثقات أن ألسنة العرب كانت عرضة للزلل فى هذه القواعد منذ العصر الإسلامى ، بل قبل ذلك العصر ، وأن هذا اللحن لم يكن مقصوراً على عامتهم ، بل كان يقع من الخاصة والخلفاء والمحدّثين ، وأئمة الفقهاء أنفسهم [1] . ويظهر أن هذا اللحن كان يقع منهم

(١) انظر ابن خلكان فى حياة أبى الأسود ، وانظر الصاحبى لابن فارس ص ٣١ إذ يقول : « وإن قبيحاً مفرطا فى القباحة بمن يعيب مالك بن أنس بأنه لحن فى مخاطبة العامة بأن قال : « مطرنا البارحة مطراً أى مطرا » أن يرضى هو لنفسه أن يتكلم بمثل هذا . لأن الناس لم يزالوا يلحنون ويتلاحنون فيما يخاطب بعضهم بعضا اتقاء الخروج من عادة العامة ؛ فلا يعيب ذلك من ينصفهم من الخاصة » .

حتى فى تلاوة كتاب الله ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أعربوا القرآن[١] » . وهـذا يدل على أنه سمع بعض الناس فى عصره يقرؤه ملحوناً .

(١٣) مفردات اللغة العربية

كثرتها ومترادفاتها واختلاف الآراء بصددها

من أهم ما تمتاز به العربيـة أنها أوسع أخواتها السامية ثروة فى أصول الكلمات والمفردات . فهى تشتمل على جميع الأصول التى تشتمل عليها أخواتها السامية أو على معظمها ، وتزيد عنها بأصول كثيرة احتفظت بها من اللسان السامى الأول ، ولا يوجد لها نظير فى أية أخت من أخواتها . هذا إلى أنه قد تجمع فيها من المفردات فى مختلف أنواع الكلمة اسمها وفعلهـا وحرفها ، ومن المترادفات فى الأسماء والصفات والأفعال . . . ما لم يجتمع مثله للغة سامية أخرى ، بل ما يندر وجود مثله فى لغة من لغات العالم . فقد جمع للأسد خمسمائة اسم ، وللثعبان مائتا اسم . وكتب الفيروزابادى صاحب القاموس المحيط كتاباً فى أسماء العسل ، فذكر له أكثر من ثمانين اسماً ، وقرر مع ذلك أنه لم يستوعبها جميعاً . ويرى الفيروزابادى أنه يوجد للسيف فى العربيـة ألف اسم على الأقل . ويقرر آخرون أنه يوجد أكثر من أربعمائة اسم للداهية . ويوجد لـكل من المطر والريح والنور والظلام والناقة والحجر والماء والبئر أسماء كثيرة تبلغ عشرين فى بعضها وتصل إلى ثلثمائة فى بعضها الآخر . وقد جمع الأستاذ دوهامر De Hammer المفردات العربيـة المتصلة بالجمل وشئونه ، فوصلت إلى أكثر من خمسة آلاف وستمائة وأربعـة

---

(١) الصاحبى لابن فارس ص ٣١ — وإذا صح هـذا الحديث لا يكون الغرض من الإعراب ما يقصده النحاة بالضبط ، لأن كلمة الإعراب لم يكن لها هذا المعنى فى عصر الرسول عليه السلام ، وإنما يكون الغرض منها مجرد الإبانة وإظهار الحروف والحركات وتلاوته وفق قواعد العربية .

وأربعين [١] . وكذلك الشأن فى الأوصاف : فلكل من الطويل والقصير والكريم والبخيل والشجاع والجبان . . . فى اللغة العربية عشرات من الألفاظ .

وفى ذلك تختلف العربية الفصحى اختلافاً كبيراً عن اللهجات العامية الحديثة المتشعبة عنها . فمتون هذه اللهجات ضيقة كل الضيق لا تكاد تشتمل على أكثر من الكلمات الضرورية للحديث العادى . وتكاد تكون مجردة من المترادفات ، كما سيأتى بيان ذلك [٢] .

وقد كان هذا أحد الأسباب التى حملت بعض الباحثين على أن يقف حيال مفردات اللغة العربية موقف الشك الذى وقفه آخرون حيال قواعدها [٣] . فزعم أنه لا يبعد أن يكون جامعو المعجمات قد خلقوا كثيراً من هذه المفردات خلقاً لحاجات فى نفوسهم .

وفساد هذا الرأى لايحتاج إلى بيان .

فلهجات المحادثة فى جميع الأمم تقتصر فى العادة على الضرورى وتنفر من الكمالى ، وتنأى عن مظاهر الترف فى المترادفات وما إلى ذلك . ولذلك تتسع دائماً هوة الخلاف بينها و بين اللغة الفصحى فى هذه الناحية . فليست العربية فذة فى هذا الباب ، بل تشترك معها فيه « جميع لغات الآداب » أو « اللغات الفصحى » . وإليك مثلا اللغة الفرنسية الفصحى أو لغة الكتابة ، واللغة الفرنسية المستخدمة فى التخاطب العادى ؛ فالفرق بينهما فى المفردات لا يكاد يقل عن الفرق بين العربية الفصحى واللهجات العامية الحديثة المتفرعة منها .

أما جامعوا المعجمات فيدلنا التاريخ وتدلنا آثارهم على شدة حرصهم على تحرى الحق . فقد استخلصوا معظم ما اشتملت عليه معجماتهم من كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن أحاديث الرسول عليه الصلاة

(١) V.Renan, Langues Sémitiques 387

(٢) انظر آخر الفقرة الرابعة عشرة من هذا الفصل .

(٣) انظر صفحتى ١٣٠ ، ١٣١ .

والسلام . ومن الآثار العربية فى العصر الجاهلى والعصور الإسلامية الأولى ، واستخلصوا بعضه من العرب المعاصرين لهم . وكانوا شديدى الحيطة فى هذه الناحية إلى حد الإفراط . فكانوا يتحاشون الأخذ عمن تشوب عربيته أية شائبة . ولذلك كانو لا يكادون يأخذون إلا عن عرب البادية لفصاحة ألسنتهم ، و بعد لهجاتهم عن التأثر باللغات الأعجمية ، وعزلتهم وقلة احتكاكهم بغيرهم . فكانوا يترقبون مجىء أعراب البادية إلى المدن فى التجارة أو غيرها ... فيستمعون إلى حديثهم و يناقشونهم فى مختلف شئون اللغة ، و يدونون من فورهم كل مايهديهم إليه هذا الحديث وترشدهم إليه هذه المناقشة بصدد مفردات اللغة ودلالتها ووجوه استخدامها . وكانوا يتبعون أحياناً ما يسميه علماء اللغة بطريقة « الملاحظة السلبية » Observation passive [١] ، فيرحلون إلى البادية و يقضون فيها بين ظهرانى الأعراب الأشهر بل السنين ، يعاشرونهم و يستمعون إليهم فى أحاديثهم الطبيعية و يدونون ما يقفون عليه فى هذا السبيل . وفى ذلك يقول أبو نصر الفارابى [٢] فى كتابه : « الألفاظ والحروف » : « والذين عنهم نقلت اللغة العربية بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد ، ثم هذيل و بعض كنانة و بعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ، ولا من لخم وجذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان و إياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون العبرية ، ولا من تغلب لمجاورتهم الروم ، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط [٣] والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين لأهل فارس والهند ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم تجار الحبشة والهند ، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة وثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن من المعينيين وغيرهم وقربهم من الجاليات اليمنية ، ولا من حواضر الحجاز

---

(١) انظر طريقة الملاحظة بأنواعها ومآخذها فى صفحات ٣١ — ٣٨ من الطبعة الثالثة من كتابنا « علم اللغة » . — وانظر مناهج البحث فى هذا العلم على العموم بصفحات ٣٠ — ٤٧ من الكتاب نفسه والطبعة نفسها .

(٢) هو أبو نصر اسماعل ابن حماد الجوهرى الفارابى صاحب معجم الصحاح .

(٣) فى الأصل « القبط » وصوابه « النبط » كما لا يخفى .

لأن ألسنة أهلها كانت قد فسدت حينئذ لامتزاجهم بأمم كثيرة »[١] . ويقول ابن خلدون : « وكانت لغة قريش أفصح اللغات وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتها ، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة و بنى كنانة وغطفان و بنى أسد و بنى تميم . فأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان و إياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغاتهم تامة الملكة لمخالطة الأعاجم . وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم فى الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية[٢] » .

وما اتخذوه من وسائل الحيطة حيال القبائل والأمكنة اتخذوه حيال الأزمنة والعصور . فلم يأخذوا إلا عن العصور التى كان فيها اللسان العربى سليما لم يصبه بعد تبلبل أعجمى ولا انحراف عن أوضاع اللغة الفصحى . ولذلك لم يأخذوا إلا عن عرب الجاهلية والإسلام إلى نهاية القرن الثانى الهجرى بالنسبة إلى فصحاء الحضر و إلى أواسط الرابع بالنسبة إلى فصحاء البادية ؛ وسموا هذه العصور « عصور الاحتجاج » ؛ وأهملوا ما عداها مبالغة فى الدقة وحرصاً على تحرى وجوه الصدق واليقين .

***

أما الأسباب الحقيقية لكثرة المفردات والمترادفات إلى الحد الذى وصفناه فيرجع أهمها إلى الأمور الآتية :

١ — أن طول احتكاك لغة قريش باللهجات العربية الأخرى قد نقل إليها طائفة كبيرة من مفردات هذه اللهجات . ولم تقف لغة قريش فى اقتباسها هذا عند الأمور التى كانت تعوزها ، بل انتقل إليها كذلك من هذه اللهجات كثير من المفردات والصيغ التى لم تكن فى حاجة إليها لوجود نظائرها فى متنها الأصلى ، فغزرت من جراء ذلك مفرداتها وكثرت فيها المترادفات فى الأسماء والأوصاف

(١) المزهر للسيوطى جزء أول ص ١٠٤ بتلخيص وتصرف فى العبارة .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٦٣٥ (فى آخر البحث الذى عنوانه : « فصل أن اللغة ملكة صناعية ») .

والصيغ ؛ وأصبحت الحالة التى انتهت إليها أشبه شىء ببحيرة امتزج بمياهها الأصلية مياه أخرى انحدرت إليها من جداول كثيرة كما سبق بيان ذلك[(١)] . وإلى هذا يشير ابن جنى فى كتابه الخصائص إذ يقول : « وكلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد كان ذلك أولى بأن يكون لغات لجماعات اجتمعت لإنسان واحد من هنا وهناك » . ويشير إليه كذلك ابن فارس فى كتابه الصاحبى إذ يقول : « فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها ؛ فاذا أتتهم الوفود من العرب يتخيرون من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التى طبعوا عليها[(٢)] » .

٢ — إن جامعى المعجمات لم يأخذوا عن قريش وحدها ، بل أخذوا كذلك عن قبائل أخرى كثيرة كما سبق بيان ذلك[(٣)] . وقد تقدم أن لهجات المحادثة كانت تختلف فى بعض مظاهر المفردات باختلاف القبائل حتى بعد تغلب لغة قريش على سائر ألسنة العرب[(٤)] . وكان من جراء ذلك أن اشتملت المعجمات على مفردات لم تكن مستخدمة فى لغة قريش ويوجد لمعظمها مترادفات في متن هذه اللغة الأصلى وفيما انتقل إليها من غيرها ، فزاد هذا من نطاق المفردات والمترادفات فى المعجمات سعة على سعة .

٣ — إن جامعى المعجمات ، لشدة حرصهم على تقييد كل شىء ، دونوا كلمات كثيرة كانت مهجورة فى الاستعمال ومستبدلا بها مفردات أخرى . فكثرت من جراء ذلك فى المعجمات مفردات اللغة ومترادفاتها .

٤ — إن كثيراً من الكلمات التى تذكرها المعجمات على أنها مرادفة فى معانيها

---

(١) انظر صفحتى ١١٢ ، ١١٣ .

(٢) غير أن هذه العبارة تشعر أن الانتقال الذى نحن بصدده كان يحدث دائماً عن قصد ، والحق أنه يحدث فى الغالب فى صورة تلقائية عن غير قصد .

(٣) انظر صفحتى ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٤) انظر صفحة ١١٩ وتوابعها .

لكلمات أخرى غير موضوعة فى الأصل لهذه المعانى ، بل مستخدمة فيها استخداماً مجازياً [١] .

٥ — إن الأسماء الكثيرة التى يذكرونها للشىء الواحد ليست جميعها فى الواقع أسماء ، بل معظمها صفات مستخدمة استخدام الأسماء . فكثير من الأسماء المترادفة كانت فى الأصل نعوتا لأحوال المسمى الواحد ، ثم تنوسيت هذه الأحوال بالتدريج وتجردت مدلولات هذه النعوت مما كان بينها من فوارق وغلبت عليها الاسمية . فالخطار والحطام والباسل والأصيد ... من أسماء الأسد يدل كل منها فى الأصل على وصف خاص مغاير لما يدل عليه الآخر . وكذلك ما يعد من أسماء السيف : كالمصمم والهندى والحسام والعضب والقاطع ... وهلم جرا .

٦ — إن كثيراً من الألفاظ التى تبدو مترادفة هى فى الواقع غير مترادفة ، بل يدل كل منها على حالة خاصة تختلف بعض الاختلاف عن الحالة التى يدل عليها غيره ؛ و إليك مثلا : رمق ولحظ ورمح وحدج وشفن ورنا ... وما إلى ذلك من الألفاظ التى تدل على النظر ؛ فإن كلا منها يعبر عن حالة خاصة للنظر تختلف عن الحالات التى تدل عليها الألفاظ الأخرى . فرمق يدل على النظر بمجامع العين ؛ ولحظ عن النظر من جانب الأذن ؛ وحدجه معناه رماه ببصره مع حدة ؛ وشفن يدل على نظر المتعجب أو الكاره ؛ ورنا يفيد إدامة النظر فى سكون . وهلم جرا [٢] .

٧ — أنه قد انتقل إلى اللغة العربية من أخواتها السامية وغيرها مفردات كثيرة كان لها نظائر فى متنها الأصلى [٣] .

(١) اختلط فى كثير من المعجمات المعانى الحقيقية بالمعانى المجازية ، ولم يعن بتمييزها إلا بعض المعجمات كالأساس للزمخشرى . وقد كتب الزمخشرى كتابا خاصا سماه « المجاز » وبين فيه ما تجوزت به العرب من الألفاظ وما تجوزت به من الدلالات . انظر مقدمة ابن خلدون صفحة ٦٣٩ (آخر نقرة « علم اللغة ») .

(٢) انظر المخصص لابن سيدة وفقه اللغة للثعالبى تجد فيهما آلافا من الأمثلة بهذا الصدد .

(٣) انظر ص ١٢٤ وتوابعها .

هذا، ومع ما كان يتخذه جامعو المعجمات من وسائل الحيطة والحرص على تحرى الصواب، فقد اندس فى معجماتهم كثير من المفردات المولدة والمشكوك فى عربيتها، وحرفت فيها كلمات كثيرة عن أوضاعها الصحيحة. ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة أهمها سببان:

(أحدهما) أن بعض الأشعار التى أخذوا عنها قد ثبت فيما بعد أنها موضوعة. فلا يبعد أن يكون بعض مفرداتها من اختراع الواضعين.

(وثانيهما) أنهم كانوا أحياناً يأخذون عن الكتب والصحف. فحدث من جراء ذلك تحريف فى كثير من الكلمات التى نقلوها. لأن الرسم فى عصورهم كان مجرداً من الإعجام والشكل. فكان من الممكن أحياناً قراءة الكلمة الواحدة على عدة وجوه.

(١٤) اللهجات العامية الحديثة

عوامل تطورها وصفاتها المشتركة

تقتضى نواميس اللغات أنه متى انتشرت اللغة فى مناطق واسعة من الأرض، وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس، استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلا، بل لا تلبث أن تتشعب إلى لهجات، وتسلك كل لهجة من هذه اللهجات فى سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينها حتى تصبح كل منها لهجة متميزة غير مفهومة إلا لأهلها. وبذلك يتولد عن اللغة الأولى فصيلة أو شعبة من اللهجات يختلف بعضها عن بعض فى كثير من الوجوه. ولكنها تظل مع ذلك متفقة فى وجوه أخرى، إذ يترك الأصل الأول فى كل منها آثاراً تنطق بما بينها من صلات القرابة ولحمة النسب اللغوى. وكثيراً ما يبقى الأصل الأول مدة كبيرة لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللهجات المتفرعة منه.

ولهذا القانون خضعت اللغات الإنسانية من مبدأ نشأتها إلى العصر الحاضر. فاللغة اللاتينية مثلا ، وهى إحدى لغات الفرع الإيطالى من الفصيلة الهندية — الأوروبية ، قد أخذت فى أواخر العصور القديمة وفى العصور الوسطى تنشعب إلى عدد كبير من اللهجات ، وأخذت كل لهجة من هذه اللهجات تسلك فى سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها ، حتى أصبح كل منها لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها . وقد بقيت اللاتينية مدة كبيرة لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللهجات المتفرعة منها (الفرنسية ، الإيطالية ، الإسبانية ، البرتغالية ، لغة رومانيا...). ولكنها تنحت عن هذه الوظيفة بعد أن اكتمل نمو هذه اللغات (١) .

ولم تفلت اللغة العربية — وما كان يمكن أن تفلت — من هذا المصير . فمنذ أن اتسع انتشارها ، أخذت تنشعب إلى لهجات يختلف بعضها عن بعض وتختلف عن الأصل الأول الذى انشعبت عنه فى كثير من مظاهر الصوت والقواعد والدلاله والمفردات ؛ وسلكت كل لهجة منها فى تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها ، تحت تأثير ظروفها الخاصة ، وأخذت مسافة الخلف تتسع بين هذه اللهجات حتى أصبح بعضها غريباً عن بعض : فلهجة العراق أو لهجة المغرب مثلا فى العصر الحاضر لا يفهمها المصرى إلا بصعوبة وفى صورة تقريبية . غير أنه قد خفف من أثر هذا الانقسام اللغوى بقاء العربية الأولى بين هذه الشعوب لغة أدب وكتابة ودين .

ويرجع السبب فى انشعاب هذه اللهجات عن العربية الفصحى وفى تطورها المطرد فى نواحى الأصوات والقواعد والدلالة والمفردات ، إلى عوامل كثيرة من أهمها ما يلى :

١ — انتشار اللغة العربية فى مناطق لم تكن عربية اللسان . فقد تغلبت اللغة العربية على اللغات اليمنية القديمة فى معظم بلاد اليمن ، وعلى اللهجات الآرامية فى معظم بلاد العراق والشام ، وعلى الألسنة القبطية والبربرية والكوشية فى مصر

---

(١) انظر تفصيل هذا القانون فى صفحات ١٥٦ — ١٦٥ من الطبعة الثالثة من كتابنا « علم اللغة » .

وشمال أفريقيا وشرقها . ومن المقرر أن اللغة الغالبة ينالها كثير من التحريف فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغوياً) تحت تأثير لهجاتهم القديمة وأصواتها ومفرداتها وما درجوا عليه من عادات فى النطق ... وهلم جرا .

وقد كان لهذا العامل أثر واضح فى اختلاف لهجات هذه المناطق الجديدة بعضها عن بعض واختلافها عن اللسان العربى الأول . فقد تأثرت اللغة العربية فى كل منطقة من هذه المناطق بلهجاتها القديمة ، وانحرفت فى ألسنة أهلها انحرافاً خاصاً اقتضته عاداتهم الصوتية المتأصلة ومناهج ألسنتهم الأولى ؛ وتأثرت ألسنة الجاليات العربية نفسها فى كل منطقة من هذه المناطق بألسنة أهلها ؛ فنشأ من جرّاء ذلك فى كل بلد من هذه البلاد لهجة عربية تختلف عن لهجة غيرها ، وتختلف عن اللغة العربية الأولى. فالعربية فى الشام مثلا متأثرة بالألسنة الآرامية القديمة ، وفى المغرب باللهجات البربرية التى صرعتها العربية فى هذه البلاد . . . وهلم جرا[١] .

٢ — عوامل اجتماعية سياسية : كاستقلال البلاد العربية بعضها عن بعض ، وضعف السلطان المركزى الذى كان يجمعها ويوثّق ما بينها من علاقات . فمن الواضح أن انفصام الوحدة السياسية يؤدى إلى انفصام فى الوحدة الفكرية واللغوية .

٣ — عوامل اجتماعية نفسية تتمثل فيما بين سكان هذه المناطق من فروق فى النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات ومبلغ الثقافة ومناحى التفكير والوجدان . . . وما إلى ذلك . فمن الواضح أن الاختلاف فى هذه الأمور يتردد صداه فى أداة التعبير .

٤ — عوامل جغرافية تتمثل فيما بين سكان هذه المناطق من فروق فى الجو وطبيعة البلاد وبيئتها وشكلها وموقعها . . وما إلى ذلك ، وفيما يفصل كل منطقة منها عن غيرها من جبال وأنهار وبحيرات ... وهلم جرا . فلا يخفى أن هذه الفروق

---

(١) تقدم الكلام فى الفصل الرابع عن حالة اللغة العربية فى اليمن عقب انتصارها على اللغات اليمنية القديمة (انظر صفحة ٧٨ وتوابعها) .

والفواصل الطبيعية تؤدى — عاجلا أو آجلا — إلى فروق وفواصل فى اللغات .

٥ — عوامل شعبية جنسية تتمثل فيما بين سكان هذه المناطق من فروق فى الأجناس والفصائل الإنسانية التى ينتمون إليها والأصول التى انحدروا منها . فمن الواضح أن لهذه الفروق آثاراً بليغة فى تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات .

٦ — إختلاف أعضاء النطق باختلاف الشعوب . فمن المقرر أن هذه الأعضاء تختلف فى بنيتها واستعدادها ومنهج تطورها تبعاً لاختلاف الشعوب وتنوع الخواص الطبيعية المزود بها كل شعب والتى تنتقل بطريق الوراثة من السلف إلى الخلف (١) . فلم يكن مناص إذن أن تختلف أصوات اللهجات العربية بعضها عن بعض باختلاف الشعوب التى انتشرت فيها ، وأن تتجه كل لهجة منها فى تطورها من هذه الناحية إلى منهج يختلف عن منهج غيرها .

٧ — التطور الطبيعى المطرد لأعضاء النطق . فمن المقرر أن أعضاء النطق فى الإنسان فى تطور طبيعى مطرد فى بنيتها واستعدادها ومنهج أدائها لوظائفها . فحناجرنا وحبالنا الصوتية وألسنتنا وحلوقنا وسائر أعضاء نطقنا تختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأولين ، إن لم تكن فى بنيتها الطبيعية ، فعلى الأقل فى استعداداتها ؛ بل إنها لتختلف فى ذلك عما كانت عليه عند آبائنا الأقربين (٢) .

وغنى عن البيان أن كل تطور يحدث في أعضاء النطق أو فى استعدادها يتبعه تطور فى أصوات الكلمات ، فتنحرف هذه الأصوات عن الصورة التى كانت عليها إلى صورة أخرى أكثر منها ملاءمة مع الحالة التى انتهت إليها أعضاء النطق . فكان من المستحيل إذن أن تجمد ألفاظ اللغة العربية على حالتها الأولى فى الأمم الناطقة بها ، ولم يكن مفر من أن ينالها كثير من التطور باختلاف العصور ، ومن

---

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع فى صفحات ٢٦٧ — ٢٧٠ من كتابنا « علم اللغة » الطبعة الثالثة .

(٢) انظر تفصيل هذا الموضوع فى صفحات ٢٦٤ — ٢٦٧ من الطبعة الثالثة لكتابنا « علم اللغة » .

آثار هذا ما حدث فى اللغة العربية بصدد أصوات الجيم والثاء والذال والظاء والقاف . فقد أصبحت هذه الأصوات ثقيلة على اللسان فى كثير من البلاد العربية ، وأصبح لفظها على الوجه الصحيح يتطلب تلقينا خاصا ومجهودا إراديا وقيادة مقصودة لحركات المخارج . ولعدم ملاءمتها مع الحالة التى انتهت إليها أعضاء النطق فى هذه البلاد أخذت تتحول منذ أمد بعيد إلى أصوات أخرى قريبة منها[١] . فصوت الجيم الذى كان ينطق به معطشا بعض التعطيش فى العربية الفصحى قد تحول فى معظم المناطق المصرية إلى جاف (جيم غير معطشة) ، وفى معظم المناطق السورية والمغربية إلى جيم معطشة كل التعطيش (j) [٢] . والثاء قد تحولت إلى تاء فى معظم المناطق المصرية وفى بلاد أخرى فيقال :(توب ، تلج ، تخين ، تعلب ، تعبان ، تقل ، تقيل ، تلت ، تمن ، تمانية ، تور ، اتنين ، نتر ، جتة ، عتة ، عتر . . الخ ؛ بدلا من : ثوب ، ثلج ، ثخين ، ثعلب ، ثعبان ، ثقل ، ثقيل ، ثلث ، ثلاثة ، ثمن ، ثمانية ، ثور ، اثنان ، نثر ، جثة ، عثة ، عثر .. الخ)[٣] . والذال قد تحولت فى كثير من المناطق العربية إلى دال فى معظم الكلمات ، فيقال : (داب ، دراع ، ديب ، ده ، دى ، دبل ، دبح ، دبان ، دأن ، أدان ، ودن ، دهب ، ديل...الخ ؛ بدلا من : ذاب ، ذراع ، ذئب ، ذا ، ذى ، ذبل ، ذبح ، ذُبّان ، ذقن ، أذان ، أذن ، ذهب ، ذيل . . . الخ) ؛ وإلى زاى فى بعض الكلمات ، فيقال مثلا : (زنب ، زهن ، زكى ، رزالة . . الخ ؛ بدلا من : ذنب ، ذهن ، ذكى ، رذالة . . . الخ) . والظاء قد تحولت إلى ضاد فى معظم الكلمات ؛ فيقال مثلا : ضلام ، ضفر ، ضل . ضهر... الخ ؛ بدلا من ظلام ، ظفر ، ظل ، ظهر... الخ) ؛

---

(١) يحتمل كذلك أن بعضها كان متحولا إلى هذه الأصوات فى بعض القبائل العربية التى انتقلت لهجاتها إلى هذه الأمم .

(٢) لا يزال ينطق بصوت الجيم نطقاً صحيحاً فى عامية العراق وبعض المناطق المصرية وخاصة فى مديرية الشرقية .

(٣) تحول هذا الصوت فى كلمات قليلة إلى سين أو صـاد . « ثواب » ينطق بها أحياناً « سواب » أو « صواب » .

وإلى زاى مفخَّمة فى بعض الكلمات (كما ينطق فى عامية المصريين بكلمات : ظالم . ظريف ، أظن ، حظ ... الخ)[1] . والقاف قد تحولت إلى همزة فى بعض اللهجات المصرية ، فيقال : أط ، ألت ، أبل ، عأد ، نطأ . . . الخ ؛ بدلا من : قط ، قلت ، قبل ، عقد ، نطق ... الخ) ؛ وإلى جاف (جيم غير معطشة) فى معظم اللهجات العامية فى مصر وغيرها من البلاد العربية ، فيقال : (جط ، جلت ، جبل ، عجد ، نطج . . . الخ ؛ بدلا من قط ، قلت ، قبل ، عقد ، نطق . . . الخ)[2] .

٨ — الأخطاء السمعية وسقوط الأصوات الضعيفة ، قد يحيط بالصوت بعض مؤثرات تعمل على ضعفه بالتدريج ، كوقوعه فى آخر الكلمة ، وزيادته عن بنيتها ، وعدم توقف المعنى المقصود عليه ؛ فيتضاءل جرسه شيئاً فشيئا حتى يصل فى عصر ما إلى درجة لا يكاد يتبينه فيها السمع ؛ فحينئذ يكون عرضة للسقوط . وذلك أن معظم الصغار فى هذا العصر لا يكادون يتبينونه فى نطق الكبار ؛ فينطقون بالكلمات مجردة منه[3] .

وقد كان لهذا العامل ، مع عوامل أخرى سيأتى ذكرها ، أثر كبير فى سقوط علامات الإعراب بالحركات من جميع اللهجات العامية المتشعبة عن العربية . على حين أن الإعراب بالحروف ، لعدم تأثره بهذا العامل ، قد بقيت آثاره فى اللهجات العامية : (أخوك ، أبوك : المؤمنين ، الطيبين ... الخ) .

---

(١) لا يزال ينطق بأصوات الثاء والظاء والذال نطقاً صحيحاً فى عامية العراق والمغرب وخاصة فى طرابلس وفى القبائل العربية النازحة إلى مصر (الفوايد ، الرماح ، البراعصة ، أولاد على ، الجرابى الضعفاء ، سمالوس ... الخ) .

(٢) لا يزال صوت القاف محتفظاً بنطقه الصحيح فى كثير من الكلمات فى عامية العراق وعامية رشيد . وكان مستعملا منذ عهد غير بعيد فى بعض مناطق بنى سويف ، وقد سمعت أنا نفسى بعض شيوخ أسرتى (ببلدة الحمام مركز بنى سويف) يتكلمون بالقاف ، ولا يزال العامة فى هذه المناطق يتكلمون بالقاف حينما يروون عبارة منسوبة إلى أجدادهم فى الأقاصيص الشعبية وما إليها ؛ وهذا يدل على أن صوت القاف لم ينقرض لديهم إلا منذ أمد قريب .

(٣) انظر تفصيل هذا العامل فى صفحة ٢٧١ من كتابنا «علم اللغة» ، الطبعة الثالثة .

٩ — موقع الصوت فى الكلمة . وموقع الصوت فى الكلمة يعرضه كذلك لكثير من صنوف التطور والانحراف :

(ا) وأكثر ما يكون ذلك فى الأصوات الواقعة فى أواخر الكلمات سواء أكانت هذه الأصوات أصوات مد أم أصواتا ساكنة .

أما أصوات المد ، فقد لوحظ أن وقوعها فى آخر الكلمة يجعلها فى الغالب عرضة للسقوط ، و يؤدى أحياناً إلى تحولها إلى أصوات أخرى . وقد كان لهذا العامل أثر كبير فى سقوط أصوات المد القصيرة المسماة بالحركات (التى يرمز إليها فى الرسم العربى بالفتحة والكسرة والضمة) التي تلحق أواخر الكلمات العربية . ففى جميع اللهجات العامية المنشعبة عن العربية (عاميات مصر والعراق والشام وفلسطين والحجاز واليمن والمغرب . . . الخ) قد انقرضت هذه الأصوات جميعها ، سواء فى ذلك ما كان منها علامة إعراب وما كان منها حركة بناء . فينطق الآن فى هذه اللهجات بجميع الكلمات مسكنة الأواخر (فيقال مثلا : رجعْ عمرْ للمدرسهْ بعدْ ما خفْ من عياهْ » بدلا من « رجعَ عمرُ إلى المدرسةِ بعد ما خفَّ من إعيائه » . ولعل هذا هو أكبر انقلاب حدث فى اللغة العربية ؛ فقد أتى جميع الكلمات فانتقصها من أطرافها ، وجردها من العلامات الدالة على وظائفها فى الجملة ، وقلب قواعدها القديمة رأساً على عقب .

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد أصوات المد الطويلة (الألف والياء والواو) الواقعة فى آخر الكلمات . فقد تضاءلت هذه الأصوات فى عامية المصريين وغيرهم حتى كادت تنقرض تمام الانقراض ، سواء فى ذلك ما كان منها داخلا فى بنية الكلمة (رمى ، يرمى . . . الخ) وما كان خارجا عنها (ضربوا ، ناموا . . . الخ) . فيقال مثلا فى عامية المصريين : « سامِ وعيسَ ومصطفَ أبُ حسين سافرْ يوم الخميس لجرجَ » بدلا من : « سامى وعيسى ومصطفى أبو حسين سافروا يوم الخميس إلى جرجا » .

وما حدث فى اللغة العربية تحت تأثير هذا العامل ، حدث مثله فى كثير من اللغات الأخرى . فمعظم أصوات اللين المتطرفة فى اللغة اللاتينية قد انقرض فى اللغات المنشعبة عنها[١] .

ووقوع الصوت الساكن (ونعنى به ما يقابل صوت المد) فى آخر الكلمة يجعله كذلك عرضة للتحول أو السقوط ، فمن ذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد التنوين ونون الأفعال الخمسة والهمزة والهاء المتطرفتين[٢] . فقد انقرضت هذه الأصوات فى معظم اللهجات العامية المنشعبة عن العربية ، كما يظهر ذلك من الموازنه بين العبارات العربية المدونة فى السطر الأول ونظائرها فى عامية المصريين المدونة فى السطر الثانى :

محمدٌ ولدٌ مطيعٌ ؛ الأولاد يلعبون . الهواءُ شديدٌ ؛ انتظرته ساعةً كاملةً .

محمدْ ولدْ مطيعْ ؛ الأولادْ بِيِلْعَبُ ، الهوَ شديدْ ، إنتظرتُ ساعَ كامْلَ .

ومن هذا القبيل كذلك حذف آخر الكلمة التى يوقف عليها فى عامية كثير من المناطق المصرية ، كبعض مناطق بنى سويف والشرقية ورشيد ، فيقال مثلا: « إنت يا وَلَ » بدلا من « أنت يا ولد » ؛ « فين أخوك محمو » بدلا من « أين أخوك محمود » ؛ « إدِّيلُ خمسْأرو » بدلا من « أدّله خمسة قروش »[٣] .

وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى كثير من اللغات الأخرى . فمعظم الأصوات الساكنة المختتمة بها الكلمات اللاتينة قد انقرضت

---

(١) يستثنى من ذلك الايطالية ، فقد احتفظت بمعظم هذه الأصوات . انظر تفصيل هذا الموضوع فى صفحات ٢٧٥ — ٢٨١ من الطبعة الثالثة لكتابنا « علم اللغة » .

(٢) التاء المربوطة حكمها فى ذلك حكم الهاء المتطرفة كما يظهر من المثال المذكور فيما بعد .

(٣) سار على هذا الأسلوب كذلك بعض اللغات العربية الفصيحة كلغة طيء ، وقد جرت عادة المؤلفين من العرب بتسميته « قطعة طيء » أى قطع اللفظ قبل تمامه . فكان يقال مثلا فى لغتهم « يا أبا الحك » بدلا من « يا أبا الحكم » . ولم يكن هذا مقصوراً عندهم على المنادى بل كان عاما فى جميع الكلمات (انظر ص ١٢١) .

فى النطق الفرنسى أو تحولت إلى أصوات ساكنة أخرى أضعف منها أو إلى أصوات لين [١].

(ب) ووقوع الصوت فى وسط الكلمة يعرضه كذلك لكثير من صنوف التطور والانحراف.

فمن ذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد الهمزة الساكنة الواقعة فى وسط الثلاثى، فقد تحولت إلى ألف لينة فى عامية المصريين وغيرهم. (فيقال: راس، فاس، فال، ضانى ... الخ؛ بدلا من: رأس، فأس، فأل، ضأن ... الخ).

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث بصدد الواو والياء الساكنتين فى وسط الكلمة فى مثل «عين» و«يوم». فقد تحولتا فى بعض المناطق المصرية وغيرها إلى صوتين من أصوات المد: فأولهما تحول إلى صوت يشبه صوت «é» فى اللغة الفرنسية (عين، خيل، بين، زينب ... الخ)؛ وثانيهما تحول إلى صوت يشبه صوت o الفرنسى (يوم، نوم، فوز، لوم ... الخ).

ومن ذلك تحريك الحرف الساكن إذا وقع فى وسط كلمة ثلاثية فى كثير من لهجات البلاد العربية (عامية الشرقية، وبعض عاميات الصعيد، ولهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر، ولهجة العراق ... الخ)؛ فيقال مثلا: اِسِم، رَسِم، مَصِر، جُرُن، بَدِر، نِخِل، فَحِل ... الخ؛ بدلا من: اسْم، رسْم، مصْر، جرْن، نخْل، فحْل ... الخ [٢].

وقد سجل الباحثون ظواهر كثيرة من هذا القبيل فى اللغات الهندية الأوربية [٣].

(حـ) ووقوع الصوت فى أول الكلمة يجعله كذلك عرضة للانحراف. فمن ذلك ما حدث فى بعض المفردات العربية المفتتحة بالهمزة؛ إذ تحولت همزتها

---

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع فى صفحات ٢٧٥ — ٢٧٨ من كتابنا «علم اللغة»، الطبعة الثالثة.

(٢) هذه كذلك لهجة قديمة من لهجات بعض القبائل العربية.

(٣) انظر تفصيل هذا الموضوع فى صفحتى ٢٧٩، ٢٨٠ من كتابنا «علم اللغة»، الطبعة الثالثة.

فى بعض اللهجات العامية إلى فاء أو واو (« أذن » تحولت فى عامية المصريين إلى « ودن » ؛ و « أين » تحولت فى لهجتهم إلى «فين» ، وتحولت إلى «وين» فى عامية القبائل العربية النازحة إلى مصر وفى عامية العراق والحجاز ؛ و «أدَّى» تحولت فى بعض المواضع فى عامية المصريين إلى « ودَّى » فيقال مثلا : « ودَّاه المدرسة » أى أوصله اليها [1]) .

١٠ — تناوب الأصوات المتحدة النوع القريبة المخرج ، وحلول بعضها محل بعض . يتبين من ملاحظة ظواهر التطور فى مختلف اللغات الإنسانية أن الأصوات المتحدة النوع ، القريبة المخرج ، تميل بطبعها الى التناوب وحلول بعضها محل بعض . فكل صوت لين عرضة بطبعه لأن ينحرف إلى صوت لين آخر ؛ وكل صوت ساكن عرضة بطبعه لأن ينحرف إلى صوت ساكن متحد معه فى مخرجه أو قريب منه . وقد كان لهذا القانون آثار ذات بال فى انشعاب اللهجات العامية عن العربية وفى تطورها من ناحية الأصوات وقواعد الصرف ووزن الكلمات :

(ا) فقد حدث فى هذه اللهجات تناوب واسع النطاق بين أصوات المد القصيرة التى يرمز إليها فى الرسم العربى بالفتحة والكسرة والضمة . ويمثل هذا التناوب انقلاباً من أهم الانقلابات التى اعتورت اللغة العربية . فقد كان من آثاره أن انحرفت أوزان الكلمات ، وانقلبت أشكالها رأساً على عقب ، حتى لا نكاد نجد فى اللهجات العامية كلمة واحدة باقية على وزنها العربى القديم . فالفتحة قد استبدل بها الضمة أحياناً والكسرة فى كثير من الأحوال (فبدلا من : يَعوم ، يَسجد ، يَسمع ، عَثَر ، خَلَص ، سَكَت ، كَبير ، الكتاب ... الخ ؛ يقال فى عامية المصريين : يُعُوم ، يُسجد ، يِسمع ، عِتِر أو عُتُر ، خِلِص أو خُلُص ، سِكِت أو سُكُت ، كِبير ، إلكتاب ... الخ) . — والكسرة قد استبدل بها

(١) ليس هذا مقصوراً على اللغات العامية ، بل يوجد له نظير فى اللهجات العربية . ففى لغة لأهل اليمن تبدل الهمزة واو فى مثل « آتيته » فيقال : واتيته على الأمر مواتاة ، وهى المشهورة على ألسنة الناس .

الضمة أحياناً والفتحة فى كثير من الأحيان (فبدلا من: يلطِم، يضرِب، يسرِق ، عِند ... الخ ؛ يقال فى عامية المصريين : يلطُم ، يضرَب ، يسرأ ، عَند ... الخ). والضمة قد استبدل بها الفتحة أحياناً والكسرة فى معظم الحالات (فبدلا من مُحمد ، ثُعبان ، أُنثي ، عُتَّة . يقتُل ، يذُم ، ظُفر ... الخ ؛ يقال فى عامية المصريين : مَحمد ، تِعبان ، إنتاية ، عِتة ، يئتِل ، يزِم ، ضِفر ... الخ) .

وحدث كذلك تناسخ فى أصوات المد الطويلة نفسها ، وخاصة في الألف اللينة إذ أميلت فى لغات بعض القبائل العربية القديمة ، وتمال الآن فى كثير من لهجات المغرب ولهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر وفى بعض اللهجات فى الشرقية وغيرها .

وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى اللغات الهندية الأوروبية (١) .

(ب) وكثير من الأصوات الساكنة المتحدة النوع أو القريبة المخرج قد تناسخت كذلك فى اللهجات العامية وحل بعضها محل بعض . فالسين مثلا قد تحولت إلى صاد فى بعض المواطن (« ساخن » تحولت إلى « صاخن » فى عامية الشرقية وغيرها و « سلطان » تحولت إلى « صلطان » فى كثير من اللهجات المصرية) ؛ والصاد إلى سين فى كثير من الألفاظ فى عامية القاهرة وغيرها (فبدلا من : يصدق ، مصير ... الخ ؛ يقال : يسدَّأ . مسير ... الخ) ؛ والضاد إلى ظاء فى عامية العراق والمغرب وخاصة طرابلس وفي لهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر (٢) (فبدلا من : وضوء ، يضيع ، يضرب ، ، يضم ... الخ ؛ يقال وظوء ، يظيع ، يظرب ، يظم ... الخ) ؛ والعين إلى نون فى بعض الكلمات فى

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى صفحتى ٢٨١ ، ٢٨٢ من كتابنا « علم اللغة » ، الطبعة الثالثة .

(٢) نعنى بها القبائل الحاضرة التى تسكن الفيوم وبنى سويف والشرقية والبحيرة ... الخ (الفوايد ، الرماح ، الحرابى ، أولاد على ، الضعفاء ، خويلد ، سمالوس ... الخ) .

لهجة العراقيين (فيقال مثلا « ينطى » بدلا من « يعطى ») [(١)] ؛ واللام إلى ميم فى بعض الكلمات فى عامية القاهرة (« امبارح » بدلا من « البارحة »)[(٢)] ؛ والميم إلى نون أحياناً فى عامية المصريين (فيقال « فاطنة » بدلا من « فاطمة ») ... وهلم جرا .

وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى اللغات الهندية الأوروبية[(٣)] .

١١ — يتغير مدلول الكلمات تبعاً للحالات التى يكثر فيها استخدامها . فكثرة استخدام العام مثلا فى بلد ما أو فى عصر ما فى بعض ما يدل عليه تزيل مع تقادم العهد عموم معناه وتقصر مدلوله على الحالات التى شاع فيها استعماله . وكثرة استخدام الخاص فى معان عامة عن طريق التوسع تزيل مع تقادم العهد خصوص معناه وتكسبه العموم . وكثرة استخدام الكلمة فى معنى مجازى تؤدى غالباً إلى انقراض معناها الحقيقى وحلول هذا المعنى المجازى محله . واستخدام الكلمة فى فن أو صناعة بمعنى خاص يجردها فى هذا الفن أو فى هذه الصناعة من معناها اللغوى و يقصرها على مدلولها الاصطلاحى[(٤)] .

والتطورات التى حدثت فى اللهجات العامية تحت تأثير هذا العامل تناولت آلافاً من المفردات العربية ؛ حتى أنه ليندر أن نجد مفرداً عامياً مطابقاً فى مدلوله كل المطابقة للمفرد العربى الذى انحدر منه[(٥)] .

---

(١) تكاد تكون هذه الظاهرة مقصورة لديهم على العين المتبوعة بطاء ، وهذه كذلك لهجة قديمة هى لهجة هذيل ، انظر ص ١٢١ .

(٢) هذه كذلك لهجة حمير ، وقد جاء بها الأثر « ليس من امبر أمصيام فى امسفر » . انظر ص ١٢٣ .

(٣) انظر تفصيل هذا الموضوع فى صفحات ٢٨٣ — ٢٨٥ من كتابنا « علم اللغة » . الطبعة الثالثة .

(٤) انظر تفصيل هذا العامل وآثاره فى اللغات الأخرى فى صفحات ٢٩٢ — ٢٩٤ من كتابنا « علم اللغة » ، الطبعة الثالثة .

(٥) من الواضح أن هذا العامل قد أثر فى الفصحى ، أى فى لغة الآداب والكتابة نفسها .

١٢ — يتغير مدلول الكلمة أحياناً تحت تأثير القواعد . فقد تذلل قواعد اللغة نفسها السبيل إلى انحراف معنى الكلمة وتساعد على توجيهه وجهة خاصة . فتذكير كلمة « ولد » مثلا فى العربية (ولد صغير) ، قد جعل معناها يرتبط فى الذهن بالمذكر ؛ ولذلك أخذ مدلولها يدنو شيئاً فشيئاً من هذا النوع ، حتى أصبحت لا تطلق فى كثير من اللهجات العامية إلا على الولد من نوع الذكور[١] .

١٣ — قد يتغير مدلول الكلمة فى انتقالها من السلف إلى الخلف . فكثيراً ما ينجم عن هذا الانتقال تطور فى معانى المفردات . وذلك أن الجيل اللاحق لا يفهم جميع الكلمات على الوجه الذى يفهمها عليه الجيل السابق . و يساعد على هذا الاختلاف كثرة استخدام بعض المفردات فى غير ما وضعت له عن طريق التوسع والمجاز . فقد يكثر استخدام الكلمة فى جيل ما فى بعض ما تدل عليه ، أو فى معنى مجازى تربطه بمعناها الأصلى بعض العلاقات ، فيعلق المعنى الخاص أوالمجازى وحده بأذهان الصغار ، و يتحول بذلك مدلولها إلى هذا المعنى الجديد[٢] .

١٤ — وقد تغيرت فى اللغات العامية مدلولات كثير من الكلمات لأن الشىء نفسه الذى تدل عليه قد تغيرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه أو الشئون الاجتماعية المتصلة به وما إلى ذلك . فكلمة « الريشة » مثلا كانت تطلق على آلة الكتابة أيام أن كانت تتخذ من ريش الطيور ؛ ولكن تغير الآن مدلولها الأصلى تبعاً لتغير المادة المتخذة منها آلة الكتابة ؛ فأصبحت تطلق على قطعة من المعدن مشكلة فى صورة خاصة . و « القطار » كان يطلق فى الأصل على عدد من الإبل على نسق واحد تستخدم فى السفر ؛ ولكن تغير الآن مدلوله الأصلى تبعاً لتطور وسائل المواصلات ؛ فأصبح يطلق على مجموعة عربات تقطرها قاطرة بخارية . و « البريد » كان يطلق على الدابة التى تحمل عليها الرسائل ؛ ثم تغير

---

(١) انظر تفصيل هـذا العامل وآثاره فى اللغات الأخرى فى صفحة ٢٩٥ من كتابنا « علم اللغة » ، الطبعة الثالثة .

(٢) قد أثرهذا العامل فى اللغة الفصحى ، أى فى لغة الآداب والكتابة نفسها كما لا يخفى .

الآن مدلوله تبعاً لتطور الطرق المستخدمة فى إيصال الرسائل ؛ فأصبح يطلق على النظم والوسائل المتخذة لهذه الغاية فى العصر الحاضر [١] .

١٥ — انتقال كلمات جديدة إلى بعض اللهجات العامية من اللغات الأجنبية التى احتكت بها . فقد انتقل إلى كل بلد عربى اللسان كثير من كلمات اللغات التى أتيح له الاتصال بأهلها اتصالا ثقافيا أو سياسيا أو اقتصاديا . فانتقل إلى لهجة العراق كثير من الكلمات التركية والفارسية والكردية والإنجليزية ؛ وإلى لهجات الشام كثير من الكلمات التركية والفرنسية ؛ وإلى لهجة مصر كثير من الكلمات التركية واليونانية والفرنسية والإيطالية ... وهلم جرا .

١٦ — انتقال أصوات جديدة إلى بعض اللهجات العامية من اللغات الأجنبية التى احتكت بها . فمن ذلك مثلا صوت بين الشين والجيم المعطشة ينطق به فى عامية العراق فى مثل كلمة « عربنجى » (سائق العربة) . فمن المحتمل أن يكون هذا الصوت قد انتقل إليها من التركية [٢] .

١٧ — دخول قواعد جديدة فى بعض اللهجات العامية للحاجة إليها فى الكلام أو عن طريق احتكاكها باللغات الأخرى . فقد انتقل مثلا إلى المصرية والعراقية طريقة النسب التركية (بزيادة جيم وياء) فى بعض الكلمات وخاصة ما يدل منها على الحرفة (عربجى . طرشجى جزمجى ...) ، وطريقة الإضافة فى بعض الكلمات بتقديم المضاف إليه على المضاف (كتبخانة ، أنتيكخانة...الخ) . وانتقل إلى اللهجة العراقية طريقة النعت الفارسية التى يقدم فيها أحيانا النعت على المنعوت (فيقال « خوش ولد » خوش كلمة فارسية معناها حسن ، ومعنى الجملة ولد حسن أو ما أحسنه من ولد) ، وطريقة تنكير الاسم المفرد بذكر كلمة قبله تدل على الوحدة (« فرد رجل » ؛ « فرد مخالفة » ... الخ) . وانتقل إلى معظم

---

(١) يؤثر هذا العامل فى لغة الآداب والكتابة نفسها ، كما تدل على ذلك الأمثلة التى ضربناها ، فمعظمها مقتبس من لغة الآداب فى الوقت الحاضر لا من اللغة العامية .

(٢) هذا الصوت كان موجوداً فى بعض اللهجات العربية القديمة (انظر ص ٩٥) . فمن المحتمل كذلك أن يكون قد انتقل إلى العراقية من هذه اللهجات .

اللهجات العامية المنشعبة عن العربية طريقة الإضافة بتوسط كلمة تدل على الملك بين المضاف والمضاف إليه : ففى مصر تتوسط غالباً كلمة « بتاع » المحرفة عن متاع ؛ وفى تونس والجزائر كلمة « إنتاع » أو « تاع » المحرفة كذلك عن متاع ؛ وفى سوريا ولبنان كلمة « تبع » (الكتاب تبعى) ؛ وفى المغرب الأقصى كلمة « ديال » ؛ وفى العراق كلمة « مال » للمذكر و « مالة » للمؤنث (فيقال « الكتاب مالى » ، « الكراسة مالتى » ، أى كتابى وكراستى) [(١)] . ودخل فى معظم هذه اللهجات كذلك زمن جديد للمضارع للدلالة على الاستمرار . وقد اختلفت هذه اللهجات فى الإشارة إلى هذا الزمن : فبعضها يشير إليه بباء فى أول الفعل (« بيكتب » فى بعض اللهجات المصرية) ؛ وبعضها يشير إليه بكاف قبل الفعل « كيكتب » فى لهجة المغرب) ؛ وبعضها يشير إليه بكلمة « عم » قبل الفعل (« عم يكتب » فى كثير من اللهجات المصرية والعراقية) ؛ أو بكلمة « راه » (« راه يكتب » فى لهجة المغرب . وتستخدم هذه الأداة كذلك فى مصر ولكن للدلالة على الاستقبال وتقلب هاؤها حاء ، فيقال « راح يكتب »)[(٢)] .

ومن القواعد المستحدثة كذلك ما تسير عليه اللهجة المصرية وبعض اللهجات العربية فى العصر الحاضر من تأخير اسم الإشارة على المشار إليه فى بعض التراكيب (الولد دا = هذا الولد) ، وإضافة حرف شين للدلالة على النفى أو توكيده (ما يرضاش = ما يرضى ؛ ما هوش كويس أو مش كويس = ما هو كيس أو طيب) ، وكثرة استعمال التصغير فى الصفات بدون مقتض للتصغير ، ويجرى هذا غالبا فى الأوصاف الدالة على القلة (صُغَيَّر ، أرَيِّب ، ألَيِّل ، رُفَيِّع ، أصَيَّر ... بدلا من صغير ، قريب ، قليل ، رفيع ، قصير ...) .

---

(١) انظر فى ذلك بعض ملاحظات طريفة لرينان فى كتابه :
Renan : Histoire générale des Langues sémitiques, p. 411

(٢) يظهر لى أن هذا الزمن لم ينتقل إلى هذه اللهجات من لغات أخرى ، بل تكون فيها بشكل تلقائى للحاجة إليه فى التعبير .

١٨ — انقراض بعض الكلمات لانقراض مدلولها أو قلة استخدامه ، فقد انقرض فى اللهجات العامية كثير من الأسماء العربية الدالة على أمور بطل استعمالها ؛ ويصدق هذا على أسماء الملابس والأثاث وعدد الحرب ووسائل النقل وآلات الصناعة والمقاييس والنقود ومظاهر النشاط والنظم الاجتماعية ... التى كانت سائدة عند العرب فى عصورهم الأولى ، ولكنها انقرضت أو لم يعد لها شأن فى عصورنا الحديثة ، فانقرضت معها الكلمات الدالة عليها .

١٩ — انقراض بعض الكلمات لثقلها على اللسان أو عدم تلاؤمها مع الحالة التى انتهت إليها أعضاء النطق ... وما إلى ذلك . وإلى هذا العامل يرجع السبب فى انقراض كثير من الكلمات العربية من لغات التخاطب العامية فى العصر الحاضر (١) .

٢٦ — انقراض الكلمة لدقة مدلولها ، أو عدم الاحتياج إليه فى لهجات المحادثة العادية ، أو قلة دورانه فيها ، أو وجود لفظ آخر مرادف لها . فلهجات المحادثة تقتصر في العادة على الضرورى ، وتنفر من الكمالى ، وتنأى عن مظاهر الترف . وإلى هذا العامل يرجع السبب فى انقراض آلاف من الكلمات العربية من لهجات المحادثة الحاضرة ، وفى تجرد هذه اللهجات من أهم خاصة تمتاز بها العربية ، وهى سعة الثروة فى المفردات وكثرة المترادفات .

* * *

هذا وعلى الرغم من اختلاف هذه اللهجات فى ظروفها ، فقد تأثرت فى بعض النواحى بعوامل متحدة ، فاتفقت فى طائفة من مظاهر التطور . وتبدو وجوه اتفاقها هذا فى أمور كثيرة أهمها ما يلى :

١ — تجردها من جميع الحركات التى تلحق آخر الكلمات فى العربية الفصحى ، سواء فى ذلك ما كان منها علامة إعراب وما كان حركة بناء . فينطق فى هذه اللهجات بجميع الكلمات مسكنة الأواخر ، وتلزم حالة واحدة فى الكلمات المعربة بالحروف ، ويُعتمد فى فهم الأمور التى ترشد إليها فى العربية

(١) يؤثر هذا العامل والعامل السابق كلاهما فى لغة الآداب والكتابة نفسها كما لا يخفى .

الفصحى علامات الإعراب (وظيفة الكلمة ، علاقة عناصر العبارة بعضها ببعض ... الخ) على سياق الحديث أو على كلمات مستقلة تذكر فى الجملة .

٢ — استبدل فى هذه اللهجات بالطرق المعقدة الدقيقة التى تسير عليها العربية الفصحى فى تركيب الجملة وترتيب عناصرها ، طرق بسيطة ساذجة وأساليب حرة طليقة.

٣ — لم تحتفظ هذه اللهجات إلا بجزء يسير من تراث أمها العربية وثروتها العظيمة فى المفردات ، ويتمثل هذا الجزء فى الكلمات الضرورية للحديث العادى.

***

ومن هذه الخواص الثلاث يتبين أن ما تمتاز به العربية الفصحى عن أخواتها السامية قد تجردت منه اللهجات العامية الحديثة . فمسافة الخلف بين لهجاتها الحاضرة واللغات السامية الأخرى أضيق إذن من مسافة الخلف بين هذه اللغات والعربية الفصحى.

(١٥) طوائف اللهجات العامية

ومبلغ بعد كل منها عن الفصحى

لم يصل إلينا عن هذه اللهجات قبل القرن التاسع عشر إلا معلومات ضئيلة ، بعضها مستقى من إشارات جاءت فى ثنايا كتب القواعد والأدب ، وبعضها من أغان شعبية وردت فى مقدمة ابن خلدون وتاريخه ، وبعضها من كتب ألفت بلغة بين العامية والعربية الفصحى ، ككتاب « ألف ليلة وليلة » .

ولم يعن العلماء بدراسة هذه اللهجات دراسة جدية إلا منذ القرن التاسع عشر . وقد قسموها إلى خمس مجموعات تشتمل كل مجموعة منها على لهجات متقاربة فى أصواتها ومفرداتها وأساليبها وقواعدها ، ومتفقة فى المؤثرات التى خضعت لها فى تطورها : إحداها مجموعة اللهجات الحجازية — النجدية (وتشمل لهجات الحجاز ونجد واليمن) وثانيتها مجموعة اللهجات السورية (وتشمل جميع اللهجات العربية[1]

---

(١) قيدنا هذه اللهجات بالعربية لإخراج اللهجات غير العربية التى يتكلم بها بعض طوائف فى سوريا ولبنان . ومن أشهر هذه اللهجات لهجة منحدرة من الآرامية يتكلم بها إلى الوقت الحاضر فى ثلاث قرى سورية ، وهى معلولة وجبعدين ونجفا . (انظر صفحتى ٦٧ ، ٦٨) .

المستخدمة فى سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن) ؛ وثالثتها مجموعة اللهجات العراقية (وتشمل جميع اللهجات العربية[١] المستخدمة فى بلاد العراق) ؛ ورابعتها مجموعة اللهجات المصرية (وتشمل جميع اللهجات العربيـة المستخدمة فى مصر والسـودان[٢]) ؛ وخامستها مجموعة اللهجات المغربية (وتشمل جميع اللهجات العربية[٣] المستخدمة فى شمال أفريقيا) .

وتشتمل كل مجموعة من هذه المجموعات على طائفة كبيرة من اللهجات ؛ وتنقسم كل لهجة إلى عدة فروع ؛ وينشعب كل فرع إلى شعب كثيرة تختلف باختلاف البلاد التى تستخدمه . وإليك مثلا مجموعة اللهجات المصرية : فهى تنقسم إلى مئات من اللهجات ، وكل لهجة من هذه اللهجات تنقسم إلى عدة فروع وشعب ، تختلف باختلاف البلاد الناطقة بها ؛ حتى إنك لتجد بين القريتين المتجاورتين المنتميتين إلى لهجة واحدة خـلافا واضحاً فى كثير من مظاهر الصوت والمفردات والتراكيب والأساليب .

ومع كثرة وجوه الخلاف بين هذه المجموعات الخمس فإن المتكلمين بإحداها يستطيعون ، مع شىء من الانتباه ، أن يفهموا كثيراً من حديث أهل المجموعات الأخرى ، لاتفاقها فى معظم أصول المفردات والقواعد الأساسية ومنحى الأساليب .

وأدنى هذه المجموعات إلى العربيـة الفصحى مجموعتا اللهجات الحجازية والمصرية . أما اللهجات الحجازية فلنشأتها فى المواطن الأصلية للعربية الفصحى ، ولأن معظم أهل الحجاز ونجد ينتمون إلى عناصر عربيـة خالصة . وأما اللهجات

---

(١) قيدنا هذه اللهجات بالعربية لإخراج اللهجات العراقية المنحدرة من أصل غير سامى كاللهجات الـكردية والمنحدرة من أصـل سامى غير عربي كاللهجات الآرامية التى لا يزال يتكلم بها إلى الوقت الحاضر فى بعض قرى فى طور عابدين وبعض بلاد فى شرق الموصل وشماله وجبال الـكرد والشاطىء الشرقى لبحيرة أورميا (انظر صفحتى ٦٨، ٦٩) .

(٢) قيدنا هذه اللهجات بالعربية لإخراج اللهجات غير العربية المستخدمة فى بعض مناطق السودان (انظر آخر صفحة ١٩٤ وأول ١٩٥ من الطبعة الثالثة من كتابنا « علم اللغة ») .

(٣) قيدنا هـذه اللهجات بالعربية لاخراج اللهجات البربرية التى لا يزال يتكلم بها إلى الوقت الحاضر بعض عشائر فى المغرب الأقصى .

المصرية فلأن صراع العربيـة مع اللسان القبطى الذى كان يتكلم به أهل مصر قبل الفتح العربى لم يكن عنيفاً ولم تلق فى أثنائه اللغة العربية مقاومة ذات بال ؛ ومن المقرر أن اللغة التى يتم لها الغلب بدون مقاومة تخرج من صراعها أقرب ماتكون إلى حالتها التى كانت عليها من قبل[١] . هذا إلى أن معظم أهل مصر منحدر من عشائر عربية الأصل .

وأبعد هذه المجموعات عن العربية الفصحى المجموعتان العراقية والمغربية . أما العراقية فلشدة تأثرها بالآرامية والفارسية والتركية والكردية ، حتى إن قسما كبيراً من مفرداتها و بعض قواعدها غير عربى الأصل ؛ ولذلك يجد المصرى مثلا صعوبة كبيرة فى فهم حديث العراق[٢] . وأما المغربية فهى أبعد اللهجات العامية جميعاً عن العربيـة الفصحى . و يرجع السبب فى ذلك إلى شدة تأثرها باللهجات البربرية التى كان يتكلم بها معظم السكان قبل الفتح العربى . فقـد انحرفت من جراء ذلك انحرافاً كبيراً عن أصولها الأولى فى الأصوات والمفردات وأساليب النطق وفى القواعد نفسها[٣] .

ولهجات البدو فى جميع هذه البلاد أفصح كثيراً من لهجات الحضر ، وأقل منها فى الكلمات الدخيلة ، وأدنى منها إلى العربيـة الفصحى . ولذلك نرى أن لهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر[٤] وخاصة العشائر التى لم تبعد كثيراً عن

---

(١) انظر تفصيل هذا القانون وآثاره فى صفحتى ٢١٢ ، ٢١٣ من الطبعة الثالثة من كتابنا « علم اللغة » .

(٢) قضيت بالعراق بضعة أشهر وطفت بكثير من بلاده ، وما كنت لأستطيع التفاهم بسهولة إلا مع المتعلمين الذين كنت أستخدم العربية الفصحى فى حديثى معهم .

(٣) من أظهر ما تمتاز به هذه اللهجات من ناحية القواعد أنها تصوغ المضارع المسند إلى جمع المتكلمين على غرار مضارع الغائبين والمخاطبين ، فيقولون « نكتبوا » بكسر فكسر فسكون ، كما يقولون على نفس الوزن « يكتبوا » و « تكتبوا » ؛ وأنهـا تستبدل النون بهمزة المضارع للمتكلم المفرد ، وتصوغه فى وزن يختلف عن وزن جمع المتكلمين فيقال « نكتب » بكسر فسكون فكسر ، بدلا من « أكتب » .

(٤) نعنى بها قبائل العرب التى تسكن الفيوم وبنى سويف والشرقية والبحيرة ... الخ (الفوايد ، الرماح ، الحرابى ، البراعصة ، أولاد على ، الضعفاء ، خويلد ، سمالوس ... الخ).

حالتها البدوية القديمة ، أفصح كثيراً من لهجات المصريين ، وأكثر منها احتفاظاً بالأصوات العربيــة ، وأدق منها فى إخراج الحروف من مخارجها . فهى لا تزال محتفظة بأصوات الذال والثاء والظاء التى انقرضت من اللهجات المصرية ؛ وأوزان كلماتها أقرب ما يكون إلى الأوزان العربية الصحيحة ، ويندر أن نعثر فيها على مفرد غير عربي الأصل .

ولهجات القرى فى جميع هذه المناطق أفصح من لهجات المدن وأقل منها فى الـكلمات الدخيلة ، وأدنى منها إلى العربيــة الفصحى . ويرجع السبب فى ذلك إلى ميل سكان القرى إلى المحافظة وقلة احتكاكهم بالأجانب[١] .

(١٦) لغة الـكتابة العربية

وتطورها وما استقرت عليه فى العصر الحاضر

وعلى الرغم من تعدد لهجات المحادثة فى هذه الأمم على الصورة التى وصفناها ، فإن لغة الآداب والـكتابة فيها واحدة . وهى تمثل فى جملتها اللغة القرشية التى نزل بها القرآن . ولـكنها قد تطورت فى تفاصيلها تطوراً كبيراً تحت تأثير العوامل المختلفة التى تكلمنا عنها بتفصيل فى كتابنا علم اللغة[٢] وأشرنا إلى بعضها فى الفقرة الرابعة عشرة من هذا الفصل[٣] . وقد انتابها فى العصر الحاضر تطورات جديدة ترجع أهم عواملها إلى ما يلى :

١ — اقتباس مفردات إفرنجية بعد تعريبها للتعبير عن مخترعات أو آلات

---

(١) انظر فى اللهجات العربية العامية وما كتب فيها قديماً وحديثاً بحثاً قيماً للأستاذ عيسى اسكندر المعلوف بالجزء الأول من مجلة المجمع اللغوى ص ٣٥٠ وتوابعها — وقد ذكرنا بعض هذه المؤلفات فى ثبت المراجع .

(٢) انظر صفحات ١٧٠ — ١٧٣ و ٢٢٦ إلى ٣٠٠ من الطبعة الثالثة من كتاب « علم اللغة » للمؤلف .

(٣) تكلمنا فى هذه الفقرة عن العوامل التى أدت إلى تحول اللغة الفصحى إلى لهجات عامية فى المحادثة العادية . غير أن بعض هذه العوامل قد أثر فى لغة الآداب والـكتابة نفسها ، كالعوامل الحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر من الفقــرة المشار إليها (انظر صفحات ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧) .

حديثة ، أو مصطلحات علمية ، أو نظريات ، أو مبادئ اجتماعية ، أو أحزاب سياسية . . . وهلم جرا .

٢ — ترجمة كثير من المفردات الإفرنجية الدالة على معان خاصة تتصل بمصطلحات العلوم والفلسفة والآداب . . . وما إلى ذلك ، إلى مفردات عربية كانت تستعمل من قبل فى معان عامة . فتجردت هذه المفردات من معانيها العامة القديمة وأصبحت مقصورة على المدلولات الاصطلاحية .

٣ — التأثر بأساليب اللغات الإفرنجية ومناهج تعبيرها وطرق استدلالها فى المؤلفات العلمية والقصصية والأدبية وفى الصحف والمجلات . . .

٤ — اقتباس كثير من أخيلة هذه اللغات وتشبيهاتها وحكما وأمثالها . . . وما إلى ذلك .

٥ — إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات القديمة المهجورة . فكثيراً ما لجأ الكتاب فى البلاد العربية إلى هذه الوسيلة للتعبير عن معان لا يجدون فى المفردات المستعملة ما يعبر عنها تعبيراً دقيقاً ، أو لمجرد الرغبة فى الإغراب أو فى الترفع عن المفردات التى لا كتها الألسنة كثيراً . وبكثرة الاستعمال بعثت هذه المفردات خلقاً جديداً ، وزال ما كان فيها من غرابة ، واندمجت فى المتداول المألوف .

(١٧) بين العامية والفصحى

أو مشكلة اختلاف لغة الكتابة عن لغة الحديث

يقصد بلغة الكتابة أو لغة الآداب اللغة التى تدون بها المؤلفات والصحف والمجلات وشئون القضاء والتشريع والإدارة ، ويدون بها الإنتاج الفكرى على العموم ، ويؤلف بها الشعر والنثر الفنى ، وتستخدم فى الخطابة والتدريس والمحاضرات ، وفى تفاهم الخاصة بعضهم مع بعض وفى تفاهمهم مع العامة إذا كانوا بصدد موضوع يمت بصلة إلى الآداب والعلوم .

ويقصد بلغة الحديث اللغة العامية التي نستخدمها فى شئوننا العادية ، ويجرى بها حديثنا اليومى .

ووجه المشكلة أننا فى الأمور الأولى نستخدم اللغة العربية فى الصورة التى كانت عليها فى بلاد نجد والحجاز وقت أن نزل القرآن ، وهى الصورة التى اصطلحنا على تسميتها بالعربية الفصحى ؛ على حين أننا فى شئوننا العادية نستخدم اللغة العربية فى الصورة التى انتهى إليها تطورها الطبيعى فى لهجات المحادثة ، وهى الصورة التى اصطلحنا على تسميتها باللغة العامية . أو بعبارة أخرى أننا فى الأمور الأولى نستخدم العربية على الحالة التى كانت عليها فى مرحلة قديمة من مراحل حياتها ، وفى الأمور الأخرى نستخدمها على الحالة التى وصلت إليها فى الوقت الحاضر فى ألسنة الناطقين بها .

ولما كانت هاتان الحالتان أو هاتان اللغتان تختلف كل منهما عن الأخرى اختلافاً بيناً فى كثير من مظاهر أصواتها ومفرداتها ودلالة ألفاظها وأساليبها وقواعدها وتصريف مشتقاتها ، فقد ترتب على ذلك أننا نستخدم فى تعبيرنا وتفاهمنا أداتين لغويتين نلجأ إلى إحداهما فى بعض شئوننا وإلى الثانية فى الشئون الأخرى . وازدواج كهذا يبدو فى نظر بعض الناس بمظهر حالة شاذة لا يصح السكوت عليها وينبغى تدبير وسيلة لعلاجها . هذا إلى أن إحدى هاتين الأداتين ، وهى العربية الفصحى ، لا تنتقل من السلف إلى الخلف فى سن الطفولة عن طريق التقليد ، كما تنتقل العامية ، وإنما نتعلمها تعلماً فى مراحل دراستنا كما نتعلم لغة أجنبية تقريباً ، ونقضى سنين طويلة فى سبيل الإلمام بمفرداتها ومناهج أصواتها وقواعدها وأساليبها ، ولا يتاح لنا الانتفاع بها على الوجه الكامل إلا بعد أن نجتاز معظم مراحل التعليم . واللغة ، كما نعلم ، وسيلة للتفاهم والثقافة والعلم ، لا غاية مقصودة لذاتها . واضطرارنا إلى قضاء هذا الوقت الطويل ، وبذل هذه الجهود الجبارة ، فى سبيل الإلمام بالوسيلة ، يبدو فى نظر بعض الناس إسرافاً كبيراً فى الوقت والمجهود ، وحالة شاذة ينبغى أن تتضافر الجهود على علاجها .

وقد انقسم الناس فى تدبير حل لهذه المشكلة إلى فريقين يرمى كل منهما إلى توحيد لغة الكتابة ولغة الحديث .

أما أحدهما فيرى أن نسمو بلغة الحديث إلى لغة الكتابة ، فنعمل بمختلف الوسائل التعليمية وغيرها على أن يتكلم جميع الناس فى البلاد العربية فى جميع شئونهم بالعربية الفصحى ، أو نهذب على الأقل من لغتهم حتى تقرب من العربية الفصحى . وبذلك تتوحد لغة الكتابة ولغة الحديث أو تكادان ، ونقضى على مظاهر العنت والشذوذ الناجمة عن اختلافهما ، وتصبح العربية الفصحى لغة طبيعية تنتقل من السلف إلى الخلف عن طريق التقليد ، كما كان يأخذ الطفل القرشي فى القرن السادس الميلادى اللغة الفصحى عن أبويه بطريق المحاكاة ، فلا يقضى الناشىء فى تعلم كتابتها والإحاطة بمفرداتها وأساليبها و إساغة قواعدها إلا وقتاً يسيراً يتفرغ من بعده للانتفاع بها فى الإحاطة بحقائق العلوم وشئون الثقافة . فنوفر قسطاً كبيراً من الأوقات والجهود التى نبذلها الآن فى تعلم اللغة الفصحى ، والتى لا يصح أن يبذل مثلها فى أمر مهما بولغ فى شأنه لا يعدو أنه وسيلة للثقافة والعلم لا غاية مقصودة لذاتها .

و يرى الفريق الآخر أن نهبط بلغة الكتابة إلى لغة الحديث فنستخدم العامية فى الشئون التى نستخدم فيها الآن العربية الفصحى ونقضي بذلك على هذا التعدد الشاذ فى أداة التفاهم ، ونسير على الطريق نفسها التى تسير عليها الأمم المتحضرة الأوروبية ، ونذلل أمام جمهور الشعب سبل التعلم والثقافة ، ونوفر على المتعلمين قسطاً كبيراً من الأوقات والجهود التى يبذلونها فى الإحاطة بلغة غير اللغة التى انتقلت إليهم من آبائهم فى مراحل الطفولة .

ومن المنتصرين لهذا المذهب الأخير الكونت كرلودى لندبرج الإسوجى ، فى تقريره الذى تلاه بمجمع اللغويين فى مدينة ليدن سنة ١٨٨٣ ، واللورد دوفرين السياسى الإنجليزى فى التقرير الذى رفعه إلى وزير خارجية إنجلترا بشأن لهجة

مصر العامية . ومن هؤلاء كذلك ولهلم سبتابك الألمانى أمين دار الكتب بالقاهرة سابقاً (توفى سنة ١٨٨٣) الذى مهد لتحقيق هذا المشروع باستنباط حروف أفرنجية تكتب بها لهجة مصر العامية و بتأليف كتاب ألمانى فى قواعد الصرف والاشتقاق التى تسير عليها هذه اللهجة .

وكلا الحلين يتعذر تحقيقه أو ينطوى على أضرار بليغة .

* * *

١ — أما الهبوط بلغة الكتابة إلى لغة الحديث واستخدام العامية فى الشئون التى نستخدم فيها الآن العربية الفصحى فهو حل ساذج هدّام لا يكاد يستحق عناء المناقشة ، وهو لا يقوم فى الواقع إلا على مجرد الرغبة الآثمة فى القضاء على أهم دعامة من دعائم الثقافة فى الأمم العربية .

فاللغة العامية التي يرى القائلون بهذا الحل استخدامها فى الشئون التى تستخدم فيها الآن العربية الفصحى لغة فقيرة كل الفقر فى مفرداتها ، ولا يشتمل متنها على أكثر من الكلمات الضرورية للحديث العادى . وهى إلى ذلك مضطربة كل الاضطراب فى قواعدها ، وأساليبها ، ومعانى ألفاظها ، وتحديد وظائف الكلمات فى جملها ، وربط الألفاظ والجمل بعضها ببعض . وأداة هذا شأنها لا تقوى مطلقاً على التعبير عن المعانى الدقيقة ولا عن حقائق العلوم والآداب والإنتاج الفكرى المنظم. ولا أدل على ذلك من أننا فى حديثنا العادى نفسه كثيراً ما نضطر إلى استخدام العربية الفصحى عندما نكون بصدد التعبير عن حقائق منظمة وأفكار مسلسلة : لا نفعل ذلك للمباهاة أو إظهار القدرة على التعبير الفصيح ؛ و إنما نفعله مضطرين اضطراراً ؛ لأننا نرى أن العامية لا تسعفنا فى مفرداتها ولا فى قواعدها بما يضبط تفكيرنا و ينقله نقلا صحيحاً إلى الأذهان .

فإذا لم نجد أمامنا — لا قدر الله — إلا اللغة العامية نستخدمها فى جميع شئون تفكيرنا وتعبيرنا لتقطعت بنا أسباب الثقافة ، ونكصنا إلى الوراء قروناً

عديدة ، وقضى على نشاطنا الفكرى قضاء مبرماً . لأن الفكر إذا لم تسعفه أداة مواتية فى التعبير خمدت جذوته ، وضعف شأنه ، وضاق نطاقه ، واقتصر نشاطه ، على توافه البحوث وسفساف التأملات . فاللغة هى القالب الذى يصب فيه التفكير: فكلما ضاق هذا القالب ، واضطربت أوضاعه ، ضاق نطاق الفكر واختل إنتاجه .

هذا إلى أن اصطناع العامية فى الآداب والعلوم والكتابة من شأنه أن يحول ، عاجلاً أو آجلاً ، بين الأجيال القادمة والانتفاع بالتراث العربى المدون بالعربية الفصحى ؛ إذ تصبح هذه اللغة غير مفهومة إلا لطائفة قليلة من خاصة الناس ، وهم الذين يتوفرون على دراستها كما يتوفر بعض علماء الفرنجة الآن على دراسة اللاتينية أو اليونانية القديمة . ولسنا فى حاجة إلى بيان الكارثة التى تصيب الثقافة العربية بضياع هذا التراث وعدم استطاعة الانتفاع به لمعظم المتعلمين .

وفضلا عن هذا كله فإن اللغة العامية فى بلد ما غير ثابتة على حال واحدة ، بل هى عرضة للتطور فى أصواتها ومفرداتها ودلالاتها وقواعدها ، وتطورها هذا سريع جداً ، حتى إننا لنجد فى العصر الواحد فروقاً غير يسيرة بين عامية الشبان وعامية الشيوخ . فإذا فرضنا أننا اصطنعنا فى الكتابة اللغة العامية التى نستخدمها فى العصر الحاضر ، فإننا لا نلبث بعد وقت غير طويل أن نرى أنفسنا أمام المشكلة نفسها التى التجأنا فى حلها إلى هذه الوسيلة . وذلك أن لغة الحديث سوف تتطور وسوف ينالها كثير من التغيير فى أصواتها ودلالاتها وقواعدها وأساليبها ، ولن تزال كذلك حتى تبتعد بعداً كبيراً عن لغة الكتابة ؛ فنصبح وإذا بنا نكتب بلغة ونتخاطب بلغة أخرى . فإذا صبرنا على هذا الازدواج ذهب كل ما عملناه فى هذا السبيل أدراج الرياح . وإذا أخذنا على أنفسنا العمل على القضاء عليه كلما ظهر باستخدام الوسيلة نفسها التى استخدمناها فى المرة الأولى ، كان معنى ذلك أننا نضطر على رأس كل خمسين سنة أو كل قرن على أكثر تقدير إلى تغيير لغة الكتابة بلغة أخرى : وهذا هو أقصى ما يمكن أن تصل إليه الفوضى فى شعب إنسانى .

يضاف إلى هذا كله أن اللغة العامية تختلف باختلاف الشعوب العربية ، وتختلف فى الشعب الواحد باختلاف مناطقه . فعامية العراق لا يكاد يفهمها المصريون أو المغاربة ، وعامية المصريين لا يكاد يفهمها العراقيون ولا المغاربة ، وعامية المغاربة لا يكاد يفهمها العراقيون ولا المصريون . وفى البلد الواحد تختلف اللهجات العامية باختلاف طوائف الناس و باختلاف المناطق ، فعامية المنيا غير عامية جرجا . بل إن المديرية الواحدة لتشتمل على كثير من المناطق اللغوية التى تختلف فيما بينها اختلافاً غير يسير . فالقضاء على الازدواج لا يكون إذن إلا بأن تصطنع كل منطقة ، بل كل مدينة ، بل كل قرية ، لغة كتابة تتفق مع لغة حديثها . و بذلك يصبح فى البلاد العربية آلاف من لغات الكتابة بمقدار ما فيها من مناطق ومدن وقرى . ولا أظن عاقلا ينصح بمثل هذه الفوضى . و إذا لجأنا إلى جعل لغة الكتابة فى العالم العربى كله مماثلة للهجة واحدة من اللهجات العامية الحاضرة ، كلهجة القاهرة مثلا ، فإننا بذلك لا نكون قد قضينا على الازدواج إلا فى منطقة واحدة من المناطق ، وهى المنطقة التى جعلنا لغة الكتابة متفقة مع لغة حديثها . أما ما عداها من المناطق فستظل مشكلة الازدواج قائمة فيها ، وذلك أنها ستكتب بلغة غير اللغة التى يجرى بها حديث أهلها .

* * *

٢ — وأما الحل الثانى وهو الصعود بلهجة الحديث إلى العربية الفصحى فهو أمنية غالية ومثل أعلى يحقق التوحيد فى صورة لا تنطوى على أى ضرر من الأضرار التى ينطوى عليها الحل الأول الذى فرغنا من مناقشته . غير أن هذه الأمنية ، على ما بها من فضل وسمو ، يتعذر تحقيقها لسببين رئيسيين :

السبب الأول أن لغة المحادثة لا تفرض فرضاً ولا يمكن النكوص بها إلى الوراء ولا رجعها إلى الحالة التى كانت عليها فى أدوارها القديمة ، لأن من سنتها التطور والتبدل ، ومن طبيعتها أن تختلف فى كل عصر عن الحالة التى كانت عليها

فى العصر السابق له ، ولأنها لا تسير فى تطورها هذا وفقاً لإرادة الأفراد أو تبعاً للأهواء والمصادفات ، وإنما تسير وفقاً لنواميس ثابتة صارمة لا يستطيع الأفراد سبيلا إلى تعويقها أو التغلب عليها أو تغيير مجراها ؛ نواميس لا تقل فى ثباتها واطرادها وعدم قابليتها للتخلف عن النواميس التى تخضع لها ظواهر الطبيعة . وقد حاول بعض الأمم من قبلنا عمل شيء من هذا القبيل ، فباءت محاولاتهم بالإخفاق المبين.

والسبب الثانى أننا إذا فرضنا جدلا أنه قد قدر لنا النجاح فى هذه المحاولة المستحيلة فجعلنا جميع الناس فى البلاد العربية يتحدثون بالعربية الفصحى أو بما يقرب منها ، فإن هذه اللغة المصطنعة لا تلبث بعد تداولها على الألسنة أن تخضع لجميع القوانين التى تخضع لها اللغات الطبيعية . فما دام أفراد الأمم الناطقة بها مختلفين فى أصولهم الشعبية ، وفى التكوين الطبيعى لجسومهم وأعضاء نطقهم ، وفى الظروف الجغرافية والطبيعية والاجتماعية المحيطة بهم ، وفى قواهم الإدراكية والوجدانية ، وما دامت سنة الطبيعة تقتضى أن يختلف كل جيل عن الجيل السابق له فى جميع هذه الأمور ، فلابد أن تختلف هذه اللغة فى مفرداتها وأصواتها ودلالاتها وقواعدها باختلاف العصور و باختلاف الشعوب الناطقة بها ، وأن تنقسم إلى لهجات تختلف كل واحدة منها عما عداها ، وتتفرع منها لغات عامية ، وتتسع الهوة بين لهجاتها قليلا قليلا حتى تنفصل كل لهجة منها عما عداها انفصالا تاماً ؛ أى لا بد أن تسير فى المراحل نفسها التى سارت فيها العربية الفصحى من القرن السادس الميلادى إلى الوقت الحاضر ، وتنتهى إلى النتيجة نفسها التى انتهت إليها. وهكذا لن يمضى زمن قصير أو طويل حتى تنبعث مرة أخرى المشكلة نفسها التى حاولنا القضاء عليها ، وحتى نرى الناس يتحدثون بلهجات تبعد بعداً كبيراً عن لغة الكتابة .

* * *

فما هى الطريقة المثلى إذن لحل هذه المشكلة ؟

الطريقة المثلى هى أن ندع الأمور تجرى فى مجاريها الطبيعية . فللغة قوانينها ، وللظواهر الاجتماعية نواميسها التى تسير عليها ، ومن ضياع الوقت فى غير جدوى أن نحاول تغيير مجرى هذه القوانين أو صدها عن عملها ، إذ لا نستطيع إلى تغييرها سبيلا ، ولن نجد لسنتها تبديلا .

على أن اختلاف لغة الكتابة عن لغة الحديث لا ينطوى على شىء من الشذوذ حتى نتلمس علاجاً له ، بل هو السنة الطبيعية فى اللغات . فاللاتينية القديمة كانت إلى عهد قريب لغة الكتابة فى فرنسا و إيطاليا و إسبانيا والبرتغال ورومانيا ، بينما كان سكان كل مملكة من هذه الممالك يجرى حديثهم بلهجة عامية متشعبة من اللاتينية القديمة ولكنها تختلف عنها اختلافاً جوهرياً فى أصواتها ومفرداتها ودلالاتها وقواعدها ؛ واختلافها عنها فى هذه الشئون قد بلغ فى العصور الحديثة مبلغاً لا يذكر بجانبه اختلاف لغاتنا العامية عن العربية الفصحى : حتى إن الفرنسى مثلا الذى لم يكن قد تعلم اللاتينية ما كان يستطيع أن يفهم شيئاً يعتد به من اللغة التى كان يكتب بها الناس فى بلده وهى اللاتينية . وقد ظلت اللاتينية القديمة لغة كتابة حتى نضجت لهجات محادثتهم وكمل نموها ، فاستطاعت أن تنحى اللاتينية عن وظيفتها وتحتل مكانها . فأصبحت الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والرومانية ، التى كانت لهجات عامية تستخدم فى المحادثة العادية فحسب ، أصبحت لغات كتابة وآداب . وقد تم ذلك حوالى القرن السابع عشر الميلادى . ولكن ظاهرة الازدواج القديمة لم تلبث أن انبعثت مرة أخرى . وذلك أن لهجات الحديث فى هذه الممالك ، التى كانت فى المبدأ متفقة مع لغات الكتابة فيها ، قد أخذت تتطور شيئاً فشيئاً ، وتنحرف عن أصولها الأولى ، بينما ظلت لغة الكتابة جامدة على حالتها القديمة أو ما يقرب منها . و بذلك أصبحت لهجات الحديث فى هذه الممالك تختلف اختلافاً غير يسير عن لغات الكتابة فيها . صحيح أن الفرق بينهما لم يصل بعد إلى مقدار الفرق بين لهجات حديثنا والعربية الفصحى ، ولكن الهوة بينهما

سيزداد اتساعها شيئاً فشيئاً ، حتى تصل هذه الأمم إلى حالة شبيهة بالحالة التي كانت عليها وقت أن كانت لغة الكتابة فيها هي اللاتينية .

فاختلاف لغة الكتابة عن لغة التخاطب ليس إذن أمراً شاذاً حتى نتلمس علاجاً له ، بل هو السنة الطبيعية فى اللغات ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

(١٨) اللهجة المالطية

تكلمت مالطة فى العصور القديمة وفاتحة العصور الوسطى لغات كثيرة من أشهرها الفينيقية والبونية (القرطاجنية)[١] . وهكذا شأن جميع البلاد الصغيرة المستضعفة التي ينتمى أهلها إلى عدة شعوب وتقع أرضها فى طريق الغزاة والفاتحين ، فتصبح دُولة بينهم ، و يحول ذلك كله دون أن يكون لها كيان وطنى مستقر ، أوقومية واضحة . فجميع البلاد التى من هذا القبيل لا تستقر على لغة واحدة ، بل تتغير فى الغالب لهجتها مع تغير الدولة المسيطرة عليها ، و ينال ألسنتها كثير من مظاهر التبلبل لكثرة ما ينتقل إليها من لهجات ، ومايعتور نطقها من أساليب .

وآخر لغة انتقلت إلى مالطة كانت اللغة العربية متمثلة فى لهجة من اللهجات العامية المغربية السائدة فى شمال أفريقيا . غير أن هذه اللهجة قد أحيطت بظروف تختلف كل الاختلاف عن الظروف التى أحاطت بسائر اللهجات العربية الأخرى؛ فسلكت فى تطورها منهجاً يختلف كل الاختلاف عن منهج أخواتها . وذلك أن انعزالها عن العالم العربي وانتشارها فى بلد مسيحى ، وكثرة احتكاكها باللغة الإيطالية المجاورة لها ، وخضوع مالطة لحكم الإنجليز ، وكثرة من يفد إليها و يمر بها من الأجانب ، وانتماء هؤلاء الأجانب إلى شعوب مختلفة وتكلمهم شتى اللغات . . . كل ذلك قد وسع من هوة الخلاف بينها و بين اللهجات العربية الأخرى ، فبعدت عنها بعداً كبيراً ، وفقدت كثيراً من مقوماتها ، وتأثرت

---

(١) انظر صفحات ٤٠ — ٤٣ .

بطائفة كبيرة من اللغات الأوروبية وخاصة الإيطالية والفرنسية والألمانيـة والإنجليزية ، وانتقلت إليها مجموعة كبيرة من مفردات هـذه اللغات ، وامتزجت هذه العناصر الدخيلة بالعناصر الأصيلة كل الامتزاج ، فتألف من مجموع ذلك كله مخلوق عجيب فى عالم اللغات : حتى إن الـكلمة الواحدة فيها لتتألف أحياناً من أصلين أحدهما عربى والآخر أعجمى (من ذلك مثلا « ليبيرانا » Liberana أى نجنا وخلصنا ، فهى مؤلفة من الفعل الفرنسى Liberer بمعنى حرر أو خلص ، والضمير العربى لجماعة المتـكلمين) . ويندر أن نعثر على مثل هذا الخلط فى أية لغة أخرى من لغات العالم[١] .

ولا يزال اللسان المالطى ، على الرغم من هـذا كله ، محتفظاً بكثير من خصائص اللهجات المغربية التى انشعب عنها . ومن أظهر ما بقى فيه من هـذه الخصائص طريقة إمالة الألف المتوسطة فى معظم الكلمات (فكلمة « باب » مثلا ينطق بها فى مالطة بإمالة الألف على طريقة اللهجات المغربية baibe) .

واللهجة المالطية هى اللهجة العامية العربية الفذة التى ارتفعت إلى مصاف لغات الـكتابة . وقد تم لها ذلك فى القرن التاسع عشر . فمنذ ذلك العهد تطبع بها الـكتب والصحف والمجلات وتدون بها الرسائل ، وبالجملة تستخدم فى جميع الأغراض التي تستخدم فيها لغات الـكتابة . وهى كذلك اللهجة العربية الفذة التى تدون بحروف لاتينية .

ولا تـكاد تستخدم هذه اللهجة إلا فى القرى ؛ أما فى المدن المالطية فمعظم الحديث يجرى فيها بالإيطالية أو الإنجليزية[٢] .

---

(١) يوجد لذلك نظائر فى بعض اللغات الحبشية العامية التى اشتد تأثرها باللهجات الحامية والسودانية ؛ ومن هذه اللغات الأمهرية (انظر صفحتى ٩٠ ، ٩٢) .

(٢) انظر فى اللهجة المالطية : De Sacy : Grammaire Arade; et Renan, Langues Sémetiques 413, 414.

(١٩) الرسم العربي : تاريخه ومراحله

اجتاز الرسم العربي خمس مراحل :

١ — فأقدم رسم وصلت إلينا اللغة العربية مدونة به كان مشتقاً من خط المسند ، كما تدل على ذلك آثار العربية البائدة التى تقدمت الإشارة إليها[١]. ويرجح الباحثون أن القبائل المعينية التى أشرنا فيما سبق إلى نزوحها من اليمن إلى هذه المناطق الشمالية وتكوينها بها جاليات كبيرة[٢] هى التى حملت إليها هذا النوع من الرسم .

وقد وصل إلينا من هذا الرسم ثلاثة أنواع متقاربة : أحدهما ممثل فى النقوش اللحيانية ، وثانيها فى النقوش الثمودية ، وثالثها فى النقوش الصفوية . فأما الخط اللحيانى فلا يكاد يختلف عن خط المسند الذى اشتق منه ، ويسير مستعرضاً من اليمين إلى الشمال . وأما الخط الثمودى ، فهو مشتق كذلك من خط المسند ، غير أنه أقل من الرسم اللحيانى نظاماً ورونقاً ؛ أما اتجاهاته فغير ثابتة على حال واحدة ولكنه فى الغالب يتجه من أعلى إلى أسفل . وأما الخط الصفوى فيشبه كثيراً الخط اللحيانى ؛ غير أنه مختلف الاتجاهات : فتارة يقرأ من اليمين إلى الشمال ؛ وأخرى من الشمال إلى اليمين[٣]. — وحروف الهجاء فى جميع هذه الأنواع كانت ترسم متفرقة . وكانت لا ترمز إلا إلى الأصوات الساكنة فى الكلمة ؛ أما أصوات المد ، سواء فى ذلك الطويل منها والقصير . فقد أغفلت هذه الخطوط الثلاثة الرمز إليها إغفالا تاماً . هذا إلى أنها كانت مجردة من الإعجام (النقط) ؛ فكان بعض حروفها يستخدم للرمز إلى أكثر من صوت واحد ، بدون أن تتخذ أية علامة

(١) انظر ص ٩٧ وتوابعها .
(٢) انظر آخر صفحة ٧٣ وأول ٧٤ .
(٣) انظر صفحة ٩٨ .

لتمييز الأصوات التى يرمز إليها بعضها من بعض كما يتخذ الرسم العربى فى العصر الحاضر طريقة الإعجام للتمييز بين الحروف المتحدة الصورة والمختلفة النطق كالباء والتاء والثاء والنون والياء .

٢ — ثم أخذ الرسم النبطى — وهو نوع من أنواع الرسم الآرامى كما تقدمت الإشارة إلى ذلك[(١)] — . يتغلب فى تدوين اللغة العربية على هذا الرسم القديم ، وينتقص من مناطق نفوذه ومواطن استخدامه شيئاً فشيئاً حتى قضى عليه . وذلك لأن الرسم النبطى كان يمثل حضارة من أرقى الحضارات السامية فى ذلك العهد وأوسعها نفوذاً وهى حضارة الآراميين . وأقدم أثر عربى وصل إلينا بعد هذا التطور هو نقش النمارة الذى تقدمت الإشارة إليه فى الفقرة الثالثة من هذا الفصل[(٢)] . فهو مدون بالرسم النبطى فى أشكاله الحديثة التى تتصل فيها الحروف بعضها ببعض . ويتفق هذا الرسم مع الخطوط اللحيانية والصفوية والثمودية فى اقتصاره على الرمز إلى الأصوات الساكنة فى الكلمة وفى خلوه من الإعجام .

٣ — ثم ظهر فى كتابة اللغة العربية نوع ثالث من الرسم مشتق من الرسم النبطى السابق وممثل للرسم العربى الحاضر فى أقدم أدواره . وبهذا النوع من الرسم دون نقشا زبد وحوران اللذان تقدمت الإشارة إليهما فى الفقرة الثالثة من من هذا الفصل[(٣)] . وتقرب صورة الحروف فى هذا الرسم من صورة الحروف التى نستخدمها الآن لدرجة لا يجد معها من يعرف الرسم العربى الحاضر كبير صعوبة فى قراءة كلماته . ويرجح كثير من العلماء أن هذا النوع قد اجتاز مراحل كثيرة قبل أن يستقل هذا الاستقلال عن الخط النبطى وقبل أن تكمل له هذه الصورة . غير أنه لم يعثر بعد على آثار تمثل هذه المراحل .

ويتفق هذا الرسم مع النوعين السابقين فى اقتصاره على الرمز إلى الأصوات

---

(١) انظر آخر صفحة ٦٢ وأول ٦٣ .
(٢) انظر صفحتى ١٠١ ، ١٠٢ .
(٣) انظر صفحات ١٠٢ — ١٠٤ .

الساكنة فى الكلمة وفى تجرده من الإعجام . ويظهر أنه لم يكن ليستخدم إلا فى النقوش الأثرية وما إليها .

٤ — ثم تأثر الرسم العربي بالرسم السريانى ، ودخلت فيه إصلاحات كثيرة منذ القرن السابع الميلادى . فتحول إلى خط سريع تدون به المكاتبات العادية لا النقوش وحدها كما كان شأن الرسم السابق . ودخل فيه نظام الإعجام للرمز إلى أصوات لا نظير لها فى اللغات السامية الشمالية التى نشأ فيها الخط السامى القديم (ث ذ ض ظ غ) وللتمييز بين الحروف المتحدة الصورة والمختلفة النطق (ب ت ن ى ، ج ح خ ، ر ز ، س ش ... الخ)

ولكنه ظل طوال هذه المرحلة مقتصراً على الرمز إلى الأصوات الساكنة ومجرداً من علامة للتمييز بين الحرف المشدد والمختلف .

٥ — ثم أدخل فى الرسم العربي نظام الرمز إلى أصوات المد الطويلة ، واستخدم فى ذلك ثلاثة أحرف وضعت فى الأصل للرمز إلى ثلاثة أصوات وسط بين أصوات المد والأصوات الساكنة ؛ وهى الهمزة والياء والواو . فأصبحت هذه الحروف مزدوجة الاستخدام : ترمز أحياناً إلى ما وضعت فى الأصل للرمز إليه (أكتب ، يكتب ، وعد) ، وأحياناً إلى أصوات المد الطويلة (كاتب ، دليل ، ملوك) . وأدخل فيه كذلك نظام الحركات ، وهى علامات تشير إلى تشديد الحرف وإلى تحركه بصوت مد قصير أو خلوه من الحركة . وقد استخدم فى ذلك طريقتان . إحداهما تشبه الطريقة السريانية النسطورية ، فتستخدم النقط للرمز إلى هذه الأمور ؛ وهذه الطريقة لم يتح لها الانتشار ولا البقاء أمداً طويلا . وثانيتهما ظهرت حوالى القرن الثامن من الميلاد وشاع استخدامها وسار العمل عليها إلى وقتنا الحاضر . وهى تشبه الطريقة السريانية اليعقوبية ، فترمز إلى هذه الأمور بحروف أو أجزاء من حروف يرسم بعضها فوق الحرف و بعضها تحته (فالفتحة ألف ترسم مستعرضة فوق الحرف ، والكسرة ياء راجعة ترسم تحته ،

والضمة واو ترسم فوقه ، والسكون هاء ترسم فوقه كذلك ؛ والشدة هى الجزء الأول من السين أو الشين ، يرسم فوق الحرف للإشارة إلى أنه يرمز إلى صوتين متحدين أولهما ساكن) . وينسب مؤرخو العرب اختراع هذه الطريقة الأخيرة إلى أبى الأسود الدؤلى المتوفى سنة ٦٩ هـ الموافقة لسنة ٦٨٨ ميلادية . ومهما يكن من مبلغ الصحة فى هذه النسبة ، فمن المقطوع به أن معظم هذه الإصلاحات قد دخل الرسم العربى فى القرن الأول للهجرة .

غير أنه يظهر أن إصلاحات هـذه المرحلة و إصلاحات المرحلة السابقة لم تكن قد كملت بعد فى العهد الذى رسم فيه المصحف العثمانى ، أو لم يكن استخدامها قد انتشر حينئذ كل الانتشار ، أو لم يكن الصحابة ممن رسموا المصحف على علم تام بها[1] ، أو أنهم قد تحرجـوا من إدخالها فى رسم القرآن : فجاءت المصاحف العثمانية مجردة من الإعجام والشكل ؛ ورسمت فيها حروف كثيرة بصورة مضطربة خاطئة ، كزيادة الياء فى « بأييد » ، والألف فى « لا أذبحنه » و « لا أوضعوا خلالـكم » ، والواو فى « جزاؤ الظالمين » ؛ وحذفت منها الألف فى كثير من الـكلمات (الرحمن ، السموات ، يُقَتِلونـكم ، للـكفرين ، ميثقـكم ، بالظلمين ، استطعوا ، وهاجروا وجهدوا ، ومنفع للناس ، اليتمى ، فتنين ... الخ) ؛ ورسم فيها بعض التاءات المربوطة مفتوحة (نعمت الله ... الخ) ؛ واستبدلت فيها حروف بحروف أخرى (والله يقبض و يبصط و إليه ترجعون)[2] .

---

(١) وإلى هذا يميل ابن خلدون إذ يقول : « فكان الخط العربي لأول الإسـلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع . وانظر ما وقع لأجل ذلك فى رسمهم المصحف ، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير مستحكمة فى الإجادة ، فخالف الـكثير من رسومهم ما اقتضته صناعة الخط عند أهلها ، ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسم أصحاب الرسول ... » (مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٠ « علوم القرآن من التفسير والقراءات ») .

(٢) لـكثرة ما يختلف فيه المصحف العثمانى عن الرسم العادى ، وللحرص على حصر مواطن هذا الخلاف والإبقاء عليها تبركا بما رسم الصحابه ، ألف العلماء فى ذلك مولفات كثيرة من أشهرها كتاب المقنع لأبى عمرو الداني من علماء المغرب (انظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٠ « علوم القرآن من التفسير والقراءات ») .

ولم يدخل الإعجام والشكل فى رسم المصاحف إلا فى عصر متأخر ، بعد أن كثرت الأخطاء وشعر الناس بشدة الحاجة إلى الضبط . وكانوا فى المبدأ يتحرجون من زيادة شيء على أحرف القرآن حسب ما وردت فى المصحف العثمانى . ولذلك كانوا يدونون الأصل بلون من المداد ، والحركات وما إليها بلون آخر . ولكنهم لم يجدوا بأساً من رسم النقط التى تميز الحروف المتحده الصورة (ب ت ث ... الخ) بالمداد نفسه الذى تكتب به الحروف ؛ لأن هذه النقط لم تكن معتبرة زائدة عن الأصل ، بل مجرد علامات مميزة له . وفيما عدا الإعجام والشكل ، ظلت المصاحف إلى يومنا هذا محافظة على ما ورد فى رسم المصحف العثمانى تبركا به[1] .

وأقدم أثر إسلامى منقوش وصل إلينا متضمناً بعض مظاهر من الإصلاحات التي أدخلت على الرسم العربى فى المرحلتين الأخيرتين هو حجر كشف فى مصر ومحفوظ الآن بدار الآثار العربية . وتدل عبارته على أنه كان نُصبا على قبر رجل يدعى عبد الرحمن بن خير أو جبر أو جابر أو جبير الحجرى أو الحجازى . ويرجع تاريخه إلى سنة ٣١ للهجرة . فمن المحتمل إذن أن يكون القبر لجندى من جنود عمرو بن العاص أو لعربى من المهاجرين الأولين إلى مصر من مسلمى العرب . وفيما يلى نص هذا النقش[2] :

١ — بسم الله الرحمن الرحيم هذا القبر

---

(١) وكان العرب حين ظهور الإسلام يكتبون على الأديم الأحمر وعسيب النخل والعظام والخزف والحجر الأبيض والخشب . ثم استخدم الرق حينما اشتدت الحاجة إلى نقل المصاحف . وبعد اتصال العرب بأهل سورية استعملوا القرطاس الشامى الذى كان من أهم مواد الكتابة فى العصر العباسى . وفى نهاية القرن الثانى للهجرة شاع استعمال الورق فى أشكاله القديمة . أما استعمال الورق الغربى فلم ينتشر فى الشرق إلا فى نهاية القرون الوسطى .

(٢) نقلنا هذه الصورة عن كتاب الدكتور ولفنسن « تاريخ اللغات السامية » بعد مقابلتها بالأصل ، وإصلاح ما ورد فيها من خطأ ، ومع ملاحظة تعقيبات الأستاذ ليتمان المدونة بصفحة ٢٧٩ من هذا الكتاب . ولم نزد على أصل النقش إلا إعجام الحروف التى وردت مهملة فيه .

٢ — لعبد الرحمن[١] بن خير[٢] الحجرى[٣] اللهم اغفر له

٣ — وأدخله فى رحمة منك واتنا معه

٤ — استغفر له إذا قرأ هذا الـكتب

٥ — وقل امين وكتب هذا

٦ — لـكتب (الـكتاب) فى جمدى (جمادى) الا

٧ — خر (الآخرة) من سنت (سنة) احدى و

٨ — ثلثين (وثلاثين) .

* * *

هذا ، ويستخدم الرسم العربي فى العصر الحاضر عند جميع الأمم الناطقـة بالعربية ، ما عدا أهل مالطة فلهجتهم ترسم بحروف لاتينية كما تقدم بيان ذلك[٤] .

وقد استخدم الرسم العربى كذلك فى تدوين لغات أخرى غير العربية : كالفارسية والتركية (قبل التغيير الأخير) ولغة مدغشقر وزنجبار و بعض اللغات الهندية . واستخدم الرسم العربى كذلك فى تدوين اللغة الإسبانية عند بعض الطوائف

---

(١) ورد مكان هذا الاسم بكتاب الدكتور ولفنسن اسم « عبد الله » وتكرر هذا مرتين : مع أن كلمة « عبد الرحمن » واضحة فى النقش كل الوضوح .

(٢) وردت هذه الـكلمة وكلمات أخرى كثيرة فى هذا النقش مجردة من الإعجام والرمز إلى أصوات المد الطويلة ؛ ولذلك قرئت على أوجه كثيرة . فالأستاذ فييت مدير دار الآثار العربية بمصر قرأها « خير » بفتح الخاء وتشديد الياء المكسورة ؛ ويرى الأستاذ ولفنسن أنه يمكن قراءتها « جبر » بفتح الجيم وسكون الباء ؛ ويرى الأستاذ ليتمان أنه يمكن قراءتها « جابر » أو « جبار » أو « جبير » . وعقب على ذلك ليتمان بما نصه : « وهذا النقش الخطير يستحق أن يبحث عن صاحبه . وكنت قد عثرت على اسم شخص معاصر لعمرو بن العاص هو عبد الرحمن بن جبير فى كتاب فتوح مصر لعبد الحـكم . فليس بعيداً أن يكون هو صاحب هذا النقش . — انظرص ٢٧٩ من كتاب ولفنسن « تاريخ اللغات السامية » .

(٣) قرأ الأستاذ فييت هذه الـكلمة « الحجرى » . ويرجح الدكتور ولفنسن أنها « الحجازى » . والسبب فى هذا الخلاف هو تجرد الـكلمة فى النقش من الإعجام ومن الإشارة إلى أصوات المد الطويلة .

(٤) انظر آخر صفحة ١٧١ .

التي امتزج بدمائها الدم العربى أو انحدرت من سلالات عربية . ويطلقون على هذا الرسم اسم « الجاميا » أو « الجاميادو » algamia, algamiado [(١)].

وقد دونت بعض مؤلفات عربية برسم غير عربى : فدونت بعض مؤلفات اليهود العربية برسم عبرى ؛ وبعض الكتب العربية القديمة برسم سريانى اشتهر باسم الهارسونى harsuni [(٢)].

(٢٠) عيوب الرسم العربى ووجوه إصلاحه

١ — عيوب الرسم العربى :

ترجع أهم عيوب الرسم العربى إلى أمور ثلاثة :

(أحدها) أن الكلمات تدون غالباً بحسب هذا الرسم فى الكتابة والطبع عارية عن حركات حروفها ، أى مجردة من الإشارة إلى أصوات المد القصيرة (الفتحة والكسرة والضمة) التى تلحق الأصوات المقطعية فى الكلمة .

وهذا النقص مشترك بين معظم أنواع الرسم السامى كما تقدم بيان ذلك . ويرجع سببه إلى أمور تتعلق بأصول الكلمات فى اللغات السامية . وذلك أن للأصوات المقطعية (ونعنى بها ماعدا أصوات المد) فى اللغات السامية ، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق [(٣)] ، أهمية تزيد كثيراً على أهمية أصوات المد . فالمعنى الأساسى للكلمة يشار إليه فى هذه اللغات بالأصوات المقطعية ؛ أما أصوات المد فلا تعدو وظيفتها تحديد هذا المعنى الأساسى وتوجيهه وجهات خاصة . فالمعنى العام للعلم مثلا تدل عليه فى اللغة العربية ثلاثة أحرف مقطعية وهى العين واللام والميم ؛ أما أصوات المد الطويلة (الألف والياء والواو) والقصيرة (الفتحة والكسرة والضمة) التى تلحق

---

(١) V. Langues du Monde p. 117.

(٢) V. Langues du Monde p. 112.

(٣) انظر صفحة ٢٠ .

جميع هذه الأصوات المقطعية أو تلحق بعضها فلا تعدو وظيفتها تحديد المعنى العام للعلم ببيان نوعه أو زمنه أو ناحية اشتقاقه أو علاقته بما عداه من عناصر الجملة .. وما إلى ذلك . — هذا إلى أن الأصوات المقطعية تنال فى اللغات السامية أكبر قسط من عناية المتكلم والسامع وهى لذلك أوضح فى الجرس من أصوات المد وأظهر منها فى السمع . ولذلك وجه الرسم السامى معظم عنايته إلى إظهار هذا النوع من الأصوات . فالأشكال القديمة للرسم السامى كانت تقتصر على هذه الأصوات وتغفل الإشارة إلى جميع أصوات المد سواء فى ذلك الطويل منها والقصير . والرسم العربى الحديث يشير إلى أصوات المد الطويلة بحروف الألف والياء والواو ، ولكنه يغفل الرمز إلى أصوات المد القصيرة ، أو يشير إليها بحركات ترسم فوق الحروف أو تحتها . ولا تكاد تدون هذه الحركات فى العصر الحاضر إلا فى الكتب الأولية التى تستخدم فى تعليم النشء مبادىء القراءة والكتابة . أما فيما عدا ذلك فقد جرت العادة أن تدون الكلمات فى الكتابة والطبع عارية عن الشكل .

ومهما يكن من شىء بصدد الأسباب التى أدت إلى هذا العيب ، فقد ترتب عليه فى الوقت الحاضر أضرار كثيرة أهمها ما يلى :

١ — أنه لا يستطيع أحد أن يقرأ نصاً عربياً قراءة صحيحة ويشكل جميع حروفه شكلا صحيحاً إلا إذا كان ملماً بقواعد اللغة العربية وأوزان مفرداتها إلماماً تاماً ، وكان فاهماً من قبل معنى ما يقرؤه . ففى معظم اللغات الأوروبية ، كما يقول قاسم أمين ، يقرأ الناس قراءة صحيحة ما تقع عليه أبصارهم ، وتتخذ القراءة وسيلة للفهم ، أما نحن فلا نستطيع أن نقرأ قراءة صحيحة إلا إذا فهمنا أولا ما نريد قراءته .

٢ — أن النص العربى الواحد عرضة لأن يقرأ قراءات متعددة بعيدة عن اللغة الفصحى . وذلك لأنه قد حدث تناوب واسع النطاق فى أصوات المد القصيرة فى اللهجات العامية ، حتى أننا لا نكاد نجد كلمة باقية فى هذه اللهجات على وزنها

العربى الصحيح[1] . فالنص العربى المجرد من الشكل عرضة لأن يقرأه أهل كل لهجة حسب منهجهم فى وزن الكلمات .

٣ — أنه من المتعذر فى هذا الرسم قراءة أسماء الأعلام (أسماء الأمكنة والبلاد والجبال والبحار والأناسى ... الخ) قراءة صحيحة إلا إذا كان القارىء يحفظ الكلمة وضبطها من قبل . ولذلك تضطر بعض المعجمات إلى تهجى حروف الكلمات التى من هذا القبيل والنص على حركة كل حرف منها . فيقول مثلا : « صفين » بكسر الصاد المهملة وتشديد الفاء الموحدة بالكسر .

٤ — أن رسماً كهذا من شأنه أن يشيع اللحن ، و يعمل على انحلال العربية الفصحى ، و يحول دون تثبيت ملكتها فى النفوس ، و يحمل على الاستهانة بقواعدها ، و يصرف كثيراً من خاصة الناس أنفسهم عن الإلمام بضوابطها النحوية والصرفية ، لأن فى استطاعتهم بفضل هذا الرسم المعيب ، أن يكتبوا و يؤلفوا ، بدون أن يكونوا ملمين بأصول هذه اللغة ، ولا مستطيعين هم أنفسهم قراءة ما يكتبونه قراءة صحيحة ، و بدون أن يظهر فى كتاباتهم أى أثر لقصورهم هذا .

(وثانيها) أن للحرف الواحد بحسب هذا الرسم صوراً مختلفة : فله صورة إذا كان مفرداً ، وأخرى إذا كان متصلا بغيره ؛ وله صورة إذا كان فى أول الكلمة ، وأخرى إذا كان فى وسطها ، وثالثة إذا كان فى آخرها .

وقد ترتب على ذلك أضرار كثيرة من أهمها ما يلى :

١ — أن تعدد هذه الصور من شأنه أن يحدث الارتباك والحيرة عند المبتدئين من المتعلمين و يطيل زمن تعلمهم للكتابة .

٢ — أنه يكلف المطابع نفقات باهظة فى الحصول على عدة نماذج لكل حرف من حروف الهجاء .

٣ — أنه يخلق صعوبات فى الطبع ؛ و يرهق العمال القائمين على صف

---

(١) انظر صفحتى ١٥١ ، ١٥٢ .

الحروف من أمرهم عسرا ، إذ يتردد الواحد منهم بين أكثر من ثلثمائة صندوق مختلفة في صور ما تشتمل عليه من نماذج ، فضلا عن صناديق الشكل وعلامات الترقيم ؛ بينما لا يتردد العامل القائم على صف الحروف الإفرنجية إلا على نحو مائة صندوق .

٤ — أن كثرة الصناديق وتعدد الصور للحرف الواحد ، كل ذلك يجعل عمل هؤلاء العمال عرضة للزلل . ومن أجل هذا تكثر الأخطاء المطبعية فى الكتب العربية ؛ بينما تندر جداً فى الكتب الأفرنجية . مع أن جامعى الكتب الأولى ومصلحى تجاربها يبذلون من الجهد فى الجمع والإصلاح أضعاف ما يبذله زملاؤهم فى الكتب الثانية .

(وثالثها) أن رموز هذا الرسم تنقسم إلى طوائف تشتمل كل طائفة منها على حروف متحدة فى صورتها ، ولا يمتاز بعضها عن بعض إلا بالإعجام والإهمال أو بعدد النقط (ب ت ث ن ى ، ج ح خ ، د ذ ، ر ز .. الخ) .

وقد ترتب على ذلك أضرار كثيرة من أهمها ما يلى :

١ — أن رسم الكلمة العربية يقتضى الكاتب بعد الفراغ من كتابتها أو فى أثنائها أن يضع ما يجب وضعه من نقط فوق معظم حروفها أو تحتها . وفى هذا إسراف فى المجهود وإكثار فى العمليات التى يقوم بها القلم وفى نوعها .

٢ — أن القلم كثيراً مايزل فى تدوين هذه النقط ، فيغفل بعضها ، أو ينقص من عددها أو يزيده ، أو ينحرف بها عن مواضعها وخاصة فى الرسم السريع ؛ فتصبح الكلمة عرضة لأن تقرأ على وجوه متعددة ، ويقع القارىء فى الحيرة ، أو يضطر فى تمييز هذه الحروف المتشابهة بعضها من بعض إلى الاعتماد على فراسته وفهمه لسياق الكلام .

٣ — إن كثرة الحروف المنقوطة وخروج النقط عن هيكل الكلمة ، كل ذلك يجهد القارىء ويوقع نظره فى الارتباك . فيقرأ الكلمة على غير وجهها ، حتى مع صحة كتابتها ورسم نقطها فى مواضعها . ولا تقاء ذلك تضطر بعض الكتب

والمعجمات إلى النص على نوع الحروف التى يخشى فيها اللبس ، فتقول مثلا «جمل» بالجيم المعجمة التحتية ، و «حمل» بالحاء المهملة ، و «بيت» بالباء الموحدة التحتية فالياء المثناة التحتية ، فالتاء المثناة الفوقية .

* * *

ولا يكاد يخلو من مثل هذه العيوب ، بل مما هو أشد منها ، أى نوع من أنواع الرسم . فاللبس الذى يحدثه أحياناً الرسم العربى ليس شيئاً مذكوراً بجانب اللبس الذى يحدثه الرسم الإنجليزى مثلا ، وخاصة فى النطق بأصوات المد a,e,i,o,u : Vowels ie , io , ei , oi , ea , ee ... etc . فكثيراً ما يختلف النطق بالصوت الواحد من هذا النوع وغيره تبعاً لاختلاف الكلمات التى يرد فيها . حتى إنه لا يستطاع قراءة معظم الكلمات الإنجليزية قراءة صحيحة بمجرد النظر إلى حروفها ؛ بل لا بد فى ذلك أن يكون القارىء قد عرف نطق الكلمة من قبل عن طريق سماعها من إنجليزى ؛ كما أنه لا يستطيع كتابتها كتابة صحيحة بمجرد سماعها بل لا بد فى ذلك أن يكون قد حفظ حروفها من قبل عن ظهر قلب . وإذا كان الأوروبيون يقرءون قراءة صحيحة ، فليس سبب ذلك راجعاً إلى أن رسمهم يعبر تعبيراً دقيقاً عن أصوات الكلمة ؛ وإنما هو راجع إلى أن لغة كتابتهم لا تكاد تختلف عن لغة حديثهم ؛ فيكفى أن يُرمز للكلمة على أية صورة لينطق بها الواحد منهم على وجهها الصحيح .

* * *

ولكن وجود هذه العيوب أو ما يشبهها فى الرسم الأوروبى أو غيره لا يبرر إغفال علاجها فى الرسم العربى . وخاصة لأن اتفاق لغة الحديث مع لغة الكتابة عند الأوربيين يخفف كثيراً من آثار هذه العيوب فى رسمهم ، على حين أنها تنطوى على أضرار بليغة فى الرسم العربى فى العصر الحاضر الذى انحرفت فيه اللهجات العامية أو لهجات الحديث انحرافاً كبيراً عن اللغة الفصحى التى نستخدمها فى الكتابة .

٢٠– ما اقترحه الباحثون من قبل لإصلاح الرسم العربى :

هـذا ، وقد قدمت عدة اقتراحات لسدّ مواطن النقص السابق ذكرها . وترجع هذه الاقتراحات إلى قسمين رئيسيين : يكتفى أصحاب القسم الأول منها بإصلاحات شكلية لا تمس جوهر اللغة ولا صورة الرسم الحاضر ؛ ويرمى أصحاب القسم الثانى إلى إدخال تغيير جوهرى فى اللغة نفسها أو فى صورة رسمها .

***

أما اقتراحات القسم الأول فمن أهمها ما يلى :

١ – أن يلتزم شكل الكلمة التى من شأنها أن تثير اللبس عند أوساط المتعلمين إذا تركت من غير شكل . أما الكلمات التى يدل السياق على شكلها . أو يكفى الإلمام بمبادىء القواعد العربية للنطق بها على وجهها الصحيح ، أو لا يمكن أن ينطق بها فى صورة أخرى ، فمن العبث الالتجاء فيها إلى الشكل .

وغنى عن البيان أن هذا الاقتراح لا يقضى إلا على قليل من عيوب الرسم العربى ، ولا يقى إلا من بعض الأضرار التى أشرنا إليها آنفاً ، ولا تكاد تظهر ثمرته إلا لدى الملمين بقواعد اللغة العربية وأوزان مفرداتها .

٢ – أن يلتزم شكل جميع الحروف فى المطبوع والمكتوب . فتوضع فوق كل حرف أو تحتـه الحركة التى تدل على صوت المد القصير الذى يلحقه ؛ كما يتبع ذلك فى تعليم النشء مبادىء القراءة والكتابة .

وهذا الاقتراح لا يعالج إلا ناحية واحدة من نواحى المشكلة ، وهى الناحية المتعلقة بالرمز إلى أصوات المد القصيرة ، ويغفل ما عداها إغفالا تاماً . هذا إلى أنه يعالج هذه الناحية فى صورة تنطوى على كثير من الإسراف فى نفقات المطابع والورق وجهود القائمين على شئون الطبع ، وترهق الكاتب والقارىء من أمرهما عسرا . وفضلا عن هذا كله فإن رسم الشكل فوق الحرف أو تحته مع اتصال

الحروف بعضها ببعض وضيق الحيز الذى يشغله كل حرف منها ، يجعل هذا الشكل عرضة للانحراف ، فيحدث الارتباك ، ويوقع فى الخطأ والحيرة . على أن التجارب قد دلت على أن القلم كثيراً ما يزل فى تدوين هذه العلامات الخارجة عن هيكل الكلمة وأن النظر كثيراً ما يتخطاها عند القراءة ؛ فلا تكاد تؤدى الغرض المقصود منها .

٣ — واقترح بعضهم ادخال الشكل فى بنية الكلمة حتى لا يتخطاه نظر القارىء . وذلك بأن تخترع حروف للرمز إلى أصوات المد القصيرة (التى يرمز إليها الآن بالفتحة والكسرة والضمة) وتدون هذه الحروف فى صلب الكلمة فى مواضعها . فلتدوين كلمة (كتب) مثلا يرسم بعد كل من الكاف والتاء والباء الحرف الذى سيخترع للإشارة إلى ما تشير إليه الفتحة فى رسمنا الحاضر . وهذا هو المنهج الذى يسير عليه الرسم الأوربى Kataba . وينتصر لهذا الاقتراح عدد كبير من الباحثين على رأسهم أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد باشا(١) .

وهذه الطريقة لا تعالج كذلك إلا ناحية واحدة من نواحى المشكلة وهى الناحية المتعلقة بالرمز إلى أصوات المد القصيرة ، وتغفل ما عداها إغفالا تاماً . هذا إلى أنها تخلق لنا رسماً يختلف فى كثير من الوجوه عن رسمنا الحالى . فتقطع بذلك الصلة بين ماضينا وحاضرنا . ومن ثم توجه إليها معظم المآخذ التى سنوجهها الى المقترحات التالية .

***

(١) نشر هنا الرأى فى مجلة الموسوعات سنة ١٨٩٨ ، ثم عاد فأشار إليه فى مجلة الشئون الاجتماعية بعدد فبراير سنة ١٩٤١ . غير أنه عقب عليه فى صفحة ١١ من هذه المجلة الأخيرة بما نصه : « ولست متمسكا بالطريقة التى اقترحتها منذ زمان بعيد . ولكننى راض بأية طريقة تؤدى إلى الغاية التى ننشدها من توحيد لغة الكتابة ولغة الكلام فى الجملة ليسهل تعليمها من ناحية ولبوجد حد مشترك من اللغة بين المتعلمين وغير المتعلمين » . غير أنه يظهر لنا أن هذه الغاية التى يبغيها معالى أستاذنا لا يكاد يتحقق شىء منها بما تضمنه اقتراحه من إدخال الشكل فى رسم الكلمة ؛ وذلك أن الفائدة التى يحققها هذا الإصلاح لا تكاد تعدو تسهيل القراءة واتقاء الخطأ فى ضبط الكلمة حسب وزنها فى اللغة الفصحى .

وأما اقتراحات القسم الثانى . وهى التى ترمى إلى إدخال تغيير جوهرى فى اللغة نفسها أو فى صورة رسمها ، فيرجع أهمها إلى ما يلى :

١ — أن تستبدل الحروف اللاتينية ومناهج الرسم اللاتينى (التى ترمز إلى أصوات المد القصيرة بحروف تدون فى صلب الكلمة) بالحروف العربية ومناهج الرسم العربى . وعلى رأس القائلين بهذا الاقتراح فى الوقت الحاضر معالى الأستاذ العلامة عبد العزيز فهمى باشا . وقد نشر بشأنه منذ عهد قريب كتاباً قيما عنوانه : « الحروف اللاتينية للرسم العربى » .

ولا شك أن تطبيق هذا الاقتراح — بعد تنقيح فى بعض التفاصيل التى ذهب إليها القائلون به — كفيل بالقضاء على جميع عيوب الرسم العربى واتقاء أضرارها السابق ذكرها .

غير أنه ينطوى على ضرر آخر بليغ . وذلك أن من شأنه أن يحول ، عاجلا أو آجلا ، بين الأجيال القادمة والانتفاع بالتراث العربى المدون برسمنا الحاضر . حقاً إنه يمكن اتقاء ذلك بالالتجاء إلى إحدى محاولتين ؛ ولكن كلتيهما توقع فى صعوبة تزيد كثيراً على الصعوبة التى نعمل على إزالتها . أما إحداهما فإن يتعلم كل فرد نوعين من الرسم العربى : الرسم القديم الذى يتيح له الانتفاع بنتاج الفكر العربى من النشأة إلى العصر الحاضر ؛ والرسم الحديث الذى يقرأ به ما يدون بعد هذا الإصلاح ويستخدمه فى كتابته . ولا يخفى ما يترتب على ذلك من الارتباك ، وإطالة الزمن الذى تعلم فيه القراءة والكتابة ، وانفرادنا من بين سائر الأمم بأعجوبة فى ميادين الرسم والتعليم . وأما الأخرى فأن يعمد إلى جميع ما كتب أو طبع بالرسم العربى فى مختلف أنحاء العالم فيعاد تدوينه أو طبعه وفق هذا الرسم الحديث . ولا يخفى أن مشروعاً هذا شأنه تنوء به الجهود الإنسانية وتعجز الخزائن عن تمويله .

٢ — واقترح آخرون أن يكون لكل حرف من حروف الهجاء العربى

أربع صور مختلفة : صورة فى حالة تحركه بالفتح ؛ وأخرى فى حالة تحركه بالكسر ؛ وثالثة فى حالة تحركه بالضم ؛ ورابعة فى حالة تسكينه . وهذا فى مجمله هو المنهج الذى يسير عليه الرسم الحبشى .

وتفضل هذه الطريقة الطريقة السابقة بأنها تحقق الغرض المنشود مع إبقاء عدد حروف الكلمة على ما هى عليه ؛ فتوفر بذلك قسطاً كبيراً من الوقت والمجهود والنفقات المادية فى الورق وأجور العمال ... وما إلى ذلك من الأمور التى تقتضيها الطريقة السابقة . فكلمة « كتب » مثلا ترسم ثلاثة أحرف حسب هذه الطريقة ؛ على حين أنها ترسم ستة حسب الطريقة السابقة .

ولكنها تشتمل على الضرر البليغ نفسه الذى أشرنا إليه فى نقدنا للاقتراح السابق ، وهو قطع الصلة بين الماضى والحاضر ، وتعويق الأجيال القادمة عن الانتفاع بالتراث العربى المدون بالرسم الحالى . هذا إلى أن عدد حروف الهجاء يصبح بحسب هذه الطريقة أربعة أضعاف عددها الحاضر . ولا يخفى أن ذلك يكلف المطابع نفقات باهظة ، ويرهق العمال القائمين على صف الحروف ، ويجعل عملهم عرضة للزلل ، ويشيع الأخطاء المطبعية ، ويحدث الارتباك والحيرة عند المبتدئين من المتعلمين ، ويطيل زمن تعلمهم للهجاء .

٣ — واقترح بعضهم إلغاء الاعراب وإلزام السكون أواخر الكلمات ، حتى تضيق مسافة الخلف بين رسم الكلمة ونطقها فى اللهجات العامية المستخدمة فى المحادثة ، فتسهل على الناس القراءة ، ويتخلص الرسم من بعض عيوبه .
وقد كفانا أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد باشا مئونة الرد على هذا الاقتراح بما عقب به عليه فى مجلة الشئون الاجتماعية إذ يقول : « وهذا الرأى مطعون فيه من وجهين : أما الأول فإنه لا يحل من المسألة إلا بعضها دون البعض الآخر ، لأن ضبط حركات الحروف ليس ضروريا فى الإعراب فحسب ، بل هو أشد ضرورة فى بنية الكلمة . وهذا الضبط من جوهر اللغة ، فإذا أهملنا الشكل ولم

نأت بطريقة تقوم مقامه ظل الناس يلفظون الكلمات على غير وجهها الصحيح كما هم الآن يفعلون . وأما الوجه الثاني فإن فى هذا الرأى إهداراً لصورة اللغة العربية وقضاء على أهم مميزاتها ، وذلك مالا نظن أحد يرضاه متى أمكن تسهيل اللغة وشيوعها من غير الالتجاء إلى العبث بسلامتها ومميزاتها [١] » .

٣ — رأيي فى إصلاح الرسم العربي :

هذا ، وقد دعاني نقص الاقتراحات السابقة وعدم كفايتها إلى التفكير فى طريقه تخلص الرسم العربي من عيوبه الثلاثة جميعاً ، بدون أن تضطر القلم والنظر إلى الصعود والهبوط نحو حركات ترسم فوق الحروف أو تحتها، وتقي القارئ والكاتب شرور الانحرافات المترتبة على هذا الصعود والهبوط ، وبدون أن تقطع الصلة بين ماضينا وحاضرنا ، بل تتيح للأجيال القادمة الانتفاع بتراثنا المدون بالرسم الحالى . فاهتديت إلى طريقة يمكن تلخيص أصولها فى المبادىء الأربعة الآتية [٢] :

(المبدأ الأول) أن ترسم حروف الكلمة مفرقة منفصلا بعضها عن بعض . وبذلك يكون لكل حرف صورة واحدة لا تتغير ؛ ويتخلص الرسم من أحد عيوبه الثلاثة السابق ذكرها [٣] .

(المبدأ الثانى) أن تكتب الحروف المتحدة الصورة (ب ت ث ... الخ) بصور مختلفة يؤخذ بعضها من صورة الحرف منفرداً وبعضها من صورته متصلا

---

(١) مجلة الشئون الاجتماعية عدد فبراير سنة ١٩٤١ . هذا وكنا نود لو اقتصر أستاذنا الجليل على ما تقدم ، ولم يعقب عليه بما قد يفهم منه بعض الناس أن مثل هذه الاعتبارات لاينبغى أن تحول دون تحقيق التيسير الذى يتضمنه هذا الاقتراح .

(٢) قدمت هذه الطريقة إلى مجمع فؤاد الأول للغة العربية فى شهر أكتوبر سنة ١٩٤٤ ، ونشرتها بمجلة الرسالة فى عددها الصادر فى ٦ / ١٢ / ٤٤ . ثم أدخلت عليها بعض تعديلات وزيادات ، ونشرتها بصورتها الجديدة فى مجلة الشرق الجديد فى أعدادها الثلاثة الأولى الصادرة فى أبريل ومايو ويونية سنة ٤٥ . ثم خطر لى فيما بعد تعديلات وزيادات يسيرة أخرى وقدمت الطريقة فى آخر صورة لها (وهى الصورة التى أثبتها فى هذا الكتاب) إلى المجمع فى ٢٧ / ١ / ٤٦ .

(٣) هو العيب الثانى الذى تكلمنا عليه فى آخر صفحة ١٨٠ وأول صفحة ١٨١ .

بغيره، أو يؤخذ بعضها من صورته فى خط الرقعة و بعضها من صورته فى خط النسخ أو الثلث . وبذلك يتميز الحرف عن غيره بصورته لا بإعجامه أو إهماله أو عدد نقطه كما هو الحال الآن ؛ و يتخلص الرسم العربى من عيب آخر من عيوبه الثلاثة التى أشرنا إليها فيما سبق[١] ، بدون حاجة إلى اختراع أشكال جديدة للحروف تبعد بها عن أشكالها الحالية وتقطع الصلة بين قديمنا وحديثنا . ويمكن فى هذه الحالة أن يستغنى عن النقط ، لأن صورة الحرف ستكون كافية فى تمييزه . ولكننى مع ذلك أفضل الاحتفاظ بالنقط أو بما يحل محلها فى خط الرقعة توثيقاً للصلة بين الرسمين القديم والحديث .

وفيما يلى أنموذج للحروف الهجائية العربية وفق هذا الاقتراح . ولست متمسكا بهذا النموذج ؛ ولكننى راض بأية طريقة أخرى تحقق هذا الغرض وتقتبس صور حروفها من الرسم الحالى نفسه :

أ (لهمزة القطع)[٢] ا (لهمزة الوصل) ـا (للألف اللينة)[٣] ـب ـت ـث ج ح خـ د ـذ ر ـز س ـش ص ـض ط ـظ ع ـغ ف ـق ك ل (للام التى ينطق بها) ـل (للام الشمسية التى لا ينطق بها) م ـ ه (للهاء) ة (للتاء المربوطة) ـو (لواو المد) و (للواو التى ليست بحرف مد) ى (لياء المد) ى (للياء التى ليست حرف مد) .

(المبدأ الثالث) أن يرسم عقب كل حرف ، لا فوقه أو تحته ، ما يرمز إلى سكونه[٤] أو حركته أو تنوينه أو تشديده[٥] ؛ ما عدا الحرف المتحرك بالفتحة

---

(١) هو العيب الثالث الذى أشرنا إليه فى السطر التاسع وتوابعه من صفحة ١٨١ .

(٢) ترسم همزة القطع بهذه الصورة أياً كانت حركتها وحركة ما قبلها وأياً كان موضعها فى الكلمة . فهمزة أحمد وفئة وفؤاد ترسم كلها بهذه الصورة .

(٣) ترسم الألف اللينة بهذه الصورة مهما كان أصل الكلمة وعدد حروفها . فكلمات : دعا ، رمى ، إلى ... الخ ، ترسم ألفها على هذه الصورة .

(٤) نقصد بالحرف الساكن ما يكون ساكناً بطبعه ، لأن الحرف المتحرك إذا سكن فى النطق لعارض كالوقف عليه مثلا فى آخر الكلمة يكون حكمه حكم الحرف المتحرك .

(٥) نقصد بالحرف المشدد ما يكون مشدداً بطبعه أو مشدداً فى النطق لوقوعه بعد لام شمسية .

فلا يرمز إلى حركته لكثرة دوران الفتحة فى الكلمات العربية ، ويكون رسم الحرف غير متبوع بأية حركة علامة على أنه مفتوح ؛ وما عدا الحرف الممدود فيرسم غير متبوع بما يدل على حركته لأن حرف المد المدون بعده يدل على هذه الحركة : فالألف اللينة تدل على فتح ما قبلها ؛ وياء المد تدل على كسره ؛ وواو المد تدل على ضمه .

ويستخدم فى الرمز إلى الكسرة والضمة والسكون والتنوين والتشديد بدون التنوين أو مع التنوين العلامات نفسها التى يستخدمها الرسم الحالى ، مع تمييز الفتحتين عن الكسرتين بنبرة يسيرة تتصل بإحداهما .

وبذلك يتخلص الرسم العربى من ثالث عيوبه وأهمها ، وهو عدم الرمز إلى حركات الحروف ؛ بدون أن يكون فى طريقته الجديدة خروج على أوضاعه المتعارفة .

(المبدأ الرابع) ترسم علامات الترقيم وفق صورها المتعارفة الآن ، ؛ . : ؟ ! « » ( ) ما عدا الشرطتين اللتين تحصران بينهما الجملة المتعرضة فيستبدل بها القوسان ( ) حتى لا تلتبسا بالكسرة إن رسمتا بصورتهما العادية .

* * *

وتمتاز هذه الطريقة عن جميع الطرق المقترحة من قبل بالأمور الآتية :

١ — أنها تخلص الرسم العربى تخليصاً تاماً من عيوبه الثلاثة الرئيسية التى أشرنا إليها فيما سبق وتخلصه من جميع آثارها الضارة ، وتحقق جميع الفوائد المقابلة لها .

٢ — أنها تعفى القلم والنظر من الصعود والهبوط نحو حركات ترسم فوق الحروف أو تحتها ، وتقى القارىء والكاتب شرور الانحراف المترتب على هذه الحركات وأوضاعها . وذلك أن طريقتنا ترسم الحركات فى صلب الكلمة نفسها .

٣ — أنها لا تقطع الصلة بين ماضينا وحاضرنا ، ولا تحول بين الأجيال

القادمة والانتفاع بالتراث العربى المدون بالرسم القديم ، لأنها تستخدم الصور والأشكال نفسها التى يستخدمها هذا الرسم فيما عدا الفتحتين اللتين تلصق بأولهما نبرة يسيرة تمييزاً لهما عن الكسرتين . فالعالم بهذه الطريقة يستطيع مع شىء يسير جداً من التأمل والمران أن يقرأ الكتب المدونة بالرسم الحالى .

***

ولا يؤخذ على هذه الطريقة إلا أمران :

(أحدهما) أنها تطيل رسم الكلمة قليلا بالنسبة إلى رسمها القديم . ولكن ضرر هذه الإطالة ليس شيئاً مذكوراً بجانب ما تحققه من جليل الفوائد للعربية وأهلها . على أن معظم عيوب الرسم القديم قد نشأ عن مبالغته فى الاختزال والتعمية وإغفال الرمز إلى كثير من الأصوات التى ينطق بها فى الكلمة . فلا يرجى له إصلاح جدىّ إلا بالقضاء على اختزاله وتعميته واعتماده على فراسة القارىء . وهذا يستلزم حتما أن يطول رسم الكلمة حتي تكون رموزها معبرة تمام التعبير عن جميع أصواتها . هذا إلى أننا لم نأل جهداً فى تحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من الاقتصاد فى مجهود القارىء والكاتب والطابع [1] مع عدم الإخلال بالغرض المقصود وذلك بما تضمنته طريقتنا من الأصول المشار إليها فى مبدئها الثالث .

(وثانيهما) أنها ترسم حروف الكلمة متفرقة . ولكن رسم الحروف متفرقة أسلوب سليم لا غبار عليه ولا غرابة فيه . فقد سار عليه معظم أنواع الرسم السامى (الفينيقى والعبرى والآرامى والحبشى واليمنى ...) ، وسار عليه الرسم العربى نفسه فى أقدم صوره ، ويسير عليه الآن الرسم الأوروبى فى الطباعة ؛ بل لقد أخذ هذا الأسلوب ، منذ أمد غير قصير ، ينفذ إلى أقلام الكاتبين باللغات الإفرنجية ،

---

(١) تبلغ صناديق المطبعة بحسب الطريقة القديمة ٣٦٦ قسما للحروف البسيطة غير المشكلة ؛ وأكثر من ضعف ذلك للحروف المشكلة (قاعدة شامية) بينما تبلغ بحسب طريقتنا ٥٤ فقط للحروف والشكل والترقيم معاً (٣٤ للحروف و ١٢ للشكل و ٨ لعلامات الترقيم) . فالصناديق فى طريقتنا تقل أقسامها حتى عن صناديق المطابع الأفرنجية نفسها التى تبلغ أقسامها ١٠٩ .

وأخذت مدارس كثيرة تسير عليه فى تعليم الهجاء الإفرنجى وتأخذ تلاميذها به فى كتاباتهم . وقد رأيت بعد تفكير طويل أن هذا الأسلوب وحده هو الكفيل بتخليص الرسم العربى من عيوبه وتحقيق الغايات التى نرمى إليها على أحسن وجه وأكمله. فبفضله نستطيع أن نرمز إلى أصوات المد القصيرة (الحركات) بعلامات ترسم فى هيكل الكلمة لا فوق حروفها أو تحتها ؛ وبفضله يصبح لكل حرف صورة واحدة لا تتغير مهما كانت حركته وكان موضعه فى الكلمة ؛ وبفضله تختلف أشكال الحروف بعضها عن بعض فيتميز كل حرف منها عن غيره بحسب صورته لا بحسب إعجامه أو إهماله أو عدد نقطه .

صحيح أن من اعتاد الرسم والقراءة على الطريقة القديمة التى تقوم على الاختزال ووصل الحروف بعضها ببعض سيعانى بعض العنت فى السير على هذه الطريقة المرسلة المتفرقة الحروف . ولكن قليلا من المران كفيل بتخفيف هذا العنت وإزالته . على أن عبأه سيكون مقصوراً على أهل الجيل الحاضر ممن تعلموا على الطريقة القديمة . وأمر كهذا لا يقام له وزن بجانب ما تحققه الطريقة المقترحة من تقويم للألسنة والأقلام ، وصيانة للعربية الفصحى ، وتسهيل فى طرق تعلمها وتعليمها ، وتثبيت لملكتها فى النفوس ، وتمكين كل فرد من قراءة أية عبارة قراءة صحيحة مهما كانت درجته فى العلم ضئيلة ، ومهما كان ضعيفاً فى مبلغ إلمامه بقواعد اللغة .

(٢١) مخارج الأصوات العربية وصفاتها

للأصوات العربية نحو خمسة عشر مخرجا ، وهى :

(١ — ٤) المخارج الجوفية والحلقية ؛ وعددها أربعة مخارج . — الجوف مع الحلق لأحرف المد الثلاثة ؛ فهى تخرج من الصدر والحلق وتنتهى إلى خارج الفم . — وأقصى الحلق للهمزة والهاء ؛ والهمزة أدخل فى ذلك من الهاء . — ووسط

الحلق للعين والحاء ؛ والعين أدخل فى ذلك من الحاء . — وأدنى الحلق للغين والخاء ؛ والغين أدخل فى ذلك من الخاء .

فالصدر مع الحلق يتكون منهما مخرج لثلاثة أصوات ، والحلق وحده يشتمل على ثلاثة مخارج لكل مخرج منهما صوتان .

(٥—١٣) المخارج اللسانية ؛ وهى تسعة مخارج . — أقصى اللسان مع ما فوقه من الحنك للقاف والكاف ؛ غير أن الكاف أسفل من القاف وأقرب منها إلى الفم . — ووسطه مع ما يقابله من أعلى الحنك للجيم والشين والياء التى ليست حرف مد ؛ غير أن الجيم أبعدها عن الفم والياء أقربها إليه . — وجانبه مع الأضراس الطواحن الثلاث للضاد . — وجانب طرفه الواقع بعد مخرج الضاد إلى منتهاه مع ما يقابل هذا الجانب من الحنك للاّم . — وظهر طرفه مع لثة الثنيتين العليين للراء . — وظهر طرفه مع لثة الثنيتين العليين ومع الخيشوم للنون (فالمخرج اللسانى للراء والنون واحد ، غير أن الراء أدخل فى ظهر اللسان من النون ولا تعتمد على الخيشوم كما تعتمد عليه النون) . — وفوق طرفه مع أصول الثنيتين العليين للتاء والدال والطاء . — وفوق طرفه مع طرف الثنيتين العليين للثاء والذال والظاء . — وفوق طرفه مع الثنيتين السفليين للصاد والسين والزاى .

فللسان ثمانية عشر صوتاً موزعة على تسعة مخارج .

(١٤ ، ١٥) المخارج الشفوية ؛ وعددها مخرجان . — باطن الشفة السفلى مع طرف الثنيتين العليين للفاء . — وما بين الشفتين للباء والميم والواو التى ليست حرف مد ؛ غير أن الواو تخرج من بين الشفتين مع انفتاحهما ، والميم والباء تخرجان مع انطباقهما . وتختلف الميم عن الباء فى أن الأولى تعتمد على الخيشوم فى حين أن الثانية لا تعتمد عليه .

هذا ، والوسيلة السريعة لمعرفة مخرج أى صوت هى أن تأتى بهمزة قبله ثم

ينطق به ساكناً أو مشدداً ، فحيث ينقطع الصوت يكون مخرج الحرف [١] .

***

وأما صفات الأصوات العربية فترجع إلى ثلاث عشرة صفة :

(١ ، ٢) الجهر والهمس . ويقصد بالجهر قوة اعتماد الصوت على مكان خروجه فيمتنع جريان النفس معه ؛ ويقصد بالهمس ضد ذلك ، أى ضعف اعتماد الصوت على مكان خروجه فيجرى معه النفس . والأصوات المهموسة عشرة يجمعها قولك : « فحثه شخص سكت » . والأصوات المجهورة ما عداها وهى تسعة عشر صوتاً .

(٣ — ٥) الشدة والرخاوة والتوسط بينهما . ويقصد بالشدة تمام انحصار الصوت عند إسكانه ، وبالرخاوة تمام جريه عند إسكانه ، والتوسط هو منزلة بين تمام الانحصار وتمام الجرى . وحروف الشدة ثمانية يجمعها قولك . «أجدك قطبت» . ومن هذه الحروف الثمانية خمسة حروف تسمى أحرف القلقلة إذا كانت ساكنة ويجمعها قولك « قطبجد » . وحروف التوسط ثمانية كذلك ، يجمعها قولك « لم يروعنا » . وحروف الرخاوة ما عدا ذلك .

(٦ و ٧) الإطباق والانفتاح . الإطباق هو انحصار الصوت بين اللسان وما يحاذيه من الحنك نتيجة لانطباق اللسان على الحنك . والانفتاح ضد الإطباق ، وأحرف الإطباق أربعة وهى الصاد والضاد والطاء والظاء . وأحرف الانفتاح ما عدا ذلك .

---

(١) استخدم المحدثون للوقوف على مخارج الحروف فى صورة دقيقة أجهزة خاصة تكلمنا عنها بتفصيل فى صفحات ٣٨ — ٤١ من الطبعة الثالثة لكتابنا « علم اللغة » .

أنظر كذلك فى موضوع مخارج الحروف ، وسبب حدوث الصوت ، وتشريح الحنجرة واللسان ، والأسباب الجزئية لكل حرف من حروف العرب ، ولبعض الحروف غير العربية وما يشبه الحروف من الأصوات التى تحدثها الأفعال عند وقوعها ، انظر فى هذا كله بحثا طريفا للرئيس ابن سينا عنوانه «أسباب حدوث الحروف» (نسخه وصححه ووقف على طبعه الأستاذ محب الدين الخطيب نقلا عن نسخة المتحف البريطاني والخزانة التيمورية وطبع فى المطبعة السلفية ، الطبعة الثانية ١٣٥٢ هـ) .

(٨ ، ٩) الاستعلاء والانخفاض أو الاستفال . الاستعلاء هو الصعود والارتفاع فى أعلى الحنك ، والانخفاض أو الاستفال ضده . وحروف الاستعلاء هى حروف الإطباق والخاء والغين والقاف . وحروف الانخفاض هى ماعدا ذلك .

(١٠ ، ١١) الذلاقة والصمت أو الإصمات . الذلاقة هى خفة الصوت والصمت ضده . وحروف الذلاقة ستة يجمعها قولك : « مر بنفل » . والسبب فى خفة هذه الحروف أن ثلاثة منها من طرف اللسان وهى اللام والراء والنون ، وثلاثة من الشفة وهى الفاء والباء والميم [١] . وحروف الصمت هى ما عدا ذلك .

(١٢) الصفير وهو صوت يشبه صفير الطائر يحدثه الهواء الخارج من الفم عند النطق بحروف الصاد والسين والزاى .

(١٣) اللين وهى صفة حروف المد الثلاث (الألف والياء والواو) .

(٢٢) العلاقات بين أصوات الكلمات العربية ومعانيها

محاكاة الأصوات ، الاشتقاق وأنواعه

تبدو فى اللغة العربية بعض روابط بين أصوات كثير من الكلمات وما تدل عليه . وترجع أهم هذه الروابط إلى الطائفتين الآتيتين :

١ — روابط طبيعية أساسها محاكاة الأصوات . فكثير من الكلمات الدالة على أصوات الإنسان والحيوان والأشياء ، و بعض الكلمات الدالة على الأفعال التى يحدثها الإنسان أوغيره ، تحاكى أصواتها فى صورة ما أصوات الظواهر التى تعبر عنها .

(ا) فمن الكلمات الدالة على أصوات الإنسان : القهقهة ، والتمطق (حكاية صوت المتذوق إذا صوّت باللسان) ، والدندنة (كلام تسمع نغمه ولا تفهمه) ، والتغمغم (الصوت بالكلام الذى لا يبين) ، والضوضاء (اختلاط الأصوات) ،

(١) لا توجد كلمة عربية الأصل رباعية أو خماسية خالية من حروف الزيادة إلا وهى مشتملة على حرف أو أكثر من حروف الذلاقة . فمتى وجدت كلمة من هذه الطائفة مجردة من حروف الذلاقة حكم بأنها دخيلة فى كلام العرب .

والصراخ ، والزعقة ، والنحنحة ، والتنحنح ، والهمهمة (صوت يخرجه تردد الزفير) والرّنين (الصوت الرّقيق يخرجه المريض) ، والزّفير ، والشهيق ، والتأوّه ، والحشرجة ، والفخيخ (الصوت الضعيف للنائم) ، والغطيط (صوته القويّ) ، والشخير ، والاصطكاك ، والقرقعة ، والكرير (صوت يخرجه المجهود والمختنق) ، والقرقرة (صوت يخرج من الأمعاء) ... وما تصرف من هذه الكلمات وما إليها مثل قهقه ودندن وتنحنح وزفر وشهق وتأوّه وغطّ ... وهلم جرا .

(ب) ومن الكلمات الدالة على أصوات الحيوان : رغاء الناقة و بغامها ، وهدير الجمل وقرقرته ، وصهيل الفرس وضبحه إذا عدا وحمحمته عند الجوع والاستئناس ، وشحيح البغل ، ونهيق الحمار ، وخوار البقر ، وثغاء الغنم ، وزئير الأسد ، وعواء الذئب وتضوره وتلعلعه عند جوعه ، ونباح الكلب وضغاؤه إذا جاع ، ووقوقته إذا خاف ، وهريره إذا أنكر شيئاً أو كرهه ، وضباح الثعلب ، ومواء الهرة ، وصرصرة البازى ، وقعقعة الصقر ، وهدير الحمام ، وسجع القمرى ، وزقزقة العصفور ، ونعيق الغراب ، وفحيح الحيات بفيها ، وكشيشها بجلدها ، وحفيفها عند تحرش بعضها ببعض إذا انسابت ، ونقيق الضفدع ، وطنين الذباب ، والبعوض ... وما تصرف من هذه الكلمات وما إليها ، مثل هدر وقرقر وصهل وحمحم ونهق وزأر وعوى وتلعلع ونبح وزقزق ونعق ... وهلم جرا .

(ح) ومن الكلمات الدلة على أصوات الأشياء : الخرير للماء ، والقرقرة (صوت الآنية إذا استخرج منها الشراب) ، والنشيش (صوت غليان الشراب) ، والشخب (صوت اللبن عند حلبه) ، والحسيس والمعمعة (صوت النار) ، والأزيز (صوت المرجل عند الغليان) ، وهزيز الرّيح ، وهزيم الرعد ، وجعجعة الرحى ، وصرير القلم والباب ، وقلقلة القفل ، وخفق النعل ... وما تصرف من هذه الكلمات مثل خر وقرقر وجعجع وخفق ... وهلم جرا .

(ى) ومن الكلمات الدالة على الأفعال التى يحدثها الإنسان أو غيره : القطع

والقطف والقطم والقضم والقط والقد ، والفرى والفرز ، والكسر والدق والقرع والهد ... وما تصرف من هذه الكلمات مثل قطع وقطف وقضم وقطم ودق وكسر وقرع وهد ... وهلم جرا[١]. — وقد لوحظ أن المعنى العام فى كثير من هذه الأفعال وما إليها يتوقف على صوتين فقط من أصوات الفعل الثلاثة وأن الصوت الثالث تقتصر وظيفته على تحديد هذا المعنى العام وتوجيهه وجهات خاصة . فالمعنى العام للتفرقة مثلا يؤدى فى العربية بصوتى الفاء والراء ؛ ويضاف إلى هذين الصوتين صوت ثالث يشار به إلى نوع التفرقة والمادة التى حدثت فيها : فرى ، فرم ، فرض (فرض الخشبة حزها) ، فرص (للفضة) ، فرث (للكرش وما إليه) ، فرج ، فرق ، فرز ... الخ . والمعنى العام للقطع يؤدى بصوتى قاف وطاء (أو صوت قريب من الطاء كالدال والضاد) ؛ ويضاف إلى هذين الصوتين صوت ثالث يشار به إلى نوع القطع والمادة التى حدث فيها : قطع ، قطف ، قطم ، (عض وذاق أو قطع) ، قضم ، قطّ (قط القلم قطع رأسه عرضاً) ، قدّ (قد القميص قطعه) ... الخ . والصوتان اللذان يدلان على المعنى العام فى هذه الطائفة من الأفعال يمثلان فى الغالب ، فى صورة ما ، صوت الفعل ، أى مايحدثه الفعل نفسه من صوت عند وقوعه[٢].

* * *

والعلاقة الطبيعية التى توجد فى هذه الطوائف الأربع بين أصوات الكلمة العربية ومدلولها يوجد مثلها فى جميع اللغات . ويرجع السبب فى هذه العلاقة إلى النشأة الأولى للغة الإنسان . فالرأى الراجح أن اللغة الإنسانية قد نشأت من محاكاة الإنسان للأصوات التى تصدر من الحيوانات والأشياء وللأصوات التى

(١) انظر أمثلة أخرى لهذه الطائفة والطوائف الثلاث السابقة فى الباب العشرين من كتاب فقه اللغة للثعالبى صفحات ٢٠٢ — ٢١٦ .

(٢) أنظر صفحة ١٧ .

تحدثها الأفعال عند وقوعها(١) . فلا غرابة إذن أن يبقى فى كل لغة بعض كلمات تمثل الأصل الأول الذى انحدرت منه اللغات .

٢ — علاقة وضعية غير مؤسسة على محاكاة الأصوات . وتبدو هذه العلاقة فى مظاهر كثيرة من أهمها ما يلى :

(أ) الاشتقاق العام : يرتبط كل أصل ثلاثى فى اللغة العربية بمعنى عام وضع له ؛ فيتحقق هذا المعنى فى كل كلمة توجد فيها الأصوات الثلاثة مرتبة حسب ترتيبها فى الأصل الذى أخذت منه . فالمعنى العام للعلم مثلا وهو إدراك الشيء وظهوره ووضوحه يرتبط بأصوات العين واللام والميم ، فيتحقق فى كل كلمة توجد فيها هذه الأصوات الثلاثة مرتبة على هذه الصورة مهما تخللها أو سبقها أو لحقها من أصوات أخرى لينة أو ساكنة ، فيتحقق فى كلمات : عَلِمَ علِمنا .. أعلَمَ، نعلم.. اعلَمْ ، اعلمى... ، علِّم ، علّموا... ، يُعلِّم ، نُعلِّم... ، تعلَّم ، تعلَّموا... ، تعالم ، تعالموا ... ، عُلِم ، يُعْـلَم ... ، عِلْم ، عَلَم ، علامة ، معالم ، أعلام ، علامات ، عالم ، عليم ، علاَّمة ، عُلماء ، عَالمون ، عُلوم ... ، مُتعلِّم ، مُتعلَّم ، مُعْلَم ، مُعلِّم ، مُعلَّم ، معلوم ، عالم ، عالمون ... وهلم جرا .

وعلى هذه الرابطة يقوم أكبر قسم من متن اللغة العربية . ويطلق علماء الصرف اسم الاشتقاق على ناحية من نواحى هذه الرابطة ، وهى الناحية التى تبدو فيما يسمونه بالمشتقات (أفعال الماضى والمضارع والأمر واسم الفاعل واسم المفعول واسم الزمان واسم المكان واسم الآلة ...) . ويطلق بعض الباحثين فى فقه اللغة العربية على هذه الناحية نفسها اسم الاشتقاق الأصغر لتمييزها من الاشتقاقين الكبير والأكبر اللذين سنتكلم عنهما(٢) .

ومن أنواع هذا الاشتقاق نوعان لم يتوسع فيهما العرب كل التوسع ؛

---

(١) انظر صفحات ٩٥ — ٩٧ من الطبعة الثالثة من كتابنا « علم اللغة » .

(٢) لم يعن أحد بوضع اسم لجميع نواحى هذه الرابطة . والأفضل عندى أن يطلق عليها اسم الاشتقاق العام كما سميته فى عنوان هذه الفقرة .

ولكن رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية استخدامهما قياساً لشدة الحاجة إليهما فى مصطلحات العلوم والفنون معتمداً فى ذلك على مذهب بعض النحاة واللغويين:

(أحدهما) الاشتقاق من أسماء الأعيان . وقد استخدمه العرب فى مئات من الألفاظ ، كاشتقاقهم من أسماء الذهب والفضة والجص والزفت ... كلمات مذهب ومفضض ومجصص ومزفت ...؛ وكاشتقاقهم من أسماء الحجر والناقة والنسر والأسد و بغداد ... كلمات استحجر الطين (إذا يبس وصار كالحجر) ، واستنوق الجمل (إذا حاكى الناقة) ، واستنسر البغاث (إذا حاكى النسور) ، واستأسد الرجل (أى حاكى الأسد) ، وتبغدد (انتسب إلى بغداد أو تشبه بأهلها) ... ؛ وكاشتقاقهم من أسماء التاج والحناء والباب والبحر والعفريت والشيطان والنمر والقوس والنعل والتراب والحصباء والحطب والخشب والسماد والجورب والغل واللجام والجبن ... كلمات توّجه (إذا ألبسه التاج) ، وحناه (خضبه بالحناء) ، و بوّب الكتاب (جعله أبواباً) وباب له يبوب (صار بوّاباً له) وتبوب بواباً (اتخذه)، وأبحر (ركب البحر) ، وتعفرت وتشيطن (صار كالعفريت أوالشيطان) ، وتنمر (تشبه بالنمر)، وتقوس (صار معه قوس) وتقوس ظهره (إذا انحنى كالقوس) ، وتنعل وانتعل (لبس النعل) ، وترب المكان (كثر فيه التراب) وتربت يده وأترب (إذا افتقر والتصق بالتراب) والمتربة (الفقر المدقع) ، وحصبه (رماه بالحصباء)، وحطب واحتطب (جمع الحطب) ومكان حطيب (يكثر فيه الحطب) ، وتخشب (صار كالخشب) ، وسمد الأرض (وضع فيها السماد)، وجور به (ألبسه الجورب) ، وغله السجان (وضع الغل فى يده أو رقبته) وغلت يداه و يد مغلولة ، وألجم الدابة ، وتجبن اللبن (صار كالجبن) ... وهلم جرا .

ولكثرة استخدام العرب لهذا النوع من الاشتقاق ، وشدة الحاجة إليه فى العلوم والفنون أجاز مجمع فؤاد الأول استخدامه قياساً عند الضرورة . وفيما يلى نص

قراره بهذا الصدد : « اشتق العرب كثيراً من أسماء الأعيان[١] . والمجمع يجيز هذا الاشتقاق للضرورة فى العلوم[٢] » .

(وثانيهما) المصدر الصناعى ، وهو ما يتكون بزيادة ياء النسب والتاء على اللفظ للتعبير عن المعنى الحاصل بالمصدر . ولم يستخدم العرب هذا المصدر إلا فى بضع عشرات من الكلمات منها الجاهلية والأعرابية واللصوصية والرجولية والربوبية والألوهية والرهبانية والفروسية والأريحية . وتوسع فيه من بعدهم الفلاسفة والعلماء وبخاصة أرباب اللغة منهم كابن سيدة والزمخشرى وغيرهما .

ولشدة الحاجة إلى هذا المصدر فى التعبير عن كثير من حقائق الفلسفة والعلوم والفنون ، رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية أن يكون قياسياً وأصدر قراره التالى : « إذا أريد صنع مصدر من كلمة يزاد عليها ياء النسب والتاء[٣] » .

(ب) الاشتقاق الكبير . ترتبط بعض مجموعات ثلاثية من الأصوات ببعض المعانى ارتباطاً مطلقاً غير مقيد بترتيب ، فتدل كل مجموعة منها على المعنى المرتبط بها كيفما اختلف ترتيب أصواتها .

فمن ذلك مثلا أصوات : ج ب ر ، ق س و ، ن ج د ، ر ك ب ، س ل م .. وهلم جرا .

فأصوات : ج ب ر تدل على القوة والشدة كيفما اختلفت ترتيبها فى الكلمة .

---

(١) أورد أستاذنا المغفور له الشيخ أحمد الاسكندرى فى مجلة المجمع مئات من أسماء الأعيان التى اشتق منها العرب (الجزء الأول ٢٣٦ — ٢٦٨) ؛ وقد ذكرنا طرفا من هذه الأسماء فيما سبق .

(٢) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع ٣٦ ، ٢٣٢ — ٢٦٨ . وعلى أساس هذا القرار يجوز مثلا أن نشتق من أسماء النحاس والزرنيخ والبلور والكهرباء والمغناطيس والنشا ... كلمات منحس ومزرنخ ومبلر أو متبلر ومكهرب وممغطس ومنشا ... وأن نشتق من كلمات الماء والماس والجص ... كلمات استماه البخار إذا تحول إلى ماء واستماس الفحيم ، أى الكربون (إذا صار من ضغط طبقات الصخور ماسا) واستجص الحجر (إذا صار بالحرق جصا) . . . وهلم جرا .

(٣) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٥ ، ٢١١ — ٢١٥ .

فيوجد هذا المعنى فى جميع تراكيبها الستة وهى : جبر (جبرت العظم والفقير إذا قويتهما ، والجبروت القوة ، والجبر الأخذ بالقهر والشدة ...) ؛ وجرب (ومنه رجل مجرب إذا مارس الأمور فاشتدت شكيمته ، ومنه الجراب لأنه يحفظ ما فيه ، والشىء إذا حفظ قوى واشتد) ؛ وبجر (ومنه الأبجر والبجرة وهو القوى السرة) ؛ وبرج (ومنه البرج لقوته ومناعته ، والبرج وهو نقاء بياض العين وصفاء سوادها ومن الواضح أن ذلك يكسبها قوة) ؛ ورجب (ومنه رجبت الرجل إذا عظمته وقويت أمره ، ومنه رجب لتعظيمهم إياه عن القتال فيه ، ومنه كذلك الرُّجْبة وهو ما تسند إليه النخلة لتدعيمها وتقويتها ، والترجيب وهو ضم أعذاق النخلة إلى سعفاتها وشدها بالخوص : أنا عُذَيْقها المُرجَّب ...) ؛ وربج (ومنه الرَّبَاجى وهو الرجل يفخر بأكثر من فعله فهو يعظم نفسه ويقوى أمره) .

وأصوات ق س و تدل على القوة والاجتماع كيفما اختلف ترتيبها . فيوجد هذا المعنى فى تراكيبها الخمسة المستعملة ، وهى : قسو (ومنه القسوة وهى شدة القلب واجتماعه) ؛ وقوس (ومنه القوس لشدتها واجتماع طرفيها) ؛ ووقس (ومنه الوقس وهو ابتداء الجرب لأنه يجمع الجلد ويفلحه) ؛ ووسق (ومنه الوسق للحمل ، وذلك لاجتماعه وشدته ، ومنه كذلك استوسق الأمر أى اجتمع ، « والليل وما وسق » أى جمع) ؛ وسوق (ومنه السَّوْق لأنه استحثاث وجمع المسوق بعضه إلى بعض ، ومنه كذلك السُّوق لما فيه من جمع واختلاط وشدة) .

وأصوات ن ج د تفيد القوة كيفما اختلف ترتيبها فى الكلمة . فيتحقق هذا المعنى فى تقاليبها الخمسة المستعملة وهى : نجد (النجد والإنجاد الإعانة ، والنجد الشجاع الماضى فيما يعجز غيره ، والنجد ما أشرف من الأرض وارتفع ، وفى ارتفاعه قوة ولو لمن عليه ، والنجد القتال وفيه قوة ، والنجدة كذلك الفزع ، والفزع يغلب عنده المرء ففيه قوة) ؛ وجند (الجند العسكر والأعوان وبهم تكون القوة) ؛ وجدن (الجدن حسن الصوت وهو مما يفتخر به ويؤثر فى النفس وفى

هذا قوة ، وأجدن استغنى بعد فقر ، وفى الاستغناء قوة) ؛ ودنج (الدناج إحكام الأمر ، وإحكام الأمر يقوى به صاحبه ، وتراب دانج أى تثيره الرياح ، وإذا أثارته أثر فيها وغيرها وفى ذلك قوة) ؛ ودجن (الدجن المطر الكثير وفيه قوة ، والدجنة الظلمة ، والظلمة ترهب ففيها قوة) .

وأصوات ر ك ب تدل على الإجهاد والمشقة كيفما اختلف ترتيبها . فيوجد هذا المعنى فى جميع تراكيبها الستة ، وهى : ركب (ركب الفرس وركب متن الأخطار وركبه الدين ... تتضمن جميعها معنى الإجهاد والمشقة) ؛ وكرب (كربه الأمر غمه وأحزنه ، كرب الأرض قلبها ففيه معنى المشقة وبذل الجهد) ؛ وبرك (برك الجمل استناخ وفى ذلك مشقة وجهد) ؛ وربك (ربكه فى الطين فارتبك إذا غرسه فيه فلم يستطع التخلص منه وفى ذلك مجهدة وإرغام) ؛ وبكر (بكر بكور الغراب ، وبكر إلى الأمر ، وبكر تبكيرا أسرع وبادر وفيه معنى الجهد والمشقة) ؛ وكبر (كبر الأمر عظم ، وفى كبر الشيء وجسامته إزعاج للنفس ومشقة لها) .

وأصوات س ل م تدل على الإصحاب والملاينة كيفما اختلف ترتيبها . فيتحقق هذا المعنى فى تراكيبها الخمسة المستعملة ؛ وهى : سلم (ومنه السلامة والسليم ، وذلك أن السليم ليس فيه عيب يعترض النفس) ؛ وملس (ومنه الأملس والملساء . ولا يخفى ما فى هذه المادة من معنى الملاينة) ؛ ولمس (ومنه اللمس وهو لا يتحقق إلا إذا مرت اليد على الملموس ولم يعترضها حائل ، فمعنى الملاينة واضح فيه كل الوضوح) ؛ وسمل (السَّمْل الثوب الخلق ، وذلك لأنه ليس عليه من الوبر ما على الجديد ، فإذا مرت اليد لم يستوقفها عنه حدة المنسج ولا خشونة الملمس . والسَّمْل الماء القليل ، وفيه معنى الملاينة والضعف عن قوة المضطرب) ؛ ومسل (ومنه المسل والمسيل وهو ما يجرى فيه الماء ، ولا يخفى ما فيه من معنى الملاينة والانقياد) .

ويرجع الفضل فى توضيح هذه الطائفة من الروابط إلى ابن جنى ؛ وقد عقد لها

فصلا على حدة فى كتابه الخصائص ، وأطلق عليها اسم « الاشتقاق الأكبر[١] » . ولكن كثيراً من محدثى الباحثين يؤثرون تسميته بالاشتقاق الكبير ، و يطلقون اسم الأكبر على النوع التالى .

وقد بالغ بعضهم فى هذا النوع من الاشتقاق فزعم أنه يطرد فى معظم المواد . والحق أنه لا يبدو فى صورة واضحة إلا فى طائفة يسيرة من المواد . ومحاولة تطبيقه فى غيرها يقتضى كثيراً من التكلف والتعسف ، أو الخروج باللفظ عن مدلوله الأصلى ، أو التشبث بملابسات ضعيفة واهية . وقد وضع هذا الأمر فى نصابه جلال الدين السيوطى فى كتابه « المزهر » إذ يقول : « وهذا الاشتقاق ليس معتمداً فى اللغة ولا يصح أن يستنبط به اشتقاق فى لغة العرب . . . هذا إلى أن حروف اللغة العربية قليلة وأنواع المعانى المتفاهمة لا تكاد تتناهى . . . فلو خصوا كل معنى بحروف معينة فلم يدلوا مثلا على معنى الإكرام والتعظيم إلا بما ليس فيه شىء من حروف الإيلام والضرب لمنافاتهما لهما لضاق نطاق الأمر ولاحتاجوا إلى ألوف حروف لا يجدونها[٢] . . . ففى اعتبار المادة دون هيئة التركيب من فساد اللغة ما بينت لك . ولا ينكر مع ذلك أن يكون بين بعض التراكيب المتحدة معنى مشترك بينها هو جنس لأنواع موضوعاتها ؛ ولكن التحيل على ذلك فى جميع مواد التركيبات كطلب لعنقاء مغرب . ولم تحمل الأوضاع البشرية إلا على

---

(١) انظر الخصائص صفحات ٤ — ١٥ ، ٥٢٥ — ٥٣١ . وقد اعترف ابن جنى أن أستاذه أبا على الفارسى (المتوفى سنة ٣٧٧ هـ) قد فطن من قبله إلى هذه الروابط ولكنه لم يتوسع فى شرحها ولم يضع لها اسما خاصا ، وفى ذلك يقول : « هذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا ، غير أن أبا على رحمه الله كان يستعين به ويخلد إليه مع إعواز الاشتقاق الأصغر ، لكنه مع هذا لم يسمه ... وإنما هذا التلقيب لنا نحن ... الخ » . ويظهر أن الخليل نفسه (المتوفى سنة ١٧٥ هـ) قد فطن إلى هذا من قبل الفارسى .

(٢) الصواب أن يقول : « فلو خصوا كل معنى بحروف معينة ، فلم يدلوا مثلا على معنى الإكرام والتعظيم إلا بكلمة لا تجتمع حروفها الثلاثة فى أى أصل يدل على معنى آخر مناف لهذا المعنى لضاق نطاق الأمر ولاحتاجوا إلى ألوف حروف لا يجدونها » . — وذلك لأن وجود حرف أو حرفين من كلمة تدل على معنى ما فى كلمة أخرى تدل على معنى آخر لا يتعارض مع نظرية ابن جنى .

فهوم قريبة غير غامضة على البديهة . فذلك أن الاشتقاقات البعيدة جداً لا يقبلها المحققون[١] » .

(ح) الاشتقاق الأكبر : ترتبط بعض مجموعات ثلاثية من الأصوات ببعض المعانى ارتباطاً غير مقيد بنفس الأصوات بل بنوعها العام وترتيبها فحسب ، فتدل كل مجموعة منها على المعنى المرتبطة به متى وردت مرتبة حسب ترتيبها فى الأصل ، سواء أبقيت الأصوات ذاتها أم استبدل بها أو ببعضها أصوات أخرى متفقة معها فى النوع . ونعنى بالاتفاق فى النوع أن يتقارب الصوتان فى المخرج أو يتحدا فى جميع الصفات ما عدا الإطباق[٢] .

فمن أمثلة التقارب فى المخرج تناوب الميم والنون فى مثل امتقع لونه وانتقع ؛ واللام والنون فى مثل أسود حالك وحانك وفلان خامل الذكر وخامنه ؛ والراء واللام فى مثل هدر الحمام وهدل ؛ والواو والميم فى مثل أوشاج وأمشاج أى ضروب مختلطة متداخلة ؛ والباء والميم فى مثل ضربة لازب وضربة لازم وكبحت الفرس وكمحته ؛ والباء والدال فى مثلى قاب قوسين وقاد قوسين ؛ والهمزة والهاء فى مثل درأ عنه ودره[٣] ؛ والعين والحاء فى مثل بعثرت المتاع وبحثرته ؛ والقاف والكاف فى مثل القهبة والكهبة (وهى البياض الضارب إلى الغبرة) وكشط الجلد وقشطه ؛ والسين والثاء فى مثل ساخت الأرض وثاخت ؛ والفاء والثاء فى مثل فوم وثوم[٤] ، وثروة وفروة أى مال كثير ؛ والصاد والضاد فى مثل ناض وناص إذا تحرك[٥] .

ومن أمثلة الاتفاق في الصفات ما عدا الإطباق تناوب الصاد والسين فى مثل ساطع وصاطع ، والصراط والسراط ، وسخره فى العمل وصخره ، وخطيب مسقع

---

(١) المزهر جزء أول صفحتى ١٦٤، ١٦٥ بتلخيص وتصرف فى العبارة . انظر كذلك فى هذا الموضوع مجلة المجمع اللغوى الجزء الأول ٣٨١ وتوابعها والجزء الثانى ١٩٩ـ٢٠١، ٢٤٥ـ٢٥٥ .

(٢) انظر فى مخارج الحروف وصفاتها صفحات ١٩١ — ١٩٤ .

(٣) ومن هذا أخذ المدره وهو لسان القوم ونائبهم الذى يتكلم عنهم .

(٤) وقد قرىء بهما قوله تعالى « وفومها وعدسها . . . » الآية .

(٥) ومنه قوله تعالى ولات حين مناس .

ومصقع ، وصقر وسقر ، والصدغ والسدغ[١] .

ويرجع السبب فى كثير من ظواهر هذا التناوب إلى اختلاف القبائل فى النطق بأصوات الكلمة . فمادة كشط مثلا كانت تنطقها قريش بالكاف على حين أن أسداً وتميما كانت تنطقها بالقاف .

وقد يختلف فى هذا الباب مدلولا الكلمتين أحدهما عن الآخر ببعض الاختلاف مع بقاء المعنى العام للمادة مشتركا فيهما . فمن ذلك أزّ وهز ؛ وعسف وأسف ؛ وقرم وقلم ؛ وجرف وجلف وجنف ؛ وغرب وغرف ؛ وجبل وجبن وجبر ؛ وغدر وختل ... وهلم جرا . — فالأزّ معناه الإزعاج والإقلاق[٢] ، فهو مشترك مع الهزّ فى المعنى العام للمادة ؛ وإن كان أقوى منه فى الدلالة على هذا المعنى وأعظم منه وقعاً فى النفس عندما يراد التعبير عن آثار نفسية ذات بال . — والأسف يشترك مع العسف فى أنه يعسف النفس وينال منها ؛ ولكنه أقوى فى هذا المعنى من العسف . — والقَرْمة الفقرة تُحَزّ على أنف البعير ؛ وقريب منه قلمت الظفر ، لأن هذا انتقاص للظفر وذاك انتقاص للجلد . — وجرف الشىء كسحه وأزاله ؛ وجلف القلم أزال جلفته ؛ وجنف جنفا ظلم ومال عن الحق : ففى هذه المواد معنى الانحراف والميل ، وإن اختلف بعضها عن بعض فى مواطن استعمالها وما تطلق عليه . — وغرف الماء واغترفه إذا أخذه من مكانه ؛ والغرب دلو عظيمة يغرف بها من الماء : فالكلمتان تشتركان فى المعنى العام لهذه المادة . — وتستعمل تراكيب جبل وجبن وجبر فى معانى الالتئام والتماسك ، وأن اختلفت المعانى الخاصة باختلاف التراكيب : فالجبل فيه معنى الشدة والقوة والالتئام ؛ وجبن الرجل إذا استمسك وتوقف وتجمع ؛ والجبن المأكول فيه تماسك العناصر وتجمعها والتئامها ؛ وجبرت العظم ونحوه إذا لأمته فالتأم وتماسكت أجزاؤه . والغدر

---

(١) وذلك لاتفاق السين والصاد فى الهمس والصفير والرخاوة . وقد كثر فى العربية هذا التناوب إذا وقع بعد السين خاء أو طاء أو عين أو غين أو قاف .

(٢) ومن هذا قوله تعالى « ... إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا » .

والختل يتفقان فى معنى الخيانة والخداع ، و إن اختلف استعمال كل منهما ومدلوله عن الأخر بعض الاختلاف .

وقد أطلق المحدثون من علماء اللغة على هذا الباب جميعه اسم « الاشتقاق الأكبر » . ووقف عليه ابن جنى نحو فصلين من فصول كتابه الخصائص وضرب له أمثلة كثيرة ولكنه لم يضع له اسماً على حدة . وقد أدخله تحت قانون عام سماه « تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى » أو « الكلمات المتصاقبة الحروف متصاقبة المعانى » ، أى أن تقارب الحروف فى كلمتين يدل على تقارب معناهما ، أو « الحرفان المتقاربان يستعمل أحدهما مكان صاحبه »[1] .

(٢٣) النحت فى اللغة العربية

وهو أن تنتزع أصوات كلمة من كلمتين فأكثر أو من جملة للدلالة على معنى مركب من معانى الأصول التى انتزعت منها .

وقد جاء النحت فى اللغة العربية على عدة وجوه أهمها الوجوه الثلاثة الآتية :

١ — نحت من جملة للدلالة على التحدث بهذه الجملة ، نحو بسمل وحمدل وحوقل وحسبل وسمعل وحيعل ودمعز وطلبق وجعفد و بأبأ ... ، إذا قال باسم الله ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وحسبنا الله ، والسلام عليكم ، وحى على الصلاة حى على الفلاح ، وأدام الله عزك ، وأطال الله بقاءك ، وجعلت فداءك ، و بأبى أنت .. ؛ ونحو البسملة والحمدلة والحوقلة ... وهلم جرا .

ولم يرد هذا النوع إلا فى كلمات قليلة معظمها مستحدث فى الإسلام .

٢ — نحت من علم مؤلف من مضاف ومضاف إليه (مركب إضافى) للنسب إلى هذا العلم أو للدلالة على الاتصال به بسبب ما ، نحو عبشمى وعبدرى وعبقسى وتيملى ومرقسى فى النسب إلى عبد شمس وعبد الدار وعبد القيس وتيم

(١) انظر الخصائص ٤٧٨ — ٤٨٢ ، ٥٣٧ — ٥٤٣ .

اللات وامرىء القيس ؛ ونحو تعبشم الرجل وتعبقس ... إذا ارتبط بعبد شمس أو بعبد قيس بحلف أو جوار أو ولاء ... وما إلى ذلك .

وهذا النوع قليل كذلك فى اللغة العربية ، ولم يكد يسمع إلا فى الأمثلة السابقة.

٣ — نحت كلمة من أصلين مستقلين أو من أصول مستقلة للدلالة على معنى مركب فى صورة ما من معانى هذين الأصلين أو هذه الأصول .

وهذا النوع شائع أيما شيوع فى اللغات الهندية — الأوروبية ، وخاصة الحديث منها ، حتى أن ما يرجع من مفردات هذه اللغات إلى أصل واحد لقليل بالنسبة إلى ما يرجع منها إلى أصلين أو عدة أصول . ولكنة نادر جداً فى فصيلة اللغات السامية على العموم . وهذا من أهم الفروق التى تميز هاتين الفصلين إحداهما عن الأخرى كما ذكرنا ذلك بتفصيل فى كتابنا « علم اللغة »[١].

ولا تختلف فى ذلك اللغة العربية عن أخواتها السامية . فالمفردات العربية المنتزعة من أصلين مستقلين أو من أصول مستقلة لا تتجاوز بضع عشرات ؛ ومعظمها لم يظهر فيه النحت إلا عن طريق ظنى يبدو فيه أحياناً كثير من صنوف التعسف والتحايل . . وفيما يلى بعض أمثلة من هذه المفردات :

ذهب الخليل إلى أن « لن » منتزعة من « لا » و « أن » وأنها تضمنت بعد تركيبها معنى لم يكن لأصليها مجتمعين .

وكان الفراء يقول فى « هلم » إن أصلها « هل » (هل لك فى كذا ؟) و« أمّ » (بمعنى اقصد وتعال[٢]) . وقيل إنها مركبة من « هاء التنبيه » و « لُمّ » بمعنى ضُمّ .

وقال بعض العلماء فى « أيان » إنها منتزعة من « أى آن » فحذفت همزة آن وجعلت الكلمتان كلمة واحدة متضمنة معناهما[٣] ؛ وفى « لمّا » الجازمة إن

(١) انظر صفحة ٢٠٢ من الطبعة الثالثة من كتابنا « علم اللغة » .
(٢) الصاحبى لابن فارس ص ١٤٦ .
(٣) انظر الصاحبى لابن فارس ص ١١٤ .

أصلها «لا» و« ما » فحذفت الألف وشددت الميم ؛ وفى « لكن » إنها منتزعة من « لا » و« كاف الخطاب » و« إن » الخفيفة أو الثقيلة ؛ فحذفت همزة إن وجعلت الكلمات الثلاث كلمة واحدة للدلالة على معنى الاستدراك [١] ؛ وفى «ليس» إن أصلها « لا » و « أيس » (وأيس هو فعل الكينونة فى كثير من اللغات السامية و إن كان قد انقرض فى العربية) .

وزعم قوم أن كثيراً من الكلمات الرباعية والخماسية تألفت على هذا النحو [٢] . فقالوا مثلا فى « دحرج » إن أصلها « دحر فجرى » ؛ وفى « هرول » إن أصلها « هرب وولى » ، وفى « بحثر » أو « بعثر » إن أصلها « بحث » أو « بعث » و« أثار » .

ولا يخفى ما فى هذا المذهب من تحايل وتعسف وتعارض مع النواميس العامة التى تسير عليها اللغات الإنسانية بصدد الكلمات الدالة على الحدث وتصريفها بعضها من بعض [٣] .

(٢٤) اختصاص بعض الأوزان العربية

بالدلالة على أمور خاصة

يكثر ورود بعض الأوزان فى اللغة العربية ، أو يطرد ورودها فيها ، للدلالة على معان خاصة . فمن ذلك أوزان أفعال الماضى والمضارع والأمر وأوزان اسم الفاعل وصيغ المبالغة [٤] والصفة المشبهة واسم المفعول وأفعل التفضيل والتعجب

(١) انظر الصاحبى لابن فارس ص ١٤١ .

(٢) من هؤلاء ابن فارس ، انظر الصاحبى ص ٢٢٧ .

(٣) انظر فى موضوع النحت المزهر للسيوطى ٢٣٢ — ٢٣٤ والصاحبى لابن فارس ٢٢٧ .

(٤) رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية صيغة من صيغ المبالغة وهى صيغة فعال بتشديد العين ؛ ونص قراره بهذا الصدد ما يلى : « يصاغ فعال للمبالغة من مصدر الفعل الثلاثى اللازم والمتعدى » . انظر الجزء الثانى من مجلة المجمع ص ٣٥ ، ٥٣ — ٦٢ .

واسم الآلة [١] والمصدر واسم الزمان والمكان وجموع التكسير . . .

ومن هذه الأوزان ما لا يقتصر على الإشارة إلى مجمل مدلول الكلمة ، بل يشير كذلك إلى بعض تفاصيل تتعلق بهذا المدلول . وسنذكر فيما يلى بعض أمثلة من هذه الأوزان الخاصة :

يجىء مصدر « فِعَالة » من الثلاثى للدلالة على الحرفة أو شبهها كالصناعة والحياكة والتجارة والإمارة والسفارة والنقابة . وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية هذا المصدر معتمداً فى ذلك على مذهب سيبوية والأخفش وابن مالك ومتابعيهم ، فأصدر فى دورته الأولى القرار التالى : « يصاغ للدلالة على الحرفة أو شبهها من أى باب من أبواب الثلاثى مصدر على وزن فِعالة بالكسر [٢] » .

ويجىء مصدر « فَعَلان » من الثلاثى للدلالة على التقلب والاضطراب كالغليان والغشيان والخفقان والطيران والدوران والجولان . وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية هذا المصدر فى بعض الأفعال معتمداً فى ذلك على مذهب سيبويه والأخفش وابن مالك ومتابعيهم ، فأصدر فى دورته الأولى القرار التالى : « يقاس المصدر على وزن فَعَلان لفعل اللازم مفتوح العين إذا دل على تقلب واضطراب [٣] » .

ويجىء مصدر « فَعَلٍ وفُعَالٍ » من الثلاثى للدلالة على المرض كالوجع والسقم والبرص ؛ وكالسعال والزكام والمشاء . وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية

---

(١) رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية ثلاثة الأوزان الشهيرة فى اسم الآلة وهى مفعل ومفعلة ومفعال (بكسر فسكون ففتح فيها جميعا) . وإليك نص قراره بهذا الصدد : « يصاغ قياسا من الفعل الثلاثي على وزن مفعل ومفعال ومفعلة للدلالة على الآلة التى يعالج بها الشيء . — ويوصي المجمع باتباع صيغ المسموع من أسماء الآلات ، فإذا لم يسمع وزن منها لفعل جاز أن تصاغ من أى وزن من الأوزان الثلاثة المتقدمة » (انظر الجزء الأول من مجلة المجمع ص ٣٥ ، ٢١٧ — ٢٢١) .

(٢) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٣) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٤ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

فُعَال للمرض فى بعض الأفعال معتمداً فى ذلك على مذهب سيبويه والأخفش وابن مالك ومتابعيهم ، فأصدر فى دورته الأولى القرار التالى : « يقاس من فَعَل اللازم المفتوح العين مصدر على وزن فُعَال للدلالة على المرض (١) » ، ويرى بعض النحويين واللغويين أن مصدر فَعِلٍ من الثلاثى مكسور العين قياسى كذلك فى الدلالة على المرض (٢) .

ويجىء مصدر « فُعَال وفَعِيل » للدلالة على الصوت كالصراخ والدعاء والمواء والعواء ؛ وكالعويل والضجيج والصهيل والزئير . وقد قرر مجمع فؤاد الأول للغة العربية بهذا الصدد أنه « إذا لم يرد فى اللغة مصدر لفَعَل اللازم مفتوح العين الدال على صوت يجوز أن يصاغ له قياساً مصدر على وزن فُعَال أو فَعِيل (٣) » .

ويجىء مصدر « فعيل » أحياناً للدلالة على السير كالرحيل والذميل والرقيل .

ويجىء مصدر « فِعَال » للدلالة على الامتناع كالإباء والجماح والشراد .

وتأتى أحياناً بعض مصادر الثلاثى على وزن « تَفْعال » بفتح أوله للدلالة على كثرة الحدث والمبالغة فيه نحو التطواف والترداد والتسيار والتجوال والتهدار .

وتدل المصادر الرباعية المضعفة على معنى التكرار نحو الزعزعة والقلقلة والصلصلة والقعقعة والجرجرة والقرقرة (٤) .

وتأتى « الفعَلى » فى المصادر والصفات للدلالة على معنى السرعة نحو البشكى والجمزى والولقى (٥) .

ويدل مصدر « فَعْلة » من الثلاثى على الوحدة كضرب ضربة وأكل أكلة .

ويدل مصدر « فِعلة » من الثلاثى على الهيئة كجلس جلسة الأسد ، و « إذا قتلتم فأحسنوا القِتلة » .

---

(١) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ .
(٢) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحة ٢١٠ .
(٣) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٥ ، ٢١٠ ، ٢١١ .
(٤) انظر الخصائص لابن جنى ص ٥٤٤ .
(٥) انظر الخصائص لابن جنى صفحتى ٥٤٤ ، ٥٤٥ .

وتجىء صيغة « فَعَّال » فى غير المبالغة من اسم الفاعل للدلالة على الاحتراف أو ملازمة الشىء كالزجاج والبقال والنجار والحداد . وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية هذه الصيغة فى هذا المعنى ، معتمداً فى ذلك على رأى المبرد ، فأصدر قراره الآتى : « يصاغ فعّال قياساً للدلالة على الاحتراف أو ملازمة الشىء . فإذا خيف لبس بين صانع الشىء وملازمه كانت صيغة فعال للصانع وكان النسب بالياء لغيره فيقال زجاج لصانع الزجاج وزجاجى لبائعه »[(١)].

وتجىء فى الغالب صيغة « فُعَال و فُعَالَة » فى الأسماء للدلالة على فضلات الأشياء وما يرفض منها و يلقى ، نحو الفتات والبصاق والحمار (وهو بقية السُّكْر) والرفات والحطام والرذال ؛ وكالنحاتة والنخاعة والنخامة والقوارة (وهو اسم لما يقع عند التقوير) وخثارة الشىء (وهو ما يبقى منه) وقلامة الظفر والكساحة والكناسة والسباطة والقمامة والزبالة والحثالة (الردىء من كل شىء) والنفاية (وهو ما يبقى بعد الاختيار) ، والبراية (ما برى من العود وغيره) ، والنفاضة (ما سقط من الوعاء وغيره إذا نفض) ، والكدادة (ما بقى فى أسفل القدر) ، والصبابة (بقية الماء) والعفافة (ما بقى فى الضرع من اللبن) والثمالة (بقية الماء أو غيره) والسحالة (ما سقط من الذهب والفضة ونحوهما) ... وهلم جرا[(٢)].

وتجىء صيغة « مَفْعَلَة » من أسماء الأعيان الثلاثية للدلالة على المكان الذى يكثر فيه الشىء حيواناً كان أم نباتاً أم جماداً ، كالمأسدة والمسبعة والمذأبة والموعلة للموضع الكثير الأسد والسباع والذئاب والوعول . وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية هذه الصيغة معتمداً فى ذلك على مذهب الأخفش وظاهر مذهب سيبويه ، فأصدر قراره الآتى : « تصاغ مَفْعَلَة قياساً من أسماء الأعيان الثلاثية

---

(١) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٥ ، ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٢) انظر المزهر للسيوطى الجزء الثانى صفحتى ٦٤ ، ٦٥ ، والمصباح المنير ص ١٠٧٤ ، والمعجم فى بقية الأشياء لأبى هلال العسكرى . — وقد جاء لفظ « النقاوة » (وهو المختار من الشىء) على هذا الوزن من باب حمل الشىء على ضده كما أشار إلى ذلك المصباح ص ١٠٧٤ .

الأصول للمكان الذى تكثر فيه هذه الأعيان سواء أكانت من الحيوان أم من النبات أم من الجماد[١] » .

وتجىء صفة « فَعْلان » للدلالة على أمور تتصل بالجوع والعطش وأضدادهما وملحقاتهما مثل جوعان وعطشان وغرثان وريان وسكران .

وتجىء صفة « أفعل » للدلالة على الألوان نحو أحمر وأبيض وأسود وأزرق وأخضر ... وهلم جرا .

وتجىء صفة « فعيل » للدلالة على الأوصاف الثابتة اللازمة للنفوس كشريف ونبيل وكبير وحقير ووضيع وصغير .

وتدل صيغ جمع التكسير التى على وزن « أَفْعُل وأَفْعال وأفعِلة وفِعْلة » على جمع قليل العدد كأذرع وأثواب وأعمدة وصبية .

وتدل بقية صيغ جمع التكسير على جمع كثير العدد كحُمْر وعُمُد وغرف وحِجَج وقضاة وسحرة وقتلى ودِبَبة وركَّع وقرّاء وصعاب ونُمور وغلمان وحُملان وجبناء وأغنياء وجواهر وصحائف وموام (جمع موماة للفلاة الواسعة) ويتامى وسكارى وبراثن ومخارج ومفاتيح[٢] .

وتجىء صيغة « فَعِل يفعَل » وما تصرف منها فى الأمور الدالة على الفرح

---

(١) انظر الجزء الثاني من مجلة المجمع صفحات ٣٥ ، ٥٠ — ٥٣ .

(٢) اختلف فى الفرق بين جموع الكثرة والقلة . فقيل إنهما مختلفان مبدأ وغاية ؛ فالقلة من ثلاثة إلى عشرة ، والكثرة من عشرة إلى مالا نهاية . وقيل إنهما مختلفان غاية لا مبدأ ؛ فالقلة من ثلاثة إلى عشرة فقط والكثرة من ثلاثة إلى ما لا نهاية . وهذا إذا كان الاسم ثلاثيا وله صيغة الجمعين . أما إذا كان زائداً على الثلاثة أو ثلاثيا وليس له إلا جمع واحد نحو أسباب وكتب فجمعه مشترك بين القليل والكثير . وكثيراً ما تستعمل صيغ القلة فى العدد الكثير ؛ وقد تستعمل صيغ الكثرة فى القليل نحو ثلاثة قروء . وأما جمع السلامة مذكره ومؤنثه فيرى بعضهم أنه جمع قلة ؛ وإلى هذا ذهب ابن السراج ، ويقال إنه مذهب سيبويه . والصحيح أنه مشترك بين القليل والكثير ؛ وقد وردبها فى القرآن : قال تعالى « واذكروا الله فى أيام معدودات » والمراد بها أيام التشريق وهى قليلة ؛ وقال كتب عليكم الصيام ... أياما معدودات » وهذه كثيرة . انظر بعض تعليقات طريفة فى هذا الموضوع بمعجم المصباح المنير صفحات ١٠٧٥ — ١٠٧٧ .

والحزن وتوابعهما ، والامتلاء والخلو وملحقاتهما ، والألوان ، والعيوب ، والحلية ، والخوف ، والمرض : كفرح وطرب و بطر وأشر وغضب وحزن ؛ وكشبع وروى وسكر وعطش وظمىء وصدى ؛ وكحمر ؛ وكعور وعمش ؛ و كغيد وهيف ولمى ؛ وكفزع وفرق (خاف) ؛ وكمرض وسقم ... الخ .

ويجىء صيغة « فعُل يفعُل » وما تصرف منها فى الأمور الدالة على الأوصاف الثابتة كشرف وحسن ووسم وحلم وكبر وجرؤ وسهل وصعب وجبن وصغر وسفه وقبح وحقر ووضع ... وهلم جرا .

وتجىء صيغة « أفعل » المزيد وما تصرف منها للدلالة على معان كثيرة أهمها التعدية كأقمت محمداً وأقعدته وأقرأته ؛ وملكية الشىء كألبن وأتمر وأفلس (صار ذا لبن وتمر وفلوس) ؛ والدخول فى المكان والزمان كأشأم وأعرق وأصبح وأمسى (دخل فى الشام والعراق والصباح والمساء) ؛ والاستحقاق كأحصد الزرع (أى استحق الحصاد) ؛ وتعريض الشىء لأمر ما كأرهنت المتاع وأبعته (عرضته للرهن والبيع) ؛ والتمكن كأحفرته الأرض أى مكنته من حفرها . وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية أن هذه الصيغة قياسية فى المعنى الأول وهو التعدية معتمداً فى ذلك على مذهب سيبويه والأخفش والفارسى ، فأصدر قراره الآتى : « يرى المجمع أن تعدية الفعل الثلاثى اللازم بالهمزة قياسية »[١] .

وتجىء صيغة « فاعل » المزيد وما تصرف منها للدلالة على المشاركة فى الفعل بين اثنين فأكثر كقاتل وضارب ؛ وعلى الموالاة كتابعت الصوم وواليته .

وتجىء صيغة « فعَّل » وما تصرف منها للدلالة على معان كثيرة أهمها التكثير فى الفعل كقتل وطوف وغلق ؛ والتعدية كعلم وفرح ؛ وصيرورة الشىء شبيهاً بشىء آخر كقوس محمد وحجر الطين أى صار شبه القوس فى الانحناء وشبه الحجر فى الصلابة ؛ ونسبة الشىء إلى أصل الفعل كزكيت فلاناً وعدلته وفسقته

(١) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع ، صفحات : ٣٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ .

وكفرته أى نسبته إلى الزكاة والعدالة والفسق والكفر؛ والتوجه إلى الشىء كشرقت وغربت؛ واختصار حكاية الشىء كهلل وسبح ولبى وأمن؛ وقبول الشىء كشفعته أى قبلت شفاعته.

وتجىء صيغة « انفعل » وما تصرف منها للدلالة على المطاوعة كقطعته فانقطع وكسرته فانكسر. وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية هذه الصيغة فى المعنى السابق فأصدر قراره الآتى: « كل فعل ثلاثى متعد دال على معالجة حسية فمطاوعه القياسى « انفعل »؛ ما لم تكن فاء الفعل واواً أو لاماً أو نوناً أو ميماً أو راء و تجمعها قولك « ولنمر » فالقياس فيها افتعل »[1].

وتجىء صيغة « افتعل » وما تصرف منها لعدة معان أهمها الاتخاذ كاختتم واختدم (أى اتخذ خاتماً وخادماً)؛ والاجتهاد والطلب كاكتسب واكتتب (أى اجتهد وطلب الكسب والكتابة)؛ والتشارك كاختصم فلان وفلان واختلفا؛ والإظهار كاعتظم (أى أظهر العظمة)؛ والمبالغة فى معنى الفعل كاقتدر (بالغ فى القدرة)؛ ومطاوعة الثلاثى كعدلته فاعتدل وجمعته فاجتمع. وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية هذه الصيغة فى مطاوعة الثلاثى المتعدى الدال على معان حسية إذا كانت فاؤه واواً أو لاماً أو نوناً أو ميماً أو راء. وقد ذكرنا قراره بهذا الصدد فى الصيغة السابقة.

وتجىء صيغة « تفعَّل » وما تصرف منها للدلالة على معان كثيرة أهمها مطاوعة فعل مضعف العين كنبهته فتنبه وكسرته فتكسر؛ والاتخاذ كتوسد ثوبه أى اتخذه وسادة؛ والتكلف كتصبر أى تكلف الصبر؛ والتجنب كتحرج وتهجد أى تجنب الحرج والهجود؛ والتدريج كتجرع الماء وتحفظ العلم أى شرب الماء جرعة بعد أخرى وحفظ العلم مسألة مسألة. — وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية هذه الصيغة فى مطاوعة فعّل ما لم يكن تضعيفه للتعدية

---

(١) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع، صفحات: ٣٦، ٢٢٢ — ٢٢٣.

فقط ، فأصدر قراره الآتى : « قياس المطاوعة لفعّل مضعف العين « تفعّل » والأغلب فيما ضعف للتعدية فقط أن يكون مطاوعه ثلاثيه[١] ».

وتجىء صيغة « تفاعل » وما تصرف منها للدلالة على معان كثيرة أهمها التشريك بين اثنين فأكثر كتجاذبا وتخاصما ؛ والتظاهر بالفعل كتجاهل وتغابى ؛ وحصول الشىء بالتدريج كتزايد النيل وتواردت الإبل ؛ ومطاوعة فاعل كباعدته فتباعد . وقد أصدر مجمع فؤاد الأول للغة العربية بصدد هذه الصيغة القرار الآتى : « فاعل الذى أريد به وصف مفعول له بأصل مصدره مثل باعدته يكون قياس مطاوعه تفاعل كتباعد[٢] ».

وتجىء صيغة « استفعل » وما تصرف منها للدلالة على معان كثيرة أهمها الطلب كاستغفر الله أى طلب غفرانه ؛ والصيرورة الحقيقية أو المجازية كاستحجر الطين واستنسر البغاث ؛ واعتقاد صفة الشىء كاستحسن كذا واستصوبه ؛ واختصار حكاية الشىء كاسترجع إذا قال إنا لله وإنا إليه راجعون ؛ والقوة كاستهتر واستكبر إذا قوى هتاره وكبره . — وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية هذه الصيغة فى المعنيين الأولين فأصدر قراره التالى : « يرى المجمع أن صيغة استفعل قياسية لإفادة الطلب والصيرورة[٣] ».

وتجىء صيغة « تفعلل » وما تصرف منها للدلالة على معان كثيرة منها مطاوعة فعلل وما ألحق به كدحرجته فتدحرج وجلببته فتجلبب . وقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية قياسية هذه الصيغة فى المعنى المذكور فأصدر قراره التالى : « فعلل وما ألحق به قيـــاس المطاوعة منه على تفعلل نحو دحرجته فتدحرج وجلببته فتجلبب[٤] » .

---

(١) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ .
(٢) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ .
(٣) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ .
(٤) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحتى ٣٧ ، ٢٢٥ .

وأكثر ما تجىء صيغتا « افعلّ وافعالّ » للمبالغة فى الألوان والعيوب نحو أحمر وأحمار وأعور وأعوار .

وتستخدم فى الغالب صيغة « افعوعل » وما شاكلها فى الأفعال للدلالة على المبالغة والتوكيد نحو اخشوشن الرجل فى معيشته إذا بالغ فى خشونة مأكله وملبسه ونحوهما ، واعشوشبت الأرض إذا كثر عشبها وعمها فلم يترك بها مكاناً خالياً ، واحلولى الزمان إذا ذهبت منغصاته وبدت مسراته .

وتجىء صيغة « فَعَالِ » المبنى على الكسر للدلالة على الأمر (اسم فعل الأمر) كحذار ونظار وحضار وشتات ودراك وتراك[1] .

(٢٥) الاشتراك اللفظى فى اللغة العربية

تكلمنا بتفصيل فيما سبق عن الترادف وهو إطلاق عدة كلمات على مدلول واحد[2] . وسنذكر هنا كلمة فيما يقابل الترادف ، وهو الاشتراك اللفظى ، وذلك بأن يكون للكلمة الواحدة عدة معان تطلق على كل منها على طريق الحقيقة لا المجاز . وذلك كلفظ « الخال » الذى يطلق على أخى الأم ، وعلى الشامة فى الوجه ، وعلى السحاب ، وعلى البعير الضخم ، وعلى الأكمة الصغيرة ... ؛ وكلفظ « إنسان » الذى يطلق على الواحد من بنى آدم ، وعلى ناظر العين ، وعلى الأنملة ، وعلى حد السيف ، وعلى السهم ، وعلى الأرض التى لم تزرع ... ؛ وكلفظ « الأرض » الذى يطلق على ما يقابل السماء ، وعلى النفضة والرعدة ، وعلى الزكام .

وقد اختلف الباحثون فى مبلغ ورود المشترك اللفظى فى اللغة العربية .

فذهب بعضهم إلى إنكاره بتاتاً ، وعمل على تأويل أمثلته تأويلا يخرجها من هذا الباب ، كأن يجعل إطلاق اللفظ فى أحد معانيه حقيقة وفى المعانى الأخرى

---

(١) انظر المزهر للسيوطى الجزء الثانى ص ٧١ وتوابعها .

(٢) انظر ص ١٣٦ وتوابعها .

مجازاً . وعلى رأس هذا الفريق ابن درستويه [١] .

وذهب فريق آخر إلى كثرة وُروده وضرب له عدداً كبيراً من الأمثلة . ومن هؤلاء الأصمعى والخليل وسيبويه وأبو عبيدة وأبو زيد الأنصارى وابن فارس وابن مسعدة والثعالبى والمبرد والسيوطى . وقد وقف بعض أفراد هذا الفريق على سرد أمثلة المشترك مؤلفات على حدة [٢] .

والحق أن كلا الفريقين قد تنكب جادّة الحق فيما ذهب إليه .

فمن التعسف محاولة إنكار المشترك إنكاراً تاماً وتأويل جميع أمثلته تأويلا يخرجها من هذا الباب . وذلك أنه فى بعض الأمثلة لا توجد بين المعانى التى يطلق عليها اللفظ الواحد أية رابطة واضحة تسوغ هذا التأويل ، كما يظهر هذا من التأمل في الأمثلة التى أوردناها فى صدر هذه الفقرة .

غير أنه لم يكثر ورود المشترك فى اللغة العربية على الصورة التى ذهب إليها الفريق الثانى . وذلك أن كثيراً من الأمثلة التى ظن هذا الفريق أنها من قبيل المشترك اللفظى يمكن تأويلها على وجه آخر يخرجها من هذا الباب .

فمن هذه الأمثلة ألفاظ نقلت عن معناها الأصلى إلى معان مجازية أخرى لعلاقة ما ، فاعتبرت لذلك من المشترك وهى ليست منه . وإليك مثلا لفظ « الهلال » الذى يطلق على هلال السماء ، وهلال الصيد (وهو آلة تشبه الهلال يعرقل بها حمار الوحش) ، وهلال النعل (ذؤابته المشبهة للهلال) ، وهلال الإصبع المطيف بالظفر ، والحية إذا سلخت ، والجمل الهزيل من كثرة الضراب ، وباقى الماء فى الحوض . فمن الواضح أنه قد وضع فى الأصل للدلالة على المعنى الأول ، وأن إطلاقه على ما عداه من المعانى من قبيل المجاز لوضوح علاقة المشابهة بينها و بين هلال السماء فى صورته أو ضآلته . وكل ما هنالك أنه قد كثر استخدامه فى هذه

---

(١) انظر الجزء الأول من مزهر السيوطى ص ١٨٥ .

(٢) من أشهر من وقف على المشترك مؤلفات خاصة من القدماء الأصمعى وأبو عبيدة وأبو زيد .

المعاني ، فلم يلاحظ فيها وجه المجاز وأصبح إطلاقه عليهما فى قوة استخدام الشيء فى حقيقته[١] . وما قيل فى لفظ الهلال يقال مثله فى كثير من الأسماء الأخرى التى ظن هذا الفريق أنها من قبيل المشترك اللفظى[٢] ، ويقال مثله كذلك فى الحروف التى تحتمل أكثر من مدلول واحد ، وفى أفعال الماضى والمضارع التى تستعمل فى الخبر تارة وفى الدعاء تارة أخرى .

ومن الأمثلة التى ذكرها هذا الفريق ألفاظ أخرى جاءها الاشتراك من عوارض تصريفية . وذلك كأن تؤدى القواعد الصرفية إلى أن تتفق لفظتان متقاربتان فى صيغة واحدة ، فينشأ عن ذلك تعدد فى معنى هذه الصيغة تؤدى إلى جعلها من قبيل المشترك وهى ليست منه إلا فى الظاهر . وإليك مثلا لفظ «وجد» : فإنه يجىء ماضياً من الوجدان بمعنى العلم بالشىء أو العثور عليه (فيقال وجدت الضالة إذا عثرت عليها ، ووجدت زيداً كريماً إذا علمته كذلك) ؛ ومن الموجدة بمعنى الغضب (فيقال وجدت عليه إذا غضبت)؛ ومن الوجد بمعنى الحب الشديد (فيقال وجد به وجداً إذا هوى به وتفانى فى حبه) . ولفظ « الغروب » : فإنه يجىء مصدراً لغربت الشمس مثلا ؛ وجمعاً للغَرْب وهو الدلو العظيمة .

* * *

فإذا نحن حذفنا من قائمة الأمثلة التى ذكرها هذا الفريق ما يمكن أن يحذف على ضوء الملاحظات السابقة وما إليها ، فربما لا يبقى فى باب الاشتراك اللفظى بمعناه الصحيح إلا مفردات قليلة .

---

(١) وفى ذلك يقول أبو على الفارسى على ما رواه عنه ابن سيدة : « اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ينبغى ألا يكون قصداً فى الوضع ولا أصلا ، ولكنه من لغات تداخلت أو أن تكون لفظة تستعمل لمعنى ثم تستعار لشىء فتكثر وتغلب وتصير بمنزلة الأصل » . (المخصص لابن سيدة ج ١٣ ص ٢٥٩) .

(٢) من ذلك مثلا لفظ « الحوت » الذى يطلق على السمك وعلى برج من بروج السماء (شكله على صورة الحوت) ؛ ولفظ « العين » الذى يطلق على الحاسة وعلى عين الماء وعلى أفضل الأشياء وأحسنها وعلى النقد من الذهب والفضة ؛ ولفظ « الحمل » الذى يطلق على الجذع من ولد الضأن وعلى برج من بروج السماء وعلى السحاب الكثير الماء ... وهلم جرا .

وقد نشأ الاشتراك بمعناه الصحيح فى اللغة العربية من عوامل كثيرة أهمها العاملان الآتيان :

١ — اختلاف اللهجات العربية القديمة . فبعض أمثلة المشترك جاءها الاشتراك من اختلاف القبائل العربية فى استعمالها ، ثم جاء جامعو المعجمات فضموا هذه المعانى بعضها إلى بعض بدون أن يعنوا فى كثير من الأحوال برجع كل معنى إلى القبيلة التى كانت تستخدمه . وبعض أمثلته كانت تختلف معانيه كذلك فى الأصل باختلاف القبائل ، ولكن معانيه المختلفة قد انتقلت فيما بعد إلى لغة قريش على النحو الذى شرحناه فى الفقرات السابقة[١] ، فأصبح يطلق فيها على جميع هذه المعانى .

٢ — التطور الصوتى . فقد ينال الأصوات الأصلية للفظ ما بعض التغيير أو الحذف أو الزيادة وفقاً لقوانين التطور الصوتى التى تكلمنا عنها بتفصيل فى فى كتابنا « علم اللغة[٢] » ، فيصبح هذا اللفظ متحداً مع لفظ آخر يختلف عنه فى مدلوله .

(٢٦) التضاد فى اللغة العربية

وهو أن يطلق اللفظ على المعنى وضده ، كلفظ « الجون » الذى يطلق على الأبيض والأسود ؛ و « الجلل » المستعمل فى الجليل والهين ؛ (هذا مصاب جلل ؛ كل مصيبة تخطأتك جلل . فهو فى المثال الأول بمعنى العظيم وفى الثانى بمعنى الهين) و « أسرَّ » المستعمل فى الإخفاء وضده (فأسرَّها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب : فهو فى المثال الأول بمعنى الإخفاء ويحتمل المعنيين فى المثال الثانى) ؛ و « الصارخ » للمستغيث والمغيث ؛ و « البين » بمعنى الفراق والوصل ؛ و « الخشيب » من السيوف الذى لم يصقل ، وهو أيضاً

(١) انظر ص ١١٢ وتوابعها وآخر صفحة ١٣٩ ، وصفحتى ١٤٠ ، ١٤١ .

(٢) انظر صفحات ٢٦٠ — ٢٨٥ من الطبعة الثالثة من كتابنا « علم اللغة » .

الذى أحكم عمله وفرغ من صقله ؛ و « المسجور » الذى يطلق على المملوء والفارغ ؛ و « الزاهق » الذى يطلق على المتناهى فى السمن وعلى شديد الهزال ؛ و « البسل » بمعنى الحلال والحرام ؛ و « الرجاء » المستعمل فى الرغبة والخوف ... وهلم جرا .

فالتضاد نوع خاص من أنواع الاشتراك اللفظى السابق ذكره ؛ ولذلك اختلف الباحثون بصدد وروده اختلافهم في المشترك اللفظى .

فقال قوم بعدم وروده فى العربية وعملوا على تأويل أمثلته تأويلا يخرجها من هذا الباب . ومن أشهر هؤلاء ابن درستويه ؛ فقد جحد الأضداد جميعها وكتب فى ذلك تأليفاً خاصاً سماه « إبطال الأضداد(١) » . وروى ابن سيدة فى كتابه « المخصص » أن أحد شيوخه كان كذلك « ينكر الأضداد التى حكاها أهل اللغة وأن تكون لفظة واحدة لشىء وضده(٢) » .

وذهب فريق آخر إلى كثرة وروده ، وضرب له عدداً كبيراً من الأمثلة . ومن هؤلاء الخليل وسيبويه وأبو عبيدة وأبو زيد الأنصارى وابن فارس وابن سيدة وابن دريد والثعالبى والمبرد والسيوطى(٣) . فقد أحصى كل من السيوطى وابن سيدة من الأضداد ما ينيف على المائة . بل إن بعض أفراد هذا الفريق قد وقف مؤلفات على حدة لسرد أمثلة التضاد . ومن هؤلاء قطرب والأصمعى وابن السكيت والصغانى وأبو بكر بن الأنبارى والتوزى وأبو البركات بن الأنبارى وابن الدهان(٤) . ومن أشهر هذه المؤلفات وأنفسها كتاب الأضداد لابن الأنبارى

---

(١) لم يصل إلينا لسوء الحظ هذا الكتاب ، ولذلك لم نقف ، على وجه اليقين ، على الأسس التى اعتمد عليها ابن درستويه فى مذهبه .

(٢) المخصص لابن سيده ج ١٣ ص ٢٥٩ س ٨ .

(٣) انظر المخصص لابن سيده ج ١٣ ص ٢٥٨ — ٢٦٧ ؛ وفقه اللغة للثعالبي الفصل السادس عشر من الباب الثلاثين ص ٣٢٨ ؛ والمزهر للسيوطى جزء أول ١٨٦ — ١٩٤ .

(٤) انظر كتاب « الأضداد » لقطرب ، و « الأضداد » للحسن بن محمد بن الحسن الصغانى (كلاهما فى مخطوطات مكتبة برلين) و « كتاب الأضداد » للأصمعى ، « الأضداد » لابن السكيت (كلاهما فى مخطوطات مكتبة فينا) ، و « كتاب الأضداد » لأبى بكر بن الأنبارى (وهو مطبوع متداول ومن أنفس ما وصل إلينا فى هذا الموضوع) . وذكر المبرد والسيوطى كتابا فى الأضداد لعبد الله بن محمد بن هارون التوزى . وذكر السيوطي فى كتابه المزهر كتبا فى الأضداد لأبي البركات بن الأنبارى ولابن الدهان ،

الذى أحصى فيه من هذا النوع ما زاد على الأربعمائة .

وكلا الفريقين قد تنكب جادة القصد فيما ذهب إليه .

فمن التعسف إنكار التضاد ومحاولة تأويل أمثلته جميعاً تأويلا يخرجها عن هذا الباب كما فعل الفريق الأول . وذلك أن بعض أمثلته لا تحتمل أى تأويل من هذا القبيل ؛ حتى إن ابن درستوية نفسه ، وهو على رأس المنكرين للتضاد ، قد اضطر إلى الاعتراف بوجود النادر من تلك الألفاظ إذ يقول : « وإنما اللغة موضوعة للإبانة عن المعانى ، فلو جاز لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين أو أحدهما ضد للآخر لما كان ذلك إبانة بل تعميه وتغطية ؛ ولكن قد يجىء الشىء النادر من هذا لعلل ... »[١] .

غير أنه لم يكثر وروده فى اللغه العربية على الصورة التى ذهب إليها الفريق الثانى . وذلك أن كثيراً من الأمثلة التى ظن هذا الفريق أنها من قبيل الأضداد يمكن تأويلها على وجه آخر يخرجها عن هذا الباب .

ففى بعض الأمثلة قد استعمل اللفظ فى ضد ما وضع له لمجرد التفاؤل كالمفازة فى المكان الذى تغلب فيه الهلكة ، فقد سميت بذلك تفاؤلا بالسلامة[٢] ؛ وكالسليم للملدوغ[٣] ؛ وكالريان والناهل للعطشان .

وفى بعضها قد استعمل اللفظ فى ضده لمجرد التهكم أو لاتقاء التلفظ بما يكره التلفظ به أو بما يمجه الذوق أو بما يؤلم المخاطب . وذلك كإطلاق لفظ العاقل على المعتوه أو الأحمق ، والخفيف على الثقيل ، والأبيض على الأسود ، والملآن على الفارغ[٤] ، والمولى على العبد ، والبصير على الأعمى ... وهلم جرا .

---

(١) المزهر للسيوطى الجزء الأولى ص ١٨٥ .

(٢) هذا على أنها مأخوذة من فاز إذا نجا وسلم . ويصح أن تكون مأخوذة من فوز بتشديد الواو إذ مات لأنها مظنة الموت (انظر المصباح المنير) .

(٣) من هذا ما نستخدمه فى الإخبار عن شخص مريض إذ نقول ، « إنه فى عافية » .

(٤) يقال فى مصر بعد شرب القهوة وما إليها إذ يطلب رفع الكوب الفارغ « خذ الملآن » .

وقد يجيء التضاد فى الظاهر من انتقال اللفظ عن معناه إلى معنى آخر مجازى لنكتة بلاغيـة أو لعلاقة ما . وذلك كما فى قوله تعالى : « نسو الله فنسيهم » ؛ فالفعل الثانى غير مستعمل فى معناه الأصلى ، لأن الله لا يجوز عليه السهو ، بل مستعمل فى معنى الإهمال والترك المقصود على سبيل الاستعارة ؛ وقد حسن هذه الاستعارة ما تحققه من مشاكلة بين اللفظين وتجانس بين الجزاء والعمل . ومن هذا القبيل كذلك لفظ « الكأس » الذى يطلق على الظرف وعلى المظروف أى على الإناء وما يملؤه . وقد يكثر استخدام الكلمة فى ضد مدلولها عن هذا الطريق فيتناسى فيها وجه المجاز ، و يصبح إطلاقها على ما يقابل مدلولها الأصلى فى قوة استخدام اللفظ فى حقيقته[1] .

وقد يجيء التضاد فى الظاهر من دلالة الكلمة فى أصل وضعها على معنى عام يشترك فيه الضدان ، فتصلح لكل منهما لذلك المعنى الجامع . وهذا ما يسميه أحياناً علماء الأصول بالمشترك المعنوى . وقد يغفل بعض الناس عن ذلك المعنى الجامع فيظن الكلمة من قبيل التضاد . ومثال ذلك « القرء » فى إطلاقه على الحيض والطهر ؛ لأن معناه فى الأصل الوقت المعتاد ، ومن ثم يستعمل فى الحيض والطهر لأن كليهما وقت معتاد للمرأة ؛ و « الزوج » فى إطلاقه على الذكر والأنثى ؛ و « الصريم » فى إطلاقه على الليل والنهار (لأن معناه فى الأصل ما ينصرم عن شيء آخر وهـذا يصدق على الليل والنهار لأن كليهما ينصرم عن صاحبه) ؛ و « شرى » و « باع » فى إطلاق كل منهما على البيع والشراء (لأن أصل معناهما المبادلة وهى متحققة فى كلا الإجراءين) ؛ و « السُّرَر » فى إطلاقها على أوائل الشهر وأواخره (لأن معنى « السرار » ما يصل بين الشهر السابق والشهر اللاحق ؛ وهذا يصدق على أوائل الشهر وعلى أواخره) ؛ و « الصارخ » فى إطلاقه على المغيث والمستغيث (لأن المغيث يصرح بالإغاثة والمستغيث يصرخ

---

(١) وقد فطن إلى ذلك أبو على الفارسى كما تقدم بيان ذلك فى فقرة المشترك اللفظى (انظر التعليق الأول بصفحة ٢٢٧) .

بالاستغاثة ، فمعنى اللفظ متحقق فى كليهما) . ولعل من هذا القبيل لفظ « الجون » فى إطلاقه على الأبيض والأسود . فالظاهر أنه معرب لفظ « كون » الفارسى ، ومعناه فى الأصل اللون ، وهذا يصدق على الأبيض كما يصدق على الأسود [١] . ولعل منه كذلك لفظ « الجلل » فى إطلاقه على العظيم والحقير . فالظاهر أنه موضوع للغاية فى الشىء فيصدق على الأمرين معاً ، كما ذهب إلى ذلك ابن حبيب البصرى .

وقد يجىء التضاد فى الظاهر من اختلاف مؤدى المعنى الواحد باختلاف المواقع. وذلك مثل كلمة « فوق » التى قالوا إنها قد تستعمل فى ضد معناها الأصلى فتأتى بمعنى دون ، كما فى قوله تعالى : « إن الله لايستحيي أن يضرب مثلاما بعوضة فما فوقها » أى فما دونها . والحق أنها فى هذا المثال وما إليه تدل على معناها الأصلى ؛ إذ تفسير الآية ما يفوق الذبابة حقارة . فهى لم تستخدم بمعنى دون ، وإنما جاءها هذا المدلول من مؤدى معناها الأصلى فى مثل هذه الآية . ومن هذا القبيل قولنا « فتحت القنطرة » إذ نريد به أحياناً التعبير عن فتحها لمرور السفن وأحياناً التعبير عن قفلها بعد مرورها ؛ وقولنا « قفلت القنطرة » إذ نريد به أحياناً التعبير عن قفلها بعد مرور السفن وأحياناً التعبير عن فتحها لمروها . وذلك أن فتح القنطرة للسفن يستلزم قفلها فى وجه المارة ؛ كما أن قفلها بعد مرور السفن يستلزم فتحها فى وجههم . فاستعمال « فتح » فى القفل و « قفل » فى الفتح فى مثل هذين التعبيرين ليس من استعمال اللفظ فى ضد معناه ، وإنما هو استعمال اللفظ فيما يؤدى إليه معناه الأصلى وما يترتب عليه بالنسبة للمارة .

وقد تأتى بعض الأضداد من عوارض تصريفية . وذلك بأن تؤدى القواعد

---

(١) انظر القاموس المحيط جزء ٤ ، والألفاظ الفارسية المعربة للسيد أدى شير ص ٤٩ . هـذا ، ويذهب الأب مرمرجى الدومنكى إلى أن « هذه الكلمة من السريانية Gawna ومعناها اللون من باب الإطلاق ، فنقلت إلى العربية بطريق التقييد ، فجاءت عند قبيل بدلالة اللون الأبيض وعند فريق بفحوى اللون الأسود » . انظر كتابه « هل العربية منطقية » ص ١٤٤ .

الصرفية إلى أن تتفق لفظتان متقاربتان فى صيغة صرفية واحدة ، فينشأ عن ذلك لبس فى معنى الصيغة المشتركة يؤدى إلى عدها من باب الأضداد وهى ليست منه فى شيء . فمن ذلك لفظ « مرتد » الذى يقال للذى يرتد للشيء وللشيء يرتد . فمثل هذا اللفظ ينبغى أن يخرج من عداد الأضداد ، لاختلاف الأصل الذى اشتق منه . فهو إذا كان للفاعل فأصله مرتدِد بالكسر ، وإن كان للمفعول فأصله مرتدَد بالفتح ؛ واتحاد اللفظين جاء من الإدغام . ومن هذا القبيل ألفاظ المزداد والمختار والممتاز والمبتاع والمصطاد ... وهلم جرا .

***

فإذا نحن حذفنا من قائمة الأضداد التى ذكرها ابن الأنبارى وأضرابه ممن بالغوا فى إثبات التضاد ما يمكن أن يحذف على ضوء الملاحظات السابقة وما إليها ، فربما لا يبقى فى باب التضاد بمعناه الصحيح إلا مفردات قليلة .

وقد نشأ التضاد بمعناه الصحيح فى اللغة العربية من عوامل كثيرة أهمها العوامل الثلاثة الآتية :

١ — اختلاف اللهجات العربية . فبعض الألفاظ قد جاءها التضاد من اختلاف القبائل فى استخدامها ، وذلك كلفظ « وثب » المستعمل عند مضر بمعنى طفر وعند حمير بمعنى قعد[(١)] ؛ وكلفظ « السدفة » : فإنها كانت عند تميم بمعنى الظلمة وعند قيس بمعنى الضوء ؛ وكلفظ « سجد » : فإن معناه انتصب عند قبيلة طيء وانحنى وتطامن إلى الأرض عند باقى القبائل ؛ وكلفظ « لمق » : ففى لغة

---

(١) يروون بهذا الصدد قصة طريفة فى ذاتها ، وإن كان الظاهر أنها من صنع اللغويين. وملخصها أن رجلا من بنى كلاب أو من سائر بنى عامر بن صعصعة (وفى رواية أنه زيد ابن عبد الله بن دارم) وفد على ذى جدن ملك حمير ، فألفاه فى متصيد له على جبل مشرف ، فسلم عليه فقال له الملك : « ثب » يريد اجلس . فظن الرجل أنه أمره بالوثوب من الجبل . فقال : « ليعلم الملك أننى سامع مطيع » ؛ ثم وثب من الجبل فهلك . فقال الملك : « ما شأنه » . فقالوا له : « أبيت اللعن ، إن الوثب فى كلام نزار الطفر » . فقال الملك : « ليست عربيتنا كعربيتهم » . (انظر الصاحبى لابن فارس ص ٢٢ ؛ والمزهر للسيوطى الجزء الأول ص ١٩١).

بنى عقيـل يقال لمقت الشىء ألمقه لمقا إذا كتبته ، وفى لغات سائر قيس يقال لمقته إذا محوته .

٢ — التطور الصوتى . قد ينال الأصوات الأصيلة للفظ ما بعض التغيير أو الحذف أو الزيادة وفقاً لقوانين التطـور الصوتى التى تكلمنا عنها بتفصيل فى كتابنا « علم اللغة[١] » ، فيصبح متحداً مع لفظ آخر يدل على مايقابل معناه .

٣ — رجوع الكلمة إلى أصلين . وقد يكون السبب فى ذلك راجعاً إلى انشعاب الكلمة من أصلين : فتكون فى دلالتها على أحد الضدين منحدرة من أصل ؛ وفى دلالتها على مقابله منحدرة من أصل آخر . وفى هـذه الحالة نكون بصدد كلمتين لا كلمة واحدة . ويرجح هذا التأويل أو يحتمـل الصدق فى طائفة كبيرة من الأضداد . فمن ذلك مثلا « هجد » بمعنى نام وسهر : فمن المحتمل أن تكون فى معنى النوم منحدرة من هدأ إذا سكن ؛ وفى معنى السهر من جدّ إذا جهد ، لما فى السهر من الاجتهاد فى منع النـوم . ومن ذلك أيضاً « أبض » بمعنى سكن وتحرك : فمن المحتمل أن تكون فى معنى السكون منشعبة عن بض فى بضا وباض ... الخ ، بمعنى أقام وسكن ؛ وفى معنى التحرك منحدرة من أبّ الشىء إذا حرّكه . ولعـل من ذلك أيضاً « سجد » بمعنى انحنى وانتصب : فتكون فى معنى الانحناء مأخوذة من سجّ بمعنى رمى ؛ وفى معنى الانتصاب من سدّ ، لأن مايسد شيئاً يرتفع فوقه فكأنه منتصب[٢] .

(١) انظر صفحات ٢٦٠ — ٢٨٥ من الطبعة الثالثة من كتابنا « علم اللغة » .

(٢) حاول الأب مرمرجى الدومنكى أن يرجع إلى هذا العامل عددا كبيرا من الأضداد . وهو فى ذلك يبحث عن الأصول الثنائية للكلمات ؛ لأنه يرى أن الأصول الأولى للكلمات العربية ثنائية لا ثلاثية (انظر كتابه « هل العربية منطقية ، أبحاث ثنائية ألسنية » صفحات ١٣٥ — ١٤٤ ؛ وكتابه « المعجمية العربية » ص ٢٢٩) . — وانظر فى موضوع التضاد على العموم كلمة للمرحوم محمد الخضرى بك فى كتابه الأصول صفحتى ١٧٤ ، ١٧٥ ؛ والمحاضرة التى ألقاها فى مؤتمر اللغة والآداب العربية الذى انعقد فى تونس عام ١٣٥٠ هـ السيد محمد طاهر بن عاشور شيخ الإسلام المالكى بالديار التونسية (نشرت فى الجزئين ٦ ، ٧ من المجلد السادس لمجلة الهداية التى تصدر فى القاهرة =

(٢٧) المجاز والكناية والنقل

واستخدام الجمل فى غير أبوابها فى اللغة العربية

يكثر فى اللغة العربية استعمال الألفاظ والتراكيب فى غير ما وضعت له لأغراض بلاغية ، كتوضيح المعنى والمبالغة فى تقريره والإبانة عنه ، أو الإشارة إليه فى قليل من اللفظ ، أو عرضه فى صورة جذابة ... وهلم جرا . ويبدو هذا الاستعمال فى عدة مظاهر يرجع أهمها إلى الأبواب الأربعة المدونة فى عنوان هذه الفقرة .

١ — فيستخدم اللفظ أحياناً فى غير ما وضع له لتشبيه أمر بأمر فى صفة ما . ويسمى هذا « مجازاً بالاستعارة » . وهو استعارة « تصريحية » إن كانت فى الاسم وذكر المشبه به مثل « يخرجهم من الظلمات إلى النور » ؛ و « مكنية » إن حذف المشبه به ورمز إليه بخاصة من خواصه مثل « يغمر كرمه المعوزين » ؛ و « تبعية » إن كانت فى غير الاسم مثل « يلتهم العلم التهاما » .

ويستخدم اللفظ أحياناً فى غير ما وضع له لعلاقة أخرى غير المشابهة بين المعنيين كعلاقة السببية والمسببية والمجاورة والكلية والجزئية واعتبار ما كان عليه الشيء أو مايؤول إليه ... وهلم جرا ؛ ويسمى هذا « مجازاً مرسلا » ، نحو « له

= عامى ١٣٥٢ ، ١٣٥٣هـ) ؛ وكلمة نفيسة للأستاذ الدكتور منصور فهمى بك (باشا) مدير دار الكتب الملكية وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية (نشرها بالجزء الثاني من مجلة المجمع صفحات ٢٢٨ — ٢٤٤) . ومن أشهر من كتب فى هذا الموضوع من المستشرقين العلامة الألماني « ردسلوب » الذى ألف رسالة نشرها عام ١٨٧٣ فى جوتنجن بعنوان :

Th.M.Redslob : Die Arabischen Wörer mit en tgegengesetzten Bedeutungen،

والعلامة فردريك جيز F . Giese الذى كتب بحثا فى الأضداد ، جمع فيه ما ورد من ألفاظ الأضداد فى الشعر الجاهلى ، وعنوانه :

Untersuchungen über die Addâd auf grund von Stellen in Altarabischen Dichtern

علىّ يد » أى نعمة سببها اليد ، و « ينزل لكم من السماء رزقا » أى مطراً يتسبب عنه الرزق ، و « إنى أرانى أعصر خمراً » أى عنباً يؤول إلى خمر ...

ويستخدم التركيب أحياناً فى غير ما وضع له لتشبيه حالة بحالة ، كأن تقول « رمى عصفورين بحجر واحد » قاصداً التعبير عن تحقيقه غرضين بعمل واحد ، و « هو يقدم رجلا ويؤخر أخرى » قاصداً التعبير عن تردده بين الإقدام والإحجام فى أمر ما ، و « هو ينفخ فى غير فحم ، ويخط على الماء » قاصداً التعبير عن عقم أعماله وعدم جدواها . ويسمى هذا المجاز فى عرف علماء البيان « استعارة تمثيلية » .

وقد يسند الفعل إلى غير محدثه الحقيقى لغرض بلاغى ، ويسمى هذا فى عرف علماء البيان « المجاز العقلى » ، وذلك كقولك « بنى الأمير المدينة » و « قتل القائد خمسين ألفاً من جيوش الأعداء » .

٢ — وتطلق العبارة أحياناً ويراد بها ما يترتب على مدلولها ويلزمه . ويسمى هذا « كناية » فى عرف علماء البيان ، وذلك كقولك فى الكناية عن الرقة وشدة التأثر : « مس الحرير يدمى بنانه » ، وعن الترف : « نؤوم الضحى » ، وعن الكرم : « اليمن يتبع ظله » ، وعن العظمة : « المجد يمشى فى ركابه » ، وعن الفاقه : « يفترش الغبراء ويلتحف السماء » ، وعن الندم : « يقلب كفيه »[(١)] .

٣ — وقد يغلب استعمال اللفظ فى غير ما وضع له على طريق من الطرق السابقة حتى ينسلخ عن معناه الأصلى أو يكاد ، ولا ينصرف الذهن عند إطلاقه إلا إلى هذا المعنى الجديد . ويطلق علماء البيان على هذه الظاهرة اسم « النقل » .

ويبدو النقل فى العربية فى عدة صور أهمها الصور الأربع الآتية :

(ا) أن يغلب استعمال اللفظ فى معنى على سبيل المجاز لعلاقة المشابهة أو غيرها حتى يصير المعنى المجازى هو الذى ينساق إليه الذهن عند إطلاق اللفظ ؛ وذلك

---

(١) انظر تفاصيل الأمور السابقة جميعها فى مؤلفات علم البيان .

كـكلمة « الفصاحة » : فإن معناها الأصلى صفاء اللبن وذهاب رغوته ، ثم شاع استعمالها فى صفاء القول وحسن بيانه لعلاقة المشابهة بين المعنيين ، حتى أصبح المعنى المجازى هو المتبادر من اللفظ عند إطلاقه .

(ب) أن يغلب استعمال اللفظ الموضوع فى الأصل لمعنى كلى يتناول عدة جزئيات فى جزئى خاص من هذه الجزئيات ، حتى يصير هـذا المعنى الجزئى هو المتبادر منه عند الإطلاق ؛ وذلك كـكلمة « الرث » : فإن معناها الأصلى الخسيس من كل شىء ، ثم غلب استعمالها فى الخسيس مما يلبس ويفرش ، حتى أصبح هذا المعنى وحده هو الذى ينساق إليه اللفظ عند إطلاقه .

(حـ) أن يغلب استعمال اللفظ الدال على معنى خاص فى مدلول عام على طريق التوسع ، حتى يصير هذا المعنى العام هو المتبادر من اللفظ عند إطلاقه ؛ وذلك كلفظ « البأس » : فإن معناه الأصلى الحرب ، ثم غلب استعماله فى كل شدة ، حتى أصبح هذا المعنى العام هو المتبادر إلى الذهن .

(ء) أن ينقل اللفظ نقلا مقصودا من معناه الأصـلى اللغوى إلى معنى اصطلاحى علمى أو مدنى لعلاقة ما بين المعنيين ، فلا يتجه الذهن عند استخدامه فى هذه الشئون الإصطلاحية إلى غير معناه الحديث . ومن ذلك ألفاظ الصلاة والصوم والزكاة والحج .. عند الفقهاء ؛ والفاعل والمفعول والظرف والجار والمجرور والحال والتمييز ... عند النحويين ؛ والإبدال والقلب والإعلال ... عند علماء الصرف ؛ والمقدمة والنتيجة والقضية والقياس ... عند المناطقة(١) .

٤ — وكثيراً ما تتحول الجمل عن أبوابها الأصلية لأغراض بلاغية . فتستخدم الجمل الإخبارية فى أمور أخرى غير الإخبار كالالتماس أو الأمر نحو « تجيئنى غداً » ؛ أو العتاب أو التأنيب نحو « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » ؛ أو التحسر أو الفخر أو المدح أو الاسترحام ... وهلم جرا . — وتتحول جمل

---

(١) انظر فى موضوع النقل صفحات ٢٩٢ — ٢٩٤ من الطبعة الثالثة من كتابنا « علم اللغة » .

الأمر والنهى عن أبوابها فتستخدم مثلا فى الدعاء أو التهديد أو التعجيز ... وما إلى ذلك ؛ كقوله تعالى : « ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا » ، « اعملوا ما شئتم » ، « ايتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » . — وتتحول جمل الاستفهام عن بابها فتستخدم مثلا فى الأمر أو التهديد أو الاستبطاء أو الإنكار أو التعجب أو التهكم أو الفخر أو المدح أو تقرير المعنى وتوكيده ... وما إلى ذلك ؛ كقوله تعالى : « فهل أنتم منتهون ؟ » ، « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ » و « اصطفى البنات على البنين ؟ » ؛ وكقول الشاعر : « وهل بفتى مثلى على حاله نكر ؟ » ، وكقول الآخر :

« ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح ؟ »

وتتحول الجمل الدعائية عن بابها فتستخدم للدلالة على التعجب أو زيادة التنبيه أو توكيد الكلام ... وما إلى ذلك ، نحو « قاتله الله ما أشعره » ، « ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم » ، و « ثكلتك أمك ، وهل يكب الناسَ فى النار على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم » ، « فهو لا يُنمِى رَميَّته رميته ماله لا عُدَّ من نَفَره » ،

« هوت أمه ما يبعث الصبح غاديا وماذا يؤدى الليل حين يؤوب[1] »

* * *

وقد كان للأبواب السابقة جميعاً فضل كبير فى سمو الأساليب العربية ، وشدة تأثيرها فى النفوس ، وقوة بلاغتها ، وحسن بيانها ، ومرونة تعبيرها ، ومطابقتها لمقتضيات الأحوال ، وما وصلت إليه من مكانة منقطعة النظير فى ميادين

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتب « علم المعاني » فقد جرت العادة بالكلام عنه فى هذا العلم ، مع أنه بموضوعات علم البيان ألصق .

هذا ، وأما ما يسمونه «التشبيه» الذى يتحقق فى العبارات التى يذكر فيها المشبه والمشبه به مع إبقاء أداة التشبيه أو حذفها ، نحو فلان كالأسد أو فلان أسد ، فهو خارج عن هذا الباب كله ، إذ ليس فيه استخدام للكلمات ولا للجمل فى غير ما وضعت له .

الشعر والخطابة والنثر الفنى ومختلف فروع الآداب .

وللمجاز والنقل على الأخص أثر جليل فى اتساع العربية ونموها وقدرتها على التعبير على المعقولات المحضة ومعنويات الأمور . فكثير من الألفاظ العربيـة الدالة على المعانى الكلية والظواهر النفسية منقولة فى الأصل من الأمور الحسية عن طريق المجاز ، ثم شاع استعمالها فى معانيها الجديدة حتى أصبح إطلاقها عليها من قبيل الحقيقة اللغوية .

وبفضل المجاز والنقل اتسعت اللغة العربية للعلوم والفنون على اختلاف أنواعها وللحضارة على كثرة مظاهرها ، فنهضت بالعلوم الشرعية واللغوية والطبيعية والرياضية وعلوم النفس والاجتماع ، وصارت لسان الفلسفة والسياسة والقصص والصناعة والفن ومختلف ضروب المعاملات : وبالجملة لم تقف أمام أى مظهر من مظاهر العلم أو الحضارة وقفة المتعثر الحائر ، بل خاضت فى مختلف مناحى القول ، وقويت على التعبير عن شتى مظاهر التفكير .

هذا ، وقد اختلف العلماء فى شأن المجاز ومبلغ وروده فى اللغة العربية . فذهب فريق على رأسه أبو إسحاق الأسفرايني إلى إنكاره بالمعنى الذى شرحناه ، وزعم أن العرب قد وضعت الألفاظ لمختلف المعانى التى استخدمت فيها ، سواء فى ذلك المعانى التى نسميها حقيقية والمعانى التى نسميها مجازية . فالعرب فى نظر هؤلاء قد وضعت كلمة « الأسد » للحيوان المفترس وللرجل الشجاع ، ووضعت كلمة « الغيث » للنبات كما وضعتها للمطر . وحجة هذا المذهب أن المجاز تجوز باللفظ عن وضعه الأصلى إلى غيره ، « وهذا يستدعى منقولا عنه متقدما ومنقولا إليه متأخراً . وليس فى لغة العرب تقديم وتأخير ؛ بل إن العرب قد نطقت فى كل زمان ومكان بالحقيقة كما نطقت بالمجاز ... فجعل أحد المعانى حقيقة والآخر مجازا ضرب من التحكم[١] » . — وهذا المذهب ظاهر الفساد ؛ وقد بلغ دليله فى الوهن والمغالطة درجة لا يستحق معها عناء المناقشة[٢] .

---

(١) نقلا عن المزهر للسيوطى جزء أول صفحتى ١٧٤، ١٧٥ مع بعض تصرف فى العبارة .

(٢) عنى بالرد عليه — مع أنه لا يستحق عناء ذلك — السيوطى فى مزهره . انظر الجزء الأول ص ١٧٤ وتوابعها .

وذهب فريق آخر ، على رأسه ابن جنى ، إلى أن التجوز هو الغالب فى اللغة العربية . وقد لجأ هذا الفريق إلى التعسف فى تأييد مذهبه ، فعمد إلى كثير من التراكيب العربية الواردة عن طريق الحقيقة واحتال فى تأويلها على صورة متكلفة تجعلها من قبيل المجاز . وإليك مثلا مما وصل إليه ابن جنى فى هذا السبيل إذ يقول : « إعلم أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة ، ألا ترى أن نحو « قام زيد » معناه كان منه هذا القيام ، أى هذا الجنس من الفعل . ومعلوم أنه لم يكن منه جميع القيام . وكيف يكون ذلك وهو جنس ، والجنس يطلق على جميع الماضى وجميع الحاضر وجميع الآتى من كل من وجد منه القيام . ومعلوم أنه لا يجتمع لإنسان واحد ، فى وقت واحد ولا فى أوقات ، القيامُ كله الداخل تحت الوهم : هذا محال . فحينئذ « قام زيد » مجاز لا حقيقة على وضع الكل موضع البعض للاتساع والمبالغة وتشبيه القليل بالكثير ... ومن ذلك أيضاً قولك : « خرجت فإذا الأسد » . ذلك أنك لا تريد أنك خرجت وجميع الأُسد التى يتناولها الوهم على الباب : هذا محال . وإنما أردت فإذا واحد من هذا الجنس على الباب ، فوضعت لفظ الجماعة على الواحد مجازاً ... ومن ذلك أيضاً « جاء الليل » و « انصرم النهار » وكذلك « ضربت زيدا » ؛ لأن المضروب بعضه لا جميعه ... »[1] . — ولا يقل هذا المذهب فساداً عن المذهب السابق ؛ والحجج التى اعتمد عليها أنصاره فى تأييده والتى تقدم لك مثال منها ، تحمل هى نفسها دليل تعسفه وبطلانه .

والحق أن المجاز بالمعنى الذى شرحناه قد كثر وروده فى اللغة العربية ، خلافا لما يزعمه الفريق الأول ، وأن العرب قد توسعوا فيه ، وخاصة فى الشعر والنثر الفنى والخطابة وفى لغة الآداب على العموم . ولكن من التعسف المبالغة فى

---

(١) نقلا عن المزهر للسيوطى الجزء الأول صفحتى ١٧٠ ، ١٧١ .

مبلغ وروده ومحاولة إدخال معظم التراكيب العربية فى باب المجاز كما فعل الفريق الثانى .

* * *

وقد اختلف العلماء كذلك فى قياسية المجاز والنقل . فبعضهم بالغ فى تضييق الدائرة ، فلم يبح استعمال لفظ فى معنى مجازى إلا إذا كان العرب قد استعملوه فى هذا المعنى . فبمقتضى هذا المذهب لا يجوز لنا نقل لفظ من معناه الأصلى إلى معنى مجازى لم ينقله إليه العرب ، وإن كان بين المعنيين علاقة من تلك العلاقات المقررة فى علم البيان . فلا يجوز أن نستعير لفظ « الغضنفر » مثلا للرجل الشجاع إلا إذا ثبت أن العرب استعاروه له كما استعاروا له لفظ « الأسد » .

ولا يخفى ما فى هذا المذهب من فساد ، وما يترتب على الأخذ به من تضييق لمجال القول ، وإيصاد لمناحى البيان ، وقضاء على العربية بالجمود والعجز عن التعبير عما يجد فى شئون الحضارة والاجتماع والعلوم والفنون .

ومعظم العلماء يرى قياسية المجاز والنقل . فيبيح استعمال اللفظ فى غير ما وضع له على طريق المجاز ، أو نقله من معناه الأصلى إلى معنى اصطلاحى متى تحقق بين المعنيين علاقة من العلاقات المقررة فى علم البيان والتى جرت عادة العرب أن يعتمدوا عليها فى تعبيرهم المجازى .

وعلى هذا المنهج سار القدامى من العلماء والأدباء ، وتابعهم المحدثون فى مختلف العصور وشتى الأمم الناطقة بالضاد . وبفضل هذا المنهج اتسع فن البيان العربى ، وأحرزت اللغة ثروة كبيرة ، واتسعت للعلوم والفنون ومختلف مظاهر الحضارة كما سبق بيان ذلك[1] .

ويزيد هذا المذهب تأييداً ما يسلكه أئمة اللغة فيما جمعوه من المعجمات . « فإنهم يقصدون فى كتبهم لبيان المعانى الحقيقية . ولو كان استعمال اللفظ على

---

(١) انظر آخر صفحة ٢٢٨ وأول صفحة ٢٢٩ .

سبيل المجاز موقوفاً على النقل لدعاهم الاحتفاظ بهذا الفن من البيان أن يلتزموا ، بعد بيان المعانى الحقيقية ، ذكر المعانى التى استعمل فيها العرب اللفظ على وجه المجاز ؛ وما رأيناهم يفعلون . ولا يقصد الزمخشرى بتعرضه فى كتاب « أساس البلاغة » للمعانى المجازية بعد الحقيقية أن يقصر المجاز على تلك الألفاظ ، ولا أن يحجر على الناس التصرف فى تلك الألفاظ بنقلها إلى معان لم ينقلها إليها العرب ؛ وإنما قصده التنبيه على جانب عظيم من أساليب البلغاء وتصرفاتهم فى المعانى ليقتدى بهم الناشئون [١] » .

غير أن صحة استعمال اللفظ فى غير ما وضع له لا تتوقف على وجود العلاقة فحسب ، بل تتوقف كذلك على توافر الشروط التى يشترطها علماء البيان بصدد هذه العلاقة إن كانت لهم شروط بصددها . فهم لا يكتفون مثلا « فى إطلاق اسم الشىء على ضده بعلاقة التضاد ، حتى يفيد معنى لطيفاً ، كالتهكم فى تسمية قبيح المنظر قمراً ، أو التفاؤل كتسمية الصحراء مفازة ، أو اللسيع سليما . ولا يجيزون تسمية الشىء باسم ما كان له ثم انقطع حتى صار الشىء متلبساً بضد ما كان عليه ، كمن صار إلى الشيخوخة ، ليس لك أن تطلق عليه اسم الطفل مراعياً علاقة أنه كان طفلا . فإن سميته طفلا لصغر عقله أو قلة تجاربه ، فقد خرجت من علاقة التضاد إلى علاقة المشابهة . ولا يكتفون فى إطلاق الجزء على الكل بعلاقة الجزئية ، حتى يكون للجزء مزيد اختصاص بالمعنى الذى يقصد من الكل ، نحو « عين » تستعمل فى الجاسوس ، لأن للعين مزيد اختصاص بحرفة التجسس [٢] » .

وللذوق السليم كذلك « مدخل فى الحكم على بعض الاستعمال المجازى بالرد

(١) من مقال للأستاذ الخضر حسين بالجزء الأول من مجلة المجمع اللغوى ص ٢٩٥ .

(٢) انظر المرجع السابق صفحتى ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

أو القبول . فإطلاق الحلواء على البنين لا يخلو من علاقة المشابهة ، ولكن الذوق يمجه كما يمج استعارة ماء الملام[1] » .

* * *

هذا ، وقد كثر استخدام العرب لبعض المفردات فى غير ما وضعت له ، فاشتبه أمرها على كثير من جامعى المعجمات ، فعدوا بعض المعانى المجازية من قبيل الحقائق اللغوية . ولم يعن بالتفرقة بين معانى الكلمة الحقيقية ومعانيها المجازية إلا عدد قليل من أشهرهم الزمخشرى فى كتابه « الأساس[2] » .

(٢٨) أساليب اللغة العربية

واختلافها باختلاف الموضوعات ، الخيال فى العربية ومادته

تسير أساليب اللغة وفقاً لقواعد كثيرة يرجع أهمها إلى ثلاث طوائف :

إحداها القواعد المتعلقة باستخدام المفردات والتراكيب في معانيها الأصلية والخروج بها عن هذه المعانى ؛ وهى القواعد التى يسير عليها الأسلوب العربى بصدد الحقيقة والتشبيه والمجاز والكناية والنقل ... وما إلى ذلك . ولشرح هذه النواحى ومواطن استخدام كل منها وشروطه أنشئ علم خاص هو « علم البيان » . وقد عرضنا لمسائله في الفقرة السابقة بالقدر الذى يتصل بموضوع هذا الكتاب .

وثانيتها القواعد المتعلقة بمطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال ؛ وهى القواعد التى يسير عليها الأسلوب العربى بصدد توكيد الكلام وإطلاقه ، والإطناب في

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩٦ . وقد استخدم المجاز الأول المتنبى فى قوله :

وقد ذقت حلواء البنين على الصبا　　　فلا تحسبنى قلت ما قلت عن جهل

واستخدم المجاز الثاني أبو تمام فى قوله :

لا تسقنى ماء الملام فاننى　　　صب قد استعذبت ماء بكائى

(٢) انظر فى موضوع المجاز والنقل والكناية الجزء الأول من مجلة المجمع اللغوى صفحات ٢٩١ — ٣٠٣ ، والصاحبى لابن فارس ١٦٧ — ١٧٠ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ؛ والمزهر للسيوطى الجزء الأول ١٦٩ — ١٧٧ ، ٢٠٤ — ٢٠٩ .

القول والايجاز فيه ومساواته لما يراد التعبير عنه ، وطرق استخدام الجمل الإخبارية والإنشائية ، وفصل الجمل بعضها عن بعض أو وصلها ، وقصر الحكم وتخصيصه ، وذكر جميع عناصر العبارة وحذف بعضها ، وتقديم بعض هذه العناصر على بعض ، وتعريفها وتنكيرها ... وهلم جرا . ولشرح هذه القواعد وأسباب تحقيقها لبلاغة الكلام ومطابقته لمقتضى الحال أنشئ علم خاص هو « علم المعانى » .

وثالثها القواعد المتعلقة بما تتضمنه العبارات العربيـة أحياناً من محسنات لفظية ومعنوية لا تتصل باستخدام الألفاظ والجمل فيما وضعت له وفى غير ما وضعت له ولا تتوقف عليها مطابقة الكلام لمقتضى الحال ؛ وذلك كالقواعد الخاصة بالجناس والمقابلة والتورية والطباق وحسن التعليل وتوكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه وتجاهل العارف .. وهلم جرا . ولشرح هذه القواعد ومواطن استخدامها ووجوه تجميلها للعبارة أنشئ علم خاص هو « علم البديع[1] » .

وإن إلمامة بهذه الطوائف من القواعد لكافية فى الدلالة على سمو الأساليب العربية ، ودقتها فى الإفادة ، ومرونتها فى التعبير ، وحرصها على جمال اللفظ وبلاغة القول ، وتوخيها الوصول إلى الغرض عن أقرب الطرق ، وأوضحها بياناً ، وأشدها أثراً فى النفوس ، وأكثرها ملاءمة لمقتضيات الأحوال .

هذا ، وتختلف الأساليب العربية تبعاً لاختلاف فنون القول وما يمتاز به كل فن منها : الشعر ؛ النثر الأدبى ؛ الرسائل ؛ الخطابة ؛ القصة ؛ التاريخ ؛ القانون ؛ تدوين العلوم ... الخ . وذلك أن كل فن من هذه الفنون يختلف عما عداه فى طبيعته وموضوعاته وأغراضه البيانية ، وخطته فى الاستدلال ، وصلته بمناحى الإدراك والوجدان ، ومبلغ نشاط المشتغلين به ، وما يخترعونه من اصطلاحات ،

---

(١) يذهب فريق من العلماء إلى أن المحسنات البديعية يتصل بعضها بموضوع علم البيان، وبعضها الآخر بموضوع علم المعاني ، ولذلك رأى عدم الحاجة إلى علم البديع وتوزيع موضوعاته بين هذين العلمين .

وينشئونه من مناهج ، ويقتبسونه من اللغات الأخرى من طرق وأفكار ... وهلم جرا . وغنى عن البيان أن الاختلاف فى هذه الأمور وما إليها يؤدى حتما إلى اختلاف كل فن من هذه الفنون عما عداه فى أساليبه . وقد اتسعت فى اللغة العربية مسافة الخلف بين هذه الفنون ، وخاصة فى العصور الحديثة ، حتى تميزت أساليب كل منها تميزاً واضحاً عن أساليب ما عداه : فبمجرد سماع عبارة عربية يستطاع بسهولة ، على ضوء أسلوبها ، معرفة الفن الذى تتصل به ، والحكم عليها إن كانت شعرا أم خطابة أم رسالة أم مقالا صحفيا أم بحثاً علميا ... إلى غير ذلك .

ومن أهم هذه الفنون ما يسمونه « فنون الأدب » وهى فنون الشعر والنثر الفنى والرسائل والقصة والخطابة وما إلى ذلك . وتمتاز هذه الفنون عما عداها بأن ما يتخذه غيرها مجرد وسيلة تتخذه هى من أهم غاياتها ، وتوجه نحوه أكبر قسط من العناية . ففى جميع الشعب الأخرى (العلوم ، الفلسفة ، التاريخ ...) يتخذ الكلام مجرد وسيلة للتعبير عن الحقائق . أما فى هذه الشعبة فيتخذ البيان نفسه غرضاً فى ذاته ويوجه إلى تجويده أكبر قسط من المجهود . فأهم ما يقام له وزن فى « فنون الأدب » هو جمال القول ، ورقة الأسلوب ، وحسن البيان ، وبلاغة التعبير .

وتنقسم « فنون الأدب » نفسها أقساماً كثيرة ، أهمها الشعر وملحقاته ، والنثر الفنى ، والرسائل ، والخطابة ، والقصة . ويختلف كل فن من هذه الفنون عن إخوته فى طبيعته ، وموضوعاته ، وأغراضه ، ومواطن استخدامه ، ومقدار صلته بالوجدان والإدراك ، ومبلغ نشاط المشتغلين به ، وما ناله على أيديهم من تطور وتجديد . وقد ترتب على ذلك أن كان لكل فن منها أساليبه الخاصة ، ومميزاته اللغوية ، وخصائصه فى النظم والوزن ، والتأليف والموسيقى ، وجرس الألفاظ ، وتركيب الجمل ، وطريقة الاستدلال ، وعرض الحقائق .

وأهم ما يمتاز به الشعر عن إخوته أنه يتجه أولا بالذات إلى مخاطبة الوجدان والعواطف لا الإدراك والتفكير ، وأن غرضه الأساسى هو الإيحاء بالحقائق والإحساسات لا شرح المسائل وتقريبها إلى الأذهان . ولذلك يسيطر على أساليبه الخيال ، ويكثر فى عباراته التشبيه واستخدام الكلمات والعبارات فى غير ما وضعت له عن طريق المجاز والكناية ، ويبدو فيه النفور من تحليل الحقائق ، وكره التعمق فى الشرح والاستدلال . أما نظم العبارات فى أوزان خاصة فليس شرطا أساسياً فى الشعر : فإذا توافرت الصفات السابقة فى كلام منثور اعتبر شعرا فى الاصطلاح الأدبى ؛ وإن جنح كلام منظوم إلى الشرح والاستدلال والتعمق فى توضيح الحقائق ، وتغلبت فيه وجهة الدلالة على وجهة الإيحاء والتأثير ، فإنه لا يعد شعراً على الرغم من أوزانه وقوافيه .

* * *

هذا ، ومما تقدم فى هذه الفقرة وفى الفقرة السابقة يتبين مبلغ انتفاع الأساليب العربية بالخيال ، ومدى استخدامه فى مختلف الموضوعات ، وأثره فى دلالة الألفاظ. أما مادة هـذا الخيال ، أى المعين الذى تقتبس منه عناصره ، فقد اختلفت باختلاف البيئات والأمم والعصور : فتأثرت فى كل بيئة بمقوماتها الطبيعية والاجتماعية ، وما تشتمل عليه من شئون ، وتوحى به من اتجاهات ؛ وفى كل أمة بنظمها الخاصة ، وأساليب حياتها ، وما وصلت إليه فى سلم الارتقاء المادى والمعنوى ؛ وفى كل عصر بنزعاته العامة ، ودرجة حضارته ، وما جرى فيه من أحداث ... كما ترى ذلك مفصلا فى كتب « أدب اللغة العربية » و « تاريخ الأدب العربى » .

(٢٩) الدخيل فى اللغة العربية

المعرب والأعجمى المولد

يراد بالدخيل ما دخل اللغة العربية من مفردات أجنبية ، سواء فى ذلك ما استعمله العرب الفصحاء فى جاهليتهم و إسلامهم ، وما استعمله من جاء بعدهم من المولدين . وقد اصطلح المحدثون من الباحثين على أن العرب الفصحاء هم عرب البدو من جزيرة العرب إلى أواسط القرن الرابع الهجرى وعرب الأمصار إلى نهاية القرن الثانى الهجرى (ويسمون هذه العصور « بعصور الاحتجاج » كما سبقت الإشارة إلى ذلك)[1] ، وأن المولدين هم من عدا هؤلاء ولو كانوا من أصول عربية . و يطلق على القسم الأول من الدخيل ، وهو ما استعمله فصحاء العرب إسم « المعرب » ؛ وعلى القسم الثانى منه ، وهو ما استعمله المولدون من ألفاظ أعجمية لم يعربها فصحاء العرب ، اسم « الأعجمى المولد » .

والعامل الرئيسى فى دخول هذه المفردات يرجع إلى ما أتيح للشعوب الناطقة بالعربية من قبل الإسلام ومن بعده من فرص للاحتكاك المادى والثقافى والسياسى بالشعوب الأخرى ، وما نجم عن هذا الاحتكاك وعن التطور الطبيعى للحضارة العربية من ظهور مستحدثات لم يكن للعرب ولا للغتهم عهد بها من قبل فى ميادين الاقتصاد والصناعة والزراعة والتجارة والعلوم والفلسفة والآداب والدين ومختلف مناحى السياسة والاجتماع[2] .

فقد توثقت العلاقات المادية والسياسية منذ أقدم العصور بين العرب وجيرانهم الآراميين فى الشمال عن طريق التجارة والهجرة والرحلات وامتزاج بعض قبائل أرامية بالعالم العربى فى الحجاز نفسه أو على تخومه . وكان من آثار ذلك أن انتقل

(١) انظر ص ١٣٩ .

(٢) انظر النواميس العامة التى يخضع لها انتقال المفردات من لغة إلى لغة فى صفحات ٢٢٩ — ٢٣٣ من الطبعة الثالثة لكتابنا « علم اللغة » .

إلى اللغة العربية كثير من مفردات اللغة الآرامية ، وخاصة المفردات المتصلة بمظاهر الحياة الحضرية وما إليها من الأمور التى لم تكن مألوفة فى البيئة العربية الأولى ، والألفاظ المتعلقة بمنتجات الصناعة وشئون التفكير الفلسفى وما وراء الطبيعة كما تقدمت الإشارة إلى ذلك[١] .

ولم يكن ما أتيح للعرب من فرص للاحتكاك بجيرانهم الآراميين فى الشمال شيئاً مذكوراً بجانب ما أتيح لهم من فرص للاحتكاك بجيرانهم اليمنيين فى الجنوب . فقد كانت العلاقات الثقافية والاقتصادية والدينية على أقوى ما يكون بين الشعبين . وقد هاجر ، فضلا عن ذلك ، إلى بلاد العرب ، منذ عصور سحيقة فى القدم ، كثير من القبائل اليمنية ، وخاصة قبائل معين وخزاعة والأوس والخزرج ، وتألفت منهم هناك جاليات قوية امتزجت بالعرب كل الامتزاج . وكانت الرحلات العربية إلى بلاد اليمن للتجارة وغيرها لايكاد يخلو منها فصل من فصول السنة . ومع أن هذا الاحتكاك قد انتهى بتغلب العربية على اليمنية ، فقد انتقل فى أثنائه إلى اللغة الغالبة كثير من مفردات اللغة المغلوبة[٢] .

وقد نشأ بين الأحباش والعرب ، وخاصة عرب اليمن فى الجنوب ، منذ أقدم العصور روابط وثيقة فى ميادين السياسة والثقافة والاقتصاد ، وأتيح للشعبيين ولغتيهما مجال واسع للاحتكاك والتبادل الثقافى . فانتقل عن هذا الطريق كذلك إلى اللغة العربية عدد غير يسير من مفردات اللغة الحبشية .

ثم أدت الفتوح العربية بعد الإسلام إلى احتكاك العرب وامتزاجهم بكثير من الشعوب التى لم يتصلوا بها من قبل أو كان اتصالهم بها ضيق النطاق محدود الآثار . وقد نجم عن هذا الاحتكاك وعن التطور الطبيعى للحضارة العربية أن ظهرت مستحدثات كثيرة لم يكن للعرب عهد بها من قبل فى ميادين الاقتصاد والسياسة والاجتماع والإنتاج الفكرى . فانتقل من جراء ذلك إلى اللغة العربية

---

(١) انظر ص ١٢٤ .

(٢) انظر ص ١٢٥ .

و إلى اللغات العامية المتفرعة منها عدد كبير من مفردات اللغات الفارسية والسريانية واليونانيــة والتركية والــكردية والقبطية والبربرية والقوطية . وقد ظهرت آثار اللغات الثلاثة الأولى فى ألسنة فصحاء العرب أنفسهم فى العصور التى اصطلح على تسميتها « بعصور الاحتجاج » . وكان أظهرها أثراً الفارسية فالسريانيــة ، وأقلها أثراً اللغة اليونانية ، إذ لم ينتقــل منها إلى العربية بشكل مباشر فى هذه العصور إلا قليل من المفردات ، و إن كان قد انتقل إليها كثير منها عن طريق اللغة السريانية (انجيل ، اسطوانة ، اسقف ، ناموس ، اسفنج ... الخ) . أما اللغات الخمس الأخيرة فلم تــكد تظهر آثارها بصورة واضحة إلا فى لغات المولدين وفى اللهجات العامية المنشعبة عن العربية فى العراق والشام ومصر و بلاد المغرب .

وقد أتيح للغة العربية ولهجاتها العامية فى أثنــاء الحروب الصليبية فرص للاحتكاك باللغات الأوروبية الحديثة . فانتقل إليها على أثر ذلك بعض مفردات من هذه اللغات . وفى العصور الحاضرة كثرت فرص هــذا الاحتكاك وتنوعت أسبابه تبعاً لتوثق الروابط الاقتصادية والسياسية والثقافيــة بين شعوب أوروبا والأمم الناطقة بالعربية ، وتبادل البعثات العلمية ، وكثرة عدد الجاليات الأوروبية فى الشرق ، وترجمة منتجات الفرنجة إلى اللغة العربية . فانتقل من جراء ذلك إلى لغة الــكتابة العربية و إلى اللهجات العامية مجموعة كبيرة من مفردات اللغات الأوروبية فى شئون السياسية والاجتماع ومنتجات الصناعة ومصطلحات العلوم والفنون ... وما إلى ذلك .

***

هذا ، وكثيرمن الــكلمات الأعجمية التى دخلت اللغة العربية يوجد لها نظائر فى مفردات هذه اللغة أو يمــكن أن يشتق لها نظائر من مفرداتها . وقد كثر دخول هذا النوع من الــكلمات فى اللغة العربية عند ما توغل الباحثون فى ترجمة العلوم اليونانية والهندية ، وكان الفصحاء قد انقرضوا من الأمصار ، وتولى الترجمة بعض مستعربة الأعاجم ممن لم تستحكم مِرّتهم فى العربية ، فعجزوا عن ترجمة بعض

الألفاظ الأعجمية مع وجود مرادف لها فى العربية ، ودونوا ما كان العرب لا يعرفونه من أصناف الحيوان والنبات بأسمائها الأعجمية ، واستعمل فلاسفة الإسلام وأطباؤهم هذه الألفاظ ، وخاصة من كان منهم من سلالات أعجمية كالفارابى والرازى وابن سينا .

غير أن هذه الظاهرة ليست مقصورة على الألفاظ المولدة ، بل تتحقق كذلك فى بعض المفردات الأعجمية التى استعملها فصحاء العرب أنفسهم فى جاهليتهم و إسلامهم . فقد جرى على ألسنتهم كلمات أعجمية كثيرة لم تدع إليها حاجة ماسة لوجود نظائرها فى لغتهم ، و إنما دعت إليها عوامل الاحتكاك اللغوى .

و بعض هذه المفردات المعربة أخذ يتغلب على مرادفه العربى شيئاً فشيئاً حتى قذف به فى زوايا النسيان . فمن ذلك مثلا ألفاظ الورد والنرجس والياسمين والمسك والتوت والباذنجان والكوسج والهون والطاجن والإبريق والديدبان والرصاص والميزاب واللوبياء والفالوذج . فقد قضت هذه الألفاظ أو كادت تقضى على نظائرها العربية وهى الحَوْجم والعبهر والسمسق والمشموم والفرصاد والحدج والإثط والمهراس (أوالمِنْحار) والمقلى والتامورة والعين والصرفان والمَثْعب والدَّجر والمَبْرت والسرطراط[1] . ولعل اتصال هذه المفردات وما إليها بأمور اختص بها الأعاجم ، أو برّزوا فيها ، أو امتازوا بإنتاجها و كثرة استخدامها ، أو كان ارتباطها بمظاهر حضارتهم أوثق من ارتباطها بمظاهر الحضارة العربية ... لعلّ ذلك وما إليه كان له بعض الأثر فى انتقال هذه المفردات إلى ألسنة العرب وتغلبها على نظائرها فى لغتهم . ولعل خفة بعضها وثقل نظائرها العربية على اللسان كان لهما كذلك شىء من الأثر فى انتقالها وتغلبها .

على حين أن بعضها — على عكس ذلك — قد ضعف عن منافسة مرادفه

(١) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع اللغوى ٣٢٦ ، ٣٢٧ والجزء الأول من المزهر للسيوطى ١٣٦ ، ١٣٧ .

العربى فقل استعماله . فمن ذلك مثلا ألفاظ البوصى والجردقة والقيروان والسجنجل والموزج والقومس . فقد قل استعمال هذه المفردات لضعفها عن منافسة نظائرها العربية وهى السفينة والرغيف والجماعة من الخيل والمرآة والخف والأمير .

* * *

ومن المقرر أن الكلمات المقتبسة تخضع للأساليب الصوتية فى اللغة التى اقتبستها ، فتتشكل فى الصورة التى تتفق مع هذه الأساليب ، وينالها من جراء ذلك بعض التحريف فى أصواتها وأوزانها وطريقة نطقها ، وتبعد فى جميع هذه النواحى أو فى بعضها عن صورتها الأولى [١] . وهذا هو ما حدث للكلمات التى اقتبستها العربية فى مختلف عصورها عن اللغات الأخرى .

وباستقراء مظاهر التحريف التى لحقت الكلمات الأعجمية المعربة (أى التى جرت على ألسنة الفصحاء من العرب فى عصور الاحتجاج) يتبين أنها ترجع إلى نوعين : تحريف فى الأصوات ؛ وتحريف فى الأوزان .

أما التحريف فى الأصوات فكان يحدث تارة بزيادة أصوات ساكنة أو لينة (أصوات مد طويلة أو قصيرة) لم تكن فى بنية الكلمة الأعجمية ؛ وتارة بحذف أصوات من بنيتها ؛ وتارة باستبدال أصوات ببعض أصواتها الأصلية ؛ وكثيراً ما كان ينال الكلمة الواحدة جميع هذه التغييرات أو معظمها . — والأصوات الساكنة التى كان يستبدل غيرها بها كانت فى الغالب من الأصوات التى لا توجد فى اللغة العربية . ففى معظم الكلمات استبدل بالأصوات التي من هذا النوع أصوات عربية قريبة منها فى المخرج ؛ وفى كلمات قليلة استبدل بها أصوات بعيدة عنها فى المخرج . فالصوت الذى بين الجيم والكاف مثلا G استبدل به أحياناً صوت الجيم العربية ، وأحياناً صوت الكاف ، وأحياناً صوت القاف : الكربج أو القربج أو القربق (وهو الحانوت) ؛ والصوت الذى بين الفاء والباء V

(١) انظر صفحتى ٢١٣ ، ٢١٤ من الطبعة الثالثة من كتابنا « علم اللغة » .

استبدل به أحياناً صوت الفاء وأحياناً صوت الباء : فرند السيف أو برنده . وبعض الكلمات الأعجمية نالها هذا الإبدال بدون ضرورة صوتية تدعو إليه . فمن ذلك مثلا أصوات اللين الطويلة (الألف والياء والواو) والقصيرة (الفتحة والكسرة والضمة) التى استبدل بعضها ببعض فى كثير من الكلمات المعربة . ومن ذلك أيضاً بعض الأصوات الساكنة : كصوت الشين الذى استبدل به السين فى مثل إسماعيل وسراويل ودست ونيسابور[١] ؛ وصوت الهاء الذى استبدل به الجيم فى مثل كوسج[٢] (وهو الذى لا شعر على عارضيه) . ولعل وقوع الهاء فى مثل الكلمة الأخيرة فى موضع لم تألف العربية وضعها فيه (آخر الكلمة) هو الذى عرضها لهذا الإبدال[٣] .

وأما التحريف فى الأوزان فكان نتيجة للتحريف فى الأصوات . وذلك أن زيادة أصوات على الكلمة أو حذف بعض أصواتها الأصلية ، أو تغيير بعض أصواتها اللينة (الحركات أو حروف المد الطويلة) بأصوات لينة أخرى ، كل ذلك يؤدى لا محالة إلى انحراف وزنها عن وضعه القديم . وقد أدى هذا الانحراف بكثير من الكلمات العربية أن أصبحت أوزانها على غرار الأوزان العربية ؛ وذلك مثل كلمات درهم وبهرج ودينار وديباج وجورب ؛ فقد أصبحت ، بفضل ما دخلها من التغير ، على أوزان كلمات عربية مثل هِجرع (وهو الأحمق) وسهلب (الرجل الطويل) وديماس (وهو الحمام) وجُهْور (وهو الفرس الذى ليس بغليظ الصوت ولا أغنه) . وبعض الكلمات المعربة ظلت أوزانها غريبة عن الأوزان العربية ، إما لأنه لم يدخلها تغيير فى هذه الناحية ، وإما لأن ما دخلها

(١) أصل هذه الكلمات إشمائيل وشراويل ودشت ونيشابور .

(٢) وأصلها « كوسه » .

(٣) يندر وجود الأسماء العربية المنتهية بهاء ، ويلاحظ أن التاء المربوطة ترمز إلى صوت آخر غير صوت الهاء وإن كان يوقف عليها بالهاء .

من التغيير لم يصل بها إلى حدود هذه الأوزان : خراسان . آجر . . . الخ .

***

وكثير من الكلمات الدخيلة قد تغير كذلك مدلوله فى العربية عما كان عليه فى لغته الأولى . فبعضها قد خصص معناه العام وقصر فى العربية على بعض ما كان يدل عليه[1] ؛ وبعضها عمم مدلوله الخاص فأطلق على أكثر مما كان يدل عليه ؛ وبعضها استعمل فى غير ما وضع له لعلاقة ما بين المعنيين ؛ وبعضها انحط إلى درجة وضيعة فى الاستعمال فأصبح من فحش الكلام وهجره مع أنه ما كان يستعمل فى لغته الأصلية على هذا الوجه ؛ وبعضها سما إلى منزلة راقية فأصبح من نبيل القول ومصطفاه .

***

وقد عنى علماء اللغة بتمييز الكلمات الدخيلة وحصرها وألف بعضهم فى ذلك مؤلفات على حدة[2] . ويظهر مما كتبوه بهذا الصدد أن الكلمات المعربة ، وهى التى استعملها الفصحاء من العرب لاتعدو نحو ألف كلمة[3] .

ووضع بعضهم علامات عامة يتميز بها كثير من الكلمات الدخيلة . ومن هذه العلامات أن تكون الكلمة مخالفة للأوزان العربية (إبريسم ، خراسان ، آمين ، جبريل ...) ؛ أو أن تكون فاؤها نوناً وعينها راء (نرجس ، نرد ، نرجيل ، نورج ...) ؛ أو أن تنتهى بدال فزاى (مهندز وقد قلبت زايه سيناً فى تعريبها) ؛ أوأن تشتمل على الجيم والصاد (جص ، صنج ، صولجان ...) أوعلى الجيم والقاف (المنجنيق ، الجوقة ، الجوالق وهى وعاء ، الجردقة وهى اسم

(١) من ذلك مثلا « الجون » فإن معناه فى الفارسية اللون على العموم ، ولكنه قصر فى العربية على الأبيض والأسود .

(٢) انظر فى ذلك مثلا شهاب الدين الخفاجى : « شفاء العليل فيما ورد فى كلام العرب من الدخيل » ؛ وأبا منصور الجواليق : « المعرب من الكلام الأعجمى » .

(٣) الجزء الأول من مجلة المجمع اللغوى ، ص ٢٠٠ .

للرغيف ، الجرموق وهو ما يلبس فوق الخف ، الجوسق وهو القصر ، جلق وهو موضع بالشام ...) ؛ أو أن تكون رباعية أو خماسية مجردة من حروف الذلاقة التى يجمعها قولك « مر بنفل » (جوسق ...) .

ومن أشهر المفردات التى انتقلت من الفارسية إلى العربية فى عصور الاحتجاج أسماء بعض الآنية والمعادن والأحجار الكريمة وألوان الخبز والطهى والأفاويه والرياحين والطيب والمنتجات الزراعية والصناعية والشئون الحربية التى اشتهر بها الفرس : مثل الكوز والإبريق والطشت أو الطست والخوان والطبق والقصعة والسُكُرّجة ... (من أسماء الآنية) ؛ والسمور والخز والإبريسم والديباج والسندس والاستبرق ... (من أسماء الأقمشة) ؛ والياقوت والفيروزج والبلور ... (من أسماء الجواهر) ؛ والسميذ والكعك والجردق ... (من ألوان الخبز) ؛ والفالوذج ... (من الحلوى) ؛ والدارصينى والفلفل والكَرَوِيّا والقرفة والزنجبيل والخلنجان ... (من الأفاوية) ؛ والنرجس والورد والبنفسج والسوسن والياسمين والجلنار ... (من الرياحين) ؛ والمسك والعنبر والكافور والصندل والقرنفل والجوز واللوز ... (من الطيب ومنتجات الزراعة) ؛ والدولاب والميزاب ... (من منتجات الصناعة) ؛ والخندق والعسكر ... (من الشئون الحربية) .

ومن أشهر ما انتقل إلى العربية فى عصور الاحتجاج من اليونانية، عن طريق مباشر ، أو عن طريق السريانية ، أسماء بعض آلات الرصد والجراحة و بعض مصطلحات الطب والفلسفة والمنطق والعلوم الطبيعية وأسماء بعض المعادن والوظائف والمنشآت المعارية وأدوات البناء والموازين والأمتعة ... كالقبرس (وهو أجود أنواع النحاس) والبطريق والقيطون (وهو البيت الشتوى) والقنطرة والفردوس (البستان) والقراميد (الآجر) والقسطاس (الميزان)

والقنطار والبطاقة والسجنجل (المرآة) والاسطرلاب والنِّقْرس والقولنج (مرض) والترياق (دواء السموم) ... وهلم جرا .

ومن أشهر ما عرب فى عصور الاحتجاج من السريانية والعبرية : اليمّ والطور والربانيون وطه وإبراهيم وإسماعيل وشراحيل وشرحبيل والسموءل وعادياء . . .

ومن أشهر ما عرب فى عصور الاحتجاج من الحبشية : المشكاة والكفل والهرج والمنبر والأرائك(١) .

هذا ، ولا خلاف بين العلماء فى جواز استعمال المعرب ، وهو ما استعمله فصحاء العرب من كلمات دخيلة . وقد ورد كثير من الألفاظ المعربة فى القرآن الكريم نفسه وفى أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام(٢) .

أما ما استخدمه المولدون فى مختلف العصور وما أدخله بعض الباحثين فى العصر الحاضر أو يرى إدخاله فى اللغة العربية من كلمات أجنبية تتعلق بالمخترعات أو بالمصطلحات العلمية والفنية ، فقد رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية عدم جواز استعماله « لأن فى العربية غنية عنه ، ولأن فى بطون معجماتها مئات الألوف من الكلمات المهجورة ، الحسنة النغم والجرس ، الكثيرة الاشتقاق ، مما يصلح أن يوضع للمسميات الحديثة بدون حدوث اشتراك ، لأن بعثها من مراقد الإهمال والنسيان يصيرها كأنها موضوعة وضعاً جديداً »(٣) . وقد عنى المجمع بتطبيق

---

(١) لاستيعاب معظم الكلمات التى انتقلت إلى العربية من مختلف اللغات يرجع إلى الكتابين المذكورين فى التعليق الثانى بصفحة ٢٤٣ وإلى فقه اللغة للثعالبى ٣١٤ — ٣١٩ وإلى الجزء الأول من المزهر للسيوطى صفحات ١٣٠ — ١٥٢ .

(٢) مما ورد فى القرآن الكريم من الفارسية : سجيل واستبرق ؛ ومن الرومية : الصراط والقسطاس والفردوس وشيطان وإبليس ؛ ومن الحبشية : أرائك وكفلين ؛ ومن السريانية والعبرية : اليم والطور والقوم وطه والربانيون . وقد وضع الشيخ حمزه فتح الله رسالة خاصة فى المعرب من القرآن الكريم .

(٣) انظر الاحتجاج لقرارات المجمع اللغوى لأستاذنا المغفور له الشيخ أحمد الإسكندرى بصفحتى ٢٠١ ، ٢٠٢ من الجزء الأول من مجلة المجمع .

قراره هذا فوضع عدداً كبيراً من الأسماء العربية لمسميات حديثة جرت العادة باستخدام كلمات أجنبية فى التعبير عنها[١] . غير أنه قد احتاط للحالة التى قد تدعو فيها ضرورة قاهرة إلى استخدام لفظ أعجمى فى الشئون العلمية والفنية ويتعذر إيجاد لفظ عربى يحل محله ، فأجاز فى هذه الحالة فقط استخدام اللفظ الأعجمى بعد صقله بالأساليب الصوتية العربية ، وإليك نص قراره بهذا الصدد :

« يجيز المجمع أن يستعمل بعض الألفاظ الأعجمية عند الضرورة على طريقة العرب فى تعريبهم »[٢] .

وقد شرح المغفور له أستاذنا الشيخ أحمد الإسكندرى هذا القرار بما يفيد قصر الرخصة التى يتضمنها على حالات الضرورة التى أشرنا إليها ، حيث يقول :

« فعبارة القرار تقتضى إجازة استعمال بعض الأعجمى فى فصيح الكلام ، وتقييده بلفظ « بعض » دون جنس الألفاظ يفيد أن المراد الألفاظ الفنية والعلمية التى يُعجز عن إيجاد مقابل لها لا الأدبية ولا الألفاظ ذات المعانى العادية التى يتشدق بها مستعجمة زماننا من أبناء العرب[٣] » .

(٣٠) المولد فى اللغة العربية

يريدون باللفظ المولد ما استعمله المولدون على غير استعمال الفصحاء من العرب ؛ ويقصدون بفصحاء العرب عرب البدو بالجزيرة العربية إلى أواسط القرن الرابع الهجرى ، وعرب الأمصار فى هذه الجزيرة إلى نهاية القرن الثانى الهجرى ؛ وبالمولدين من عدا هؤلاء ممن نشئوا فى البلاد الناطقة بالعربية .

---

(١) انظر مثلا الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٨ — ١٣٨ وخاصة ١١١ — ١٣٨ ؛ والجزء الثانى ٦٣ — ١٩٥ ؛ والجزء الثالث ٣٥ — ١٩١ ؛ والجزء الرابع ٨ — ١٦٦ .

(٢) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع ص ٣٣ وصفحات ١٩٩ — ٢٠٢ .

(٣) الجزء الأول من مجلة المجمع ص ٢٠٢ .

والألفاظ المولدة على أنواع أربعة :

(النوع الأول) ما استعمله المولدون من مفردات أعجمية لم يعربها فصحاء العرب . وقد تقدم الكلام على هذا النوع وحكم استعماله فى الفقرة السابقة .

(والنوع الثانى) ما نقله المولدون بطريق التجوز أو الاشتقاق من معناه الوضعى اللغوى الذى عرف به فى الجاهلية وصدر الإسلام إلى معنى آخر تعورف إما بين عامة الناس أو بين خاصة منهم كالنحويين والعروضيين والفقهاء والحاسبين والمهندسين والأطباء وغيرهم .

« وهذا النقل جار على أسلوب القياس العربى . فهو عربى مبين ؛ وهو عمدة الصناع والمؤلفين والمترجمين وواضعى العلوم . ومنه ومن العربى الأصيل تتكون اللسان العربى الفصيح : لسان القراءة والكتابة والتعليم والإدارة »[١] ، كما شرحنا ذلك فى الفقرة الخاصة بالمجاز والكناية والنقل[٢] .

(والنوع الثالث) ماحرف على ألسنة المولدين من مفردات اللغة العربية تحريفاً يتعلق بالأصوات أو بالدلالة أو بهما معاً ، ولا يمكن تخريجه على أصل من أصول اللغة الفصيحة . وهذا ما يسمى أحياناً بالعامى ، وأحياناً بالدارج .

(والنوع الرابع) ما جرى على ألسنة المولدين من المفردات التى ليس لها أصل معروف فى اللغة العربية ولا فى اللغات الأجنبية كالحنشصة والحفلطة والشبرقة ... وما إلى ذلك .

وقد أصدر مجمع فؤاد الأول للغة العربية قراراً يحظر استخدام النوعين الأخيرين فى فصيح الكلام[٣] .

---

(١) مجلة المجمع اللغوى الجزء الأول ص ٢٠٣ .

(٢) انظر آخر ص ٢٢٨ وتوابعها .

(٣) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٣ ، ٣٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٣١) تعريب الأساليب(١)

لم يقتصر أثر احتكاك اللغة العربية باللغات الأجنبيـة على انتقال مفردات أجنبية إليها على النحو الذى شرحناه فى الفقرتين السابقتين ، بل كان من نتائجه كذلك أن انتقل إليها بعض أساليب من هذه اللغات . ودخول الأساليب الأعجمية فى اللغة العربية قديم يتصل بالعهد الجاهلى . وربما وجد له شواهد فى شعر عدى بن زيد العِبادى الذى تربي فى بلاط الأكاسرة ، وله شعر كثير مملوء بالكلمات الأعجمية ، فيبعد أن لا يكون فى شعره أساليب أعجمية أيضاً . وكذا يقال فى شعر الأعشى وغيره من الشعراء الذين خالطوا الأعاجم وتأثروا بثقافتهم .

ولـكن هذا النوع من التعريب على قدمه لم ينشط إلا فى العهد الإسلامى ، منذ حمل راية الكتابة فيه عبد الحميد الكاتب ، ثم تـكاثر ونما فى العباسىّ على يد ابن المقفع ومن تابعة من الـكتاب ، حتى كانت نهضتنا الحديثة فرجح ميزانه وطغى طوفانه .

ومعظم الأساليب الأجنبية التي دخلت اللغة العربيـة فى الجاهلية وصدر الإسلام وعصرى بنى أمية و بنى العباس قد انتقل إليها من اللغة الفارسية . أما الأساليب التى تجرى على أقلام كتابنا فى العصور الحاضرة فقد انتقل معظمها من اللغات الأوروبية الحديثة ، ولا سيما الفرنسية والإنجليزية .

هذا ، و يتناول البحث فى هذا الموضوع الوجوه الآتية :

١ — قد يقع التوارد بين لغتنا ولغة غيرنا فى الأساليب ؛ فلدينا طائفة من الأساليب العربية الأصيلة نرى مثلها فى كلام الأعاجم ؛ وتـكون هناك قرائن تدل

---

(١) لخصنا فى هذه الفقرة ما ورد فى مقال نفيس فى هذا الموضوع للأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية . وقد حافظنا على نصوص المقال فى كثير من المواطن . ولـكننا أضفنا إليه بعض زيادات هامة . (انظر المقال المشار إليه فى الجزء الأول من مجلة المجمع صفحة ٣٣٢ وتوابعها) .

على أن لا تواطؤ ولا علاقة بينهما ، وأن كلا منهما نشأ فى لغته و بيئته من دون أن يتأثر بالآخر ؛ و يكون السبب فى ذلك أن منشأ الأسلو بين والباعث عليهما واحد فى اللغتين ، كأن يكون طبيعياً فى البشر على اختلاف أجناسهم وثقافاتهم . فمن سرح الدابة مثلا بعد أن كان يقودها بزمامها لا يدع الزمام على الأرض ، بل يطرحه عادة على عنقها أو كتفها . العرب يفعلون ذلك فى مطاياهم ، والإفرنج يفعلونه فى دوابهم . ثم إن كلا الفريقين من دون أن يتأثر بالآخر نقل استعمال تسريح الدابة إلى معنى تسريح الشخص الذى يهمل أمره وتترك له حريته يتصرف كما يشاء . فقالت العرب : « ألقيت حبل فلان على غاربه » ؛ وقال الفرنسيون Laissr à quelqu'un la bride sur le cou . ونحن نقول فى وصف الرجل بالغيظ : « صرف أسنانه » و « حرق الأُرَّم » أى حك أسنانه بعضها ببعض ؛ وهم يقولون Grincer les dents . ونحن نقول فى التنويه بالحب القديم : « ما الحب إلا للحبيب الأول » ؛ وهم يقولون : L'homme revient toujours à ses premières amours . ونحن نقول فى طلب شدة الانتباه : « افتح أذنيك » ؛ وهم يقولون : Ouvrez les oreilles . ونحن نقول : « خانته قواه » ؛ وهم يقولون : les forces le trahirent . ونحن نستعمل أكل اللحم أو تمزيقه بالأسنان للدلالة على الغيبة وذكر الآخر بالسوء ؛ وهم يقولون فى نفس المعنى Dechirer à belles dents . ونحن نقول : « شرب الكأس حتى الثمالة » ، للتعبير عن تجرع الغصص حتى نهايتها ؛ وهم يقولون فى نفس المعنى Boire la calice jusqu'à la lie ونحن نقول فى التعبير عن السلاطة : « فلان ذرب اللسان » أى مشحوذه ؛ وهم يقولون Avoir la langue bien affillèe ... إلى غير ذلك من التعابير التى تولدت فى اللغتين بالاستقلال من دون أن تستعير إحداهما من الأخرى .

٢ — تسرب إلى لغتنا فى العهد الأخير بعض أساليب أعجمية كان الظاهر من

حالها أنها لا يعرفها العرب ، ولكن قد يدعى مدع عروبتها ورجعها إلى عرق فى الأساليب العربية .

فمن ذلك مثلا استخدامنا فعل عاد يعود فى التعبير عن نفى أمر مع الإشارة إلى أنه كان موجوداً قبل ذلك ؛ كقولنا « فلان لم يعد يقدر على المشى » ، أو « لم يعد صديقا لى » ، بمعنى أنه كان يقدر قبل ذلك على المشى ثم انقطعت قدرته ، وكان صديقا لى ثم انقطعت صداقته . فهذا الأسلوب على شاكلة أسلوب النفى الفرنسى الذى تستخدم فيه أداة ne...plus : il ne peut plus marcher غير أنه ليس ليس أسلوباً إفرنجياً محضا . il n'est plus mon ami إذ قد ورد فى فصيح الآثار العربية استعمال فعل « رجع » فى النفى للدلالة على المعنى الذى نحن بصدده . فقول الحديث : « لا ترجعوا بعدى كفارا » معناه بعد أن كنتم مسلمين ؛ ومن الواضح أن « عاد » من أخوات « رجع » . على أنه ورد استعمال « عاد » نفسه فى تراكيب قريبة من التراكيب التى نستخدمه فيها وللدلالة على معنى قريب من المعنى الذى نقصده . فقول الرسول عليه السلام لمعاذ : « أعدت فَتَّانًا يا معاذ ؟ » معناه بعد أن لم تكن كذلك . ومن المقرر أن الاستفهام أخو النفى وأنه يجوز فية معظم ما يجوز فى النفى .

ومن ذلك أيضاً قولنا « تبادلا التحيات » و « تبادلا الشتائم » و « تبادلا بعض الكلمات » على غرار قول الفرنجة Échanger des paroles . غير أنه ليس أسلوباً إفرنجيا محضا . لأن فعل التبادل فصيح ، وهو مستعمل فى كلام البلغاء بصدد التبادل الحسى ، فيقال : « تبادلا ثوبيهما » . واستخدامه في الأمور المعنوية هو استعمال مجازى جاء على سنن العرب فى استخدام المجاز . على أن العرب قد استخدموا فى الأمور المعنوية فعلا من أخوات « تبادل » وهو « تقارض » ؛ فيقولون « تقارضا الثناء وتقارضا المديح » . و ياليت المترجمين الأولين

استعملوا فعل « تقارض » مكان « تبادل » ؛ ولو فعلوا لكانوا وقعوا على نفس اللفظ العربى المستعمل فى هذا المقام .

ومن ذلك أيضاً قولنا « بكى بدموع حارة » على غرار قول الفرنجة pleurer à chaudes larmes . غير أن هذا الأسلوب ليس إفرنجياً محضا . فالعرب ، وإن لم يصفوا الدموع بالحرارة ، فإنهم وصفوها بمرادف الحرارة أعنى السخونة والإحراق ؛ إذ هم يتخيلون أن دمع الحزن سخين ودمع الفرح بارد . فإذا دعوا لأحد بالمسرة قالوا « أقرّ الله عينه » و « فلان قرير العين » ؛ وإذا دعوا بالمساءة قالوا « أسخن الله عينه » و « عين سخينة » . والفرق بين العرب والإفرنج أن الأولين ينسبون السخونة إلى العين نفسها ، والإفرنج ينسبون الحرارة إلى دموعها .

ومن ذلك أيضا قولنا : « سافرت برغم المطر » أو « بالرغم من المطر » كما يقول الفرنجة malgré, en dépit . فقبل أن يترجم المترجمون هذه الكلمة الفرنسية بكلمة « رغم » العربية ، كانت « رغم » مستعملة فى فصيح الكلام العربى ، إذ يقولون : « فعلت كذا على الرغم من فلان » و « برغم منه » . وكثيراً ما استعمل العرب كلمة « رغم » مع الأنف ، فيقولون : « على رغم أنفه » و « رغم أنف فلان » . ولعل الفرق بين الاستعمالين العربى والإفرنجى أن العرب يستعملون الرغم مع الأشخاص فيقولون « برغمى » و « برغم فلان » ؛ أما الإفرنج فيستعملونه مع غير الأشخاص أيضا ، إذ يقولون مثلا : « زرتك برغم المطر » .

ومن ذلك أيضا قولنا « أثر عليه » كما يقولون الفرنجة influer sur ؛ فإن « أثّر » وإن كان يتعدى فى العربية بفى لا بعلى ، إلا أنه من الممكن أن يقال إنه فى هذا التركيب مضمن معنى فعل يتعدى بعلى نحو تسلط أو تغلب ، وإن

التضمين قياسي كما قرر ذلك مجمع فؤاد الأول للغة العربية[1] .

وما قيل في التراكيب السابقة يقال مثله في نحو : « قرأت المتنبي » و « بالنظر إلى كذا » à l'égard de, vue que و « في الوقت نفسه » en même temps و « سهر على كذا » veiller à و « فلان يعمل ضد فلان » contre lui و « هذه مسألة جوهرية » essentielle و « قتل الوقت » tuer le temps وما إلى ذلك من الأساليب التي انتقلت إلى أقلامنا في العصر الحديث من اللغات الأجنبية ، ولكن يمكن ادعاء عروبتها ووجود نظائر لها في الأساليب العربية ، وإن كانت هذه النظائر غير مطابقة لها كل المطابقة ، أو لم يستعملها الفصحاء استغناء عنها بغيرها ، أو استعملوها قليلا .

٣ — وبجانب هذا وذاك تسرب إلى أقلامنا أساليب لا نزاع في عجمتها ، إذ لا توجد لها نظائر في الأساليب الفصيحة ، وذلك مثل قولنا : « عاش ستة عشر ربيعاً » il a vecu seize printemps ، و « فلان لا يرى أبعد من أرنبة أنفه » il ne voit plus loin que le bout de son nez و « فلان يلعب بالنار » (أي يتعرض للخطر) Jouer avec le feu و « لا جديد تحت الشمس » rien de nouveau sous le soleil و « أعطاه صوته في الانتخابات » donner sa voix و « قبض على دفة الحكومة » . tenir le gouvernail de l' Etat. و « ازدهرت التجارة » Le commerce fleurissait و « ساد الجهل أو الفوضى » regner و « فلان لعب دوراً » أو « مثل دوراً هاماً في هذا الشأن » Jouer un rôle و « فلان رجل الساعة »

(١) الحق أن استعمال فعل « أثر » في هذا المقام ليس كثيراً في كلام فصحاء العرب ، وإنما الفصيح أو الأفصح استعمال فعل « حاك يحيك » مكان « أثر يؤثر » . وهاك هذا الشاهد وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك » . قال لسان العرب : « أي أثر في نفسك » ثم قال « فلان ما يحيك فيه الملام إذا لم يؤثر فيه » .

rapports « توترت العلائق بين الحكومتين » و l' homm de l' heure

tendus و « هذا حجر عثرة فى سبيل كذا » pierre d'achoppement و « إلى

الملتقى » au revoir و « فلان يصيد فى الماء العكر » pècher en eau trouble

و « فعل كذا بصفته حاكما » en sa qualité de ، و « معرفة سطحية »

superfitielle ، و « كلمة شكر بريئة » innocent ، و « حرق بخور الثناء

بين يديه » encencer ، و « ذهب ضحيــة مبدئه » sacrifier, sacrifice

و « صب عليه جام غضبه » ... الخ .

وغنى عن البيان أن هذه الأساليب ، وإن لم ينطق بها العرب ، جارية على سنن كلامهم فى المجاز والكناية ؛ وقد علمت أنه قد انعقد إجماع الثقات من العلماء على قياسية المجاز والكناية[1] . فلا بأس من استخدام مثل هذه الأساليب فى اللغة العربية متى تحققت العلاقات والشروط التي جرت عادة العرب أن يعتمدوا عليها ويراعوها فى تعبيرهم المجازى والكنائى ، ومتي كانت متلائمة مع الذوق العربى السليم ومستمدة عناصرها من أمور مألوفة فى البيئات العربية[2] . ولكن متى وجد لتعبير منها نظير فى كلام الفصحاء من العرب كان الأفضل والأصح العدول عنه إلى ما يماثله فى كلامهم .

٤ — غير أن كثيراً من الكتاب فى العصر الحاضر ، وخاصة المؤلفين فى العلوم وبعض محررى الصحف ممن لم تستحكم مِرّتهم فى اللغة العربيــة ، تؤدى بهم ترجمة الأساليب الإفرنجيــة أو محاكاتها إلى الخروج عما يسير عليه الأسلوب العربى فى ترتيب عناصر الجملة ، وربطها بعضها ببعض ، وتنسيق أجزاء العبارة ... وما إلى ذلك . فيأتون بعبارات مفككة ركيكة ، عربيــة المفردات ولكنها أعجمية التركيب والنظم ، لاتكاد تبين عن المعانى التى يقصدونها . فهذا النوع

---

(١) انظر ص ٢٣١ .

(٢) انظر ص ١٧١ .

من تعريب الأساليب ، إن صح تسميته كذلك ، هو الذى ينبغى أن نقاومه جهدنا ونعمل على القضاء عليه .

(٣٢) التأليف فى قواعد اللغة العربية وآدابها وفقهها

ترجع أهم البحوث اللغوية فى قواعد اللغة العربية وآدابها وفقهها إلى الفروع الآتية :

١ — النحو والصرف : أما النحو فكان الغرض الأساسى منه فى مبدأ الأمر ضبط القواعد التى يسير عليها إعراب المفردات ليسهل تعلمها وتعليمها واحتذاؤها فى الحديث والكتابة ، ولتعصم الناس من اللحن الذى أخذ يتفشى منذ صدر الإسلام من جراء تطور اللغة واختلاط العرب بالعجم . ثم أخذ نطاق هذا العلم يتسع قليلا قليلا وأخذ علماؤه يعرضون لكثير من الموضوعات المتصلة بأجزاء الجملة وترتيبها ، وأثر كل جزء منها فى الآخر ، وعلاقة هذه الأجزاء بعضها ببعض ، وطريقة ربطها وأنواع الجمل ، وعلاقة الجمل التى تتألف منها العبارة بعضها ببعض ، وأقسام الكلمة ، وأنواع كل قسم منها ، ووظيفته فى الدلالة ... ، حتي شمل جميع البحوث التى يطلق الفرنجة على مثلها اسم « السنتكس التعليمى » أى « علم التنظيم التعليمى » (١) . — وأما الصرف فموضوعه ضبط القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات العربية وتصريفها وتغير أبنيتها بتغير المعنى وما يتصل بذلك من البحوث التي يطلق الفرنجة على مثلها اسم « المورفولوجيا التعليمية » أى « علم البنية التعليمى » (٢) .

وقد كانت العناية فى المبدأ مقصورة على البحوث النحوية ، وظل الأمر كذلك حتى أواخر القرن الأول الهجرى . ثم أخذ العلماء يعالجون بعض مسائل

(١) انظر صفحة ٧ (رقم جـ) وصفحة ٨ من الطبعة الثالثة من كتابنا « علم اللغة » .
(٢) انظر صفحة ٧ (رقم ب) من الطبعة الثالثة من كتابنا « علم اللغة » .

الصرف استطراداً وفى خلال دراستهم لمسائل النحو . ثم أخذت مسائل الصرف تنفصل شيئاً فشيئاً عن مسائل النحو وتدرس على حدة ، حتى تكوّن منها علم متميز . غير أن هذا العلم لم يستقلّ تمام الاستقلال عن النحو . فلا تزال طائفة كبيرة من مسائله ممتزجة بالنحو ؛ ولم ينفك الباحثون ، إلى عهد قريب ، ينظرون إلى الشعبتين نظرتهما إلى علم واحد و يعالجون مسائلهما فى مؤلفات واحدة[١] .

و يرجع الفضل فى النهوض بهاتين الشعبتين إلى عدد كبير من أعلام الباحثين بالبصرة والكوفة و بغداد ومصر وغيرها فى العصرين الأموى والعباسى ، من أشهرهم أبو الأسود الدؤلى (واضع النحو بإرشاد الإمام على ابن أبى طالب) وعنبسة الفيل ، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر ، وميمون الأقرن ، وعبد الله بن اسحق الحضرمى ، والأخفش الأكبر، وأبو عمرو بن العلاء (وجميع هؤلاء من قدامى الباحثين البصريين ، ولم يصلنا شىء يعتد به من مؤلفاتهم) — وعيسى بن عمر الثقفى (وكان على رأس جماعة يرجع إليها الفضل فى نقل هذا العلم إلى الكوفة ، و يقال إنه ألف فى نحو البصريين أكثر من سبعين مجلداً منها كتابا « الجامع » و « الإكمال » ، ولكن لم يصل إلينا شىء يعتد به من مؤلفاته) . —وأبو جعفر الرؤاسى صاحب كتاب « الفيصل » فى نحو الكوفيين ، وأبو مسلم معاذ الهراء (وكلاهما من قدامى الباحثين من الكوفيين) — والخليل بن أحمد الذى يرجع إلى جهوده الجبارة ومؤلفاته الجليلة وعبقريته النادرة أكبر قسط من الفضل فى النهوض بهاتين الشعبتين وغيرهما من شعب البحوث اللسانية — وأعضاء مدرسة المحدثين من البصريين الذين كان على رأسهم سيبويه (أشهر أئمة النحو وصاحب « الكتاب » ، الذى صار إماما لكل الباحثين من بعده) ، ثم الأخفش الاوسط (شارح « كتاب» سيبويه) ، ثم أبو على الفارسى وأبو القاسم الزجاج (وقد كتب كلاهما كتبا

(١) ولكن جرت عادة معظمهم أن يفرد لكل منها أبوابا على حدة .

مختصرة للمتعلمين يحذو فيها حذو سيبويه) ، ثم المازنى والسجستانى ، ثم المبرد — ومدرسة المحدثين من الكوفيين الذين كان على رأسهم الكسائى ، ثم الفراء (صاحب كتاب الحدود) ، ثم ابن السكيت وابن سلام ، ثم ثعلب (وقد حدث بين هذه المدرسة ومدرسة المحدثين من البصريين خلاف فى طائفة كبيرة من المسائل وفى إعراب كثير من آى القرآن ، ونشأت بينهما مساجلات طريفة فاضت بها كتب الاخبار) . وابن خالويه (صاحب « كتاب ليس » و « رسالة فى إعراب ثلاثين سورة من القرآن ») ، وابن جنى (صاحب كتب « سر الصناعة فى النحو » و « شرح تصريف المازنى » و « اللمع فى النحو » و « المحتسب فى إعراب الشواذ » و « علل التثنية » ... وغيرها) — وجماعة المتأخرين الذين جاءوا بمذهبهم فى الاختصار والاستيعاب لجميع أبواب العلم ، فوضعوا أهم كتب النحو والصرف وأكملها وأدقها وأكثرها تهذيباً وتنقيحاً ، ومن أشهرهم الزمخشرى (صاحب « المفصل » فى النحو) ، وابن الحاجب (صاحب « الكافية » و « الشافية » فى النحو والصرف) ، وابن معطى (صاحب ألفية فى النحو) ، وابن مالك (صاحب كتاب « التسهيل » و « الألفية » الشهيرة) ، وعز الدين الزنجانى (صاحب كتاب « تصريف العزى ») ، والسكاكى (صاحب كتاب « مفتاح العلوم » فى النحو والصرف والبلاغة والعروض) وابن هشام (صاحب كتب « القطر » و « التوضيح » و « الشذور » و « المغنى » وغيرها ، وهو أكثر المتأخرين مؤلفات وأدقهم بحثاً(١)) .

٢ — علوم البلاغة ، التى تشمل ثلاثة بحوث : المعانى وموضوعه بيان ما ينبغى أن يكون عليه الأسلوب العربى ليطابق مقتضى الحال وليعبر عن المراد أبلغ تعبير ؛ والبيان وموضوعه شرح المناهج التى يسلكها الأسلوب العربى فى استخدام

(١) وقد شهد بذلك العلامة ابن خلدون فى مقدمته إذ يقول بصدد كتابه المغنى : « استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة وتكلم عن الحروف والمفردات والجمل وحذف ما فى الصناعة من المتكرر فى أكثر أبوابها ، وأشار إلى نكت اعراب القرآن كلها ... فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره فى هذه الصناعة ووفور بضاعته منها .. وقوة ملكته واطلاعه » .

التشبيه والمجاز والكناية ؛ والبديع وموضوعه دراسة المحسنات المعنوية واللفظية التي يحتملها الأسلوب العربى . — فموضوعات البحوث الثلاثة ترجع إلى ما يسميه المحدثون من علماء الفرنجة « الستيليستيك التعليمى[1] » أى علم الأسلوب التعليمى .

وقد كتب المتقدمون بعض بحوث فى هذه العلوم . فمن ذلك « مجاز القرآن » لأبى عبيدة ، و « إعجاز القرآن » للجاحظ ، و « البديع » لابن المعتز[2] ، وبعض آراء للمبرد فى الأغراض البلاغية لتوكيد الكلام ، وبعض بحوث لقدامة ابن جعفر عقب بها على بديع ابن المعتز وحاول فيها تكملته . — ولكن أول من تصدى لاستيعاب هذه البحوث الثلاثة فى مؤلف مستقل هو أبو هلال العسكرى فى كتاب « الصناعتين » . ثم جاء من بعده عبد القاهر الجرجانى فميز بحوث المعانى من بحوث البيان ، ورد مسائل كل منهما إلى قواعد مضبوطة سهلة المأخذ ؛ فكان بذلك المنشىء الحقيقى لهذين العلمين[3] . ثم خلف من بعده خلف من الأعاجم كتبوا فى هذه العلوم بأساليب ركيكة فلسفية أساءت إلى البلاغة أكثر مما أحسنت إليها . ومن هؤلاء السكاكى الذى وقف قسما كبيراً من كتابه « مفتاح العلوم » على المعانى والبيان البديع ؛ والخطيب القزوينى الذى لخص هذا القسم فى كتابه « تلخيص المفتاح » .

٣ — علوم القراءات . — وموضوعها بيان الوجوه التى قرئت بها آى الذكر الحكيم . وقد ظلت موضوعات هذه البحوث يأخذها الناس عن القراء عن طريق التلقين ، حتى جاء العصر العباسى ، فعكف العلماء على تدوينها ، وضبط قواعدها ، ونقد أسانيدها ، فقطعوا بها شوطاً كبيراً فى سبيل الكمال . — وأهمية هذه البحوث من الناحية اللغوية ترجع إلى الأمرين الآتيين :

---

(١) انظر صفحتى ٨ (رقم د) و ٩ من الطبعة الثالثة من كتابنا « علم اللغة » .

(٢) جمع ابن المعتز نحو سبعة عشر نوعا من المحسنات سماها البديع . ولم تكن جميعها ، فى الواقع ، من المحسنات البديعية ، بل كان من بينها بعض مسائل البيان كالاستعارة والكناية .

(٣) كتب عبد القاهر كتابيه : « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » وقد وقف معظم فصول الأول على المعانى ومعظم فصول الثانى على البيان .

(أولا) أنها تقفنا على كثير من نواحى اللهجات العربية فى صدر الإسلام . وذلك أن اختلاف القراءات يرجع أهم أسبابه إلى اختلاف العرب فى لهجاتها ، والى أن القرآن لم يأت كله بلغة قريش بل جاء فيه كثير من المفردات والتراكيب بلغة غيرها . و إلى أن الرسول عليه السلام كان يقرؤه لكل قبيلة بالطريقة التى تتفق مع لهجتها .

(ثانياً) أن معظم المؤلفات فى القراءات قد اشتملت على بحوث دقيقة قيمة فى أصوات اللغة العربية وطبيعتها وصفاتها وأنواعها ومخارجها ، والمد وأحكامه ومدته ، والغن وضروبه ، وتأثر أصوات الكلمة أو الكلمات المتجاورة بعضها ببعض ... وما إلى ذلك من مسائل « الفونيتيك[(١)] » الخاصة باللغة العربية .

٤ — أدب اللغة وتاريخ الأدب والنقد الأدبى . — نهضت هذه الفروع نهضة كبيرة فى العصر العباسى ؛ ولم تنفك ، منذ ذلك العهد إلى الآن ، موضع عناية الباحثين من العرب وغيرهم ، حتى أصبحت المكتبة العربية من أغنى مكتبات العالم فى هذه الناحية ، وأصبحت مراجع هذه الفروع من أكبر المراجع عدداً ، وأوسعها نطاقاً ، وأجلها قيمة[(٢)] .

٥ — بحوث فى « فقه اللغة العربية » و بعض مسائل من « علم اللغة العام » . فمن ذلك دراسة الأصمعى للاشتقاق فى اللغة العربية ؛

ومعظم البحوث التى ضمنها ابن فارس[(٣)] كتابه « الصاحبى : فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها » : كبحثه فى نشأة اللغة العربية[(٤)] ، وخصائص اللسان

(١) انظر موضوع هذا العلم فى صفحة ٦ من الطبعة الثالثة من كتابنا « علم اللغة » .

(٢) لضعف العلاقة التى تربط هذه البحوث بموضوعنا لم نر كبير حاجة للكلام عن تاريخها وأشهر المؤلفين فيها كما فعلنا فى الفروع السابقة .

(٣) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزوينى ، من أشهر أئمة اللغة فى القرن الرابع الهجرى .

(٤) درس ابن فارس هذا الموضوع من وجهة نظر ضيقة ، فتساءل هل اللغة العربية توقيف أم اصطلاح ، وذهب الى أنها توقيف بدليل قوله تعالى وعلم آدم الأسماء كلها . وهو بذلك يظن أن اللغة العربية نشأت مع الإنسان الأول . وجميع من عرضوا لهذا الموضوع من مؤلفى العرب لم يتجاوز بحثهم هذا النطاق الساذج ماعدا ابن جنى ومن نهج نهجه كما سنذكر ذلك .

العربى ، واختلاف لغات العرب ، ولغات العامة من العرب ، والقياس والاشتقاق فى اللغة العربية ، وآثار الإسلام فى اللغة العربية ، وأسماء الأشخاص ومأخذها ، والمترادف ، وحروف الهجاء العربية ، وحروف المعنى ، وسنن العرب فى حقائق الكلام والمجاز والنحت والاشتراك ... وهلم جرا ؛

والبحوث التى ضمنها ابن جنى[١] كتابه « الخصائص » : كبحثه فى أصل اللغة وهل هى إلهام أم اصطلاح[٢] ، والقول فى هذه اللغة أفى وقت واحد وضعت أم تلاحق تابع منها بفارط ، والاطراد والشذوذ ، ومقاييس العربية ، والألفاظ والمعانى فى اللغة العربية ، وتعليل ظواهر اللغة ومدى قصد العرب لهذه العلل ، والقياس فى كلام العرب ، وتركب اللغات ، واختلاف اللهجات ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ، والاشتقاق الأكبر ، وتصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى ، وإمساس الألفاظ أشباه المعانى[٣] ... وهلم جرا ؛

وبعض البحوث التى عرض لها ابن سيدة فى مقدمة كتابه المخصص كالبحث فى نشأة اللغة العربية[٤] ، والتى عرض لها في الأجزاء الأخيرة من هذا الكتاب كالبحوث المتعلقة بالتضاد ، والترادف ، والاشتراك ، والاشتقاق ، والتعريب ، والمجاز ، والممدود والمقصور ، والتذكير والتأنيث ، وإبدال الحروف بعضها من بعض ... وهلم جرا ؛

وبعض بحوث قليلة ضمنها الثعالبى كتابه « فقه اللغة » ، كالبحث فيما يجرى

---

(١) هو أبو الفتح عثمان بن جنى ولد عام ٣٣٠ وتوفى عام ٣٩٢ هـ وهو من أشهر علماء النحو واللغة وأدقهم بحثا وأكثرهم إنتاجا .

(٢) عرض ابن جنى مختلف الآراء بهذا الصدد ومنها آراء ذهب إلى مثلها كثير من علماء الفرنجة فى العصور الحديثة وناقشها مناقشة متزنة حكيمة تشهد بسعة اطلاعه وقوة تفكيره .

(٣) عرض ابن جنى فى الأبواب الثلاثة الأخيرة من الجزء الأول من كتابه لموضوعات هامة فى فقه اللغة وهى دلالة الحروف فى لفظ ما على أصل معنوى كيفما اختلف ترتيبها والعلاقة بين أصوات الكلمة ومعانيها .

(٤) انظر الجزء الأول صفحات ٣ — ٦ .

مجرى الموازنة بين العربية والفارسية (أسماء فارسيتهاميتة وعربيتها محكية مستعملة؛ أسماء عربية يتعذر وجود فارسية أكثرها؛ أسماء قائمة فى لغة العرب والفرس على لفظ واحد؛ أسماء تفردت بها الفرس دون العرب فاضطرت العرب إلى تعريبها أو تركها كما هى)، ما نسبه بعض الأئمة إلى اللغة الرومية[(١)]؛

والبحوث التى ضمنها أبو منصور الجواليقى[(٢)] كتابه «المعرب من الكلام الأعجمى» وذكر معظم الألفاظ المعربة مرتبة على حسب حروف الهجاء؛

والبحوث القيمة التى ضمنها السيوطى[(٣)] كتابه «المزهر» : كالبحث فى نشأة اللغات، والمصنوع والفصيح، والحوشى والغرائب والشوارد والنوادر، والمستعمل والمهمل، وتداخل اللغات، وتوافق اللغات، والمعرب، والمولد، وخصائص اللغة، والاشتقاق، والمشترك، والترادف، والتضاد، والحقيقة، والمجاز، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، والإبدال، والقلب، والنحت، وما اختلفت فيه لغة الحجاز ولغة تميم، والتصحيف والتحريف، والأسماء والكنى والألقاب ... وهلم جرا؛

والبحوث التى ضمنها شهاب الدين الخفاجى[(٤)] كتابه «شفاء العليل فيما فى كلام العرب من الدخيل»؛

والبحوث التى ضمنها أحمد فارس الشدياق[(٥)] كتابه «سر الليال فى القلب والإبدال» وخاصة ماورد فيه بصدد العلاقة بين أصوات الكلمة ومعانيها، ودلالة الحروف فى لفظ ما على أصل معنوى كيفما اختلف ترتيبها، ورجع الكلمات إلى أصولها ... وما إلى ذلك.

---

(١) تشغل هذه البحوث نحو خمس عشرة صفحة فقط من الباب التاسع والعشرين.
(٢) من علماء القرن السادس الهجرى.
(٣) جلال الدين السيوطى أسمى من أن يعرف به، فهو من أشهر مؤلفى العرب فى جميع العلوم، ولد عام ٨٤٩ ﻫ. وكتابه المزهر من أجل ما ألف فى فقه اللغة العربية وهو فى جزئين كبيرين.
(٤) من علماء القرن الحادى عشر الهجرى.
(٥) من علماء القرن الثالث عشر الهجرى.

والبحوث الحديثة التى قام بها طائفة من المستشرقين وغيرهم بهذا الصدد كبحوث اليازجى فى كتابه « اللغه والعصر » ومباحث الكرملى والبحوث التى كتبها أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية فى مجلة المجمع .

(٣٣) متون اللغة العربية

تكلمنا بتفصيل فيما سبق على مفردات اللغة العربية وغزارتها وكثرة مترادفاتها واختلاف الآراء بصددها ؛ وعرضنا بهذه المناسبة للمناهج التي كان يسير عليها أصحاب المعجمات ، ومبلغ تحريهم الدقة فيما يجمعون ، وتحاشيهم الأخذ عمن تشوب عربيته أية شائبة ، واقتصارهم على ماورد فى العصور التى كان فيها اللسان العربى سليما لم يصبه بعد تبلبل أعجمى ولا انحراف عن أوضاع اللغة الفصحى [١] .

فلم يبق إذن فى موضوع متون اللغة العربية إلا الكلام على أقسامها ، وطريقة كل منها فى ترتيب مواده ، وما يوجه إليها من مآخذ . وهذا هو ما سنعرض له فيما يلى :

تنقسم متون اللغة العربية ثلاثة أقسام :

١ — رسائل فى طوائف خاصة من الألفاظ أو المعانى : ككتاب أبى حنيفة فى الأنواء والنبات ؛ وكتب يعقوب فى النبات ، والأصوات ، والفرق ؛ وكتب أبى حاتم فى الأزمنة ، والحشرات والطير ؛ وكتب الأصمعى فى الدارات ، والسلاح والإبل ، والخيل ، والشاء ، وأسماء الوحوش ، والنبات ، والشجر ، والنخل ، والكرم ، والمشترك اللفظى ؛ وكتب أبى زيد فى المطر ، واللبأ [٢] ، واللبن ، والغرائز والجرائم ، والمشترك اللفظى ؛ وكتب ابن قتيبة فى الرحل ، والمنزل ، واللبأ واللبن ؛ وكتب ابن دريد فى صفات السرج ، واللجام ، والسحاب ، والغيث ؛ وكتاب الفيروزابادى فى المترادف (الروض المألوف ، فيما له اسمان إلى ألوف) ؛ وكتاب

---

(١) انظر صفحات ١٣٦ — ١٤٢ وأول ٢٣٧ .

(٢) اللبأ وزان عنب أول اللبن عند الولادة .

ابن خالويه فى أسماء الأسد وأسماء الحية ؛ وكتاب أبى هلال العسكرى فى الألفاظ التى تطلق على بقايا الأشياء (المعجم فى بقية الأشياء) ؛ والكتب التى ألفت فى الأضداد (الألفاظ التى تطلق على الشىء وضده) لقطرب والحسن بن محمد بن الحسن الصغانى وابن السكيت وأبى بكر بن الأنبارى وأبى البركات بن الأنبارى وعبد الله بن محمد التَّوَّزى وابن الدهان ، وابن درستوية ؛ والمعجمات الفلسفية والعلمية وما إليها ككشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى والتعريفات للجرجانى والكليات لأبى البقاء ومعجم ما استعجم [١] من أسماء البلاد والمواضع لعبد الله بن عبد العزيز البكرى الأندلسى المتوفى سنة ٤٨٧ ﻫ ... وهلم جرا [٢] .

وهذا النوع من المعجمات كان أسبق فى الظهور من النوعين الآتيين ؛ فقد ظهر بعض كتب منه فى فاتحة العصر العباسى .

٢ — معجمات جامعة ترمى إلى بيان المفردات الموضوعة لمختلف المعانى . فترتب المعانى بطريقة خاصة وتذكر الألفاظ التى تقال للتعبير عن كل معنى منها . فتجد أبوابها مرتبة على نحو هذا الوضع : خلق الإنسان ؛ الحمل والولادة ؛ الرضاع والفطام ؛ الغذاء السيىء للولد ؛ أسنان الأولاد وتسميتها فى المراحل المختلفة ؛ شخص الإنسان وقامته وصورته ؛ صفات الرأس ؛ قلة الشعر وتفرقه فى الرأس .. وهلم جرا . وتذكر فى كل باب المفردات التى تعبر عن موضوعه مرتبة ترتيباً خاصاً ومبينة مدلولاتها ومواطن استعمال كل منها .

---

(١) عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه ونشره الأستاذ مصطفى السقا .

(٢) من هذا النوع كذلك بعض كتب ألفت حديثا ككتاب « نجعة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتوارد » للشيخ ابراهيم اليازجى اللبنانى ؛ و « التذكرة فى فقه اللغة » (فى بعض مفردات تتعلق بالحيوان والنبات والأزهار وأدوات الزراعة والصناعة المختلفة) للأستاذ محمد عبد الجواد ، والمعجمات المدونة فى اللهجات العامية أو فى بعض شئونها ونواحيها والتى أشار إلى أهمها الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف فى مقال نشره بالجزء الأول من مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية وأشرنا نحن إلى طائفة منها فى ثبت المراجع بهذا الكتاب .

فهذا القسم من المعجمات يرجع إليه من يعرف معنى ما ويرغب فى الوقوف على الألفاظ الموضوعة له .

ومن أشهر ما ألف من معجمات هذا القسم خمسة كتب : أحدها « كتاب الألفاظ » لابن السكيت (١٨٦ — ٢٤٤ هـ) . وهذا هو أقدم ما ألف من هذا النوع[١] ؛ وثانيها « الألفاظ الكتابية » للهمذانى (المتوفى سنة ٣٢٧ هـ) ؛ وثالثها « مبادىء اللغة » للأسكافى (المتوفى سنة ٤٢١ هـ) ؛ ورابعها « فقه اللغة » للثعالبى (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ) فى مجلد واحد صغير[٢] ؛ وخامسها « المخصص » لابن سيدة (أبو الحسن على بن اسماعيل الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) فى سبعة عشر جزءاً ، وهو أدقها دراسة ، وأحسنها تنسيقاً ، وأكثرها استيعاباً لمسائل البحث[٣] .

٣ — معجمات جامعة ترمى إلى شرح معانى المفردات ، فترتب الكلمات ترتيباً خاصاً ليسهل على من يريد الوقوف على معنى أى كلمة الرجوع إليها فى

---

(١) هو العلامة أبو يوسف يعقوب بن إسحق السكيت توفى عام ٢٤٤ أو ٢٤٦ هـ فى خلافة المتوكل . وقد راجع كتاب « الألفاظ » ونقحه وشرح شواهده وكملها وعلق عليها الخطيب التبريزى شارح ديوان الحماسة ، وضمن هذا كله كتابا سماه « كنز الحفاظ فى تهذيب الألفاظ » أى فى تهذيب كتاب « الألفاظ » لابن السكيت . وقد عثر بمكتبة ليدن على نسخة خطية من هذا الكتاب الأخير فأشرف على طبعها بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت جماعة من الآباء اليسوعيين على رأسهم الأب لويس شيخو ، بعد أن أضافوا إليها كثيراً من التعليقات اللغوية الهامة وذيلوها بشروح واصلاحات وفوائد وفهارس كبيرة القيمة .

(٢) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبى . ولد فى نيسابور عام ٣٥٠ هـ وتوفى عام ٤٢٩ هـ. وله مؤلفات كثيرة قيمة فى مختلف فروع العلوم اللسانية . — وفى تسمية كتابه هذا بفقه اللغة شىء كثير من التجوز ، وذلك أنه ليس فيه ما يصح تسميته بفقه اللغة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة إلا نحو خمس عشرة صفحة (الباب التاسع والعشرون) ، أما ما عدا ذلك فمتن لغة مرتب حسب فصائل المعاني .

(٣) من هذا النوع كذلك بعض كتب ألفت حديثاً ككتاب « الإفصاح فى فقه اللغة » للأستاذين عبد الفتاح الصعيدى وحسين يوسف موسى .

مواطنها . فهذا القسم من المعجمات ، على عكس القسم السابق . يحتاج إليه من يعرف اللفظ ويرغب فى الوقوف على مدلوله .

وأول من عمل على تدوين معجم شامل من هذا القبيل هو الخليل بن أحمد (١٠٠ — ١٧٤ هـ) فقد وضع كتابه « العين[١] » ، ورتب كلماته حسب ترتيبها فى مخارج أول حروفها ، مبتدئاً بأقصى الحلق ، (ولذلك بدأه بحرف العين الذى سمى الكتاب باسمه) ومنتهياً بالشفتين[٢] . غير أنه يظهر أن المنون قد عاجلته قبل إتمامه ، فأكمله جماعة بعد وفاته بأكثر من نصف قرن[٣] .

وقد نهج الخليل فى جمع مواد معجمه منهجاً خاصاً . فما كان يقتصر على على شرح ما تفرع من المادة على طريق الاشتقاق العام[٤] ؛ بل كان يذكر كذلك فى كل أصل ما تفرع عنه على طريق الاشتقاق الكبير[٥] . فيتكلم مثلا عن ضام وضمي ومضى وضم وأمض فى موضع واحد . وهذا يؤيد ما أشرنا إليه فيما سبق من أن الخليل بن أحمد قد فطن ، من قبل الفارسى وابن جنى ، إلى موضوع

---

(١) يشك بعض الباحثين من المستشرقين على الأخص فى صحة نسبة هذا الكتاب إلى الخليل.

(٢) فترتب حروفه على الوجه الآتى : ع ، ح ، هـ ، خ ، غ ، ق ، ك ، ج ، ش ، ض ، ص ، س ، ز ، ط ، د ، ت ، ظ ، ذ ، ث ، ر ، ل ، ن ، ف ، ب ، م ، و ، ا ، ى . — وقد ورد فى دائرة المعارف الإسلامية : « أن الخليل اتبع فى ترتيب معجمه طريقة النحاة السنسكريتيين فى ترتيب حروف لغتهم . فإن حروف السنسكريتيين تبدأ بأحرف الحلق وتنتهى بالأحرف الشفوية . وهو قد رتب « العين » على الحروف مبتدئاً بحروف الحلق فاللسان فالأسنان فالشفتين » . — وقد اتخذ بعض الباحثين من المستشرقين على الأخص من هذا التطابق وسيلة للشك فى صحة نسبة الكتاب إلى الخليل . ولا يخفى أن ظاهرة كهذه ليس فيها ما ينهض دليلا على ما يزعمون .

(٣) لم يظهر هذا الكتاب إلا حوالى سنة ٢٥٠ هـ . وتأخر ظهوره إلى هذا الحد كان من الأمور التى اعتمد عليها من أنكر صحة نسبته إلى الخليل . ولا يخفى ما فى حجتهم هذه من الوهن ؛ لأن وفاة المؤلف قبل إتمام كتابه ، وتكملته وظهوره من بعده على أيدى تلاميذه ، من الحوادث الكثيرة الوقوع .

(٤) أنظر صفحات ١٩٧ — ١٩٩ .

(٥) أنظر صفحات ١٩٩ — ٢٠٣ .

الاشتقاق الكبير ، وهو دلالة الحروف فى لفظ ما على أصل معنوى واحد كيفما اختلف ترتيبها [١] .

ثم ظهر معجم « الجمهرة » (جمهرة الكلام) لابن دريد (أبى بكر محمد بن الحسن بن دريد ٢٢٣ — ٣٢١ ﻫ) وقد جمع مواده من كتاب العين ومن كتب أخرى للأصمعى وأبى عبيدة وغيرهما . وابتدأه بالثنائى من الألفاظ : أب ، أت ، أث ... — بت ، بث ، بج ... إلى آخر الحروف . وانتقل من الثنائى إلى الثلاثى ثم الرباعى ثم ملحق الرباعى وكذا الخماسى والسداسى وملحقاتهما . وجمع النوادر فى باب مفرد . واصطنع طريقة الخليل فى جمع فروع المادة . فذكر فى كل أصل ثلاثى ما تفرع عنه على طريق الاشتقاق الكبير [٢] .

وألف القالى البغدادى (المتوفى فى سنة ٣٥٦ ﻫ) كتابه « البارع » ، وزاد فيه على ما جاء فى كتاب العين للخليل .

وألف الأزهرى (أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر ٢٨٢ — ٣٧٠) كتابه « التهذيب » (تهذيب اللغة) فى عشرة مجلدات ، ونهج فى ترتيب مواده وجمع فروع كل مادة منها منهج الخليل فى كتاب العين .

واختصر أبو بكر الزبيدى من علماء الأندلس (المتوفى فى سنة ٣٧٩ ﻫ) كتاب العين للخليل ، وسمى مختصره هذا « استدراك الغلط الواقع فى كتاب العين [٣] » .

وألف الصاحب بن عباد (٣٢٦ — ٣٨٥ ﻫ) معجمه « المحيط » فى سبع مجلدات ؛ كما اختصر كتاب الجمهرة لابن دريد فى مؤلف سماه « الجوهرة » .

---

(١) أنظر التعليق الأول ص ٢٠٢ .

(٢) عنى حديثاً بتصحيح هذا المعجم الأستاذ كرنكو Krenkow الانكليزى وعارضه بسبع نسخ .

(٣) وهذا المختصر خير من الاصل وأقرب منه مأخذاً . وكان جماعة من أهل الغيرة على العربية قد شرعوا فى طبعه بمدينة بغداد قبيل الحرب العظمى ، ولكنهم انقطعوا عن مواصلة العمل .

وألف الجوهرى (أبو نصر إسمعيل بن حماد الجوهرى الفارابى ٣٢٣—٣٩٣ﻫ) معجمه «تاج اللغة وصحاح العربية» (المشهور بالصحاح) فى جزءين جمع فيهما أربعين ألف مادة تلقى معظمها من أفواه الأعراب مشافهة فى بطن جزيرتهم. ورتب كلماته حسب ترتيب أواخرها فى حروف الهجاء، وقسمه إلى سبعة وعشرين باباً جمع فى كل باب منها الكلمات المنتهية بحرف معين من الحروف الهجائية، مبتدئاً بالكلمات المنتهية بالهمزة ومختتما بالكلمات المنتهية بالواو أو الياء. وقسم كل باب إلى فصول جمع فى كل فصل منها الكلمات المفتتحة بحرف معين من حروف الهجاء مبتدئاً بالكلمات المفتتحة بالهمزة ومنتهيا بالكلمات المفتتحة بالياء. ورتب كلمات الفصل الواحد حسب ترتيب عين الكلمة فى حروف الهجاء. فللبحث عن كلمة «كتب» مثلا يرجع إليها فى فصل الكاف من الباب الثانى من الكتاب (وهو باب الباء) حيث توجد بعد الكلمات التى عينها همزة والتى عينها باء. ويعتمد هذا الترتيب على الحروف الأصلية وحدها، فلا يقام وزن للحروف المزيدة ولا للحروف التى استبدل بها غيرها وفقا لقاعدة من القواعد الصرفية. فللبحث عن «مسجد» يرجع إليها فى «سجد» وعن «قال» يرجع إليها فى «قول». — وينتهى الجزء الأول من هذا المعجم بباب العين المهملة، ويفتتح الجزء الثانى بباب الغين المعجمة.

وليس لطريقة «الصحاح» فى ترتيب الكلمات مزية ظاهرة غير التسهيل على طالبى القوافى والأسجاع؛ لأن الكلمات المتحدة فى آخر حروفها تجمع بحسبها فى باب واحد. ولكن مزيتها هذه ليست شيئاً مذكوراً بجانب ما تشتمل عليه من تعقيد ومجانبة للأوضاع الطبيعية. ومع ذلك فقد انتهجها كثير من أصحاب المعجمات من بعده.

ولم يتبع الجوهرى طريقة الخليل فى جمع التراكيب المختلفة للمادة فى موضع واحد (ضام، ضمى، مضى، ضم، أمض، أضم...)؛ بل تكلم عن كل تركيب

على حدة فى موضعه حسب الطريقة التى سار عليها فى ترتيب الـكلمات .

ومعجم « الصحاح » من أهم المراجع وأشهرها فى العصر الحاضر ، وأ كثرها استيعابا لمفردات اللغة .

ومع ما امتاز به من الدقة وتحرى وجوه الحق ، وقوة المصادر التى اعتمد عليها وصدقها واقتصاره على اللغات الصحيحة الفصيحة الثابتة بالرواية ، فإن بعض الناقدين قد أخذ عليه كثيراً من الأخطاء فى تفسير الـكلمات وكثيراً من مظاهر التصحيف فى رسمها (١) .

وفى العصر نفسه الذى ألف فيه معجم الصحاح ، ألف ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزوينى ٣٢٩ — ٣٩٥ . وهو أستاذ الصاحب ابن عباد) (٢) معجمه « المجمل » ورتب كلماته حسب ترتيب أوائلها فى حروف الهجاء ، ومعجم « مقاييس اللغة » فى خمسة مجلدات (٣) .

ثم ألف ابن سيدة (أبو الحسن على بن إسماعيل الضرير الأندلسى المعروف بابن سيدة المرسىّ نسبة إلى مرسيـه بالأندلس المتوفى سنة ٤٥٨ هـ وهو مؤلف كتاب المخصص الشهير المتقدم ذكره فى القسم الثانى من المعجمات) (٤) معجمه « المحكم والمحيط الأعظم » أو « المحكم فى لغة العرب ، وجمل من غريب الـكتاب والحديث وفنون من النحو والأدب » . وقد سار فى ترتيب مواده وجمع فروع كل مادة منها على غرار الخليل فى عينه والأزهرى فى تهذيبه (٥) وعرض

---

(١) من هؤلاء الناقدين الفيروزابادى . وقد تصدى كثير من الباحثين للرد على ناقديه والدفاع عنه وألفوا فى ذلك كتبا خاصة .

(٢) انظر ترجمة لابن فارس وتعريفا بمؤلف آخر من أنفس مؤلفاته « الصاحبى فى فقه اللغة » فى صفحتى ٧٠ ، ٧١ من الطبعة الثالثة لـكتابنا « علم اللغة » .

(٣) اعتزمت دار إحياء الـكتب العربية نشر هذا المعجم الأخير (أنظر عدد أبريل سنة ١٩٤٦ من مجلة الـكتاب ص ٩١٧ .

(٤) أنظر آخر صفحة ٢٦٣ .

(٥) غير أنه وضع حروفه الثلاثة الأخيرة على هذا الترتيب : الألف فاليـاء فالواو ، على حين أن الأزهرى رتبها فى التهذيب على هذا الوضع : الواو فالألف فالياء .

فيه لكثير من قواعد الصرف المتعلقة بالقلب والإبدال والتصغير والنسب والإدغام والجمع وأسماء الجموع والإمالة وأبنية الأفعال والمصادر ... وهلم جرا .

ثم ألف الزمخشري (جار الله محمود بن عمر الزمخشري ٤٦٧ — ٥٣٨ هـ) معجمه « أساس البلاغة » ، ورتب كلماته حسب ترتيب أوائلها فى حروف الهجاء مبتدئا بالهمزة ومنتهيا بالياء . وقد نهج الزمخشري فى شرح الكلمات منهجا خاصا به ؛ فهو لا يفسر الكلمة بل يشير إلى مواطن استعمالها بذكرها فى عبارات مؤلفة أو مأثورة من فصيح الكلام العربى شعره ونثره ؛ ويترك للقارىء استخلاص معانيها المختلفة من سياق العبارات التى ترد فيها . وعنى بناحية هامة أغفلها معظم أصحاب المعجمات من قبله ومن بعده ، وهى التفرقة بين المعانى الحقيقية للكلمة ومعانيها المجازية ، فيبدأ المادة بذكر معانيها الحقيقية ويختتمها ببيان الشائع من معانيها المجازية . — وقد طبع « أساس البلاغة » فى جزءين ينتهى أولهما بآخر حرف الشين . — وهو من أشهر المراجع اللغوية وأكثرها تداولا فى العصر الحاضر .

ومع ما امتاز به هذا المعجم من الدقة ، وحسن الترتيب ، وسلامة المنهج ، وإرشاده إلى مواطن استعمال الكلمات ، وجمعه بين متن اللغة العربية وأدبها ، فإن بعض الناقدين قد أخذ عليه إغفاله لكثير من المواد ، وخطأه فى تفسير بعض الكلمات ، وعدم دقته أحياناً فى التفرقة بين معاني الكلمة الحقيقية ومعانيها المجازية ، وتركه كثيراً من غريب الكلمات التى ترد فى عباراته وشواهده بدون شرح ، وهذا يؤدى فى الغالب إلى غموض معنى الكلمة التى هو بصدد تفسيرها .

ثم ألف ابن الأثير (مجد الدين ٥٤٤ — ٦٠٦ هـ) معجمه « النهاية » وسار فى ترتيب كلماته على غرار الزمخشري .

ثم ألف الصغانى (رضى الدين الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العدوى العمرى الصغانى ٥٧٧ — ٦٥٠ هـ) معجميه « تكملة الصحاح » (وهو أكبر

حجماً من الصحاح نفسه) و « العباب »، وسار فيهما على طريقة الجوهري فى ترتيب الـكلمات . غير أنه قد جرت عادته فى « العباب » أن يذكر فى آخر كل مادة ما يدل عليه تركيبها من معنى عام تندرج تحته معانى ما تفرع منها على طريق الاشتقاق العام والاشتقاق الـكبير .

ثم ألف ابن منظور المصري (جمال الدين محمد بن جلال الدين بن مكرم الأنصاري الخزرجي الأفريقي المصري والمعروف بابن منظور ٦٣٠ — ٧١١ هـ) أكبر معجم من هذا النوع ، وسماه « لسان العرب » . وجمع فيه ماورد فى معظم المعجمات التي ظهرت من قبله . فقد ذكر أنه استمد مادته من كتب « التهذيب » للأزهري و « المحكم » لابن سيدة و « الصحاح » للجوهري وحواشي الصحاح و « الجمهرة » لابن دريد و « النهاية » لابن الأثير، و « أمالى ابن برى » . فبلغ عدد مواده زهاء ٨٠ ألف مادة . وهذا العدد لم يجتمع مثله فى أى معجم آخر من قبله ولا من بعده . ورتب كلماته حسب ترتيب أواخرها فى حروف الهجاء ، متبعاً فى ذلك منهج الصحاح السابق ذكره[١] .

ويمتاز لسان العرب بالدقة فى تحرى الحقيقة ، والتفصيل فى شرح الـكلمات والتوسع فى الاستشهاد على المعانى بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأشعار العرب وأمثالهم وخطبهم ، فهو بهذا دائرة معارف وليس معجماً لغوياً فحسب .

ومن أجل ذلك اتسع نطاقه وكبر حجمه ، حتى وقع فى طبعته الأخيرة (وهى طبعة بولاق سنة ١٣٠٧ هـ) فى عشرين جزءاً من الأجزاء الضخمة[٢] .

ويبدأ جزؤه الثانى بكلمة « صأب » أى بفصل الصاد من باب الباء ؛ والثالث بكلمة « لبث » ؛ والرابع بكلمة « صبخ » ؛ والخامس بكلمة « أخذ » ؛

---

(١) انظر صفحتى ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٢) فهو فى الحجم نحو خمسة أمثال « القاموس المحيط » الذى سيأتى ذكره ، مع أن عدد مواده لا تزيد على عدد مواد القاموس المحيط إلا بمقدار الثلث .

والسادس بكلمة « سأر » ؛ والسابع بكلمة « مأر » ؛ والثامن بكلمة « عبس » ؛ والتاسع بكلمة « خرض » ؛ والعاشر بكلمة « زبع » ؛ والحادى عشر بكلمة « دأف » ؛ والثانى عشر بكلمة « زبق » ؛ والثالث عشر بكلمة « أبل » ؛ والرابع عشر بكلمة « غتل » ؛ والخامس عشر بكلمة « حبرم » ؛ والسادس عشر بكلمة « لأم » ؛ والسابع عشر بكلمة « دبن » والثامن عشر بكلمه « أبى » ؛ والتاسع عشر بكلمة « رأى » ؛ والعشرون بكلمة « فأى » .

ومع أن هذا المعجم منقطع النظير فى دقة الشرح والتوسع فى إيراد الشواهد واستيعاب مادة اللغة ، فقد أخذ عليه الناقدون مآخذ كثيرة أهمها أنه كثيراً ما تبدو فيه مظاهر الاضطراب والتناقض لنقله عن كتب متعددة مختلفة الآراء ، بدون أن يحاول التوفيق بين آرائها أو تمييز غثها من سمينها .

و بعد ذلك بقليل ظهر كتاب « المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير » للفيومى (أحمد بن محمد بن على المقرى الفيومى المتوفى سنة ٧٧٠ ﻫ) . وقد فرغ من تأليفه سنة ٧٣٤ ﻫ . وهو معجم للكلمات الواردة فى كتاب الشرح الكبير للإمام الرافعى (وهو شرح لكتاب « الوجيز » فى فروع الفقه على مذهب الشافعى لحجة الإسلام الغزالى) . ولكنه لم يقتصر على ذلك بل أضاف إليه « زيادات من لغة غيره ومن الألفاظ المشتبهات والمتماثلات ومن إعراب الشواهد و بيان معانيها ، مما تدعو إليه حاجة الأديب الماهر »[١] . وقد رتب كلماته حسب ترتيب أوائلها فى حروف الهجاء . فقسمه إلى سبعة وعشرين كتاباً آخرها كتاب الواو ، وأضاف إليها بابين أحدهما « باب لا » وثانيهما « باب الياء »، وذيله بخاتمة درس فيها بعض قواعد صرفية تتعلق بالفعل المهموز الآخر وما تسير عليه العرب فى تحقيق همزته أو تخفيفها ، والثلاثى اللازم وتعديته بالهمزة و بالتضعيف وحرف

---

(١) انظر مقدمة هذا المعجم .

الجر ، وأبنيــة الأفعال واختصاص بعض أوزانها فى الدلالة على أمور خاصة ، والمشتقات ، والجمع ، وصيغة فُعَال وفعَــالة ومعانيها ، وما يذكَّر من الأعضاء وما يؤنث ، وما يفيده النسب ... وهلم جرا .

وقد طبع هــذا المعجم فى المطبعة الأميرية بالقاهرة فى مجلد واحد منقسم إلى جزءين يقع كل منهما فى نحو خمسمائة صفحة من الحجم المتوسط ، ويبدأ ثانيهما بكتاب الضاد .

وهو من أكثر المعجمات تداولا وذيوعاً فى العصر الحاضر . — ومع أنه درس بعض المفردات دراسة لا بأس بها ، فقــد أغفل عدداً كبيراً من المواد ، وقصّر فى دراسة بعضها ، ووجه قسطاً كبيراً من عنايته إلى المصطلحات الفقهية ، لأنه فى الأصل معجم للــكلمات الواردة فى كتاب فقهى .

ثم ظهر كتاب « مختار الصحاح » للإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى . وقد اختصر فيه معجم « الصحاح » للجوهرى مقتصراً « على ما لا بد لــكل عالم فقيه أو حافظ أو محدث أو أديب من معرفته وحفظه ، لــكثرة استعماله وجريانه على الألسن ... خصوصاً ألفاظ القرآن العزيز والأحاديث النبوية » ، وحذف منه « عويص اللغة وغريبها ، طلبــاً للاختصار وتسهيلا للحفظ . وضم إليه فوائد كثيرة من تهذيب الأزهرى وغيره من أصول اللغة الموثوق بها ومن تحصيله الخاص » (١) . وفرغ من تأليفه ســنة ٧٦٠ هـ . وكان ترتيبه فى المبدأ كترتيب الصحاح ؛ ولــكن وزارة المعارف المصرية أمرت بتغيير وضعه وجعله مرتباً حسب أوائل الكلمات ، وحذفت منه ما لا يليق بالنشء قراءته ، وعهدت إلى الأستاذ محمود بك خاطر بأمر تنظيمه على هذا النسق وإلى المغفور له العلامة الشيخ حمزة فتح الله بالإشراف على مراجعته وتصحيحه . وظهرت أول طبعة منه على هذه الصورة سنة ١٩٠٥ م .

---

(١) انظر مقدمة هذا المعجم .

وهو معجم صغير موجز متداول بين أيدى الطلبة وعامة المثقفين فى مختلف البلاد العربية .

وفى هـذا العصر نفسه ظهر كتاب « القاموس المحيط » للفيروزابادى (أبو طاهر محمد بن يعقوب مجد الدين الفيروزا بادى الشيرازى ٧٢٩—٨١٧هـ) .

وقد ذكر الفيروزابادى فى سبب تأليفه هذا الكتاب أنه رأى أن المعجمات التى وضعت فى عصره ليست جامعة لفصيح اللغة وشواردها ، وليست مبسوطة بسطاً وافيـاً ، وأن « صحاح » الجوهرى الذى شاع فى زمنه ، واعتمد عليه المدرسون ، قد فاته نصف اللغة أو أكثر ، وأن خير الكتب التى ألفت من قبل كتابان هما : « المحكم » لابن سيدة و « العباب » للصغانى ، وأن أحدهما لا يغنى عن الآخر ، وهما لا يغنيـان عما عداهما . لذلك شرع فى وضع كتاب واسع يجمع ما ورد فى هذين الكتابين ويكمل ما فاتهما . وسماه « اللامع المعلم العجاب ، الجامع بين المحكم والعباب » . ولما رأى أن هذا الكتاب سيبلغ ستين سفراً ، وأن الطلاب سيعجزون عن تحصيله ، وطلب إليه وضع كتاب موجز ، اختصره فى سفرين اثنين ، فجعل كل ثلاثين سفراً من الكتاب الأصلى فى سفر واحد . وسمى هـذا المختصر « القاموس المحيط » . وقد ضمنه خلاصة المحكم والعباب وزيادات أخرى من غيرهما ومن تحصيله ، فبلغت مواده ٦٠ ألف مادة . ورتب كلماته حسب ترتيب أواخرها فى حروف الهجاء ، متبعاً فى ذلك منهج الجوهرى فى « الصحاح » وابن منظور فى « لسان العرب » ولم يخالفهما إلا فى تقديم الواو على الهاء .

والطبعة المتداولة فى العصر الحاضر من « القاموس المحيط » تقع فى أربعة أجزاء ؛ يبتدىء ثانيها بكلمة « حبر » أى بفصل الحاء من باب الراء ؛ وثالثها بكلمة « أمع » أى بفصل الهمزة من باب العين ؛ ورابعها بكلمة « صؤل » أى بفصل الصاد من باب اللام .

وقد دعته شدة الرغبة فى الإيجاز إلى اتخاذ طريقة خاصة فى إيراد معانى

الكلمة واصطناع بعض رموز فى التفسير . فمن ذلك أنه يحرص على ألا يفسر الكلمة فى معنى من معانيها بأكثر من كلمة واحدة ؛ وأنه لا يكرر الكلمة عند ذكر معانيها المختلفة بل يكتفى بذكر بعض متعلقاتها (نَفَح الطيبُ كمنع فاح نفحاً ونُفَاحاً بالضم ونفحانا والريحُ هبت والعرق نزى منه الدم والشىء بسيفه تناوله وفلاناً بشىء أعطاه واللمة حركها ... وانتفَح به اعترض له وإلى موضع كذا انقلب ....) ؛ وأنه يميز اليائى من الواوى بوضع حرف واو أو ياء قبل الكلمة (ى مضى ، و رجا) ؛ وأنه يكتفى فى بيان مؤنث الاسم أو الوصف بذكر علامة التأنيث بدون تكرار الكلمة (« وهى بهاء » ، للإشارة إلى أنها تؤنث بالتاء) ؛ وأنه يرمز بحرف م لكلمة معروف ، وبحرف ع لكلمة موضع ، وبحرف د لكلمة بلد ، وبحرف ة لكلمة قرية ، وبحرف ج لكلمة جمع ، وبحرف جج لكلمة جمع الجمع .

ومما يمتاز به القاموس المحيط أنه يعرض لأسماء الأعلام من الأناسى والأمكنة وغيرهما ولبعض العقاقير الطبية وخواصها .

وقد ألفت عدة كتب فى شرح القاموس المحيط ، من أهمها وأشهرها «تاج العروس فى شرح القاموس» للسيد مرتضى الحسينى المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ . وقد طبع هذا الشرح بمصر فى عشرة مجلدات ضخام ظهرت فى سنتى ١٣١٦ ، ١٣١٧ هـ .

ولم يحظ أى معجم آخر فى العصر الحاضر بما حظى به « القاموس المحيط » من سعة الانتشار ، وكثرة التداول ، والاعتماد عليه ، والاستشهاد بما ورد فيه ، حتى أنه لا تخلو منه مكتبة أديب أو عالم ، وحتى أن اسمه (القاموس) أصبح بمنزلة اسم جنس يطلق على كل معجم .

غير أنه قد أخذت عليه عدة مآخذ ، منها أن شدة حرصه على الإيجاز كثيراً ما توقعه فى الغموض والإبهام ، فتصبح عباراته من قبيل الإشارات البرقية ؛ وأنه

يغفل شرح كثير من الـكلمات الغريبة الغامضة مكتفياً بأن يضع بعدها حرف م للإشارة إلى أنها معروفة ؛ وأنه يشتمل على كثير من الأوهام التاريخيـة والخرافات ؛ وأنه كثيراً ما يشرح كلا المترادفين بالآخر بدون توضيح المعنى الذى يدلان عليه ؛ وأنه لا يميز بين الفصيح والغريب والمهمل ؛ وأنه كثيراً ما يخطّىء الجوهرى ويكون هو المخطىء[١] ؛ وأنه قد وقع فى عدة أخطاء فى شرحـه للـكلمات الدالة على الحيوانات والنباتات ؛ وأنه يسرد معانى الـكلمة بعضها تلو بعض بدون ذكر شواهد تبين وجوه استعمالها وتوضح مدلولاتها . — وقد ألفت كتب خاصة فى بيان هذه المآخذ وغيرها ، من أشهرها وأحدثها كتاب « الجاسوس على القاموس » لأحمد فارس الشدياق اللبنانى .

***

وهـذا النوع من المعجمات قليل الفائدة للباحث فى فقه اللغة . وذلك أن مؤلفيها قد وجهوا كل عنايتهم إلى ذكر معانى الـكلمات والاستشهاد عليها أحياناً بالقرآن والحديث والمأثور من كلام العرب ؛ ولـكنهم أغفلوا إغفالا تاماً تعقب معانى كل كلمة فى مراحل حياتها ، وشرح تطور مدلولها فى مختلف العصور ، وبيـان الأصول التى انحدرت منها ... وما إلى ذلك من البحوث القيمة التى تشغل الآن أكبر حيز فى المعاجم الإفرنجية الحديثة ، وتهم كثيراً الباحثين فى فقه اللغة.

هذا إلى أن معظم هذه المعجمات لا يسير على نظام ثابت فى ترتيب معانى الـكلمة وتنظيم طوائفها ، فيخلط بين الحقيقى منها والمجازى[٢] ، وبين القديم والجديد ، كما يخلط بين معانيها فى مختلف اللهجات العربية ومن ثم جاءت مضللة فى كثير من المواطن .

---

(١) كتب بعض المؤلفين كتبا خاصة فى المفاضلة بينهما والانتصار لأحدهما على الآخر .

(٢) يستثنى من ذلك « أساس البلاغة » للزمخشرى (انظر ص ٢٦٨) . على أنه قد وقع فى هذا الـكتاب نفسه أخطاء كثيرة بصدد التفرقة بين المعاني الحقيقية والمجازية .

وقد اشتملت ، فضلا عن هذا كله ، على كلمات كثيرة كانت مهجورة فى الاستعمال ومستبدلا بها كلمات أخرى ، وعلى عدد كبير من المفردات المولدة والمشكوك فى عربيتها ، وحرفت فيها كلمات كثيرة عن أوضاعها . ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة : منها أن جامعى المعجمات قد أخذوا أحياناً عن أشعار جاهلية ثبت فيما بعد أنها موضوعة ؛ ومنها أنهم كانوا ينقلون أحياناً عن الكتب ، فحدث من جراء ذلك تصحيف فى كثير من الكلمات ، لأن الرسم فى عصورهم كان مجرداً من الإعجام والشكل ، فكان من الممكن أحياناً قراءة الكلمة الواحدة على عدة وجوه .

وليست المآخذ السابقة مقصورة على هذا النوع من المعجمات ، بل يوجه كثير منها كذلك إلى النوعين الآخرين : المعجمات الخاصة[١] ومعجمات المعانى[٢]

***

هذا ، وقد ألف بعض علماء هذا العصر الحاضر معجمات حديثة لا تكاد تمتاز عن المعجمات القديمة إلا فى حسن التنسيق ، ونظام الترتيب ، واستخدام بعض وسائل الإيضاح كرسم ما تدل عليه الكلمات من حيوان أو نبات أو جماد ، وتعرضها أحياناً لبعض المصطلحات الحديثة فى العلوم والفنون والصناعات ... وما إلى ذلك . ومن أشهر هذه الطائفة كتاب « محيط المحيط فى اللغة واصطلاحات العلوم » للمعلم بطرس البستانى ، وقد فرغ من تأليفه سنة ١٨٦٩ ؛ و « أقرب الموارد فى فصح العربية والشوارد » فى ثلاثة مجلدات لسعيد الشرتونى اللبنانى المارونى ؛ و « المنجد » للأب لويس معلوف اليسوعى (وهو معجم مدرسى صغير) ؛ و « معجم الطالب فى المأنوس من متن اللغة العربية والاصطلاحات

---

(١) انظر صفحتى ٢٦١ ، ٢٦٢ .

(٢) انظر صفحتى ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

العلمية والعصرية » للمعلم جرجس همام الشويرى اللبنانى ، وقد طبع فى لبنان سنة ١٩٠٧ م ؛ و « البستان » لعبد الله البستانى (١) .

(٢٤) كفاية اللغة العربية ومنزلتها

إن فيما تقدم ذكره بصدد خواص اللغة العربية ، (٢) ودقة قواعدها ، (٣) وغزارة مفرداتها (٤) ، وخصب مناهجها فى الاشتقاق (٥) ، وقياسيّة أوزانها واختصاص كثير من هذه الأوزان بالدلالة على معان معينة (٦) ، وسعة صدرها حيال التعريب والمجاز والكناية والنقل (٧) ؛ وشدة حرصها على جمال الأسلوب و بلاغة العبارة ، وتوخيها الوصول إلى الغرض من أقرب الطرق وأكثرها ملاءمة لمقتضيات الأحوال (٨) ... إن فى ذلك كله وما إليه لأوضح دليل على أنها من أعظم اللغات كفاية ، وأكثرها مرونة ، وأقدرها على التعبير عن مختلف فنون القول .

وقد انتقل العرب من همجية الجاهلية إلى حضارة الإسلام ، ومن النطاق العربى الضيق الذى امتازت به مدنيتهم فى عصر بنى أميـة إلى الأفق العالمى الواسع الذى تحولوا فى عصر بنى العباس ، فلم تعجز لغتهم عن مواجهة هذه الشئون الجديدة ، ولم تضق ذرعاً بالتعبير عن أية ناحية منها ؛ بل اتسعت للعلوم والفنون على اختلاف أنواعها ، وللحضارة على كثرة مظاهرها ؛ فنهضت بالمواد الشرعية واللغوية والطبيعية والرياضية وعلوم النفس والاجتماع ، وصارت لسان الفلسفة

---

(١) انظر فى موضوع المعجمات مقالا نفيسا لصديقنا الأستاذ محب الدين الخطيب بمؤلفه « الحديقة » صفحات ٨٢ — ١١٨ من الجزء الثاني .

(٢) انظر صفحتى ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٣) انظر صفحتى ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٤) انظر صفحتى ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٥) انظر صفحات ١٩٧ — ٢٠٥ .

(٦) انظر آخر ص ٢٠٧ — ٢١٥ .

(٧) انظر صفحات ٢٢٥ — ٢٣٣ ، ٢٣٧ — ٢٥٤ .

(٨) انظر آخر ص ٢٢٨ وأول ٢٢٩ وصفحات ٢٣٣ — ٢٣٦ .

والسياسة والقصص والصناعة والفن ومختلف ضروب المعاملات . و بالجملة لم تقف أمام أية شعبة من شعب العلم أو الحضارة وقفة المتعثر الحائر ، بل كان لها من قوة حيويتها ، وعظيم مرونتها ، وغزارة ثروتها ، وسلامة أسسها ، ما أتاح لها الخوض فى مختلف مناحى القول ، والتعبير عن شتى مظاهر التفكير .

هذا ، وقد عرف للغة العربية هذه الكفاية النادرة والمنزلة السامية جميع الثقات من المستشرقين الأجانب أنفسهم . وسنعرض فيما يلى من نماذج آرائهم فى هذا الصدد ، خلاصة بحث قيّم نشره العلامة المستشرق الفرنسى الأستاذ لويس ماسينيون تحت عنوان : « مقام الثقافة العربية بالنسبة إلى المدنية العالمية » .

« يبدو أن هناك تضادا بين الحضارة وما يلازمها من ثقافة من جهة ، و بين البادية من جهة أخرى ، وذلك باعتبار أن لفظة حضارة ذاتها مشتقة من الحضر والحاضرة ، والحاضرة فى معاجم اللغة ضد البادية .

ولكن هذا التضاد اللغوى غير مسلم به فى واقع التاريخ ، و بخاصة فيما يتعلق ببادية العرب و نشوء الثقافة بها ؛ وذلك لأن هذه البادية قد كانت دار هجرة ، نزحت إليها أقوام حاملة معها ما تملك من نفائس مادية وروحية ؛ وفى نجاد مضر وجبال قحطان أقام أولئك المهاجرون متخذين من الفيافى والقفار الممتدة حولهم دروعا تحميهم .

ولما كانت اللغة هى وعاء الثقافة ، فان دراسة اللغة العربية ومدى قابليتها لتلقى الثقافة يعد مفتاحا لإدراك فوائد تلك الثقافة .

والذى لا شك فيه أن قوة اللغة فى الأداء والبلاغة لا تأتيها من مفرداتها أسماء كانت أم أفعالا ، و إنما تأتيها من تركيب جملها ، وطريقة هذا التركيب .

وللغات السامية — بما فيها اللغة العربية — طابع خاص فى تركيب الجمل يمكن أن يسمى بالتركيب الجوارى (Parataxe) فترى الجمل تتتابع فى سلك

خطى كما تتتابع حبات العقد على نسق موحد دون أن تنبنى إحداها على الأخرى أو تفوقها فى القيمة تبعا لتوزيعها بين جملة أصلية وجمل تبعية .

وأما اللغات الآرية فتركيب الجمل فيها « تركيب بنائى » hypotaxe ، حيث نرى بعضها مبنيا على بعض فى منطق قياسى تلعب فيه كل جملة دورا خاصا ، وتنزل من الأهمية منزلا محددا . وهذا ظاهر فى خطب مشاهير اليونان ، حيث نجد الفقرات الطويلة المكونة لوحدة منقسمة إلى عدة جمل مرتبط بعضها ببعض ومبنى بعضها على بعض .

وأخيراً ننظر فى اللغات الطورانية فنجد تركيب الجمل فيها أشبه ما يكون بالوشى المؤلف من عناصر جمعتها الصدفة ، وكأنها خطرات شعرية خالية من نظام الجدل السامى ومن القياس اليونانى ، ونحن لا نصل فيها إلى محصل الدلالة إلا إذا وصلنا إلى نهاية ألفاظها .

وأما من حيث الكلمات فدلالتها فى اللغات السامية ترجع إلى أصول ثابتة ثلاثية تلونها الحركات حسب اتجاه النية الشخصية إلى معنى الفعل المطلوب . والأزمنة الفعلية فيها مطلقة بحسب الفعل المجرد . وهذا يخالف طريقة اللغات الآرية حيث الأزمنة نسبية راجعة إلى الفاعل . وأما اللغات الطورانية فأزمنتها وقتية بالنسبة إلى الواقعة والحادثة .

والنتيجة التى تصدر عن اختلاف هذه المجموعات اللغوية الثلاث فى طرق الأداء هى ما نلاحظه من ميل اللغات الآرية ميلا طبيعيا إلى التمييزات النظرية ، وميل اللغات الطورانية إلى الإيقاعات الموسيقية ، وأخيرا ميل اللغات السامية إلى الحكم الأخلاقية ، وتركيزها فى جمل موحدة ، وإن لم تنحصر ثقافتها فى تلك الجمل المقيدة .

ولو أننا تركنا المقارنة بين مجموعات اللغات وأخذنا نقارن بين اللغة العربية فى داخل المجموعة الساميّة لوجدنا أنها تفضل زميلتيها الكبيرتين العبرية والسريانية .

ولقد دلوا على أفضلية اللغة العربية بقولهم : « أنها السابقة بالوصلة ، والآخرة بالنبوة » . وهم يقصدون بالوصلة المحافظة على خصائص اللغة السامية الأصلية التى تفرعت عنها اللغات السامية المختلفة . ويضربون لذلك الأمثال باحتفاظ الهجاء العربى بثمانيـة وعشرين حرفاً ، و ٣٢٧٦ أصلا ثلاثياً مجرداً (أو ٤١٨٠ إذا أضفنا إليها الأصول الثنائية المزيدة) ، وتعدد أشكال الأفعال فيها... إلى غير ذلك مما نجده ناقصاً فى أخواتها . — وأما أنها الأخيرة بالنبوة ، فالمقصود بالنبوة هنا هو الثقافة بالمعنى العام . وذلك ما يمكن استنتاجه من ثروة المعانى الـكامنة فى كل أصل ثلاثى من أصولها ، ومن قدرتها فى القبض على الامتدادات المعنوية المشتركة أسسها ، وأخيراً من صقلها للمعانى والصعود بها فى مدارج التقدم . ولنضرب لذلك أمثلة بالأصل السامى الثلاثى « رحم » فمعنـاه السريانى « المحبة » والعربى « الشفقة » ؛ والأصل « صبر » معناه العبرى « الترجى » والسريانى « التفـكر » والعربى « الامساك » ؛ والأصل « عشق » معناه العبرى « التشاغل » والسريانى « الحزن » والعربى « الولع » . — فالصعود بمعانى هذه الأصول وتقويتهـا فى العربية واضح من المقارنة .

ولو أننا انتقلنا من اللغات إلى الثقافات ، لوجدنا أن السريانية خدمتها قديمة للمدنية بفضل كثرة كتابتها فى الدول الإيرانية قبل الإسلام ، وكثرة مترجميها فى الدول اليونانية المعاصرة ، وإن لم تحظ باستقلال سياسى بل ظلت تحت الضغط الأجنبى دائماً . ولقد قيل أنها لغة عذاب الغير وأهاويل القيامة . — وأما العبرية فثقافتها حديثة العهد . وذلك لأن أكبر مؤلفى اليهود اختاروا فى القرون الوسطى اللغة العربية للاجتهاد الفـكرى ، بينما اقتصرت العبرية على الطقوس الدينيـة ، وتقدمة الذبائح الناموسية . — وأخيراً نجد أن اللغة العربيـة تفضل أختيها من الوجهة الثقافية أيضاً . وذلك لأن العربية لغة عذبة وحلوة للدموع أى لدم القلب ، والدموع تجرى من مشاهدة الحق المجرد . وهـذا الحق يجرى مجريين : مجرى

التجارب النفسية الاجتماعية ؛ ومجرى التجارب العلمية الرياضية . وفى العربية من الحكم وجوامع الكلم ما يثقب الضمير مثل السيف المسلول ، وفيها من الاصطلاحات الرياضية ما يدل على مدى تقدم العرب فى تلك الدراسات بعد اليونان . — ومرد المجريين واحد وهو تميز اللغة العربية بالتجرد والانقباض والتصميد والتوحيد .

وأما فى علوم اللغة فإن الفكر السامى لم يصل إلى علم العروض إلا عند العرب . وفى علم النحو كان فى تعميم الإعراب من الأسماء إلى الأفعال المضارعة ، بل إلى الجمل التى لها محل من الإعراب ، كان فى هذا التعميم ما يدل على أن فلسفة توحيد النحو والصرف لم يصل إليها غير العرب . كما أن الأسلوب لم يصل إلى أوْجه إلا لديهم .

ولقد وجه إلى الثقافة العربية نقدان : أولهما خاص بقيمة الأدب العربى ، إذ اتهمه المنتقدون بأنه أصوات وألفاظ و إيقاعات فارغة بلا معنى ؛ وثانيهما قائم على مايدعونه من عدم وجود عيون كبيرة فى الأدب العربى كالإلياذة عند اليونان .

وجوابنا على النقد الأول يمكن أخذه مما سبق أن قررناه خاصاً بحسن الألفاظ فى البلاغة العربية ، وثبوت الأصول اللغوية فيها ، وتنوع الصيغ . وأما الاعتراض الثانى فما نظنه يقوم إلا عند من يأخذون إنتاج الفكر والروح بمقياس الكم ، ويخضعونه للثقل والمادة ، فيحكمون بحسب عدد المجلدات والأسطر. ومع ذلك فإن عدد الأبيات الشهيرة بما تحمله من ثروة لايعدو فى الإلياذة المائة بيت ؛ وما تبقى بعد ذلك ليس إلا حشواً وتطويلا وتصنعاً . وباستطاعة العرب أن يفاخروا غيرهم من الأمم بما فى أدبهم من جوامع الكلم التى تحمل من سمو الفكر وأمارات الفتوة والمروءة ما لا مثيل له . وأعجاز التأليف عند العرب يأتى من الإيجاز الذى كأنه تركيز بالتقطير .

ثم : كيف ننسى بعض مطالع قصائد « المتنبي » ، وهى كالأسهم صيغت من حكم خالصة تسمو قدراً على مجلدات من أقصوصات .

كيف ننسى حكمة المتصوفين وكأنها قطرات ماء سكب فحملتها الراحتان بغير نصب فى ابتهالها إلى الله .

وأخيراً كيف ننسى أن العرب قد وضعوا فى مجال العلوم الرياضية والكيماوية من الاصطلاحات الدقيقة ما يسير اليـــوم فى خط متواز مع أحدث الأبحاث فى تلك العلوم .

وعلى الرغم من كل ذلك نسمع صيحات عن انحطاط الثقافة العربية ، ثم ننظر فيما يقترح هؤلاء الصائحون من علاج لهذا الانحطاط ، فلا نجد إلا دعوة إلى تقليد الثقافة الغربية من الناحية المادية ؛ مع أن تلك الثقافة تقوم على خصائص طبيعية لصيقة بلغاتها الآرية ؛ وتقليدها فى حكم المستحيل .

أن سر الإصلاح الحقيقى بالنسبة للفرد وللجماعة على السواء هو الإخلاص ، أى تحقيق فضائل اللغـــة العربية المتواترة ، وقابليتها لنقل الأفكار المفيدة فى صيغتها المتوارثة ، وذلك بدرس الوسائل العقلية والروحية التى استعملها فى الماضى بنجاح العلماء فى التعبير عن تجاربهم العلمية والنفسية والطبية مثل « محمد بن زكريا الرازى » فى استدراكات شكوكه على « جالينوس » وغيره ، ومثل « أبو حيان التوحيدى » فى إشارته الإلهية ، و « البيرونى » فى تاريخ الهند ، والأصوليين من « الشافعى » إلى « ابن قيم الجوزيه » و « وابن الهمام » فى تجاربهم الاجتماعية .

أن إحياء الثقافة العربية لن تكون وسيلته تقليد أسلوب ونمو غير طبيعيين ، ولا وضع أفكار عربية فى قالب مستعار من الخارج ؛ وليس من المروءة فى شىء أن يهرب المرء من نفسه ، وليس مثل هذا الهرب بطريق حقيقى للنجاة ؛ و إنما الطريق هو أن نلقى السمع من صميم القلب إلى اللغـــة ، وأن نركز التأمل فى

درسها باعتبارها وعاء الثقافة وأداتها . ومتى خلصت النية للمصلحة العامة اتضح هذا الطريق »[١] .

ولا يعوز اللغة العربية فى العصر الحاضر إلا أن تخصص ألفاظ من مفرداتها للدلالة على مستحدثات العلوم والفنون . ولن يرهقنا هذا من أمرنا عسرا ؛ لأن فى بطون معجمات هذه اللغة مئات الألوف من الكلمات المهجورة والمستعملة ، مما يصلح أن يوضع لهذه المسميات الحديثة . ولنا بهذا الصدد أسوة حسنة فيما فعله العرب أنفسهم فى صدر الإسلام والعصر العباسى . وهذه هى إحدى الغايات الجليلة التى يعمل على تحقيقها « مجمع فؤاد الأول للغة العربية » .

(٣٥) مجمع فؤاد الأول للغة العربيه

فى الرابع عشر من شهر شعبان سنة ١٣٥١ (الموافق ١٣ ديسمبر سنة ١٩٣٢) فى عهد المغفور له صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر ، صدر مرسوم بإنشاء مجمع ملكى للغة العربية يكون مركزه مدينة القاهرة . وقد عدل فيما بعد هذا المرسوم بالمراسيم الصادرة فى ٧ أغسطس سنة ١٩٣٨ وفى ٢٨ مايو سنة ١٩٤٠ وفى ١١ سبتمبر سنة ١٩٤٦ . وسننقل فيما يلى ما يتصل من مواد هذه المراسيم بأعمال المجمع وأغراضه ونظام تأليفه :

(مادة ٢) أغراض المجمع هى :

(ا) المحافظة على سلامة اللغة العربية ، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها ، ملائمة على العموم لحاجات الحياة فى العصر الحاضر ؛ وذلك بأن يحدد فى معاجم أو تفاسير خاصة ، أو بغير ذلك من الطرق ، ما ينبغى استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتراكيب .

(ب) أن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية ، وأن ينشر أبحاثا دقيقة فى تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها .

---

(١) نشرت هذه الخلاصة لبحث العلامة ماسينيون فى عدد ٤٩/١/٢٦ من جريدة الأهرام.

(حـ) أن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية .

(ى) أن يبحث كل ما له شأن فى تقدم اللغة العربية مما يعهد إليه فيه بقرار من وزير المعارف العمومية .

(مادة ٣) يصدر المجمع مجلة تنشر فيما تنشر أبحاثه التاريخية ، وقوائم الألفاظ والتراكيب التى يرى استعمالها أو تجنبها ، وتتقبل مناقشات الجمهور واقتراحاته .

وينشر على الطريقة العلمية من النصوص القديمة ما يراه لازماً لأعمال المعجم ودراسات فقه اللغة .

(مادة ٤ — فى تعديلها الأخير فى المرسوم الصادر فى ١١ سبتمبر سنة ١٩٤٦) يؤلف المجمع من أعضاء عاملين لايقل عددهم عن ثلاثين ولا يزيد على ٤٠ عضواً يختارون من بين العلماء المعروفين بتبحرهم فى اللغة العربية وآدابها أو فى العلوم والفنون . ويجوز أن يكون بينهم عدد من العلماء غير المصريين لايتجاوز العشرة . ويعين الأعضاء العاملون لأول مرة بمرسوم بناء على عرض وزير المعارف العمومية وكذلك الحال عند زيادة عدد الأعضاء حتى يبلغ العدد المقرر .

(مادة ٨) لوزير المعارف العمومية أن يمنح لقب « عضو مراسل » لكل شخص يرى فى معونته فائدة كبرى بناء على اقتراح من مجلس المجمع بالأغلبية المطلقة .

(مادة ٨ مكررة) إذا خلا محل من أحد الأعضاء اقترح مجلس المجمع اسم العضو الجديد بأغلبية ثلثى أعضائه العاملين . ويجب أن يصحب الاقتراح بتقرير مفصل لمؤهلاته العلمية . ويعين العضو الجديد بمرسوم بناء على عرض وزير المعارف .

(مادة ٩ معدلة) يجتمع مجلس المجمع فى فترات دورية من السنة وفقاً لما هو مبين باللائحة الداخلية . ولا يصح انعقاده إلا إذا حضر الجلسة أغلبية الأعضاء .

ويجتمع مؤتمر المجمع سنوياً مدة أربعة أسابيع متوالية . ويجوز إطالة هذه المدة بقرار من وزير المعارف العمومية بناء على اقتراح رئيس المجمع . ولا يصح انعقاده إلا إذا حضر الجلسة ثلاثة أخماس أعضائه على الأقل .

وفى غير الأحوال التى تشترط فيها أغلبية خاصة تصدر قرارات هيئتى المجمع بالأغلبية المطلقة للأعضاء الحاضرين . وعند تساوى الآراء يرجح الجانب الذى فيه الرئيس .

وتصدر القرارات الخاصه بمادة اللغة العربية من مؤتمر المجمع .

(مادة ١٠) للمجمع أن يعهد فى إعداد كل فرع من فروع الأعمال الموكولة إليه إلى لجنة ينتخبها من بين أعضائه العاملين .

ولهذه اللجان أن تعقد اجتماعاتها فى غير المدة المحددة للاجتماعات العامة .

(مادة ١١) يجوز أن يدعى لحضور اجتماعات اللجان والجلسات العامة أشخاص من غير الأعضاء ممن يرى ضرورة مراجعتهم ومعاونتهم فى أعمال المجمع وهؤلاء يكون رأيهم استشاريا .

(مادة ١٧) تتخذ وزارة المعارف العمومية كل الوسائل التى تكفل اتباع قرارات المجمع فى أمر اللغة العربية وألفاظها وتراكيبها ، وذلك بإذاعتها إذاعة واسعة وباستعمالها بوجه خاص فى مصالح الحكومة ، وفى التعليم والكتب الدراسية المقررة .

***

ووفقاً للمادة العاشرة من مرسوم إنشائه ، اتخذ المجمع فى دور انعقاده الأول قراراً بتأليف لجانه وبيان اختصاصاتها وأعضائها . وفيما يلى ملخص هذا القرار .

ألفت لجان المجمع فى دور الانعقاد الأول كما يأتى :

١ — لجنة الرياضيات . وتبحث فى مصطلحات الحساب والهندسة بأنواعها والجبر وعلم الآلات والحيل (الميكانيكا) والفلك ... وما إلى ذلك .

٢ — لجنة العلوم الطبيعية . وتبحث فى مصطلحات الطبيعة بأقسامها والكيمياء بأنواعه .

٣ — لجنة علوم الحياة والطب . وتبحث فى مصطلحات المواليد الثلاثة ، ووظائف الأعضاء وما إليها وفى الطب بأنواعه .

٤ — لجنة العلوم الاجتماعية والفلسفية وتبحث فى مصطلحات العلوم الاجتماعية كالحقوق والاقتصاد والسياسة والإدارة ووصف الشعوب ، والعلوم الفلسفية كعلوم النفس والمنطق والأخلاق والتصوف والإلاهيات والدينيات .

٥ — لجنة الآداب والفنون الجميلة . وتبحث فى مصطلحات التاريخ والجغرافيا وما يتعلق بالمدينة ومسالكها والمنزل وأجزائه وأدواته ونحو ذلك ، ومصطلحات الصناعات والحرف وما إليها ، ومصطلحات الفنون الجميلة مثل الرسم ، والتصوير والنحت ، ونقر الخشب ، والموسيقى بأنواعه وآلاته وأجزاء آلاته ، والتمثيل والخيالة والشعر ، كما تعمل على تصحيح الألفاظ والأساليب التى يُغلط فيها .

٦ — لجنة المعجم . وتقوم بوضع المعجمات التى أشير إليها فى الفقرتين الأولى والثانية من مرسوم إنشاء المجمع .

٧ — لجنة اللهجات . وتبحث فى دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية .

٨ — لجنة المجلة . وتشرف على تحرير المجلة المشار إليها فى المادة الثالثة من مرسوم إنشاء المجمع .

٩ — لجنة خزانة المكتبة .

١٠ — لجنة الميزانية .

١١ — لجنة الأصول العامة . وتبحث فى قواعد اللغة العربية ، وتتخير من آراء أئمتها ما يوسع أقيستها لتكون أداة سهلة للتعبير عن المقاصد العلمية وغير العلمية .

* * *

ووفقاً للفقرة الرابعة (ى) من المادة الثانية من قانون المجمع ، صدرت قرارات وزارية تعهد إليه بالإشراف على أعمال خاصة تساعد على تقدم اللغة العربية ، من أهمها القرار الذى يعهد إليه بدرس ما من شأنه تيسير الكتابة العربية وقواعد النحو والصرف و بالتماس الوسائل إلى تشجيع الأدباء على التنافس فى الإنتاج الأدبى الممتاز [١] .

* * *

فأعمال المجمع الأساسية ترجع إذن إلى سبع طوائف :

(إحداها) وضع أسماء عربية لمصطلحات العلوم والفنون والشئون العامة ، وتصحيح الألفاظ والأساليب التى تنحرف فيها الألسنة والأقلام عن الأوضاع العربية الفصيحة . ولهذه الغاية أنشئت لجان الرياضيات ، والعلوم الطبيعية ، وعلوم الحياة والطب ، والعلوم الاجتماعية والفلسفية ، والآداب والفنون الجميلة .

وقد قطع المجمع فى هذا السبيل مرحلة كبيرة ، فأقر مئات من الأسماء العربية فى مختلف هذه الشئون ، و نشرت هذه الأسماء فى القسم الرسمى من مجلته ، كما نشر بها أسماء وتحقيقات أخرى كثيرة من هذا النوع اقترحها بعض أعضائه أو لجانه أو بعض الباحثين من غير أعضائه ولم تقرها هيئة المجمع بعد [٢] .

ومع ذلك لا تزال أمامه مراحل طويلة فى هذا السبيل ، كما أنه فى حاجة إلى اتخاذ الوسائل الفعالة لتعميم ما يقره بهذا الصدد ، وضمان تداوله واستقراره ، وتمكينه من الألسنة والأقلام .

---

(١) انظر القرار الوزارى رقم ٥٤٣٤ بتاريخ ٦ فبراير سنة ١٩٤١ فى صفحة ١٧٩ من الجزء الخامس من مجلة المجمع .

(٢) أنظر فى ذلك مثلا الجزء الأول صفحات ٣٨ — ١٧٠،٣٩٤ — ٣٩٩ ؛ والجزء الثاني صفحات: ٦٣ — ١٩٥،٢٥٦ — ٣٠٤ ؛ والجزء الثالث صفحات ٣٥ — ١٩١،٢٥٤ — ٢٨٩، ٣٠٢ — ٣١١،٣٧٢،٣٧٣ ؛ والجزء الرابع صفحات ٨ — ١٧،٢٢ — ٣٠،٣٩ — ١٢٣ ١٤١ — ١٦٦ ، ٢١١ — ٢٢٤ ، ٢٧٥ — ٢٩٣ ، ٣١٦ — ٣٢٧ . والجزء الخامس صفحات ١١ — ٥٨ ، ١٠٦ — ١٦٩ ، ٢٦٤ — ٣١١ .

و (ثانيتها) وضع معجمات مهذبة للغة العربية . ولهذه الغاية أنشئت لجنة المعجم .

وقد قدم إلى المجمع بهذا الصدد اقتراحات كثيرة أقر منها ما يلى :

١ — « أن يطبع معجم الأستاذ فيشر[١] (وقد كان أحد أعضاء المجمع) وأن يتولى هو تصحيحه بمصر ، على أن يحل حضرته ما يرد إليه من استدراكات حضرات الأعضاء محل النظر والتقدير ، وأن يعاونه من حضرات أعضاء المجمع من يتفق الرئيس معهم ، ومعهم المراقب الإدارى ، الذى يكون له ، مع الأستاذ فيشر ، الإشراف على من يعين من الموظفين لهذا العمل[٢] » .

وقد توقف العمل فى هذا المعجم فى أثناء الحرب العالمية الأخيرة ، ثم استؤنف بعدها ، ولم تؤثر وفاة المؤلف تأثيراً كبيراً فى متابعة العمل فيه .

٢ — « البدء في عمل معجم علمى صغير للتعليم الثانوى فى الأقطار العربية ، وذلك بأن يعين معالى الرئيس موظفين مختصين فى العلوم (الطبيعية والكيميائية والرياضية وعلوم الحياة) مع إجادة اللغة العربية للقيام بعمل هذا المعجم وما يحتاج إليه من رسوم . ويرى المجمع بعد تعيين هؤلاء الموظفين أن يراجعوا معجماً علمياً صغيراً أوروبياً ، وأن يستخرجوا منه جميع الكلمات العلمية الضرورية لطلاب التعليم الثانوى ، وأن يشرعوا فى تقسيم العمل بينهم ، ثم ترجمة الإصطلاحات والتعريفات مع وضع الكلمة اللاتينية أو اليونانية إذا كان الإصطلاح من هاتين

---

(١) قدم الأستاذ الدكتور فيشر الألمانى إلى المجمع بعض جذاذات من معجمه هذا . وقد ظهر من بحث هذه النماذج أن مؤلفها قد عنى بناحية هامة أغفلها أصحاب المعجمات من قبله ، وهى تعقب الكلمة فى مختلف العصور والأمكنة وبيان ما اعتورها من تطور فى مدلولها وأصواتها ، والموازنة بين الأصل العربى ونظائره فى اللغات السامية الأخرى ، وأنه بذلك سيسد فراغا كبيراً فى متون اللغة العربية (انظر فقرة متون اللغة العربية صفحتى ٢٧٤ ، ٢٧٥) .

(٢) انظر الجزء الثالث من المجلة ص٣٢ . وقد ألغى هذا القرار بقرار سمح فيه للدكتور فيشر بالانفراد بالاشراف على طبع معجمه (انظر قرارات الدورة الخامسة من ١٨ / ١٢ / ٣٧ إلى ٢٧ / ١ / ٣٨ بصفحة ٩ من الجزء الخامس من مجلة المجمع) .

اللغتين ، أو الإنجليزية والفرنسية معاً ، ويضاف إلى كل مادة الاصطلاح المستعمل فى بلاد الشرق الأخرى ، كسوريا والعراق والمغرب . وكلما أنجز الموظفون قسما ، أرسل إلى كل عضو من حضرات أعضاء المجمع بالخارج ومصر ، ليبدى ما يعن له من الملحوظات أو الإصطلاحات أفراداً ولجانا ، ويرسل بها إلى المجمع ، ثم تطبع هذه الملحوظات جميعاً ، وتعرض على المجمع عند انعقاده ، لإصدار قراراته فيها[1] » .

٣ — تأليف « معجم لغوى وسيط سهل التناول ، ميسر الترتيب ، مصور ، بحيث يتناول من المصطلحات العلمية الصحيحة ، ما يتعلق بالأسباب الدائرة بين الناس » . وقد قرر المجمع « الشروع فى اتخاذ الأسباب للقيام بهذا العمل وأن يعهد إلى لجنة بالشروع فى تحقيقه ، مع رجاء حضرات أعضاء المجمع أن يقدموا اقتراحاتهم فى شأن هذا المعجم لرياسة المجمع ليطلع عليها حضرات أعضاء تلك اللجنة للاستعانة بهم فى وضع مشروعهم على أكمل وجه ممكن[2] » .

ولم يظهر إلى الآن أى معجم من هذين المعجمين الأخيرين .

و (ثالثها) البحث فى قواعد اللغة العربية والعمل على تيسيرها ، وتحرير أصولها الصرفية وغيرها وتوسيع دائرة أقيستها لتكون أداة سهلة للتعبير . ولهذه الغاية أنشئت « لجنة الأصول العامة » .

وقد أصدر المجمع بهذا الصدد قرارات هامة وثيقة الصلة ببحوث فقه اللغة العربية . ولذلك دعت الحاجة إلى دراسة بعض هذه القرارات أو الإشارة إليها فى كثير من فصول هذا الكتاب[3] . وسنذكر فيما يلى أهم ما لم تدع مناسبة لذكره منها فيما سبق :

---

(١) انظر الجزء الثالث من مجلة المجمع صفحتى ٣٢ ، ٣٣ .
(٢) انظر الجزء الثالث من مجلة المجمع ص ٣٤ .
(٣) انظر صفحات ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٧—٢١٥ ، ٢٤٥ — ٢٤٧ .

١ — « قرار التضمين : التضمين أن يؤدى فعل أو ما فى معناه فى التعبير مؤدى فعل آخر أو ما فى معناه ، فيعطى حكمه فى التعدية واللزوم . ومجمع اللغة العربية الملكى يرى أنه قياسى لا سماعى ، بشروط ثلاثة : الأول تحقق المناسبة بين الفعلين ؛ والثانى وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر ويؤمن معها اللبس ؛ والثالث ملاءمة التضمين للذوق العربى . — ويوصى المجمع ألا يلجأ إلى التضمين إلا لغرض بلاغى [١] » .

٢ — « قرار النسبة إلى جمع التكسير : المذهب البصرى فى النسب إلى جمع التكسير أن يرد إلى واحده ، ثم ينسب إلى هذا الواحد . ويرى المجمع أن ينسب إلى لفظ الجمع عند الحاجة كإرادة التمييز أو نحو ذلك [٢] . »

٣ — « قرار جمع الكلمات التى لم تسمع جموعها : يرى المجمع أن الكلمة التى لم يسمع لها جمع فى اللغة يختار لها صيغة جمع القلة الذى يطرد فى وزنها ، وإذا وجد لها صيغتان مع التساوى فى القوة أختيرا معاً . وعند التفاوت فى القوة يختار جمع واحد هو أقواها ، ويكتفى بجمع واحد فى المصطلحات العلمية أياً كان [٣] » .

(ورابعتها) تنظيم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية ولهذه الغاية أنشئت لجنة اللهجات .

ولم ينشر بعد فى صورة رسمية أى بحث من بحوث هذه اللجنة [٤] .

---

(١) انظر الجزء الأول من مجلة المجمع صفحات ٣٣ ، ١٨٠ — ١٩٩ .

(٢) انظر الجزء الثاني من مجلة المجمع صفحات ٣٥ ، ٤٥ ، ٥٠ .

(٣) انظر الجزء الرابع من مجلة المجمع ص ١ وصفحة ١٧٤ وتوابعها .

(٤) نشر لبعض أعضاء المجمع وغيرهم فى القسم غير الرسمى من المجلة بعض مقالات فى هذه الناحية من أهمها : « اللهجة العربية العامية » (للأستاذ عيسى اسكندر المعلوف عضو المجمع : الجزء الأول ٣٥٠ — ٣٦٨ والجزء الثالث ٣٤٩ — ٣٧١) ؛ و « دراسة فى اللهجة المصرية » (للأستاذ الشيخ عبد القادر المغربى عضو المجمع : الجزء الثالث ص ٢٩٠ — ٣٠١) ؛ و « اللهجة العامية فى لبنان وسورية » (للأستاذ عيسى اسكندر المعلوف عضو المجمع : الجزء الرابع ص ٢٩٤ — ٣١٥) .

(وخامستها) تيسير الكتابة العربية . وقد رصد المجمع جائزة قدرها ألف جنيه لأحسن مقترح يمكن الأخذ به فى تيسير الكتابة العربية .

وقد قدمت إليه عدة اقتراحات فى هذا الصدد ، ولكنه لم يبت فيها بعد برأى قاطع .

(وسادستها) تشجيع الإنتاج الأدبى . وقد قرر المجمع فى هذا الصدد أن تؤلف اللجنة العامة للأدب ثلاث لجان فرعية : إحداها للشعر ؛ وثانيتها للقصة والرواية (نثراً وشعراً) ؛ وثالثتها للمقالات والبحوث الأدبية . وتقوم كل لجنة فرعية بتقصى الإنتاج الأدبى فى الفرع الذى أسند إليها . وتقدم كل سنة تقريراً بملاحظاتها يشتمل على سير الحركة الأدبية فى مصر والعالم العربى فى هذا الفرع طوال العام وعلى ما يمكن أن يكون ممتازاً من هذا الإنتاج امتيازاً يقتضى تشجيعاً مادياً أو أدبياً . وتدرس اللجنة العامة تقارير اللجان الفرعيه وتعرض تقريرها على المجمع الذى يصدر قرارات نهائية مسببة ينوه فيها بما استحق التنويه وما استحق جائزة مادية من الآثار الأدبية . وتستوعب هذه الجوائز نصف الاعتماد المقرر سنوياً للتشجيع الأدبى . وأما الثانى فيخصص لجائزتين يمنحهما الأول والثانى فى مختلف الفروع التى يطلب المجمع سنوياً إلى الأدباء المسابقة فيها[١] .

(وسابعتها) إصدار مجلة يسجل فيها ما تقره هيئة المجمع بصدد الشئون السابقة وينشر فيها كذلك ما يقترحه الأعضاء وغيرهم وما يقومون به من بحوث فى مختلف نواحى اللغة العربية . وقد أنشىء للإشراف على تحرير هذه المجلة لجنة خاصة (لجنة المجلة) تتألف من بعض أعضاء المجمع .

وقد صدر من هذه المجلة بضعة أجزاء يشتمل بعضها على قسمين : قسم رسمى

---

(١) انظر الجزء الخامس من مجلة المجمع صفحتى ١٩٤ ، ١٩٥ .

هذا ، وقد صدر بالأعمال المنوه عنها فى هذه الفقرة وفى الفقرة السابقة لها (تيسير الكتابة العربية وتشجيع الإنتاج الأدبى) القرار الوزارى الخاص الذى أشرنا إليه فيما سبق (انظر ص ٢٨٦).

يتضمن قرارات المجمع فى الشئون السابقة وشرح هذه القرارات والاحتجاج لها ؛ وقسم غير رسمى يتضمن ما يقدمه الأعضاء وغيرهم من اقتراحات وينشرونه من بحوث . وقد ظهر بهذا القسم الأخير فى فقه اللغة العربية ومتنها وأدبها مقالات قيمة أشرنا إلى بعضها فى كثير من فصول هذا الكتاب[1] .

* * *

وفى عهد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول سمى هذا المجمع باسم « مجمع فؤاد الأول للغة العربية[2] » تخليداً لذكرى منشئه العظيم ، وزيد عدد أعضائه من عشرين إلى أربعين وزادت اعتماداته المالية ، ووسعت سبل إنتاجه ، فاستكمل بذلك عدته ، وزادت قدرته على تحقيق ما علق به آمال .

انتهت طبعته الثالثة فى { ربيع الآخر ١٣٦٩ هـ / فبراير ١٩٥٠ م }

---

(١) انظر التعليق الثاني بصفحة ٢٢٤ وتكملته بصفحة ٢٢٥ . والتعليقات الواردة فى فقرات : المجاز والكناية والنقل ؛ والدخيل والمعرب والمولد ، وتعريب الأساليب واللهجات العامية . ومن أهم المقالات التى لم تدع مناسبة للاشارة إليها فيما سبق ؛ « الترادف » للمغفور له الأستاذ على الجارم بك عضو المجمع (الجزء الأول ص ٣٠٣ وتوابعها) ؛ و « تيسير الهجاء العربي » للمغفور له الأستاذ الشيخ أحمد الاسكندرى (الجزء الأول ص ٣٦٩ وتوابعها) ؛ « بحث فى علم الاشتقاق » لعبد الله أفندى أمين (الجزء الأول صفحة ٣٨١ وتوابعها) ؛ و « سبيل الاشتقاق بين القياس والسماع » للمغفور له الأستاذ الشيخ حسين والى (الجزء الثاني صفحة ١٩٥ وتوابعها) ؛ و « الاشتقاق الكبير » للأستاذ الشيخ ابراهيم حمروش (الجزء الثاني صفحة ٢٤٥ وتوابعها) ، و « لهجات عربية شمالية قبل الإسلام » للأستاذ ليتمان (الجزء الثالث صفحة ٢٤٧ وتوابعها) ؛ و « بعض اصطلاحات يونانية فى اللغة العربية » للأستاذ بندلى جوزى بجامعة باكو (الجزء الثالث صفحة ٣٣٠ وتوابعها) ؛ و «المصادر التى لا أفعال لها» للمغفور له الأستاذ على الجارم بك (الجزء الرابع صفحة ٢٢٥ وتوابعها) ؛ و «المترادف فى اللغة العربية » للشيخ محمد الطاهر شيخ الإسلام فى تونس (الجزء الرابع صفحة ٢٤١ وتوابعها) ؛ و « بحث فى الطرق التى سلكها العرب عند اشتقاقهم الأفعال من أسماء الأعيان » للأستاذ عبد الله أمين (الجزء الرابع صفحة ٣٢٨ وتوابعها) .

(٢) أنظر المرسوم الصادر فى ١١ جمادى الثانية ١٣٥٧ الموافق ٧ أغسطس ١٩٣٨ .

تلخيص وتنظيم لموضوعات اللغة العربية

ترجع جميع المسائل التى درسناها فى اللغة العربية الباقية إلى الموضوعات الأربعة الآتية :

الموضوع الأول

حياة اللغة العربية

ويدخل فى ذلك نشأتها؛ وصراع لهجاتها بعضها مع بعض وتغلب لغة قريش؛ ومجىء القرآن والأدب الجاهلى بلغة قريش ؛ ونهضة لغة قريش وعوامل هذه النهضة ؛ وأثر القرآن والحديث والإسلام فى اللغة العربية ؛ واللهجات العربية بعد تغلب لغة قريش ؛ واحتكاك العربية بأخواتها السامية وغيرها وآثار ذلك ؛ وتفرع العربية إلى لهجات عامية ؛ ولغة الكتابة العربية أو اللغة الفصحى وتطورها وما استقرت عليه فى العصر الحاضر ؛ ومشكلة الازدواج بين العامية والفصحى .

وقد عالجنا هذه المسائل فى صفحات ١٠٤ — ١٢٨ ؛ ١٤٢ — ١٧١ .

الموضوع الثانى

عناصر اللغة العربية

وترجع عناصر أية لغة إلى أمرين: الصوت ؛ والدلالة . — وتتكون الدلالة من : معانى المفردات ؛ وقواعد التنظيم (النحو) ؛ وقواعد البنية (الصرف) ؛ وقواعد الأسلوب (البلاغة) . فينقسم هذا الموضوع إذن إلى المسائل الآتية :

(١) الصوت . ويدخل فى ذلك طبيعة أصوات اللغة العربية ومخارجها وصفاتها . — (وقد عالجنا هذه المسائل فى السطور ١٥ — ١٨ من ص ١٢٨ وفى صفحات ١٩١ — ١٩٤) .

(٢) المفردات ومعانيها . ويدخل فى ذلك : كثرة المفردات العربية ومترادفاتها ؛

والدخيل ؛ والمولد ؛ والمشترك ؛ والتضاد ؛ والنحت ؛ والعلاقة بين أصوات الكلمة ومعانيها . — (وقد عالجنا هذه المسائل فى السطور الخمسة الأولى من ص ١٢٩ وفى صفحات ١٣٦ — ١٤٢ ؛ ١٩٤ — ٢٠٧ ؛ ٢١٥ — ٢٢٤ ؛ ٢٣٧ — ٢٤٧) .

(٣) قواعد التنظيم أو النحو . ويدخل فى ذلك الكلام على خواص هذه القواعد ووظائفها وعلى الإعراب واختلاف الآراء بصدده . — (وقد عالجنا هذه المسائل فى السطور الأربعة الأخيرة من ص ١٢٨ وفى صفحات ١٢٩ — ١٣٦) .

(٤) قواعد البنية أو الصرف . ويدخل فى ذلك الكلام على خواص هذه القواعد ووظائفها وعلى اختصاص بعض الأوزان العربية بالدلالة على أمور خاصة . (وقد عالجنا هذه المسائل فى السطور الأربعة الأخيرة من ص ١٢٨ وفى السطور الثمانية الأخيرة من صفحة ١٢٩ وفى السطرين الأولين من ص ١٣٠ وفى صفحات ٢٠١ — ٢١٥) .

(٥) قواعد الأسلوب أو البلاغة . ويدخل فى ذلك الكلام على المجاز والكناية والنقل واستخدام الجمل فى غير أبوابها ؛ وأساليب اللغة العربية واختلافها باختلاف الموضوعات ، وتعريب الأساليب . — (وقد عالجنا هذه المسائل فى صفحات ٢٢٥ — ٢٣٦ ؛ ٢٤٨ — ٢٥٤) .

الموضوع الثالث

كفاية اللغة العربية

وقد عالجنا هذا الموضوع فى صفحات ٢٧٦ — ٢٨٢ .

الموضوع الرابع

صيانة اللغة العربية ورسمها وضبط قواعدها وتخليد آثارها وإشاعة استعمالها

ويدخل فى ذلك الرسم العربى وتاريخه ومراحله وعيوبه ووجوه إصلاحه ؛ والتأليف فى قواعد اللغة العربية وآدابها وفقهها ؛ ومتون اللغة العربية ؛ ومجمع فؤاد الأول للغة العربية . — (وقد عالجنا هذه الموعات فى صفحات ١٧٢ — ١٩١ ؛ ٢٥٤ — ٢٧٦ ؛ ٢٨٢ — ٢٩١) .

أهم المراجع (١)

أولا — أهم المراجع العربية

١ — ابن الأثير (المبارك بن محمد بن محمد الجزرى) النهاية فى غريب الحديث
٢ — ابن الجوزى (أبو الفرج) غريب الحديث (وهو أحد مصادر كتاب الغريبين للهروى المذكور برقم ١١٦) .
٣ — ابن الجوزى (أبو الفرج) لحن العامة .
٤ — ابن الخراط (عبد الحق الأشبيلى) معجم غريبى القرآن والحديث فى ٢٥ جزءاً
٥ — ابن السكيت (يعقوب الجحى) كتاب الألفاظ .
٦ — ابن جنى (أبو الفتح عثمان) الخصائص .
٧ — ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) المقدمة
٨ — ابن خلكان (أحمد بن محمد بن إبراهيم) وفيات الأعيان .
٩ — ابن دريد (محمد بن الحسن) جمهرة الكلام . طبع فى الهند .
١٠ — ابن دريد الملاحن (فى الكلمات التى تنصرف إلى معنى ولها فى اللغة معنى آخر أراده المتكلم) .
١١ — ابن رشيق (أبو على الحسن بن رشيق القيروانى) العمدة
١٢ — ابن سلام (أبو عبد الله محمد بن سلام) طبقات الشعراء .
١٣ — ابن سيدة (على بن إسماعيل) المخصص
١٤ — ابن سيدة (على بن إسماعيل) المحكم . منه أجزاء بدار الكتب
١٥ — ابن سينا (الرئيس أبو على الحسين) أسباب حدوث الحروف . مطبوع
١٦ — ابن عبد ربه (أحمد بن محمد) العقد الفريد

(١) لم نقتصر فى هذا الثبت على الكتب التى رجعنا إليها ، بل ذكرنا أهم المراجع فى موضوعنا وما يتصل به . وقد استعنا فى هذا الباب بصديقنا الأستاذ الفاضل محب الدين الخطيب ، واقتبسنا طائفة كبيرة من أهم المراجع الخاصة باللغات العامية من بحث قيم للأستاذ عيسى اسكندر المعلوف نشره فى الجزء الأول من مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية تحت عنوان « اللهجة العربية العامية » . وللاحاطة بجميع ما كتب فى هذا الموضوع ينبغى الرجوع إلى هذا البحث.

١٧ — ابن فارس (أبو الحسين أحمد) الصاحبي فى فقه اللغة

١٨ — ابن فارس (أبو الحسين أحمد) المجمل (معجم لغوى) طبع الجزء الأول منه ؛ ومقاييس اللغة (معجم لغوى كذلك) تنشره دار إحياء الكتب العربية .

١٩ — ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) غريب اللغة . منه نسخة بدار الكتب الظاهرية بدمشق رقم ٢٣ لغة .

٢٠ — ابن قتيبة مشكل القرآن . منه نسخة فى مكتبة كوپريلى بالقسطنطينية وأخرى بمكتبة ليدن .

٢١ — ابن قتيبة إصلاح غريب أبى عبيد (المذكور برقم ٢٩)

٢٢ — ابن قتيبة أدب الكاتب

٢٣ — ابن كمال باشا رسالة التعريب

٢٤ — ابن كمال باشا غلطات العوام

٢٥ — ابن مطرف الكنانى كتاب القرطين (جمع فيه بين كتابى ابن قتيبة : غريب اللغة ومشكل القرآن) منه نسخة نفيسة بالخزانة التيمورية رقم ٥٩ لغة

٢٦ — ابن منظور (جمال الدين بن مكرم) لسان العرب

٢٧ — ابن هشام (عبد الملك الحميرى المعافرى) السيرة النبوية

٢٨ — أبو البقاء (الحسينى الكفوى) الكليات

٢٩ — أبو عبيد (القاسم بن سلام) الغريب المصنف . منه نسخة بدار الكتب المصرية رقم ١٢١ لغة

٣٠ — أبو عبيدة (معمر بن المثنى) غريب الحديث والأثر

٣١ — أبو عبيدة (معمر بن المثنى) لحن العامة

٣٢ — أحمد تيمور باشا معجم اللغة العامية (مخطوط بالخزانة التيمورية) وقد نشر بعض نماذج منه بمجلة المجمع العلمى العربى بدمشق، فى المجلد السادس.

٣٣ — أحمد تيمور باشا   الأمثال العامية طبع سنة ١٩٤٩

٣٤ — أحمد تيمور باشا   الكنايات العامية طبع سنة ١٩٤٩

٣٥ — أحمد عيسى (الدكتور) التهذيب فى أصول التعريب

٣٦ — الأزهرى (محمد بن أحمد بن الأزهر)   تهذيب اللغة . منه نسخة
بدار الكتب المصرية رقم ٩ لغة

٣٧ — الأسكافى (محمد بن عبد الله)   مبادىء اللغة

٣٨ — الأصفهانى (أبو الفرج على بن الحسين)   كتاب الأغانى

٣٩ — الأصمعى (عبد الملك بن قريب)   غريب الحديث (أنظر كذلك
رسائله فى طوائف خاصة من الألفاظ والمعانى بصفحة ٢٦١)

٤٠ — الألوسى (شهاب الدين الألوسى البغدادى المتوفي ١٨٥٤) كشف
الطُرة عن الغرة (شرح على درة الغواص للحريرى المذكور تحت رقم ٦١)

٤١ — الأنبارى (أبو بكر محمد القاسم) كتاب الأضداد

٤٢ — البدراوى (حسن على) عجالة فى مرادف العامى والمحرف والدخيل

٤٣ — البستانى (بطرس)   محيط المحيط

٤٤ — البستانى (بطرس)   قطر المحيط

٤٥ — اليستانى (بطرس)   دائرة المعارف

٤٦ — البستانى (عبد الله)   البستان

٤٧ — البشبيشى (المتوفى سنة ٨٢٠ هـ) التذييل والتكميل لما استعمل من اللفظ الدخيل

٤٨ — البغدادى (عبد القادر)   خزانة الأدب

٤٩ — التبريزى (يحيى بن على) تهذيب كتاب الألفاظ لابن السكيت (المذكور برقم ٥)

٥٠ — التهانوى (محمد على بن على)   كشاف اصطلاحات الفنون

٥١ — التيانى (تمام بن غالب)   الموعب (معجم لغوى)

٥٢ — الثعالبى (أبو منصور عبد الله بن محمد)   فقه اللغة

٥٣ — الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) البيان والتبيين

٥٤ — الجوجانى (على بن محمد) التعريفات

٥٥ — الجزائرى (الشيخ طاهر) التقريب إلى أصول التعريب

٥٦ — الجزائرى شرح مقدمة السكاكى فى اللغة

٥٧ — الجواليقى (أبو منصور موهوب بن أحمد) المعرب من الكلام الأعجمى طبعته أخيراً « دار الكتب المصرية » فى مجلد يقع فى ٤٥٦ صفحة من القطع الكبير مع بعض شروح وتعليقات للأستاذ أحمد محمد شاكر

٥٨ — الجواليقى (أبو منصور موهوب بن أحمد) التكملة فيما تلحن به العامة

٥٩ — الجوهرى (إسماعيل بن حماد) الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)

٦٠ — الحربى (إبراهيم بن إسحاق) غريب الحديث

٦١ — الحريرى (القاسم بن على) درة الغواص فى أوهام الخواص

٦٢ — الحلبى (محمد النهالى) الطراز المذهب فى الدخيل المعرب

٦٣ — الخفاجى (شهاب الدين أحمد بن محمد) شفاء العليل فيما ورد فى كلام العرب من الدخيل

٦٤ — الخليل بن أحمد العين

٦٥ — الدسوقى (محمد على) تهذيب الألفاظ العامية

٦٦ — الدمشقى (محمد الأمين المحبى) قصد السبيل ، فيما فى العربية من الدخيل

٦٧ — الدينورى (أبو حنيفة أحمد بن داود) لحن العامة

٦٨ — الرازى (محمد بن أبى بكر بن عبد القادر) مختار الصحاح

٦٩ — الراغب الأصفهانى (الحسين بن محمد بن الفضل) مفردات غريب اللغة

٧٠ — الزبيدى (أبو بكر محمد بن الحسن) مختصر العين

٧١ — الزبيدى (أبو بكر محمد بن الحسن) لحن العامة

٧٢ — الزمخشرى (أبو القاسم محمود) أساس البلاغة

٧٣ — الزمخشرى الفائق فى غريب اللغة

٧٤ — السجستانى (سهل بن محمد) غريب القرآن

٧٥ — السجستانى (سهل بن محمد) لحن العامة

٧٦ — السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها

٧٧ — الشدياق (أحمد فارس) سر الليال فى القلب والإبدال

٧٨ — الشدياق (أحمد فارس) الجاسوس على القاموس

٧٩ — الشرتونى (سعيد) أقرب الموارد فى فصح العربية والشوارد

٨٠ — الشيبانى (إسحاق بن مراد) كتاب الجيم (معجم لغوى)

٨١ — الصاحب بن عباد المحيط (معجم لغوى) فى دار الكتب المصرية
المصرية رقم ٤٢ لغة الجزء الثالث منه

٨٢ — الصباغ (ميخائيل الصباغ السورى المتوفى سنة ١٨١٦) الرسالة التامة ، فى كلام العامة

٨٣ — الصباغ (ميخائيل الصباغ السورى المتوفى سنة ١٨١٦) اللغة العربية العامية فى مصر والشام

٨٤ — الصغانى (الحسن بن محمد) العباب (معجم لغوى) الجزء الأول منه بدار الكتب المصرية رقم ١٤١ لغة

٨٥ — الصغانى التكملة والذيل والصلة (تكملة الصحاح)

٨٦ — الصغانى مجمع البحرين منه نسخة بدار الكتب المصرية

٨٧ — الطنطاوى (محمد بن عياد المتوفى سنة ١٨٧١) رسائل فى العربية العامية

٨٨ — العسكرى (أبو هلال حسن بن عبد الله) المعجم فى بقية الأشياء

٨٩ — العسكرى (أبو هلال حسن بن عبد الله) كتاب الصناعتين

٩٠ — العسكرى (أبو هلال حسن بن عبد الله) لحن الخاصة

٩١ — الفارابى (إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم) الجامع لديوان الأدب بدار الكتب المصرية رقم ٢٥ لغة

٩٢ — الفتنى (محمد طاهر بن على الصديقى الهندى) مجمع بحار الأنوار مطبوع بالهند

٩٣ — الفغالى (ميخائيل) لهجة أهـل كفر عبيدا (قرية لبنانية) طبع باريس سنة ١٩١٩

٩٤ — الفغالى (ميخائيل) درس فى سريانية لبنان وعربيته العامية ، طبع باريس سنة ١٩١٨

٩٥ — الفيروزابادى (محمد بن يعقوب) الروض المألوف فيما له اسمان إلى ألوف

٩٦ — الفيروزابادى القاموس المحيط

٩٧ — الفيومى (أحمد بن محمد بن على المقرى) المصباح المنير

٩٨ — القالى (أبو على) الأمالى وذيل الأمالى والنوادر

٩٩ — القالى البارع فى اللغة

١٠٠ — القزاز (محمد بن جعفر التميمى) الجامع (معجم لغوى)

١٠١ — الكرملى (انستاس) مجلة لغة العرب

١٠٢ — الكسائى (أبو الحسن حمزة) لحن العامة

١٠٣ — الكلبى (محمد بن جزى) الفوائد العامة ، فى لحن العامة

١٠٤ — اللخمى (ابن هشام محمد بن أحمد) لحن العامة

١٠٥ — المازنى (أبو عثمان بكر بن محمد) لحن العامة

١٠٦ — المعلوف (عيسى اسكندر) اللغة العربية العامية وآدابها (نشر فى عدة أجزاء من جريدة المنار البيروتية سنة ١٨٩٨ م)

١٠٧ — المغربى (الشيخ عبد القادر المغربى) الاشتقاق والتعريب

١٠٨ — المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) كتاب الكامل فى اللغة والأدب

١٠٩ — المبرد غريب الحديث

١١٠ — المبرد ما اتفق لفظه واختلف معناه من كتاب الله عز وجل

١١١ — المدينى (محمد بن أبى بكر الأصفهانى) استدراك مافات الهروى فى الغريبين (المذكور تحت رقم ١١٦)

١١٢ — المطرزى المغرب (معجم لغوى) طبع فى الهند

١١٣ — النجفي مجمع البحرين ومطلع النيرين . معجم لغوى مطبوع
١١٤ — النضر بن شميل غريب الحديث
١١٥ — النووى (محيي الدين) تهذيب الأسماء واللغات . مطبوع
١١٦ — الهروى (أبو عبيد أحمد بن محمد) كتاب الغريبين
١١٧ — الهمذاني (عبد الرحمن بن عيسى) الألفاظ الكتابية
١١٨ — اليازجى (إبراهيم) نجعة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتوارد
١١٩ — اليازجى مجلة الضياء
١٢٠ — اليازجى (الشيخ خليل المتوفى سنة ١٨٨٩) الصحيح ، بين العامى والفصيح
١٢١ — الياس بقطر القبطى معجم فى اللغات العامية لمصر والشام والمغرب وتونس (طبع فى مصر سنة ١٨٧٢)
١٢٢ — ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى) غريب الحديث
١٢٣ — ثعلب الفصيح
١٢٤ — جرجى زيدان الفلسفة اللغوية
١٢٥ — جرجى زيدان تاريخ اللغة العربية
١٢٦ — جرجى زيدان تاريخ آداب اللغة العربية
١٢٧ — حسن توفيق (المتوفى سنة ١٨٩٩) أصول الكلمات العامية
١٢٨ — حسين فتوح ومحمد على عبد الرحمن الدرر السنية ، فى الألفاظ العامية وما يرادفها من الفصحى
١٢٩ — حفنى ناصف تاريخ الأدب
١٣٠ — حفنى ناصف مميزات لغات العرب وتخريج اللغات العامية عليها
١٣١ — حمزة فتح الله المعرب من ألفاظ القرآن الكريم
١٣٢ — حمزة فتح الله الترجمة والتعريب (خطاب ألقاه فى المجمع العلمى بفينا سنة ١٨٨٦)

١٣٣ — حمزة فتح الله   المواهب الفتحية

١٣٤ — خسرو زادة   (مصطفى بن محمد) غلطات العوام

١٣٥ — طه حسين   الأدب الجاهلى

١٣٦ — على العنانى ومحمد عطية الإبراشى وليون محرز   كتاب الأساس فى الأمم السامية ولغاتها وقواعد اللغة العبرية وآدابها

١٣٧ — على العنانى ومحمد عطية الإبراشى وليون محرز   كتاب المفصل فى قواعد اللغة السريانية وآدابها والموازنة بين اللغات السامية

١٣٨ — على عبد الواحد وافى   علم اللغة

١٣٩ — قطرب (محمد بن المستنير)   غريب الحديث

١٤٠ — لويس شيخو (الأب)   حقوق اللغة العامية بإزاء اللغة الفصيحة

١٤١ — مجلة الزهراء   لمنشئها الأستاذ محب الدين الخطيب

١٤٢ — مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق

١٤٣ — مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية

١٤٤ — محب الدين الخطيب   اتجاه الموجات البشرية فى جزيرة العرب

١٤٥ — محب الدين الخطيب   الحديقة

١٤٦ — مرتضى الزبيدى   تاج العروس فى شرح القاموس

١٤٧ — مرمرجى الدومنكى (الأب)   هل العربية منطقية ؟

١٤٨ — معلوف (الأب لويس)   المنجد (معجم لغوى)

١٤٩ — مؤرج السدوسى   غريب القرآن

١٥٠ — نشوان الحميرى   شمس العلوم (معجم لغوى و بحوث فى اللغة والأدب) الجزء الأول منه بدار الكتب المصرية رقم ٣٠ لغة ومنه نسخة فى طنطا

١٥١ — همام (جرجس الشويرى)   معجم الطالب

١٥٢ — ولفنسن . (الدكتور اسرائيل) تاريخ اللغات السامية

١٥٣ — ياقوت   معجم الأدباء

ثانيا — أهم المراجع الافرنجيه

1. Bauer—Leander : Historische Gram. d'Hebräischen Sprache.
2. Brockelmann : Grundriss der vergleicheden Grammatik der Semitischen Sbrachen.
3. Brockelmann : Précis de Linguistique Sémitique «trad. fr.»
4. Chabot : Les Langues Araméennes.
5. Clodd : Story of the Alphabet « New york »
6. Cooke : North semitic inscriptions.
7. Cowley : The Origin of the Semitic alphabet (ext. the Journal of egyptian archaeology).
8. Darmesteter : La Vie des Mots.
9. Dauzat : La Philosophie du Langage.
10. Dauzat : La Vie du Langage.
11. Delitzch : Assyrische Grammatik.
12. De Sacy : Gammaire Arade.
13. Dillmann : Grmmatik der äthiopischen Sprache.
14. Dussaud : Les Arabes en Syrie Avant l'Islam.
15. Encyclopédie de l'Islam.
16. Gardiner (Allan H.) The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet.
17. Gies. Untersuchungen über die addàd auf grund von Stellen in Allarabischen Dichtern.
18. Guidi : Della Sede dei popoli sem.
19. Hermann — Paul : Etudes sur les changements phonétiques
20. Jahn : Die Mehri Sprache.
21. King : Assyrian Language.
22. Larousse du 20ème Siècle.
23. Littman : Nabatean Inscriptions.
24. Littman : Thamudenische Inschriften.
25. Littman : Semitic Inscriptions.
26. Littman : Safa Inschriften.
27. Meillet : Comment les mots changent de sens (dans l'Année Sociologique. T—IX, P. P. 3-33).
82. Meillet : Linguistique Historique et Linguistique générale

29. Meillet et Cohen (groupe de linguistes sous la direction de Meillet et Cohen) : Les Langues du Monde.

30. Noldek : Die Semitischen Sprachen.

31. Praetorius : Die Amharisch Sprache.

32. Redslop . Die Arabischen Wörer mit en tgegengesetzten Bedeutungen.

33. Renan . Histoire généra le des Langues Sémitiques.

34. Renan : L'Origine du Langage.

35. Rousselot : Les Modifications Phonétiques du Langage,

36. Sottas (Henri) Une Nouvelle théorie sur L'Origine égyptienne de l'alphabet sémitique.

37. Vannier . L'Esprit et les Mœurs d'une nation d'après sa Langue.

38. Wright. Lectures on the comparative grammar of the Semitic Languagages.

39. Zimmern : Vergleichend Grmmatik der Semitischen.

(اســـتدراك)

فى السطر الثانى من التعليق الأول بصفحة ٢٠ اقرأ : انظر الفقرة ٢٣

فى السطر الحادى عشر من صفحة ١٠٢ اقرأ : فى الفقرة التاسعة عشرة

فى السطر العاشر من صفحة ١٧٤ . اقرأ : المشدد والمخفف

فى السطر الثالث عشر من صفحة ١٨٩ اقرأ : تحصران بينهما الجملة المعترضة فيستبدل بهما القوسان

فى السطر الثالث عشر من صفحة ٢٧٦ اقرأ : الذى تحولوا إليه

فى السطر السادس قبل الأخير من صفحة ٢٧٩ اقرأ : ولقد قيل إنها لغة حساب القبر

الفهرس